﴿وأشهد﴾ أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ولاسمي له ولا كفوله ولا صاحبة له ولا ولد له ولا شبيه له ولا يحصى أحد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه خلقه شهادة من أصبح قلبه بالايمان بالله وأسمائه وصفاته مبتهجا ولم يزغ الى شبه الجاحدين المعطلين معرجا *

﴿وأشهد﴾ أن محمدا عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه وسفيره بينه و بين عباده ،أرسله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين ، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به الى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه ، وسد الى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه فشرح له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره فهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة وكثر به بعد القلة وأعز به بعد الذلة وأغنى به بعد العيلة وبصر به من العمى وأرشد به من الغي وفتح برسالته أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد فى الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين ، فلم يدع خيرا إلا دل أمته عليه ولا شرا إلا حذر منه ونهى عن سلوك الطريق الموصلة اليه ، ففتح القلوب بالايمان والقرآن وجاهد أعداء الله باليد والقلب واللسان ، فدعا الى الله على بصيرة وسار فى الأمة بالعدل والاحسان وخلقه العظيم أحسن سيرة الى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت به القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته سير الشمس فى الأقطار وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار واستجابت لدعوته الحق القلوب طوعا وإذعانا وامتلأت بعد خوفها وكفرها أمنا وإيمانا فجزاه الله عن أمته أفضل الجزاء وصلى عليه صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء وسلم تسليما كثيرا *

﴿أما بعد﴾ فان الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم لربوبيته واختصهم بنعمته وفضلهم على سائر خليقته فهي كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها فكذلك شجرة الايمان أصلها ثابت في القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح في السماء فلا تزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كل وقت باذن ربها من طيب القول وصالح العمل ما تقر به عيون صاحب الأصل وعيون حفظته وعيون أهله وأصحابه ومن قرب منه فان من قرت عينه بالله سبحانه قرت به كل عين وأنس به كل مستوحش وطاب به كل خبيث وفرح به كل حزين وأمن به كل خائف وشهد به كل غائب وذكرت رؤيته بالله فاذا رؤى ذكر الله فاطمأن قلبه الى الله وسكنت نفسه الى الله وخلصت محبته لله وقصر خوفه على الله وجعل رجاءه كله لله فان سمع سمع بالله وإن أبصر أبصر بالله وإن بطش بطش بالله وإن مشى مشى بالله فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي (١) فاذا أحب فلله واذا أبغض فلله واذا أعطى فلله واذا منع فلله قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه، واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه وقائده وسائقه، فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه وأفرد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه، وله في كل وقت هجرتان ؛ هجرة الى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والانابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والاقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار في كل نفس اليه ؛ وهجرة الى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب الله ومرضاته ولا يقبل الله من أحد دينا

---

(١) يشير الى الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة

سواه وكل عمل سواه فعيش النفس وحظه لا زاد المعاد، وقد قال شيخ الطريقة وامام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبي صلى الله عليه وءاله وسلم فان الله عز وجل يقول: « وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » وقال بعض العارفين: كل عمل بلا متابعة فهو عيش النفس، ولما كانت السعادة دائرة نفيا وإثباتا مع ماجاء به كان جدير بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفا على معرفته وارادته مقصورة على محابه، وهذا أعلى همة شمر اليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون فلاجرم ضمناهذا الكتاب قواعد من سلوك الهجرة المحمدية ، وسميناه ﴿ طريق الهجرتين وباب السعادتين ﴾ *

وابتدأناه بباب الفقر والعبودية اذ هو باب السعادة وطريقها الأقوم الذى لا سبيل الى دخولها الا منه وختمناه بذكر طبقات المكلفين من الجن والانس فى الآخرة ومراتبهم فى دار السعادة والشقاوة فجاء الكتاب غريبا فى معناه عجيبا فى مغزاه لكل قوم منه نصيب ولكل وارد منه مشرب وما كان فيه من حق وصواب فمن الله هو المنان به فان التوفيق بيده وما كان فيه من زلل فمنى ومن الشيطان والله ورسوله منه براء . فيا أيها القارىء له والناظر فيه هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، هذا فهمه وعقله معروض عليك لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ولك ثمرته وعليه عائدته فان عدم منك حمدا وشكرا فلا يعدم منك عذرا وأن أبيت الا الملام فبابه مفتوح وقد استأثر الله بالثناء وبالحمد وولى الملامة الرجلاء والله المسئول أن يجعله لوجهه خالصا وينفع به مؤلفه وقارءه وكاتبه فى الدنيا والآخرة انه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل*

﴿فصل فى أن الله هو الغنى المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه﴾

قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ الَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فاطر ١٥ بين سبحانه فى هذه الآية أن فقر العباد اليه أمر ذاتى لهم لا ينفك عنهم كما أن كونه غنيا حميدا ذاتى له فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه وفقر من سواه اليه ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا امكان بل هو ذاتى للفقير فحاجة العبد الى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : والفقر لى وصف ذات لازم أبدا كما ان الغنى أبدا وصف له ذاتى فالخلق فقير محتاج الى ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهى أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك إذ ما بالذات لا يعلل فالفقير بذاته محتاج الى الغنى بذاته، فما يذكر من امكان وحدوث واحتياج فهى أدلة على الفقر لا أسباب له ولهذا كان الصواب فى مسئلة علة احتياج العالم الى الرب سبحانه غير القولين اللذين تذكرهما الفلاسفة والمتكلمون فان الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الامكان والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث ، والصواب ان الامكان والحدوث متلازمان وكلاهما دليل الحاجة والافتقار وفقر العالم الى الله سبحانه أمر ذاتى لا يعلل فهو فقير بذاته الى ربه الغنى بذاته ثم يستدل بامكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر ، والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بانها فقيرة اليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غنى حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقا كحقهم من حيث هى، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته

تعالى وحقيقته من حيث هى فيستحيل أن يكون العبد الا فقيرا ويستحيل أن يكون الرب سبحانه الا غنيا كما انه يستحيل أن يكون العبد الا عبدا والرب الا ربا *

اذا عرف هذا فالفقر فقران، فقر اضطرار وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه وهذا الفقر لا يقتضى مدحا ولا ذما ولا ثوابا ولا عقابا بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا ومصنوعا، والفقر الثانى فقر اختيارى هو نتيجة علمين شريفين، أحدهما معرفة العبد بربه، والثانى معرفته بنفسه فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته وتفاوت الناس فى هذا الفقر بحسب تفاوتهم فى هاتين المعرفتين فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق. ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام. ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة. ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شىء ولا يملك شيئا ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شىء البتة فكان فقره فى تلك الحال الى ما به كماله أمرا مشهودا محسوسا لكل أحد ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته وما بالذات دائم بدوامها وهو لم ينتقل من هذه الرتبة الى رتبة الربوبية والغنى بل لم يزل عبدا فقيرا بذاته الى بارئه وفاطره، فلما أسبغ عليه نعمته وأفاض عليه رحمته وساق اليه أسباب كمال وجوده ظاهرا وباطنا وخلع عليه ملابس إنعامه وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكنه من استخدام بنى جنسه وسخر له الخيل والابل وسلطه على دواب الماء واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية وحفر الانهار وغرس الأشجار وشق الأرض وتعلية البناء والتحيل على مصالحه والتحرز والتحفظ

عما يؤذيه ظن المسكين أن له نصيبا من الملك وادعى لنفسه ملكا مع الله سبحانه ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى ونسي ما كان فيه من حالة الاعدام والفقر والحاجة حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج بل كان ذلك شخصا آخر غيره كما روى الامام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ثُمَّ قَالَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ » (١) ومن ههنا خذل من خذل ووفق من وفق فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته الى ربه فطغى وعتا فحققت عليه الشقوة، قال تعالى : (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) سورة اقرأ وقال : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) سورة الليل فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته الى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، ولهذا كان من دعائه ﷺ « أصلح لي شأني كله ولا تكلني

---

(١) البردين - تثنية برد بالباء الموحدة - ثياب، والوئيد صوت شدة الوطء على الأرض يسمع كالدوي من بعد، والتراقي جمع ترقوة - هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق وهما ترقوتان من الجانبين ، والحديث أخرجه أيضا ابن ماجه والطبراني في الكبير. والحاكم. والبيهقي في شعب الايمان وغيرهم

الى نفسي طرفة عين ولا الى أحد من خلقك » (١) وكان يدعو « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » (٢) يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئا وان الله سبحانه يصرفه كما يشاء كيف وهو يتلو قوله تعالى: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) الاسراء آية ٧٤ فضرورته ﷺ الى ربه وفاقته اليه بحسب معرفته به وحسب قربه منه ومنزلته عنده ، وهذا أمر إنما بدا لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء ، ولهذا كان أقرب الخلق الى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر الى ربه وكان يقول لهم : « أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي إنما أنا عبد » وكان يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » (٣) *

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته مقام الاسراء . ومقام الدعوة . ومقام التحدي فقال : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) وقال : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) الجن ١٩ وقال : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) البقرة ٢٣ وفي حديث الشفاعة « ان المسيح يقول لهم اذهبوا

---

(١) هو قطعة من حديث رواه النسائي والحاكم في المستدرك إلا انهما لم يذكرا قوله « ولا الى أحد من خلقك » (٢) رواه الامام احمد في مسنده

(٣) رواه الترمذي في الشمائل، وقوله « لا تطروني » بضم أوله أصله لا تطروونني من الاطراء وهو المبالغة في المدح والغلو أي لا تجاوزوا الحد في مدحي بغير الواقع فيجركم ذلك الى الكفر كما جر النصارى اليه لما تجاوزوا الحد في مدح عيسى بغير الواقع واتخذوه إلها

الى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له، فتأمل قوله تعالى فى الآية : (أنتم الفقراء الى الله) باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعى الفقر فانه كما تقدم نوعان .فقر الى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها : وفقر الى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين ، وهذا هو الفقر النافع، والذى يشير اليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون اليه هو الفقر الخاص لا العام .

وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له وكل أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير، قال شيخ الاسلام الأنصارى (١) : الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة وهو على ثلاث درجات ، الدرجة الأولى فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا (٢) ضبطا أو طلبا . واسكات اللسان عنها ذما أو مدحا والسلامة منها طلبا أو تركا وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه ، الدرجة الثانية الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال ويقطع شهوة الأحوال ويمحص من أدناس مطالعات المقامات ، والدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوحدانى والاحتباس فى قيد التجريد (٣) وهذا فقر الصوفية.فقوله الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة- يعنى أن الفقير هو الذى يجرد رؤية الملك لمالكه الحق- فيرى نفسه مملوكة لله لا يرى نفسه مالكا بوجه من الوجوه

---

(١) هو شيخ الاسلام أبو اسماعيل عبد الله بن محمد بن على الهروى الصوفى أحد الأعلام وصاحب كتاب منازل السائرين المتوفى سنة ٤٨١ (٢) فى منازل السائرين : وهو قبض اليد عن الدنيا (٣) فى المنازل «التقطع الوجدانى والاحتباس فى بيداء قيد التجريد»

ويرى أعماله مستحقة عليه بمقتضى كونه مملوكا عبدا مستعملا فيما أمره بهٌ سيده فنفسه مملوكة وأعماله مستحقة بموجب العبودية فليس مالكا لنفسه ولا لشيء من ذراته ولا لشيء من أعماله بل كل ذلك مملوك عليه مستحق عليه كرجل اشترى عبدا بخالص ماله ثم علمه بعض الصنائع فلما تعلمها قال له: اعمل وأد الى فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء، فلو حصل بيد هذا العبد من الأموال والأسباب ماحصل لم ير له فيها شيئا بل يراه كالوديعة في يده وأنها أموال أستاذه وخزائنه ونعمه بيد عبده مستودعا متصرفا فيها لسيده لا لنفسه كما قال عبدالله ورسوله وخيرته من خلقه: « والله انى لا أعطى أحدا ولا أمنع أحدا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت » فهو متصرف فى تلك الخزائن بالأمر المحض تصرف العبد المحض الذى وظيفته تنفيذ أوامر سيده فالله هو المالك الحق وكل مابيد خلقه هو من أمواله وأملاك له وخزائنه أفاضها عليهم ليمتحنهم فى البذل والامساك وهل يكون ذلك منهم على شاهد العبودية لله عز وجل فيبذل أحدهم الشيء رغبة فى ثواب الله ورهبة من عقابه وتقربا اليه وطلبا لمرضاته أم يكون البذل والامساك منهم صادرا عن مراد النفس وغاية الهوى وموجب الطبع فيعطى لهواه ويمنع لهواه فيكون متصرفا تصرف المالك لا المملوك فيكون مصدر تصرفه الهوى ومراد النفس وغايته الرغبة فيما عند الخلق من جاه أو رفعة أو منزلة أو مدح أو حظ من الحظوظ أو الرهبة من فوت شيء من هذه الأشياء، واذا كان مصدر تصرفه وغايته هو هذه الرغبة والرهبة رأى نفسه لا محالة مالكا فادعى الملك وخرج عن حد العبودية ونسى فقره ولو عرف نفسه حق المعرفة لعلم انما هو مملوك ممتحن فى صورة ملك متصرف كما قال تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ

لِتَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) يونس ١٤ *

وحقيق بهذا الممتحن أن يوكل الى ما ادعته نفسه من الحالات والملكات مع المالك الحق سبحانه فان من ادعى لنفسه حالة مع الله سبحانه وكل اليها ومن وكل الى شيء غير الله فقد فتح له باب الهلاك والعطب وأغلق عنه باب الفوز والسعادة فان كل شيء ما سوى الله باطل ومن وكل الى الباطل بطل عمله وضل سعيه ولم يحصل الا على الحرمان، فكل من تعلق بغير الله انقطع به أحوج ما كان اليه كما قال تعالى :(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) البقرة ١٦٦ فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله تقطعت بهم أحوج ما كانوا اليها وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت فان الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها وكل شيء هالك الا وجهه سبحانه وكل عمل باطل الا ما أريد به وجهه وكل سعي لغيره باطل ومضمحل وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال فاذا زال ذلك الذي عمل له عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي ولم يبق في يده سوى الحرمان، ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة « أليس عدلا مني اني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فيتساقط بهم في النار ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم فاذا كورت الشمس وانتثرت النجوم اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ

منَ النّارِ) (١) ، ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده فانه يحال على مفلس كل الافلاس بل على عدم، والموحد حوالته على الملىء الكريم فيابعد ما بين الحوالتين *

وقوله « البراءة من رؤية الملكة» ولم يقل من الملكة لأن الانسان قد يكون فقيرا لا ملكة له فى الظاهر وهو عرى عن التحقق بنعت الفقر الممدوح أهله الذين لا يرون ملكة إلا لمالكها الحق ذى الملك والملكوت وقد يكون العبد قد فوض إليه من ذلك شىء وجعل كالخازن فيه كما كان سليمان بن داود أوتى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الأنبياء وكذلك أغنياء الصحابة فهؤلاء لم يكونوا بريئين من الملكة فى الظاهر وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم فلا يرون لها ملكا حقيقيا بل يرون مافى أيديهم لله عارية ووديعة فى أيديهم ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبيد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم، فوجود المال فى يد الفقير لا يقدح فى فقره انما يقدح فى فقره رؤيته لملكته فمن عوفى من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه باوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره وكان كالخازن لسيده الذى ينفذ أوامره فى ماله فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضره ومن لم يعاف من ذلك ادعت نفسه الملكة وتعلقت به النفس تعلقها بالشىء المحبوب المعشوق فهو أكبر همه ومبلغ علمه إن أعطى رضى وإن منع سخط فهو عبد الدينار والدرهم ، يصبح مهموما ويمسى كذلك يبيت مضاجعا له

---

(١) هذا قطعة من حديث طويل جدا ذكره الحافظ المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب عن عبد الله بن مسعود وقال فى آخره : رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى من طرق أحدها صحيح واللفظ له وقال صحيح الاسناد

تفرح نفسه اذا ازداد وتحزن وتأسف اذا فات منه شيء بل يكاد يتلف اذا توهمت نفسه الفقر وقد يؤثر الموت على الفقر والأول مستغن بمولاه المالك الحق الذى بيده خزائن السموات والأرض واذا أصاب المال الذى فى يده نائبة رأى أن المالك الحق هو الذى أصاب مال نفسه فما للعبد وما للجزع والهلع وإنما تصرف مالك المال فى ملكه الذى هو وديعة فى يد مملوكه فله الحكم فى ماله إن شاء أبقاه وإن شاء ذهب به وأفناه فلا يتهم مولاه فى تصرفه فى ملكه ويرى تدبيره هو موجب الحكمة فليس لقلبه بالمال تعلق ولا له به اكتراث لصعوده عنه وارتفاع همته الى المالك الحق فهو غنى به وبحبه ومعرفته وقربه منه عن كل ما سواه وهو فقير اليه دون ما سواه ، فهذا هو البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان كما قال تعالى : (كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) ولم يقل ان استغنى بل جعل الطغيان ناشئا عن رؤية غنى نفسه ولم يذكر هذه الرؤية فى سورة الليل بل قال : (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) وهذا والله أعلم لأنه ذكر موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه وذكر فى سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى ، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته فانه لو افتقر اليه لتقرب اليه بما أمره من طاعته فعل المملوك الذى لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدا من امتثال أوامره ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه اعطاء وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال وجمع الى ذلك تكذيبه بالحسنى وهى التى وعد بها أهل الاحسان بقوله : (الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله فلأنها أصل الاحسان وبها تنال الحسنى ومن فسرها

بالخلف فى الانفاق فقد هضم المعنى حقه وهو أكبر من ذلك وان كان الخلف جزءاً من أجزاء الحسنى، والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه وكلاهما مناف للفقر والعبودية، قوله: الدرجة الأولى فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا أو تركا وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه *

فحاصل هذه الدرجة فراغ اليد والقلب من الدنيا والذهول عن الفقر منها والزهد فيها، وعلامة فراغ اليد نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا فهو لا يضبط يده مع وجودها شحا وضنا بها ولا يطلبها مع فقدها سؤالا وإلحافا وحرصا، فهذا الاعراض والنفض دال على سقوط منزلتها من القلب إذ لو كان لها فى القلب منزلة لكان الأمر بضد ذلك وكان يكون حاله الضبط مع الوجود لغناه بها ولكان يطلبها مع فقدها لفقره اليها ء وأيضا من أقسام الفراغ إسكات اللسان عنها ذما ومدحا لأن من اهتم بأمر وكان له فى قلبه موقع اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحا أو ذما فانه إن حصلت له مدحها وإن فاتته ذمها، ومدحها وذمها علامة موضعها من القلب وخطرها فحيث اشتغل اللسان بذمها كان ذلك لخطرها فى القلب لأن الشيء إنما يذم على قدر الاهتمام به والاعتناء شفاء الغيظ منه بالذم، وكذلك تعظيم الزهد فيها انما هو على قدر خطرها فى القلب اذ لولا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر، وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه فان من أحب شيئا أكثر من ذكره، وصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدل على محبتها ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدل على موقعها وخطرها فان الشيء اذا صغر أعرض القلب عنه مدحا أو ذما وكذلك صاحب هذه الدرجة ثان عن النظر الى

تركها وهو الذى تقدم من ذكر خطر الزهد فيها لأن نظر العبد الى كونه تاركا لها زاهدا فيها تتشرف نفسه بالترك وذلك من خطرها وقدرها ولو صغرت فى القلب لصغر تركها والزهد فيها ولو اهتم القلب بمهم من المهمات المطلوبة التى هى مذاقات أهل القلوب والأرواح لذهل عن النظر الى نفسه بالزهد والترك *

فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الأمراض كلها من مرض الضبط والطلب والذم والمدح والترك فهى بأسرها وإن كان بعضها ممدوحا فى العلم مقصودا يستحق المتحقق به الثواب والمدح لكنها آثار وأشكال مشعرة بأن صاحبها لم يذق حال الخلو والتجريد الباطن فضلا عن أن يتحقق من الحقائق المتوقعة المتنافس فيها ، فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتى الداخل بكليته فى الدنيا قد ركن اليها واطمأن اليها واتخذها وطنا وجعلها له سكنا وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه وتخلص من قيودها ورعوناتها وآثارها وارتقى الى ما يسبي القلب ويحييه ويفرحه ويبهجه من جذبات العزة فهو فى البرزخ كالحامل المقرب ينتظر ولادة الروح والقلب صباحا ومسا فان من لم تولد روحه وقلبه ويخرج من مشيمة نفسه ويتخلص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته فهو كالجنين فى بطن أمه الذى لم ير الدنيا وما فيها فهكذا هذا الذى بعد فى مشيمة النفس والظلمات الثلاث هى ظلمة النفس وظلمة الطبع . وظلمة الهوى فلا بد من الولادة مرتين كما قال المسيح للحواريين : انكم لم تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين ولذلك كان النبى ﷺ : أبا للمؤمنين كما فى قراءة أبى : (النبى اولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) ولهذا تفرع على هذه الابوة أن جعلت أزواجه امهاتهم فان أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أخرى غير ولادة الأمهات فانه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغى الى نور

العلم والايمان وفضاء المعرفة والتوحيد فشاهدت حقائق أخر وأمورا لم يكن لها بها شعور قبله قال تعالى : (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) وقال: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) سورة الجمعة ـ اية ٢ وقال : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ـ ال عمران ١٦٤ *

والمقصود أن القلوب فى هذه الولادة ثلاثة . قلب لا يولد ولم يأن له بل هو جنين فى بطن الشهوات والغى والجهل والضلال . وقلب قد ولد وخرج الى فضاء التوحيد والمعرفة وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى فقرت عينه بالله وقرت عيون به وقلوب وأنست بقربه الأرواح وذكرت رؤيته بالله فاطمأن بالله وسكن اليه وعكف بهمته عليه وسافرت هممه وعزائمه الى الرفيق الأعلى لا يقر بشىء غير الله ولا يسكن الى شىء سواه ولا يطمئن بغيره يجد من كل شىء سوى الله عوضا ومحبته قوته لا يجد من الله عوضا أبدا ، فذكره حياة قلبه ورضاه غاية مطلبه. ومحبته قوته ومعرفته أنيسه، عدوه من جذب قلبه عن الله وان كان القريب المصافيا. ووليه من رده الى الله وجمع قلبه عليه وان كان البعيد المناويا ، فهذان قلبان متباينان غاية التباين . وقلب ثالث فى البرزخ ينتظر الولادة صباحا ومساء قد أصبح على فضاء التجريد وأنس من خلال الديار أشعة التوحيد تأبى غلبات الحب والشوق الا تقربا الى من السعادة كلها بقربه

والحظ كل الحظ فى طاعته وحبه ، وتأبى غلبات الطباع إلا جذبه وايقافه وتعويقه ، فهو بين الداعيين تارة وتارة قد قطع عقبات وءافات وبقى عليه مفاوز وفلوات ، والمقصود أن صاحب هذا المقام اذا تحقق به ظاهرا وباطنا وسلم عن نظر نفسه الى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده فهو فقير حقيقى ليس فيه قادح من القوادح التى تحطه عن درجة الفقر ه

واعلم أنه يحسن اعمال اللسان فى ذم الدنيا فى موضعين، أحدهما موضع التزهيد فيها للراغب ، والثانى عند ما يرجع به داعى الطبع والنفس الى طلبها ولا يأمن اجابة الداعى فيستحضر فى نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها فانه ان تم عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بد ه

﴿ فصل فى تفسير الفقر ودرجاته ﴾

وقوله: « الدرجة الثانية الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخلاص من رؤية الاعمال . ويقطع شهود الأحوال . ويمحص من أدناس مطالعات المقامات » فهذه الدرجة أرفع من الأولى وأعلى، والأولى كالوسيلة اليها لأن فى الدرجة الأولى يتخلى بفقره عن أن يتأله غير مولاه الحق وأن يضيع أنفاسه فى غير مرضاته وأن يفرق همومه فى غير محابه وأن يؤثر عليه فى حال من الأحوال فيوجب له هذا الخلق وهذه المعاملة صفاء العبودية وعمارة السر بينه وبين الله وخلوص الود فيصبح ويمسى ولا هم له غير ربه قد قطع همه بربه عنه جميع الهموم وعطلت ارادته جميع الارادات ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه كما قيل :

لقد كان يسبى القلب فى كل ليلة ه ثمانون بل تسعون نفسا وأرجح
يهيم بهذا ثم يألف غيره ه ويسلوهم من فوره حين يصبح
وقد كان قلبى ضائعا قبل حبكم ه فكان بحب الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبى هواك أجابه ه فلست أراه عن خبائك يبرح

حرمت منائى منك ان كنت كاذبا * وان كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
وان كان شىء فى الوجود سواكم * يقـر به القلب الجريح ويفرح
اذا لعبت أيدى الهوى بمحبكم * فليس له عن بابكم متزحزح
فان أدركته غربة عن دياركم * فحبكم بين الحشا ليس يبرح
وكم مشتر فى الخلق قد سام قلبه * فـلم يره إلا لحبك يصلح
هوى غيركم نار تلظى ومحبس * وحبكم الفردوس أو هو أفسح
فياضيم قلب قد تعلق غيركم * ويا رحمة مما يجول ويكدح

والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله، فهو إناء واحد والأشربة متعددة فأى شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره وإنما يمتلىء الاناء بأعلى الأشربة اذا صادفه خاليا فأما اذا صادفه ممتلئا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه كما قال بعضهم :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ففقر صاحب هذه الدرجة تفريغه إناءه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة لأن كل شراب فمسكر ولابد وما أسكر كثيره فقليله حرام وأين سكر الهوى والدنيا من سكر الخمر ، وكيف يوضع شراب التسنيم الذى هو أعلى أشربة المحبين فى إناء ملآن بخمر الدنيا والهوى ولا يفيق من سكره ولا يستفيق، ولو فارق هذا السكر القلب لطار باجنحة الشوق الى الله والدار الآخرة، ولكن رضى المسكين بالدون وباع حظه من قربه الله ومعرفته وكرامته باخس الثمن صفقة خاسر مغبون فسيعلم أى حظ أضاع اذا فاز المحبون وخسر المبطلون *

﴿ فصل فى أن حقيقة الفقر توجه العبد بجميع أحواله الى الله ﴾

واذا [illegible] بالاعراض [illegible] القلوب عن [illegible] الى بلد

حياتها ونعيمها الذى لا سكن لها غيره ولا راحة لها الا فيه ولا سرور لها الا فى منازله ولا أمن لها الا بين أهله فكذلك الذى باشر قلبه روح التاله وذاق طعم المحبة وآنس نار المعرفة له أغراض دقيقة حالية تقيد قلبه عن مكافحة صريح الحق وصحة الاضطرار اليه والفناء التام به والبقاء الدائم بنوره الذى هو المطلوب من السير والسلوك ، وهو الغاية التى شمر اليها السالكون والعلم الذى أمه العابدون ودندن حوله العارفون ، فجميع ما يحجب عنه أو يقيد القلب نظره وهمه يكون حجابا يحجب الواصل ويوقف السالك وينكس الطالب ، فالزهد فيه على أصحاب الهمم العالية متعين تعين الواجب الذى لا بد منه ، وهو كزهد السالك الى الحج فى الظلال والمياه التى يمر بها فى المنازل ، فالأول مقيد عن الحقائق برؤية الاعراض، والثانى مقيد عن النهايات برؤية الأحوال ، فتقيد كل منهما عن الغاية المطلوبة وترتب على هذا القيد عدم النفوذ وذلك مؤخر مخلف ، واذا عرف العبد هذا وانكشف له علمه تعين عليه الزهد فى الأحوال والفقر منها كما تعين عليه الزهد فى المال والشرف وخلو قلبه منهما ، ولما كان موجب الدرجة الأولى من الفقر الرجوع الى الآخرة فأوجب الاستغراق فى هم الآخرة نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا واسكات اللسان عنها مدحا أو ذما ، وكذلك كان موجب هذه الدرجة الثانية الرجوع الى فضل الله سبحانه ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأقوال الشريفة . والمقامات العلية . وبفضله ورحمته وصلوا الى رضاه ورحمته وقربه وكراماته وموالاته ، وكان سبحانه هو الأول فى ذلك كله كما أنه الأول فى كل شىء وكان هو الآخر فى ذلك كما هو الآخر فى كل شىء فمن عبده باسمه الأول . والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر فان انضاف الى ذلك عبوديته باسمه الظاهر . الباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات

التعبد ظاهرا و باطنا، فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف أو الالتفات اليها وتجريد النظر الى مجرد سبق فضله ورحمته وانه هو المبتدىء بالاحسان من غير وسيلة من العبد إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده وأى وسيلة كانت هناك وانما هو عدم محض وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا فمنه الاعداد ومنه الامداد وفضله سابق على الوسائل والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرى ، فمن نزل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقرا خاصا وعبودية خاصة ، وعبوديته باسمه الآخر تقتضي أيضا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها فانها تعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية ويبقى الدائم الباقي بعدها فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذى لا يموت ولا يزول فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع بخلاف التعلق بغيره مماله آخر يفنى به كما نظر العارف اليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها فكذلك نظره اليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الأسباب كلها فكان الله ولم يكن شيء غيره وكل شيء هالك الا وجهه *

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار الى الله وحده ودوام الفقر اليه دون كل شيء سواه وأن الأمر ابتدأ منه واليه يرجع فهو المبتدىء بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة واليه تنتهي الأسباب والوسائل فهو أول كل شيء وآخره ، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه فهو الهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال الا بان يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده ، فهو الأول الذى ابتدأت منه المخلوقات والآخر الذى انتهت اليه عبودياتها واراداتها ومحبتها فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرىء ، فكما كان واحدا في ايجادك فاجعله واحدا في تألهك اليه

لتصح عبوديتك كما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك اليه لتصح لك عبوديته باسمه الاول والآخر ، وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الاول وانما الشأن فى التعبد له باسمه الآخر ، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده ، وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبى ﷺ بقوله : « وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ » .

فاذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شىء بذاته وأنه ليس فوقه شىء البتة وأنه قاهر فوق عباده يدبر الامر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه . اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه صار لقلبه أمما يقصده . وربا يعبده . والها يتوجه اليه بخلاف من لايدرى أين ربه فانه ضائع مشتت القلب ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها ولا معبود يتوجه اليه قصده ، وصاحب هذه الحال اذا سالك وتاله وتعبد طلب قلبه الها يسكن اليه ويتوجه اليه وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شىء الا العدم وأنه ليس فوق العالم اله يعبد ويصلى له ويسجد وأنه ليس على العرش من يصعد اليه الكلم الطيب ولا يرفع اليه العمل الصالح جال قلبه فى الوجود جميعه فوقع فى الاتحاد ولا بد وتعلق قلبه بالوجود المطلق السارى فى المعينات فاتخذ إلهه من دون اله الحق وظن أنه قد وصل الى عين الحقيقة وانما تاله وتعبد لمخلوق مثله ولخيال نحته بفكره واتخذه الها من دون الله سبحانه واله الرسل وراء ذلك كله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ

جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) وقال : (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) سورة السجدة ءاية ٤-٩.

فقد تعرف سبحانه الى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها الا من أنكره سبحانه وان زعم أنه مقر به ، والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود ويجعل له ربا يقصده وصمدا يصمد اليه فى حوائجه وملجأ يلجأ اليه فاذا استقر ذلك فى قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ اليه ويهرب اليه ويفر كل وقت اليه ، وأما تعبده باسمه الباطن فامر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته ويكل اللسان عن وصفه وتصطلم الاشارة اليه وتجفو العبارة عنه فانه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل مخلصة من فرث التشبيه منزهة عن رجس الحلول والاتحاد وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه وذوقا صحيحا سليما من أذواق أهل الانحراف ، فمن رزق هذا فهم معنى اسمه

الباطن وصح له التعبد به ، وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام وضلت فيه أفهام وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين لنبو الأفهام عنه وعزة تخلص الحق من الباطل فيه والتباس ما في الذهن بما في الخارج الا على من رزقه الله بصيرة في الحق ونورا يميز به بين الهدى والضلال وفرقانا يفرق به بين الحق والباطل ورزقه مع ذلك اطلاعا على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط وكان له بصيرة في الحق والباطل وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته وأن العوالم كلها في قبضته وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) وقال: (وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين اسم العلو الدال على أنه الظاهر وانه لا شيء فوقه واسم العظمة الدال على الاحاطة وأنه لا شيء دونه كما قال تعالى: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) وقال تعالى: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) وقال: (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) وهو تبارك وتعالى كما انه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء بل ظهر على كل شيء فكان فوقه وبطن فكان أقرب الى كل شيء من نفسه وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة نفسه فهذا أقرب لاحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرءان والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) فهذا قربه من داعيه وقال تعالى (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة إيذانا بقربه تعالى من المحسنين فكانه قال ان الله برحمته قريب من المحسنين ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » « وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِـــنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ »(١) فهذا قرب خاص غير قرب الاحاطة وقرب البطون وفي الصحيح ، من حديث أبي موسى انهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ »(٢) فهذا قربه من داعيه وذاكره يعني فأي حاجة بكم الى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وان خفضتموها كما يسمعها اذا رفعت فانه سميع قريب، وهذا القرب هو من لوازم المحبة فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر، وقد استولى محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده فان لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه والا طرق

---

(١) هما حديثان الاول رواه مسلم . وأبو داود . والنسائي عن أبي هريرة ، والثاني رواه النسائي والترمذي وصححه والحاكم (٢) رواه البخاري في صحيحه ومسلم، وقوله « اربعوا » بهمزة الوصل وفتح الباء الموحدة أي ارفقوا، وقيل: اخفضوا أصواتكم

باب الحلول ان لم يلجه، وسببه ضعف تمييزه وقوة سلطان المحبة واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه، وفى مثل هذه الحال يقول. سبحانى أو ما فى الجبة الا الله ونحو هذا من الشطحات التى نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه فى تلك الحال، فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد وأن يكون الاله أقرب اليه من كل شيء وأقرب اليه من نفسه مع كونه ظاهرا ليس فوقه شيء، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا فليضرب عنه صفحا الى ما هو أولى به فقد قيل :

اذا لم تستطع شيئا فدعه ٭ وجاوزه الى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة ومعرفة بقرب المحبوب من محبه غاية القرب وان كان بينهما غاية المسافة ولا سيما اذا كانت المحبة من الطرفين وهى محبة بريئة من العلل والشوائب والاعراض القادحة فيها فان المحب كثيرا ما يستولى محبوبه على قلبه وذكره ويفنى عن غيره ويرق قلبه وتتجرد نفسه فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب اليه وبينهما من البعد ما بينهما، وفى هذه الحال يكون فى قلبه وجوده العلمى وفى لسانه وجوده اللفظى فيستولى هذا الشهود عليه ويغيب به فيظن أن فى عينه وجوده الخارجى لغلبة حكم القلب والروح كما قيل :

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ٭ ومثواك فى قلبى فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار، والمقصود أن المثال العلمى غير الحقيقة الخارجية وان كان مطابقا لها لكن المثال العلمى محله القلب والحقيقة الخارجية محلها الخارج فمعرفة هذه الأسماء الأربعة وهى الأول.

والآخر . والظاهر . والباطن هى أركان العلم والمعرفة فحقيق بالعبد أن يبلغ فى معرفتها الى حيث ينتهى به قواه وفهمه *

واعلم أن لك أنت أولا .وآخرا. وظاهرا. وباطنا بل كل شىء فله أول. وءاخر. وظاهر . وباطن حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثره ، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه وءاخريته ثابتة بعد ءاخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شىء، وءاخريته بقاؤه بعد كل شىء ، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شىء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو وظاهر الشىء هو ماعلا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شىء بحيث يكون أقرب اليه من نفسه وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الاحاطة وهى إحاطتان.زمانية.ومكانية، فاحاطة أوليته وءاخريته بالقبل والبعد. فكل سابق انتهى الى أوليته وكل ءاخر انتهى الى ءاخريته، فأحاطت أوليته وءاخريته بالأوائل والأواخر وإحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر الا والله فوقه، وما من باطن الا والله دونه، وما من أول الا والله قبله وما من ءاخر الا والله بعده ، فالأول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه . فسبق كل شىء بأوليته . وبقى بعد كل شىء بآخريته . وعلا على كل شىء بظهوره . ودنا من كل شىء ببطونه، فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضا ولا يحجب عنه ظاهر باطنا بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد ، فهو الأول فى ءاخريته والآخر فى أوليته والظاهر فى بطونه والباطن فى ظهوره لم يزل أولا وءاخرا وظاهرا وباطنا، والتعبد بهذه الأسماء رتبتان ، الرتبة الأولى أن تشهد الأولية منه

تعالى فى كل شيء والآخرية بعد كل شيء والعلو والفوقية فوق كل شيء والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب الى الخلق منه *

والمرتبة الثانية من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من افراده وعدم الالتفات الى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره، فمن ذا الذى شفع لك فى الأزل حيث لم تكن شيئا مذكورا حتى سماك باسم الاسلام ووسمك بسمة الايمان وجعلك من أهل قبضة اليمين وأقطعك فى ذلك الغيب عمالات المؤمنين فعصمك عن العبادة للعبيد وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد. ثم وجه وجهة قلبك اليه سبحانه دون ما سواه. فاضرع الى الذى عصمك من السجود للصنم وقضى لك بقدم الصدق فى القدم أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك واسم بهمتك عن ملاحظة الاختيار ولا تركنن الى الرسوم والآثار ولا تقنع بالخسيس الدون. وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التى لا تنال إلا بطاعة الله فان الله سبحانه قضى أن لا ينال ماعنده إلا بطاعته. ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل اليه تلقاه من بعيد. ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد. ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد. ومن أراد مراده الدينى أراد ما يريد، ثم اسم بسرك الى المطالب الأعلى واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله واحسانه اليك كل سبب منك بل هو الذى جاد عليك بالأسباب وهيأ لك وصرف عنك موانعها وأوصلك بها الى غايتك المحمودة. فتوكل عليه وحده وعامله وحده وآثر رضاه وحده واجعل حبه ومرضاته هو

كعبة قلبك التى لا تزال طائفا بها مستلما لأركانها واقفا بملتزمها فيافوزك وياسعادتك ان اطلع سبحانه على ذلك من قلبك ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع أفضاله. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد سبحانك وبحمدك. ثم تعبد له باسمه الآخر بان تجعله وحده غايتك التى لا غاية لك سواه ولا مطلوب لك وراه فكما انتهت اليه الأواخر وكان بعد كل آخر فكذلك اجعل نهايتك اليه فان الى ربك المنتهى. اليه انتهت الأسباب والغايات فليس وراءه مرمى ينتهى اليه . وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر .

وأما التعبد باسمه الباطن فاذا شهدت إحاطته بالعوالم وقرب العبيد منه وظهور البواطن له وبدو السرائر وانه لاشىء بينه وبينها فعامله بمقتضى هذا الشهود وطهر له سريرتك فانها عنده علانية وأصلح له غيبك فانه عنده شهادة وزك له باطنك فانه عنده ظاهر. فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله وجماع العبودية له. فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته فلا يرى لغيره شيئا الا به وبحوله وقوته وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند اليه أو يتحلى به أو يتخذه عقده أو يراه ليوم فاقته أو يعتمد عليه في مهم من مهماته فكل ذلك من قصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والأصول الى الأسباب والفروع كما هو شأن الطبيعة والهوى وموجب الظلم والجهل والانسان ظلوم جهول. فمن جلى الله سبحانه صدأ بصيرته وكمل فطرته وأوقفه على مبادى الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها أصبح كالمفلس حقا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه يقول: أستغفر الله من علمى ومن عملى أى من انتسابى اليهما وغيبتى بهما عن فضل من ذكرنى بهما وابتدأنى باعطائهما من غير تقدم سبب منى يوجب ذلك. فهو لا يشهد غير فضل

مولاه وسبق منته ودوامه فيثيبه مولاه على هـذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقرين الأدنى والأعلى ثوابين. أحدهما الخلاص من رؤية الأعمال حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائبا عنها ذاهبا عنها فانيا عن رؤيتها ، الثواب الثانى أن يقطعه عن شهود الأحوال أى عن شهود نفسه فيها متكثرة بها فان الحال محله الصدر والصدر بيت القلب والنفس. فاذا نزل العطاء فى الصدر للقلب وثبت النفس لتاخذ نصيبها من العطاء فتتمدح به وتدل به وتزهو وتستطيل وتقرر انيتها لأنها جاهلة ظالمة وهذا مقتضى الجهل والظلم. فاذا وصل الى القلب نور صفة المنة وشهد معنى اسمه المنان وتجلى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه الأول ذهل القلب والنفس به وصار العبد فقيرا الى مولاه بمطالعة سبق فضله الأول فصار مقطوعا عن شهود أمر أو حال ينسبه الى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوما مقطوعا عن رؤية عزة مولاه وفاطره وملاحظة صفاته. فصاحب شهود الأحوال منقطع عن رؤية منة خالقه وفضله ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاه فينعكس هـذا الأمر فى حق هذا العبد الفقير ويشغله رؤية عزة مولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالأولية عن حال يعتز بها العبد أو يشرف بها. وكذلك الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل يمحص من أدناس مطالعات المقامات. فالمقام ما كان راسخا فيه والحال ما كان عارضا لا يدوم. فمطالعات المقامة وتشوفه بها وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله فاستحق أن ينسب اليه ويوصف به مثل ان يقال زاهد. صابر. خائف. راج. محب. راض، فكونه يرى نفسه [illegible] المقامات اليه وبان يوصف بها على وجه الاستحقاق [illegible] الغنى وتعد لطور العبودية وجهل بحق الربوبية

فالرجوع الى السبق بمطالعة الفضل يستغرق همة العبد ويمحصه ويطهره من مثل هذه الأدناس فيصير مصفى بنور الله سبحانه عن رذائل هذه الأرجاس .

قوله : « والدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوحدانى والاحتباس فى قيد التجريد وهذا فقر الصوفية » .

هذه الدرجة فوق الدرجتين السابقتين عند أرباب السلوك وهى الغاية التى شمروا اليها وحاموا حولها فان الفقر الأول فقر عن الاعراض الدنيوية . والفقر الثانى فقر عن رؤية المقامات والأحوال . وهذا الفقر الثالث فقر عن ملاحظة الموجود السائر للعبد عن مشاهدة الوجود فيبقى الوجود الحادث فى قبضة الحق سبحانه كالهباء المنثور فى الهواء يتقلب بتقليبه إياه ويسير فى شاهد العبد كما هو فى الخارج فتمحو رؤية التوحيد عن العبد شواهد استبداده واستقلاله بأمر من الأمور ولو فى النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة الا بارادة المريد الحق سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته فيبقى العبد كالكرة الملقاه بين صولجانات القضاء والقدر يقلبها كيف شاءت بصحة شهادة قيومية من له الخلق والأمر وتفرده بذلك دون ما سواه. وهذا الأمر لا يدرك بمجرد العلم ولا يعرفه الا من تحقق به أو لاح له منه بارق، وربماذهل صاحب هذا المشهد عن الشعور بوجوده لغلبة شهود وجود القيوم عليه فهناك يصح من مثل هذا العبد الاضطرار الى الحى القيوم وشهد فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فقرا تاما اليه من جهة كونه ربا ومن جهة كونه الها معبودا لا غنى له عنه كما لا وجود له بغيره. فهذا هو الفقر الاعلى الذى دارت عليه رحى القوم بل هو قطب تلك الرحى . وإنما يصح له هذا بمعرفتين لا بد منهما . معرفة حقيقة الربوبية والالهية. ومعرفة حقيقة النفس

والعبودية ، فهنالك تتم له معرفة هـذا الفقر فان أعطى هاتين المعرفتين حقهما من العبودية اتصف بهذا الفقر حالا ، فما أغناه حينئذ من فقير وما أعزه من ذليل وما أقواه من ضعيف وما آنسه من وحيد، فهو الغنى بلا مال القوى بلا سلطان العزيز بلا عشيرة المكفى بلا عتاد قد قرت عينه بالله فقرت به كل عين واستغنى بالله فافتقر اليه الاغنياء والملوك ولا يتم له ذلك الا بالبراءة من فرث الجبر ودمه فانه ان طرق باب الجبر انحل عنه نظام العبودية وخلع ربقة الاسلام من عنقه وشهد أفعاله كلها طاعات للحكم القدرى الكونى، وأنشد

أصبحت منفعلا لما يختاره ٭ منى ففعلى كله طاعات

واذ قيل له: اتق الله ولا تعصه يقول: ان كنت عاصيا لأمره فانا مطيع لحكمه وإرادته فهذا منسلخ من الشرائع برىء من دعوة الرسل شقيق لعدو الله إبليس بل وظيفة الفقير فى هذا الموضع وفى هذه الضرورة مشاهدة الأمر والشرع ورؤية قيامه بالأفعال وصدورها منه كسبا واختيارا وتعلق الأمر والنهى بها طلبا وتركا وترتب الذم والمدح عليها شرعا وعقلا وتعلق الثواب والعقاب بها آجلا وعاجلا، فمتى اجتمع له هـذا الشهود الصحيح الى شهود الاضطرار فى حركاته وسكناته والفاقة التامة الى مقلب القلوب ومن بيده أزمة الاختيار ومن اذا شاء شيئا وجب وجوده واذا لم يشأ امتنع وجوده وانه لا هادى لمن أضله ولا مضل لمن هداه وأنه هو الذى يحرك القلوب بالارادات والجوارح بالأعمال وانها مدبرة تحت تسخيره مذللة تحت قهره وانها أعجز وأضعف أن تتحرك بدون مشيئة نافذة فيها كما هى نافذة فى حركات الافلاك والمياه والأشجار وأنه حرك كلا منها بسبب اقتضى تحريكه وهو خالق السبب المقتضى وخالق السبب خالق للمسبب فخالق الارادة الجازمة التى هى سبب الحركة والفعل الاختيارى خالق لهما ، وحدوث الارادة بلا خالق محدث محال وحدوثها بالعبد بلا إرادة منه محال وإن كان بارادة

فارادته للارادة كذلك ويستحيل بها التسلسل فلا بد من فاعل أوجد تلك الارادة التي هي سبب الفعل وهنا يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة الى مالك الارادات ورب القلوب ومصرفها كيف شاء فما شاء أن يزيغه منها أزاغه وماشاء أن يقيمه منها اقامه(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) فهذا هو الفقر الصحيح المطابق للعقل والفطرة والشرع ومن خرج عنه وانحرف الى أحد الطرفين زاغ قلبه عن الهدى وعطل ملك الملك الحق وانفراده بالتصرف والربوبية عن أوامره وشرعه وثوابه وعقابه، وحكم هذا الفقير المضطر الى خالقه في كل طرفة عين وكل نفس انه إن حرك بطاعة أو نعمة شكرها وقال: هذا من فضل الله ومنه وجوده فله الحمد وان حرك بمبادى معصيته صرخ ولجأ واستغاث وقال: أعوذ بك منك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك فان تم تحريكه بالمعصية التجأ التجاء أسير قد أسره عدوه وهو يعلم أنه لا خلاص له من أسره الا بان يفتكه سيده من الأسر فكأنه في يد سيده ليس في يده منه شيء ألبتة ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فهو في أسر العدو ناظر الى سيده وهو قادر قد اشتدت ضرورته اليه وصار اعتماده كله عليه، قال سهل : إنما يكون الالتجاء على معرفة الابتلاء ـ يعني وعلى قدر الابتلاء ـ تكون المعرفة بالمبتلي ـ ومن عرف قوله ﷺ : « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » وقام بهذه المعرفة شهودا وذوقا وأعطاها حقها من العبودية فهو الفقير حقا ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة فمن فهم سر هذا

الفقر المحمـــدى ، فهو سبحانه الذى ينجى من قضائه بقضائه وهو الذى يعيذ بنفسه من نفسه وهو الذى يدفع ما منه بما منه فالخلق كله له والأمر كله له والحكم كله له وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وما شاء لم يستطع أن يصرفه الا مشيئته وما لم يشأ لم يكن أن يجلبه الا مشيئته فلا يأتى بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو ولا يهدى لاحسن الأعمال والأخلاق الا هو ولا يصرف سيئها الا هو (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) والتحقق بمعرفة هذا يوجب صحة الاضطرار وكمال الفقر والفاقة ويحول بين العبد وبين رؤية أعماله وأحواله والاستغناء بها والخروج عن رفقة العبودية الى دعوى ما ليس له وكيف يدعى مع الله حالا أو ملكة أو مقاما من قلبه وإرادته وحركاته الظاهرة والباطنة بيد ربه ومليكه لا يملك هو منها شيئا وإنما هى بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فالايمان بهذا والتحقق به نظام التوحيد ومتى انحل من القلب انحل نظام التوحيد فسبحان من لا يوصل اليه الا به ولا يطاع الا بمشيئته ولا ينال ما عنده من الكرامة الا بطاعته ولا سبيل الى طاعته الا بتوفيقه ومعونته، فعاد الأمر كله اليه كما ابتدأ الأمر كله منه فهو الأول والآخر وأن الى ربك المنتهى، ومن وصل الى هذا الحال وقع فى يد التقطع والتجريد وأشرف على مقام التوحيد الخاصى فان التوحيد نوعان عامى وخاصى كما أن الصلاة نوعان والذكر نوعان وسائر القرب كذلك خاصية وعامية ، فالخاصية ما بذل فيها العامل نصحه وقصده بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها، والعامية ما لم يكن كذلك .

فالمسلمون كلهم مشتركون فى اتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله وتفاوتهم فى معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم بحقها باطنا وظاهرا

أمر لا يحصيه الا الله عز وجل ، وقد ظن كثير من الصوفية ان التوحيد الخاص أن يشهد العبد المحرك له ويغيب عن المتحرك وعن الحركة فيغيب بشهوده عن حركته ويشهد نفسه شبحا فانيا يجرى على تصاريف المشيئة كمن غرق فى البحر فامواجه ترفعه طورا وتخفضه طورا فهو غائب بها عن ملاحظة حركته فى نفسه بل قد اندرجت حركته فى ضمن حركة الموج وكأنه لا حركة له بالحقيقة ، وهذا وإن ظنه كثير من القوم غاية وظنه بعضهم لازما من لوازم التوحيد فالصواب ان من ورائه ما هو أجل منه ، وغاية هذا الفناء فى توحيد الربوبية وهو أن لا يشهد ربا وخالقا ومدبرا الا الله وهذا هو الحق ولكن توحيد الربوبية وحده لا يكفى فى النجاة فضلا عن أن يكون شهوده والفناء فيه هو غاية الموحدين ونهاية مطالبهم ، فالغاية التى لا غاية وراءها ولا نهاية بعدها الفناء فى توحيد الالهية وهو أن يفنى بمحبة ربه عن محبة كل ماسواه وبتألهه عن تأله ما سواه وبالشوق اليه والى لقائه عن الشوق الى ما سواه وبالذل له والفقر اليه من جهة كونه معبوده والهه ومحبوبه عن الذل الى كل ما سواه ، وكذلك يفنى بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه فيرى انه ليس فى الوجود ما يصلح له ذلك الا الله ثم يتصف بذلك حالا وينصبغ به قلبه صبغة ثم يفنى بذلك عما سواه فهذا هو التوحيد الخاص الذى شمر اليه العارفون والورد الصافى الذى حام حوله المحبون ، ومتى وصل اليه العبد صار فى يد التقطع والتجريد واشتمل بلباس الفقر الحقيقى وفرق حب الله من قلبه كل محبة وخوفه كل خوف ورجاؤه كل رجاء ، فصار حبه وخوفه ورجاؤه وذله وإيثاره وإرادته ومعاملته كل ذلك واحد الواحد فلم ينقسم طلبه ولا مطلوبه ، فتعدد المطلوب وانقسامه قادح فى التوحيد والاخلاص وانقسام الطلب قادح فى الصدق والارادة فلا بد من

توحيد الطلب والارادة وتوحيد المطلوب المراد فاذا غاب بمحبوبه عن حب غيره وبمذكوره عن ذكر غيره وبمألوهه عن تأله غيره صار من أهل التوحيد الخاص وصاحبه مجرد عن ملاحظة سوى محبوبه أو إيثاره أو معاملته أو خوفه أو رجائه، وصاحب توحيد الربوبية فى قيد التجريد عن ملاحظة فاعل غير الله وهو مجرد عن ملاحظة وجوده وهو كما كان صاحب الدرجة الأولى مجردا عن أمواله وصاحب الثانية مجردا عن أعماله وأحواله، وصاحب الفناء فى توحيد الالهية مجرد عن سوى مراضى محبوبه وأوامره قد فنى بحبه وابتغاء مرضاته عن حب غيره وابتغاء مرضاته وهذا هو التجريد الذى سمت اليه همم السالكين، فمن تجرد عن ماله وحاله وكسبه وعمله ثم تجرد عن شهود تجريده فهو المجرد عندهم حقا، وهذا تجريد القوم الذى عليه يحومون واياه يقصدون ، ونهايته عندهم التجريد بفناء وجوده وبقائه بوجوده بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ولا غاية عندهم وراء هذا ، ولعمر الله ان وراءه تجريدا أكمل منه ونسبته اليه كتفلة فى بحر وشعرة فى ظهر بعير وهو تجريد الحب والارادة عن الشوائب والعلل والحظوظ فيتوحد حبه كما توحد محبوبه ويتجرد عن مراده من محبوبه بمراد محبوبه منه بل يبقى مراد محبوبه هو من نفس مراده، وهنا يعقل الاتحاد الصحيح وهو اتحاد المراد فيكون عين مراد المحبوب هو عين مراد المحب وهذا هو غاية الموافقة وكمال العبودية ولا تتجرد المحبة عن العلل والحظوظ التى تفسدها الا بهذا، فالفرق بين محبة حظك ومرادك من المحبوب وانك انما تحبه لذلك وبين محبة مراد المحبوب منك ومحبتك له لذاته انه أهل أن يحب ، وأما الاتحاد فى الارادة فمحال كما أن الاتحاد فى المريد محال فالارادتان متباينتان، وأما مراد المحب والمحبوب اذا خلصت المحبة من العلل والحظوظ فواحد، فالفقر والتجريد والفنـــاء

من واد واحد وقد جعله صاحب منازل السائرين من قسم النهايات وحده بأنه الانخلاع عن شهود الشواهد وجعله على ثلاث درجات، الدرجة الأولى تجريد الكشف عن كسب اليقين ، والثانية تجريد عين الجمع عن درك العلم ، والثالثة تجريد الخلاص من شهود التجريد ، فقوله فى الأولى: تجريد الكشف عن كسب اليقين ، يريد كشف الايمان ومكاشفة القلب ، وهذا وان حصل باكتساب اليقين من أدلته وبراهينه ، فالتجريد أن يشهد سبق الله بمنته لكل سبب ينال به اليقين أو الايمان فيتجرد كشفه لذلك عن ملاحظة سبب أو وسيلة ، بل يقطع الأسباب والوسائل وينتهى نظره الى المسبب، وهذا ان أريد تجريدها عن كونها أسبابا فتجريد باطل وصاحبه ضال، وان أريد تجريدها عن الوقوف عندها ورؤية انتسابها اليه وصدورها عنوان اليقين ، انما كان به وحده فهذا تجريد صحيح ولكن على صاحبه اثبات الأسباب فان نفاها عن كونها أسبابا فسد تجريده*

وقوله فى الدرجة الثانية: « تجريد عين الجمع عن درك العلم» لما كانت الدرجة الأولى تجريدا عن الكسب وانتهاء الى عين الجمع الذى هو الغيبة بتفرد الرب بالحكم عن اثبات وسيلة أو سبب اقتضت تجريدا آخر أكمل من الأول وهو تجريد هذا الجمع عن علم العبد به ، فالأولى تجريد عن رؤية السبب والفعل ، والثانيه تجريد عن العلم والادراك، وهذا يقتضى أيضا تجريدا ثالثا أكمل من الثانى وهو تجريد التخلص من شهود التجريد، وصاحب هذا التجريد الثالث فى عين الجمع قد اجتمعت همته على الحق وشغل به عن ملاحظة جمعه وذكره وعلمه به قد استغرق ذلك قلبه فلا سعة فيه لشهود علمه بتجريده ولا شعور به فلا التفات له الى تجريده ولو بقى له التفات اليه لم يكمل تجريده ، ووراء هذا كله تجريد نسبة هذا التجريد اليه كشعرة من ظهر بعير الى جملته وهو تجريد الحب

والارادة عن تعلقه بالسوى وتجريده عن العلل والشوائب والحظوظ التى هى مراد النفس فيتجرد الطلب والحب عن كل تعلق يخالف مراد المحبوب فهذا تجريد الحنيفية والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا به *

﴿ فصل فى تقسيم الغنى الى عال وسافل ﴾

ولما كان الفقر الى الله سبحانه هو عين الغنى به فأفقر الناس الى الله أغناهم به وأذلهم له أعزهم وأضعفهم بين يديه أقواهم. وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله وأمقتهم لنفسه أقربهم الى مرضاة الله كان ذكر الغنى بالله مع الفقر اليه متلازمين متناسبين فنذكر فصلا نافعا فى الغنى العالى *

واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون الا بالله الغنى بذاته عن كل ما سواه وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع، وكما أن كونه مخلوقا أمر ذاتى له فكونه فقيرا أمر ذاتى له كما تقدم بيانه وغناه أمر نسبى إضافى عارض له فانه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته فهو غنى به فقير اليه ولا يوصف بالغنى على الاطلاق الا من غناه من لوازم ذاته فهو الغنى بذاته عما سواه وهو الأحد الصمد الغنى الحميد ؛ والغنى قسمان . غنى سافل . وغنى عال فالغنى السافل الغنى بالعوارى المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ؛ وهذا أضعف الغنى فانه غنى بظل زائل وعارية ترجع عن قريب الى أربابها فاذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها وكأن الغنى بها كان حلما فانقضى ولا همة أضعف من همة من رضى بهذا الغنى الذى هو ظل زائل . وهذا غنى أرباب الدنيا الذى فيه يتنافسون وإياه يطلبون وحوله يحومون ولا أحب الى الشيطان وأبعد من الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده *

قال بعض السلف: اذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء. مؤمن قتل مؤمنا. ورجل يموت على الكفر. وقلب فيه خوف الفقر *

وهذا الغنى محفوف بفقرين فقر قبله وفقر بعده وهو كالفوة بينهما فحقيق لمن نصح نفسه أن لا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه بل اذا حصل له جعل سببا لغناه الأكبر ووسيلة اليه ويجعله خادما من خدمه لا مخدوما له وتكون نفسه أعز عليه أن يعبدها لغير مولاه الحق أو يجعلها خادمة لغيره *

﴿ فصل فى الغنى العالى ﴾

وأما الغنى العالى فقال شيخ الاسلام: هو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة. والدرجة الثانية غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب وسلامتها من المسخوط وبراءتها من المراءات. والدرجة الثالثة الغنى بالحق وهو ثلاث مراتب. الأولى شهود ذكره إياك. والثانية دوام مطالعة أوليته. والثالثة الفوز بوجوده، قلت: ثبت عن النبى ﷺ انه قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» ومتى استغنت النفس استغنى القلب ولكن الشيخ قسم الغنى الى هذه الدرجات بحسب متعلقه فقال: غنى القلب سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة، ومعلوم أن هذا شرط فى الغنى لا أنه نفس الغنى بل وجود المنازعة والمخاصمة وعدم المسالمة مانع من الغنى، فهذه السلامة والمسالمة دليل على غنى القلب لا ان غناه بها نفسها وإنما غنى القلب بالدرجة الثالثة فقط كما سيأتى بيانه إن شاء الله فالغنى إنما يصير غنيا بحصول ما يسد فاقته ويدفع حاجته وفى القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه

بحصول الغنى الحميد الذى ان حصل للعبد حصل له كل شيء وان فاته فاته كل شيء فكما انه سبحانه الغنى على الحقيقة ولا غنى سواه فالغنى به هو الغنى فى الحقيقة ولا غنى بغيره ألبتة فمن لم يستغن به عما سواه تقطعت نفسه على السوى حسرات ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة وحضره كل سرور وفرح والله المستعان، وإنما قدم شيخ الاسلام الكلام على غنى القلب على الكلام على غنى النفس لأن كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه وبلوغها الى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب وصلاح النفس متقدم على إصلاحها هكذا قيل وفيه ما فيه لأن صلاح كل واحد منهما مقارن لصلاح الآخر ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً اِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ وَاِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ أَلَا وَهِىَ الْقَلْبُ» والقلب اذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على الامراء والرعية خلعا تناسبها، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والاخبات فأدت الحقوق سماحة لا كظما بانشراح ورضا ومبادرة وذلك لأنها جانست القلب حينئذ ووافقته فى أكثر أموره واتحد مرادهما غالبا فصارت له وزير صدق بعد أن كانت عدوا مبارزا بالعداوة فلا تسأل عما أحدثت هذه الموازرة والموافقة من طمأنينة ولذة عيش ونعيم هو دقيقة من نعيم أهل الجنة، هذا ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما بل عدتها وسلاحها كامن متوار لولا قدرة سلطان القلب وقهره لحاربت بكل سلاح فالمرابطة على ثغرى الظاهر والباطن فرض متعين مدة أنفاس الحياة *

وتنقضى الحرب محمودا عواقبها * للصابرين وحظ الهارب الندم

وخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار، وعلى الوجه خلعة المهابة والنور

والبهاء، وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة، وعلى العين خلعة الاعتبار فى النظر والغض عن المحارم، وعلى الاذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد فى معاشه ومعاده، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش فى الطاعات أين كانت بقوة وأيد، وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ فغدا العبد وراح يرفل فى هذه الخلع ويجر لها فى الناس أذيالا وأردانا، فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرع عليه فاذا استغنى سرى الغنى منه الى النفس، وغنى القلب ماينا سبه من تحقيقه بالعبودية المحضة التى هى أعظم خلعة تخلع عليه فيستغنى حينئذ بما توجبه هذه العبودية له من المعرفة الخاصة والمحبة الناصحة الخالصة وبما يحصل له من ءاثار الصفات المقدسة وتقتضيه من الأحكام والعبوديات المتعلقة بكل صفة على الانفراد ومجموعها قائمة بالذات، وهذا أمر تضيق عن شرحه عدة أسفار بل حظ العبد منه علما وإرادة كما يدخل أصبعه فى اليم بل الأمر أعظم من ذلك والله سبحانه أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاذا استغنى القلب بهذا الغنى الذى هو غاية فقره استغنت النفس غنى يناسبها وذهب عنها البرودة التى توجب ثقلها وكسلها وإخلادها الى الأرض وصارت لها حرارة توجب حركتها وخفتها فى الأوامر وطلبها الرفيق الأعلى وصارت برودتها فى شهواتها وحظوظها ورعوناتها وذهبت عنها أيضا اليبوسة المضادة للينها وسرعة انفعالها وقبولها فانها اذا كانت يابسة قاسية، كانت بطيئة الانفعال بعيدة القبول لا تكاد تنقاد فاذا صارت يبوستها حرارة، وبرودتها رطوبة، وسقيت بماء الحياة الذى أنزله الله عز وجل على قلوب أنبيائه وجعلها قرارا ومعينا له ففاض منها على قلوب أتباعهم فأنبتت من كل زوج كريم، فحينئذ انقادت بزمام المحبة الى مولاها الحق مؤدية لحقوقه قائمة بأوامره راضية عنه مرضية له بكمال طمأنينتها

يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضيه فلنرجع الى كلامه *

فقوله في الدرجة الأولى: وهي غنى القلب انه سلامته من السبب أي من الفقر الى السبب وشهوده والاعتماد عليه والركون اليه والثقة به فمن كان معتمدا على سبب غناه واثقا به لم يطلق عليه اسم الغنى لأنه فقير الى الوسائط بل لا يسمى صاحبه غنيا الا اذا سلم من علة السبب استغناء بالمسبب بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره فلذلك يصير صاحبه غنيا بتدبير الله سبحانه فمن كملت له السلامة من علة الأسباب ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسالمة اي بالانقياد لحكمه الذى حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته ، فاذا وقف العبد على حسن تدبيره واستغنى القلب به لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف وإن لم ينضم اليه المسالمة للحكم وهو الانقياد له فان المنازعة للحكم الى حكم اخر دليل على وجود رعونة الاختيار وذلك دال على فقر صاحب الاختيار الى ذلك الشيء المختار ومن كان فقيرا الى شيء لم يرده الله لم يطلق عليه اسم الغنى بتدبير الله فلا يتم الغنى بتدبير الله سبحانه لعبده الا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره ثم يبقى عليه الخلاص من معنى اخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه فان منازعة الخلق دليل على فقره الى الأمر الذى وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة ، ومن كان فقيرا الى حظ من الحظوظ يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه الى وليه وقيومه ومتولى تدبيره ، فمتى سلم العبد من علة فقره الى السبب ومن علة منازعته لأحكام الله سبحانه ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنيا بتدبير مولاه مفوضا اليه لا يفتقر قلبه الى غيره ولا يسخط شيئا من أحكامه ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه فيكون مخاصمته لله وبالله ومحاكمته

الى الله كما كان النبى ﷺ يقول فى استفتاح صلاة الليل : « اللهمّ لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ وعليكَ توكّلتُ واليكَ أنبتُ وبكَ خاصمتُ واليكَ حاكمتُ » فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه ومحاكمته خصمه الى أمر الله وشرعه لا الى شىء سواه ، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط وهذا لتكميل عبوديته ، ومن حاكم خصمه الى غير الله ورسوله فقد حاكم الى الطاغوت وقد أمر أن يكفر به ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك فى نفس الأمر، والحكم نوعان: حكم كونى قدرى. وحكم أمرى دينى فهذا الذى ذكره الشيخ فى منازل السائرين وشرحه عليه الشارحون إنما مراده به الحكم الكونى القدرى وحينئذ فلا بد من تفصيل ما أجملوه من مسالمة الحكم والاستسلام له وترك المنازعة له فان هذا الاطلاق غير مأمور به ولا ممكن العبد فى نفسه بل الأحكام ثلاثة .حكم شرعى دينى فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة بل بالانقياد المحض وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد ولا يرى الى خلافه سبيلا البتة وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والاذعان والقبول فاذا تلقى بهذا التسليم والمسالمة اقرارا وتصديقا بقى هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذا وعملا فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه كما لم يكن له شبهة تعارض ايمانه واقراره ،وهذا حقيقة القلب السليم الذى سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ، ولا خاض فى الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات بل اندرج خلاقه تحت الأمر واضمحل

خوضه فى معرفته بالحق فاطمأن الى الله معرفة به ومحبة له وعلما بأمره وارادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الدينى، الحكم الثانى الحكم الكونى القدرى الذى للعبد فيه كسب واختيار وارادة والذى حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم ألبتة بل ينازع بالحكم الكونى أيضا فينازع حكم الحق بالحق للحق فيدافع به وله كما قال شيخ العارفين فى وقته عبد القادر الجيلى : الناس اذا دخلوا الى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لى روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق والعارف من يكون منازعا للقدر لا واقفا مع القدر انتهى، فان ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه فتأمل قول عمر بن الخطاب ـ وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له ـ: أتفر من قدر الله؟ فقال: نفر من قدر الله الى قدره

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له فى هذا العالم إلا به ولا يتم له مصلحة إلا بموجبه فانه اذا جاءه قدر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالمته ودفعه بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس فقد دفع قدر الله بقدره، وهكذا اذا وقع الحريق فى داره فهو بقدر الله فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالاذعان بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفىء قدر الله بقدر الله وما خرج فى ذلك عن قدر الله، وهكذا اذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض ، فحق هذا الحكم الكونى أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه فان غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التى نصبها الله لذلك فيكون قد دفع القدر بالقدر ونازع الحكم بالحكم وبهذا أمر بل هذا حقيقة الشرع والقدر ، ومن لم يستبصر فى هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فالعبد ينازع أقدار الرب بأقداره فى حظوظه

وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه وهل هذا الا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه، ولو أن عدوا للاسلام قصده لكان هذا بقدر الله ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعا لقدر الله بقدره فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية اللهم الا اذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة وخرج الأمر عن يده فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث وهو الحكم القدري الكوني الذي يجرى على العبد بغير اختياره ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة وأن يكون فيه كالميت بين يدى الغاسل وكمن انكسر به المركب في لجة البحر وعجز عن السباحة وعن سبب يدنيه من النجاة فههنا يحسن الاستسلام والمسالمة مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخر سوى التسليم والمسالمة وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه وعدله في قضائه وحكمته في جريانه عليه وان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وان الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه الا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة وان القدر قد أصاب مواقعه وحل في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وان ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل فهو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العلى فله عليه أكمل حمد وأتمه كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره وان كان حظ العبد من هذا القدر الذم فحق الرب تعالى منه الحمد والمدح لأنه موجب كماله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وهو موجب نقص العبد وجهله وظلمه وتفريطه فاقتسم الرب والعبد الحظين في هذا

القدر وكان للرب سبحانه فيه الحمد والنعمة والفضل والثناء الحسن وللعبد حظه الذم واللوم والاساءة واستحقاق العقوبة ٭

استأثر الله بالمحامد والفضل وولى الملامة الرجلا

ويشفيه هذا المقام فى أربع آيات، احداها قوله تعالى : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) النساء ٧٩ الثانية قوله: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) آل عمران ١٦٥ الثالثة قوله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) شورى ٣٠ الرابعة قوله تعالى: (وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ) شورى ٤٨ فمن نزل هذه الآيات على هذا الحكم علما ومعرفة وقام بموجبها ارادة وعزما وتوبة واستغفارا فقد أدى عبودية الله فى هذا الحكم، وهذا قدر زائد على مجرد التسليم والمسالمة والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله ٭

﴿ فصل فى تفسير غنى النفس ﴾

قوله فى غنى النفس «انه استقامتها على المرغوب وسلامتها من المسخوط وبراءتها من المراياة» يريد استقامتها على الأمر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه وتجنبها لمناهيه التى يسخطها ويبغضها وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيما لله سبحانه وأمره وايمانا به واحتسابا لثوابه وخشية من عقابه لا طلبا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم وهربا من ذمهم وازدرائهم وطلبا للجاه والمنزلة عندهم ، فان هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد

منه وانه أفقر شيء الى المخلوق فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها ، لأنها اذا أذعنت منقادة لأمر الله طوعا واختيارا ومحبة وإيمانا واحتسابا ، بحيث تصير لذتها وراحتها ونعيمها وسرورها فى القيام بعبوديته كما كان النبى ﷺ يقول: «يَا بِلَالُ أرِحْنَا بِالصَّلَاةِ »(١) وقال ﷺ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »(٢) فقرة العين فوق المحبة فجعل النساء والطيب مما يحبه وأخبر أن قرة العين التى يطمئن القلب بالوصول اليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته انما هو فى الصلاة التى هى صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه فكيف لا تكون قرة العين وكيف تقر عين المحب بسواها.

فاذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأى فقر يخشى معه وأى غنى فاتها حتى تلتفت اليه ولا يحصل لها هذا حتى ينقلب طبعها ويصير مجانسا لطبيعة القلب فتصير بذلك مطمئنة بعد أن كانت لوامة وانما تصير مطمئنة بعد تبدل صفاتها وانقلاب طبعها لاستغناء القلب بما وصل اليه من نور الحق سبحانه فجرى أثر ذلك النور فى سمعه وبصره وشعره وبشره وعظمه ولحمه ودمه وسائر مفاصله وأحاط بجهاته من فوقه وتحته ويمينه ويساره وخلفه وأمامه ، وصارت ذاته نورا وصار عمله نورا وقوله نورا ومدخله نورا ومخرجه نورا ، وكان فى مبعثه ممن انبهر له نوره فقطع به الجسر، واذا وصلت النفس الى هذه الحال استغنت بها عن التطاول الى الشهوات التى توجب اقتحام الحدود المسخوطة والتقاعد عن الأمور المطلوبة

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده (٢) رواه الامام احمد وغيره ، قال المناوى: هذا لفظ الوارد ومن زاد «ثلاث» فقد وهم

المرغوبة فان فقرها الى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب ، وأيضا فتقاعدها عن المطلوب بينهما موجب لفقرها الى الشهوات فكل منهما موجب الآخر وترك الأوامر أقوى لها فى افتقارها الى الشهوات فانه بحسب قيام العبد بالأمر تدفع عنه جيوش الشهوة كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج ٣٨ وفى القراءة الأخرى (يدفع) فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوة الايمان وضعفه ، واذا صارت النفس حرة طيبة مطمئنة غنية بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذى وقع فى القلب ففاض منه اليها استقامت بذلك الغنى على الأمر المرهوب وسلمت به عن الأمر المسخوط وبرئت من المراياة ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنا وظاهرا ولهذا كان الدين كله فى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ هود ١١٢ وقال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ احقاف ١٣

﴿ فصل فيما يغنى القلب ويسد الفاقة ﴾

وهذه الاستقامة ترقيها الى الدرجة الثالثة من الغنى وهو الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كل ماسواه وهى أعلى درجات الغنى ، فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله عز وجل إياك قبل ذكرك له . وانه تعالى ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداء قبل وجودك وطاعتك وذكرك فقدر خلقك ورزقك وعملك واحسانه اليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئا البتة ، وذكرك تعالى بالاسلام فوفقك له واختارك له دون من خذله قال تعالى :﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ الحج ٧٨ فجعلك أهلا لما لم تكن أهلا له قط وانما هو الذى أهلك بسابق ذكره فلولا ذكره لك بكل جميل

أولا كه لم يكن لك اليه سبيل ، ومن الذى ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك فى رقدة الغفلة مع النوام ؟ ومن الذى ذكرك سواه بالتوبة حتى وفقك لها وأوقعها فى قلبك وبعث دواعيك وأحيا عزماتك الصادقة عليها حتى ثبت اليه وأقبلت عليه فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذتها ومن الذى ذكرك سواه بمحبته حتى هاجت من قلبك لواعجها وتوجهت نحوه سبحانه ركائبها وعمر قلبك بمحبته بعد طول الخراب وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب ، ومن تقرب اليك أولا حتى تقربت اليه ثم أثابك على هذا التقوب تقربا ءاخر فصار التقرب منك محفوفا بتقربين منه تعالى تقربا قبله وتقربا بعده والحب منك محفوفا بحبين منه حب قبله وحب بعده والذكر منك محفوفا بذكرين ذكر قبله وذكر بعده فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء ولا وصل الى قلبك ذرة مما وصل اليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والانابة اليه والتقرب اليه؛ فهذه كلها ءاثار ذكره لك *

ثم انه سبحانه ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس فله عليك فى كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكرك بها قبل وجودك وتعرف بها اليك وتحبب بها اليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده إذ هو الجواد المفضل المحسن لذاته لا لمعاوضة ولا لطلب جزاء منك ولا لحاجة دعته الى ذلك كيف وهو الغنى الحميد فاذا وصل اليك أدنى نعمة منه فاعلم انه ذكرك بها فلتعظم عندك لذكره لك بها فانه ما حقرك من ذكرك باحسانه وابتدأك بمعروفه وتحبب اليك بنعمته، هذا كله مع غناه عنك فاذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له ووصل شاهده الى قلبه شغله ذلك عما سواه وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه

شيء ، وهذا كما يحصل للمملوك الذى لا يزال أستاذه وسيده يذكره ولا ينساه فهو يحصل له بشعوره بذكر أستاذه له غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له فهذا هو غنى ذكر الله للعبد وقد قال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « مَنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى وَمَنْ ذَكَرَنِى فِى مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ »(١) فهذا ذكران بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذى ذكره به حتى جعله ذاكرا وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائدا على إنعام ربه عليه وعطاياه له ، وقد ذكرنا فى كتاب الكلم الطيب والعمل الصالح من فوائد الذكر استجلاب ذكر الله سبحانه لعبده وذكرنا قريبا من مائة فائدة تتعلق بالذكر كل فائدة منها لا خطر لها وهو كتاب عظيم النفع جدا (٢)، والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغنى قلبه ويسد فاقته وهذا بخلاف من نسى الله فنسيهم فان الفقر من كل خير حاصل لهم وما يظنون انه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر اسباب فقرهم .

﴿فصل فى بيان الدرجة الثانية من درجات الغنى بالله عز وجل﴾

الدرجة الثانية من درجات الغنى بالله عز وجل دوام شهود أوليته سبحانه، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى مما قبله والغنى به أتم من الغنى المذكور لأنه من مبادى الغنى بالحقيقة لأن العبد اذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره وهو الاله الحق الكامل فى أسمائه وصفاته الغني بذاته عما سواه الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده ، فهو معبود محمود حي قيوم له الملك وله الحمد فى الأزل

---

(١) هو قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم (٢) وهو المسمى بوابل الصيب من الكلم الطيب وقد طبعناه والحمد لله طبعا متقنا فعليك به فانه انفس ما ألف فى ذلك

والأبد لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الجلال منعوتا بنعوت الكمال وكل شيء سواه فانما كان به وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره فهو القيوم الذى قيام كل شيء به ولا حاجة به فى قيوميته الى غيره بوجه من الوجوه فاذاً شهد العبد سبقه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى فى وجوده من لم يكن وبقى من لم يزل واضمحلت الممكنات فى وجوده الأزلى الدائم بحيث صارت كالظلال التى يبسطها ويمدها ويقبضها فيستغنى العبد بهذا المشهد العظيم ويتغذى بها عن فاقاته وحاجاته وإنما كان هذا عندهم أفضل مما قبله لأن الشهود الذى قبله فيه شائبة مشيرة الى وجود العبد وهذا الشهود الثانى سائر الموجودات كلها سوى الأول تعالى قد اضمحلت وفنيت فيه وصارت كأوليتها وهو العدم فانتها أزلية الحق سبحانه فبقى العبد محوا صرفا وعدما محضا وإن كانت أنيته مشخصة مشارا اليها لكنها لما نسبت الى أولية الحق عز وجل اضمحلت وفنيت وبقى الواحد الحق الذى لم يزل باقيا فاضمحل ما دون الحق تعالى فى شهود العبد كما هو مضمحل فى نفسه وشهد العبد حينئذ أن كل شيء ما سواه باطل وان الحق المبين هو الله وحده ولاريب أن الغنى بهذا الشهود أتم من الغنى بالذى قبله وليس هذا مختصا بشهود أوليته تعالى فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها *

فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستواءه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب اليه مناجيا له مطرقا واقفا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدى الملك العزيز فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد اليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه فيستحى أن يصعد

اليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ويشهد نزول الأمر والمراسيم الالهية الى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف من الاماتة والاحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وارساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس الى غير ذلك من التصرفات فى المملكة التى لايتصرف فيها سواه فمراسمه نافذة فيها كما يشاء (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) ه

فمن أعطى هـذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذى لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات ولا فى قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال بل أحاط بذلك علمه علما تفصيليا ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لايخفى عليه منها شيء ، وكذلك اذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها، وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر ولا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هى عنده كلها كصوت واحد كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة ، وكذلك اذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذى يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى حندس الظلماء ، ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها فى ظلمة الليل وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاتها وسكناته وتيقن أنها بمرآى منه سبحانه ومشاهدة لايغيب عنه منها شيء ، وكذلك اذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وانه قائم على كل شيء

وقائم على كل نفس وانه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن اليه وجزاء المسيء اليه وانه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى ه

وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو مشهد الربوبية، وأعلى منه مشهد الالهية الذى هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء وهو شهادة أن لا إله إلا هو وأن إلهية ماسواه باطل ومحال كما ربوبية ماسواه كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وافعاله فهو المطاع وحده على الحقيقة والمألوه وحده وله الحكم وحده فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها وكل غنى لغيره فقر وفاقة وكل عز بغيره ذل وصغار وكل تكثير بغيره قلة وذلة فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره فهو الذى انتهت اليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات ويستحيل أن يكون معه إله آخر فان الاله على الحقيقة هو الغنى الصمد الكامل فى أسمائه وصفاته الذى حاجة كل أحد اليه ولا حاجة به الى أحد وقيام كل شىء به وليس قيامه بغيره ، ومن المحال أن يحصل فى الوجود اثنان كذلك ولو كان فى الوجود إلهان لفسد نظامه اعظم فساد واختل أعظم اختلال كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل فان استقلالهما ينافى استقلالهما واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر، فتوحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الالهية ولذلك وقع الاحتجاج به فى القرآن أكثر مما وقع بغيره لصحة دلالته وظهورها وقبول العقول والفطر لها ولاعتراف أهل الارض بتوحيد الربوبية وكذلك كان عباد الاصنام يقرون به وينكرون

توحيد الالهية ويقولون: أجعل الآلهة إلهاً واحداً مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم وللسموات والأرض وما بينهما وانه المنفرد بملك ذلك كله فأرسل الله تعالى يذكر بما فى فطرهم الاقرار به من توحيده وحده لاشريك له وأنهم لو رجعوا الى فطرهم وعقولهم لدلتهم على امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه، فمشهد الالوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ، ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو إسم الله جل جلاله فان هذا الاسم هو الجامع ، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها اليه فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله ولا يقال: الله من أسماء الرحمن قال الله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى) فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها وكل مشهد سواه فانما هو مشهد لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الالهية وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالاله الحق وسار من أغنى العباد ولسان حال مثل هذا يقول :

غنيت بلا مال عن الناس كلهم ٭ وان الغنى العالى عن الشىء لا به

فياله من غنى ما أعظم خطره واجل قدره تضاءلت دونه الممالك فما دونها وصارت بالنسبة اليه كالظل من الحامل له والطيف الموافى المنام الذى يأتى حديث النفس ويطرده الانتباه من النوم ٭

﴿ فصل فى بيان الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب ﴾

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب سبحانه الفوز بوجوده ، هذا الغنى أعلى درجات الغنى لأن الغنى الأول . والثانى كانا من آثار ذكر الله والتوجه ففاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة

واستغنى القلب بذلك وجعل له أيضا أنوار الشعور بكفالته وكفايته لعبده وحسن وكالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أيضا ٭

وأما هذا الغنى الثالث الذى هو الغنى بالحق فهو من ءاثار وجود الحقيقة وهو انما يكون بعد ترقيه من ءاثار الصفات إلى ءاثار وجود الذات وانما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد فهذا أوله وكماله عند طلوع شمسه فينقطع ضباب الوجود الفانى وتشرق شمس الوجود الباقى فينقطع لها كل ضباب ، وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب يكشف له بذلك النور عن عظمة الذات كما كشف له بالنور الذى قبله عن عظمة الصفات ، فاذا كان أثر من ءاثار صفات الذات أو صفات الأفعال يغنى القلب والنفس فما ظنك بما تكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والاكرام ، فهذا غنى لا يناله الوصف ولا يدخل تحت الشرح فيستغنى العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم ،

فيالك من فقر ينقضى ومن غنى يدوم ومن عيش ألذ من المنى فلا تستعجز نفسك عن البلوغ الى هذا المقام فبينك وبينه صدق الطلب وانما هى عزمة صادقة ونهضة حر ممن لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أن يبيعها بالدون ، وقد جاء فى أثر إلهى يقول الله عز وجل : «ابْنَ ءادمَ خَلَقْتُكَ لِنَفْسِى فَلَا تَلْعَبْ وَتَكَفَّلْتُ برزقك فَلَا تتعبْ ابْنَ ءادَمَ اطْلُبْنِى تجدْنى فَانْ وَجدْتَنِى وَجَدْتَ كُلَّ شَىْءٍ وَانْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شىءٍ وَأَنَا أَحَبُّ اليْكَ منْ كُلِّ شىءٍ» ، فمن طلب الله بصدق وجده ومن وجده أغناه وجوده عن كل شىء فأصبح حراً فى غنى ومهابة على وجهه أنواره وضياؤه وإن فاته مولاه جل جلاله تباعد مايرجو وطال عناؤه ومن وصل الى هذا الغنى قرت به كل عين لأنه قد

قرت عينه بالله والفوز بوجوده، ومن لم يصل اليه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وقد قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَاقُدِّرَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِى قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِلَيْهِ أَسْرَع» فهذا هو الفقر الحقيقى والغنى الحقيقى، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله سبحانه أكبر همه، فهذا من باب التنبيه والأولى *

﴿فصل فى ذكر كلمات عن أرباب الطريق فى الفقر والغنى﴾

قال يحيى بن معاذ: الفقر أن لاتستغنى بشيء غير الله ورسمه عدم الاسباب كلها، قلت: يريد عدمها فى الاعتماد عليها والطمأنينة بها بل تصير عدما بالنسبة الى سبق مسببها بالأولية، وتفرده بالازلية وسئل محمد بن عبدالله الفرغانى عن الافتقار الى الله سبحانه والاستغناء به فقال: اذا صح الافتقار الى الله تعالى صح الاستغناء به واذا صح الاستغناء به صح الافتقار اليه فلا يقال: أيهما أكمل لأنه لايتم احدهما الا بالآخر، قلت: الاستغناء بالله هو عين الفقر اليه وهما عبارتان عن معنى واحد لأن كمال الغنى به هو كمال عبوديته وحقيقة العبودية كمال الافتقار اليه من كل وجه، وهذا الافتقار هو عين الغنى به فليس هنا شيئان يطلب تفضيل أحدهما على الآخر وانما يتوهم كونهما شيئين بحسب المستغنى عنه والمفتقر اليه فهى حقيقة واحدة ومقام واحد يسمى غنى بالنسبة الى فراغه عن الموجودات الفانية وفقرا بالنسبة الى قصر همته وجمعها على الله سبحانه وتعالى فهى همة

سافرت عن شيء واتصلت بغيره فسفرها عن الغير غنى وسفرها الى الله فقر فاذا وصلت اليه استغنت به بكمال فقرها اليه اذا يصير لها بعد الوصول فقر اخر غير فقرها الأول وانما يكمل فقرها بهذا الوصول *

وسئل رويم عن الفقر فقال: ارسال النفس في أحكام الله تعالى، قلت: إن أراد الحكم الديني فصحيح وإن أراد الحكم الكوني القدري فلا يصح هذا الاطلاق بل لا بد فيه من التفصيل كما تقدم بيانه وإرسال النفس في أحكامه التي يسخطها ويبغضها وارسالها في أحكامه التي يجب منازعتها ومدافعتها بأحكامه خروج عن العبودية ، وقيل: نعت الفقير ثلاثة أشياء حفظ سره . وأداء فرضه . وصيانة فقره، قلت: حفظ السر كتمانه صيانة له من الأغيار وغيرة عليه أن ينكشف لمن لا يعرفه ولا يؤمن عليه، واداء الفرض قيام بحق العبودية، وصيانة الفقر حفظه عن لوث مساكنة الأغيار وحفظه عن كل سبب يفسده وكتمانه ما استطاع *

وقال ابراهيم بن أدهم : طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر ، وسئل يحيى بن معاذ عن الغنى فقال : هو الأمن بالله عز وجل ، وسئل أبو حفص بماذا ينبغي أن يقدم الفقير على ربه ؟ فقال: ما ينبغي للفقير أن يقدم على ربه بشيء سوى فقره ، وقال بعضهم : ان الفقير الصادق ليخشى من الغنى حذرا أن يدخله فيفسد عليه فقره كما يخشى الغني الحريص من الفقر أن يدخله فيفسد عليه غناه ، وقال بشر بن الحارث: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر الى القبر ، قلت ومن ههنا قال القائل:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه * فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما * قلب يرى ألفه الأعياد والجمعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي * والعيد ما دمت لي مرأى ومستمعا

وسئل ابن الجلاء متى يستحق الفقير اسم الفقر ؟ فقال: اذا لم يبق عليه بقية منه فقيل له : كيف ذلك؟ فقال : اذا كان له فليس له واذا لم يكن له فهو له ،قلت: معنى هذا انه لايبقى عليه بقية من نفسه فاذا كان لنفسه فليس لها بل قد أضاع حقه وضيع سعادتها وكمالها واذا لم يكن لنفسه بل كان كله لربه فقد أحرز كل حظ له وحصل لنفسه سعادتها فانه اذا كان لله كان الله له واذا لم يكن لله لم يكن الله له فكيف تكون نفسه له فهذا من الذين خسروا أنفسهم *

وقيل: حقيقة الفقر أن لا يستغنى الفقير فى فقره بشىء إلا بمن اليه فقره ، وقال أبو حفص : أحسن ما توسل به العبد الى مولاه دوام الفقر اليه على جميع الأحوال • وملازمة السنة فى جميع الأفعال . وطلب القوت من وجه حلال ، وقال بعضهم : ينبغى للفقير أن لا تسبق همته خطوته، قلت : يشير الى تعلق همته بواجب وقته وأنه لا يتخطى همته واجب الوقت قبل اكماله ، وأيضا يشير الى قصر أمله وان همته غير متعلقة بوقت لا يحدث نفسه ببلوغه ، وايضا يشير الى جمع الهمة على حفظ الوقت ولا يضعفها بتقسيمها على الأوقات ، وقيل : أقل ما يلزم الفقير فى فقره اربعة أشياء . علم يسوسه . وورع يحجزه . ويقين يحمله . وذكر يؤنسه *

وقال أبو سهل الخشاب لمنصور المغربى : إنما هو فقر وذل فقال منصور : بل فقر وعز فقال أبو سهل: فقر وثرى فقال منصور : بل فقر وعرش ، قلت: أشار أبو سهل الى البداية ومنصور الى الغاية ، وقال الجنيد : اذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه فقلت: ياأبا القاسم كيف يكون فقير يوحشه العلم؟ فقال: نعم الفقير اذا كان صادقا فى فقره فطرحت عليه العلم ذاب كما يذوب الرصاص فى النار *

وقال أبو المظفر القرميسي : الفقير هو الذى لايكون له الى الله حاجة، قال أبو القاسم القشيرى : وهذا اللفظ فيه أدنى غموض على من سمعه على وصف الغفلة عن مرمى القوم وإنما أشار قائله الى سقوط المطالبات وانتفاء الاختيارات والرضى بما يجريه الحق سبحانه *

قلت: وبعد فهو كلام مستدرك خطأ فان حاجات هذا العبد الى الله بعدد الأنفاس إذ حاجاته ليست كحاجات غيره من أصحاب الحظوظ والأقسام بل حاجات هؤلاء فى حاجة هذا العبد كتفلة فى بحر فان حاجته الى الله فى كل طرفة عين أن يحفظ عليه حاله ويثبت قلبه ويرقيه فى مقامات العبودية ويصرف عنه ما يفسدها عليه ويعرفه منازل الطريق ومكامنها واوقاتها ويعرفه مواقع رضاه ليفعلها ويعزم عليها ومواقع سخطه ليعزم على تركها ويجتنبها فأى حاجات أكثر وأعظم من هذه؟ فالصواب أن يقال: الفقير هو الذى حاجاته الى الله بعدد أنفاسه أو أكثر فالعبد له فى كل نفس ولحظة وطرفة عين عدة حوائج الى الله لايشعر بكثير منها فأفقر الناس الى الله من شعر بهذه الحاجات وطلبها من معدنها بطريقها وان كان لابد من اطلاق تلك العبارة على أن منها كل بد فيقال: هو الذى لاحاجة له الى الله تخالف مرضاته و[illegible]طه عن مقام العبودية الى منزلة الاستغناء، واما أن يقال: لاحاجة له الى الله فشطح قبيح، وأما حمل أبى القاسم لكلامه على اسقاط المطالبات وانتفاء الاختيار والرضى بمجارى الأقدار فانما يحسن فى بعض الحالات وهو فى القـــدر الذى يجرى عليه بغير اختياره ولا يكون مأموراً بدفعه ومنازعته بقدر آخر كما تقدم ، وأما اذا كان مأمورا بدفعه ومنازعته بقدر هو أحب الى الله منه وهو مأمور به أمر إيجاب أو استحباب فاسقاط المطالبات وانتفاء الاختيار فيه والسعى عين العجز والله

سبحانه يلوم على العجز ، وقال ابن خفيف: الفقر عدم الأملاك والخروج عن أحكام الصفات، قلت : يريد عدم اضافة شيء اليه اضافة ملك وأن يخرج عن أحكام صفات نفسه ويبدلها بأحكام صفات مالكه وسيده ، مثاله أن يخرج عن حكم صفة قدرته واختياره التى توجب له دعوة الملك والتصرف والاضافات ويبقى بأحكام صفة القدرة الأزلية التى توجب له العجز والفقر والفاقة كما فى دعاء الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، فهذا اتصاف بأحكام الصفات العلى فى العبد وخروج عن احكام صفات النفس *

وقال ابو حفص: لا يصح لأحد الفقر حتى يكون العطاء احب اليه من الأخذ وليس السخاء ان يعطى الواجد المعدم وانما السخاء ان يعطى المعدم الواجد ، وقال بعضهم: الفقير الذى لا يرى لنفسه حاجة الى شيء من الأشياء سوى ربه تبارك وتعالى ، وسئل سهل بن عبد الله متى يستريح الفقير ؟ فقال: اذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه ، وقال ابو بكر بن طاهر : من حكم الفقير ان لا يكون له رغبة وان كان لا بد فلا تجاوز رغبته كفايته ، وسئل بعضهم عن الفقير الصادق فقال: الذى لا يملك ولا يملك ، وقال ذو النون: دوام الفقر الى الله مع التخليط أحب الى من دوام الصفاء مع العجب والله أعلم *

﴿ فصل فى تحقيق نعت الفقير ﴾

فجملة نعت الفقير حقا انه المتخلى من الدنيا تظرفا والمتجافى عنها تعففا لا يستغنى بها تكثرا ولا يستكثر منها تملكا وان كان مالكا لها بهذا الشرط لم تضره بل هو فقير غناه فى فقره وغنى فقره فى غناه ومن

نعته أيضا أن يكون فقيراً من حاله وهو خروجه عن الحال تبريا وترك الالتفات اليه تسليما وترك مساكنة الأحوال والرجوع عن موافقتها فلا يستغنى بها اعتمادا عليها ولا يفتقر اليها مساكنة لها ، ومن نعته أنه يعمل على موافقة الله فى الصبر والرضى والتوكل والانابة فهو عامل على مراد الله منه لا على موافقة هواه وهو تحصيل مراده من الله فالفقير خالص بكليته لله سبحانه ليس لنفسه ولا لهواه فى أحواله حظ لله ونصيب بل عمله بقيام شاهد الحق وفناء شاهد نفسه قد غيبه شاهد الحق عن شاهد نفسه فهو يريد الله بمراد الله فمعموله على الله وهمته لا تقف دون شيء سواه، قد فنى بحبه عن حب ما سواه وبأمره عن هواه وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه فهو فى واد والناس فى واد، خاضع متواضع سليم القلب سلس القياد للحق سريع القلب الى ذكر الله برىء من الدعاوى لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله زاهد فى كل ماسوى الله راغب فى كل مايقرب الى الله ، قريب من الناس أبعد شيء منهم ، يأنس بما يستوحشون منه ويستوحش مما يأنسون به ، منفرد فى طريق طلبه لا تقيده الرسوم ولا تملكه الفوائد ولا يفرح بموجود ولا يأسف على مفقود من جالسه قرت عينه به ومن رءاه ذكرته رؤيته بالله سبحانه قد حمل كله ومؤنته عن الناس واحتمل أذاهم ، وكف أذاه عنهم وبذل لهم نصيحته وسبل لهم عرضه ونفسه ، لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز لا يدخل فيما لا يعنيه ولا يبخل بما لا ينقصه ، وصفه الصدق والعفة والايثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضا ولا مدحة ، لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يرى له على أحد حقا ولا يرى له على أحد فضلا مقبل على شانه مكرم لاخوانه بخيل بزمانه حافظ للسانه مسافر فى ليله ونهاره ويقظته ومنامه لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل الى

مطلبه قد رفع له علم الحب فشمر اليه وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكليته عليه أجاب منادى المحبة إذ دعاه حى على الفلاح ووصل السرى فى بيداء الطلب فحمد عند الوصول مسراه ، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح :

فحى على جنات عدن فانها * منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى * نعود الى أوطاننا ونسلم
وحى على روضاتها وخيامها * وحى على عيش بها ليس يسأم
وحى على يوم المزيد وموعدا الـ * ـمحبين طوبى للذى هو منهم
وحى على واد بها هوافيح * وتربته من أذفر المسك أعظم
ومن حولها كثبان مسك مقاعد * لمن دونهم هذا الفخار المعظم
يرون به الرحمن جل جلاله * كرؤية بدر التم لا يتوهم
أو الشمس صحوا ليس من دون أفقها * ضباب ولا غيم هناك يغيم
وبيناهم فى عيشهم وسرورهم * وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسم
اذا هم بنور ساطع قد بدا لهم * فقيل ارفعوا أبصاركم فاذا هم
بربهم من فوقهم وهو قائل * سلام عليكم طبتم وسلمتم
فيا عجبا ما عذر من هو مؤمن * بهذا ولا يسعى له ويقدم
فبادر اذا ما دام فى العمر فسحة * وعدلك مقبول وصرفك قيم
فما فرحت بالوصل نفس مهينة * ولا فاز قلب بالبطالة ينعم
فجد وسارع واغتنم ساعة السرى * ففى زمن الامكان تسعى وتغنم
وسر مسرعا فالسير خلفك مسرع * وهيهات ما منه مفر ومهزم
فهن المنايا أى واد نزلته * عليها قدوم أو عليك ستقدم
وإن تك قد عاقتك سعدى فقلبك الـ * ـمعنى رهين فى يديها مسلم
وقد ساعدت بالوصل غيرك فالهوى * لها منك والواشى بها يتنعم
فدعها وسل النفس عنها بجنة * من الفقر فى روضاتها الدر يبسم

ومن تحتها الأنهار تخفق دائما … وطير الأمانى فوقها يترنم
وقد ذللت منها القطوف فمن يرد … جناها ينله كيف شاء وينعم
وقد فتحت أبوابها وتزينت … لخطابها فالحسن فيها مقسم
أقام على أبوابها داعى الهدى … هلموا الى دار السعادة تغنموا
وقد طاب منها نزلها ومقيلها … فطوبى لمن حلوا بها وتنعموا
وقد غرس الرحمن فيها غراسه … من الناس والرحمن بالغرس أعلم
فمن كان من غرس الاله فانه … سعيد وإلا فالشقا متحتم
فيامسرعين السير بالله ربكم … قفوا بى على تلك الربوع وسلموا
وقولوا : محب قاده الشوق نحوكم … قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا
قضى الله رب العالمين قضية … بأن الهوى يعمى القلوب ويبكم
وحبكم أصل الهدى ومداره … عليه وفوز المحب ومغنم
وتفنى عظام الصب بعد مماته … وأشواقه وقف عليه محرم
فيا أيها القلب الذى ملك الهوى … أعنته حتام هذا التلوم
وحتام لا تصحو وقد قرب المدى … ودقت كؤس السير والناس نوم
بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا … ويبدو لك الأمر الذى كنت تكتم
ويا موقدا نارا لغيرك ضوءها … وحر لظاها بين جنبيك يضرم
أهذا جنى العلم الذى قد غرسته … وهذا الذى قد كنت ترجوه تطعم
وهذا هو الحظ الذى قد رضيته … لنفسك فى الدارين لو كنت تفهم
وهذا هو الربح الذى قد كسبته … لعمرك لا ربح ولا الأصل يسلم
بخلت بشىء لا يضرك بذله … وجدت بشىء مثله لا يقوم
وبعت نعيما لا انقضاء له ولا … نظير ببخس عن قليل سيعدم
فهلا عكست الأمر ان كنت حازما … ولكن أضعت الحزم ان كنت تعلم
وتهدم ما تبنى بكفك جاهدا … فأنت مدى الأيام تبنى وتهدم

وعنـد مراد الحق تفنى كميت   وعنـد مراد النفس تسدى وتلحم
وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا   ظهيرا على الرحمن للجبر تزعم
تنزه تلك النفس عن سوء فعلها   وتعتب أقـدار الاله وتظـلم
وتزعم مع هـذا بأنك عارف   كذبت يقينا فى الذى أنت تزعم
وما أنت إلا جاهـل ثم ظـالم   وانك بين الجاهلين مقـدم
اذا كان هذا نصح عبد لنفسه   فمن ذا الذى منـه الهـدى يتعـلم
وفى مثل هذا كان قد قال من مضى   وأحسن فيما قاله المتكلم
فان كنت لا تدرى فتلك مصيبة   وان كنت تدرى فالمصيبة أعظم
ولو تبصر الدنيا وراء ستورها   رأيت خيـالا فى منـام سيصرم
كحلم بطيف زار فى النوم وانقضى الـ   ـمنام وراح الطيف والصب مغرم
وظل أرته الشمس عند طلوعها   سيقلص فى وقت الزوال ويفصم
ومزنة صيف طاب منها مقيلها   فولت سريعا والحرور تضرم
فجزها ممرا لا مقرا وكن بها   غريبا تعش فيها حميـدا وتسلم
أو ابن سبيل قال فى ظـل دوحة   وراح وخـلا ظلها يتقسم
أخا سفر لا يستقر قراره   الى أن يرى اوطانه ويسلم
فيـا عجبـا كم مصرع عطبوا به   بنوها ولكن عن مصارعها عموا
سقتهم بكأس الحب حتى اذا انثنوا   سقتهم كؤس السم والقوم قد ظموا
واعجب ما فى العبد رؤية هذه الـ   ـعظائم منها وهو فيهـا متيم
واعجب من ذا ان احبابها الألى   تهين وللاعدا تراعى وتكرم
وذلك برهان على ان قدرها   جناح بعوض او ادق والأم
وحسبك ما قال الرسـول ممثلا   لها ولدار الخلد والحق يفهم
كما يدخل الانسان فى اليم أصبعا   وينزعها منه فمـا ذاك يغنم
ألا ليت شعرى لم ابيتن ليـلة   على حذر منها وامرى محكم

وهل اردن ماء الحياة وارتوى   على ظمأ من حوضه وهو مفعم
وهل تبدون اعلامهم بعد ماسفت   عليها السوافى تستبين وتعلم
وهل أفرشن خدى ثرى عتباتهم   خضوعا لهم كيما يرقوا ويرحموا
وهل ارين نفسى طريحا ببابهم   وطير امانى الحب فوقى تحوم
فوا اسفى تفنى الحياة وتنقضى   وعتبكم باق بقيتم وعشتم
فما منكم بد ولا عنكم غنى   ومالى من صبر فأسلو عنكم
فمن شاء فليغضب سواكم فلا اذى   اذا كنتم عن عبدكم قد رضيتم
وعقبى اصطبارى فى رضاكم هوى لكم   حميد ولكنه عقاب ومغرم
وما انا بالشاكى لما ترتضونه   ولكننى أرضى به وأسلم
وحسبى انتسابى من بعيد اليكم   وذلك حظ مثله يتيمم
أذا قيل هذا عبدهم ومحبهم   تهلل بشرا ضاحكا يتبسم
وهاهو قد أبدى الضراعة قائلا   لكم بلسان الحال والحال يعلم
احبتنا عطفا علينا فاننا   بنا ظمأ والمورد العذب أنتم
فيا ساهيا فى غمرة الجهل والهوى   صريع الامانى عن قليل ستندم
أفق قد دنا الوقت الذى ليس بعده   سوى جنة أو حر نار تضرم
وبالسنة الغراء كن متمسكا   هى العروة الوثقى التى ليس تفصم
تمسك بها مسك البخيل بماله   وعض عليها بالنواجذ تسلم
واياك مما أحدث الناس بعدها   فمرتع هاتيك الحوادث أوخم
وهيىء جوابا عند ماتسمع الندا   من الله يوم العرض ماذا أجبتم
به رسلى لما أتوكم فمن يجب   سواهم سيخزى عند ذاك ويندم
وخذ من تقى الرحمن أسبغ جنة   ليوم به تبدو عيانا جهنم
وينصب ذاك الجسر من فوق متنها   فهاو ومخدوش وناج مسلم

ويأتى إله العالمين لوعده فيفصل مابين العباد ويحكم
ويأخذ للمظلوم اذ ذاك حقه فياويح من قد كان للخلق يظلم
وينشر ديوان الحساب وتوضع الـ موازين بالقسط الذى ليس يظلم
فلا مجرم يخشى هناك ظلامة ولا محسن من أجره الذر يهضم
وتشهد أعضاء المسىء بما جنى لذاك على فيه المهيمن يختم
وياليت شعرى كيف حالك عندما تطاير كتب العالمين وتقسم
أتأخذ باليمنى كتابك أم ترى بيسراك خلف الظهر منك يسلم
وتقرأ فيه كل شىء عملته فيشرق منك الوجه أو هو يظلم
تقول كتابى هاؤم فاقرؤه لى تبشر بالجنات حقا وتعلم
وان تكن الأخرى فانك قائل ألا ليتنى لم أوته فهو مغرم
فلا والذى شق القلوب وأودع الـ محبة فيها حيث لاتتصرم
وحملها قلب المحب وانه ليضعف عن حمل القميص ويألم
وذللها حتى استكانت لصولة الـ محبة لاتلوى ولا تتلعثم
وذلل فيها أنفسا دون ذلها حياض المنايا فوقها هى حوم
لقد فاز أقوام وحازوا مرابحا بتركهم الدنيا والاقبال منهم
على ربهم طول الحياة وحبهم على نهج ماقد منه فهم هم

(قاعدة شريفة عظيمة القدر حاجة العبد اليها أعظم من حاجته الى الطعام والشراب والنفس بل والى الروح التى بين جنبيه) *

اعلم أن كل حى سوى الله فهو فقير الى جلب ماينفعه ودفع مايضره والمنفعة للحى من جنس النعيم . واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب فلا بد من أمرين، أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع به . ويتلذذ به . والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود . والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه ، فهاهنا أربعة أشياء . أمر محبوب

مطلوب الوجود . والثانى أمر مكروه مطلوب العدم . والثالث الوسيلة الى حصول المحبوب . والرابع الوسيلة الى دفع المكروه *

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد بل ولكل حي سوى الله لا يقوم صلاحه الا بها، اذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لاشريك له وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره وما سواه هو المكروه المطلوب بعده وهو المعين على دفعه فهو سبحانه الجامع للامور الاربعة دون ماسواه ، وهذا معنى قول العبد: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فان هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب على اكمل الوجوه، والمستعان هو الذى يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه ؛ فالأول من مقتضى ألوهيته . والثانى من مقتضى ربوبيته لأن الاله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة واجلالا واكراما والرب هو الذى يرب عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله ومصالحه التى بها كماله ويهديه الى اجتناب المفاسد التى بها فساده وهلاكه ، وفى القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين ، أحدها قوله تعالى:(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) الثانى قوله تعالى: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) الثالث قوله تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) الرابع قوله تعالى :(عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا) الخامس قوله تعالى :(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) السادس قوله: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) السابع قوله:(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) *

ومما يقرر هذا أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والانابة اليه

ومحبته والاخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر اليه ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أحب اليهم من الايمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به وحاجتهم اليه فى عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم اليه بل أعظم فى خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم فان ذلك هو الغاية المقصودة التى بها سعادتهم وفوزهم وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال ، فمن أعرض عن ذكر ربه فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئا ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لا إله إلا الله أفضل الحسنات . وكان توحيد الالهية الذى كلمته لا إله إلا الله رأس الأمر ، فأما توحيد الربوبية الذى أقر به كل المخلوقات فلا يكفى وحده وان كان لابد منه وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية ، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحقهم عليه اذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم اذا قدموا عليه ، وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه وبه سروره ولذته ونعيمه فهو أيضا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذى يرضى به ويفرح بتوبة عبده اذا رجع اليه والى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض مهلكة بعد أن فقدها وأيس منها ، وهذا أعظم فرح يكون وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له واقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته والشوق الى لقائه فليس فى الكائنات ما يسكن العبد اليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه اليه الا الله سبحانه ومن عبد غيره وأحبه وان حصل له نوع من اللذة والمودة والسكون اليه والفرح والسرور بوجوده ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من

فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهى الذى هو عذب فى مبدئه عذاب فى نهايته كما قال القائل :

مآرب كانت فى الشباب لأهلها عذابا فصارت فى المشيب عذابا

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

فان قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الاله الحق فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلها حقا اذ الاله الحق لاشريك له ولا سمى له ولا مثل له فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها اذ صلاحها بتأله الاله الحق كما أنها لا توجد الا باستنادها الى الرب الواحد القهار ويستحيل أن تستند فى وجودها الى ربين متكافئين فكذلك يستحيل أن تستند فى بقائها وصلاحها الى إلهين متساويين ه

اذا عرف هذا فاعلم أن حاجة العبد الى أن يعبد الله وحده لايشرك به شيئا فى محبته ولا فى خوفه ولا فى رجائه ولا فى التوكل عليه ولا فى العمل له ولا فى الحلف به ولا فى النذر له ولا فى الخضوع له ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد الى روحه والعين الى نورها بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فان حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذى لا إله إلا هو فلا تطمئن فى الدنيا الا بذكره وهى كادحة اليه كدحا فملاقيته ولا بد لها من لقائه ولا صلاح لها الا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه واكرامه لها ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك بل ينتقل من نوع الى نوع ومن شخص الى شخص ويتنعم بهذا فى وقت ثم يعذب ولا بد فى وقت آخر، وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك وانما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التى تحكه فهى تدمى الجلد وتخرقه وتزيد فى ضرره وهو

يؤثر ذلك لماله فى حكها من اللذة ، وهكذا مايتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم فى الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب ، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما والله الموفق المعين وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة *

والمقصود أن اله العبد الذى لا بد له منه فى كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين فهو الاله الحق الذى كل ماسواه باطل الذى أينما كان فهو معه وضرورته وحاجته اليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هى فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة ، ولهذا قال امام الحنفاء (لا أحب الآفلين) والله أعلم *

﴿فصل فى بيان أصلين عظيمين مبنى عليهما ماتقدم﴾

وهذا مبنى على أصلين، أحدهما ان نفس الايمان بالله وعبادته ومحبته وإخلاص العمل له وافراده بالتوكل عليه هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الايمان وكما دل عليه القرآن لا كما يقوله من يقول : ان عبادته تكليف ومشقة على خلاف مقصود القلب ولذته بل لمجرد الامتحان والابتلاء كما يقوله منكر والحكمة والتعليل أو لاجل التعويض بالاجر لما فى ايصاله اليه بدون معاوضة منة تكدره أو لاجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات كما يقوله من يتقرب الى النبوات من الفلاسفة بل الأمر أعظم من ذلك كله وأجل بل أوامر المحبوب قرة العيون وسرور القلوب ونعيم الأرواح ولذات النفوس وبها كمال النعيم فقرة عين المحب فى الصلاة والحج وفرح قلبه وسروره ونعيمه فى ذلك وفى الصيام والذكر والتلاوة ، وأما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والد ... ... ـبر على أعداء الله سبحانه فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم ومن غلظ فهمه

وكثف طبعه عن ادراك هذا فليتأمل اقدام القوم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم ومفارقة أوطانهم وبذل نحورهم لاعدائهم ومحبتهم للقتل وايثارهم له على البقاء وايثار لوم اللائمين وذم المخالفين على مدحهم وتعظيمهم ووقوع هذا من البشر بدون أمر يذوقه قلبه من حلاوته ولذته وسروره ونعيمه ممتنع والواقع شاهد بذلك بل ماقام بقلوبهم من اللذة والسرور والنعيم أعظم مما يقوم بقلب العاشق الذى يتحمل مايتحمله فى موافقة رضى معشوقه فهو يلتذ به ويتنعم به لما يعلم من سرور معشوقه به

فيامنكرا هذا تأخر فانه ... حرام على الخفاش أن يبصر الشمسا

فمن كان مراده وحبه الله وحياته فى معرفته ومحبته ونعيمه فى التوجه اليه وذكره وطمأنينته به وسكونه اليه وحده عرف هذا وأقر به *

﴿الأصل الثانى﴾ كمال النعيم فى الدار الاخرة أيضا به سبحانه برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه لا كما يزعم من يزعم انه لا لذة فى الاخرة الا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور فى الخيال *

وفى دعاء النبى ﷺ الذى رواه الامام احمد فى مسنده وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما « وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ الَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ الَى لِقَائِكَ فِى غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ » ولهذا قال تعالى فى حق الكفار: (كَلَّا انَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ انَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذى يعذب به أعداءه ولذة النظر الى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التى ينعم بها أولياءه ولاتقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو

منه وقربه وهذان الاصلان ثابتان بالكتاب والسنة وعليهما أهل العلم والايمان ويتكلم فيهما مشايخ الطريق العارفون وعليهما أهل السنة والجماعة وهما من فطرة الله التى فطر الناس عليها ويحتجون على من ينكرهما بالنصوص والآثار تارة وبالذوق والوجد تارة وبالفطرة تارة وبالقياس والامثال تارة ، وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق فى كتابنا الكبير فى المحبة الذى سميناه المورد الصافى والظل الضافى فى المحبة وأقسامها وأنواعها وأحكامها وبيان تعلقها بالاله الحق دون ماسواه وذكرنا من ذلك ما يزيد على مائة وجه، ومما يوضح ذلك ويزيده تقريراً ان المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ، بل ربه سبحانه الذى خلقه ورزقه وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه وتحبب اليه بها مع غناه عنه ومع تبغض العبد اليه بالمعاصى مع فقره اليه فاذا مسه الله بضر فلا كاشف له الا هو واذا أصابه بنعمة فلا راد لها ولا مانع كما قال تعالى :(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) *

فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطى ولا يمنع الا باذن الله فالأمر كله لله أولا وءاخرا وظاهرا وباطنا هو مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء ، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع مامن دابة الا هو ءاخذ بناصيتها ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، وهذا الوجه اعظم لعموم الناس من الوجه الأول ولهذا خوطبوا به فى القرءان أكثر من الأول لكن من تدبر طريقة القرءان تبين له أن الله سبحانه يدعو

عباده بهذا الوجه الى الأول فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة والدعاء له ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضا محبته وعبادته لاحسانه الى عبده واسباغ نعمه عليه فاذا عبده وأحبه وتوكل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الاول، وهكذا من نزل به بلاء عظيم وفاقة شديدة أوخوف مقلق فجعل يدعو الله ويتضرع اليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له وباب الايمان به والانابة اليه ما هو أحب اليه من تلك الحاجة التي قصدها أولا لكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق اليه فعرفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته اليه ، والقرءان مملوء من ذكر حاجة العبد الى الله دون ما سواه ومن ذكر نعمائه عليهم ومن ذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على احسانه *

ومما يوضح ذلك ويقويه أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه اذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته المعينة له على عبودية الله ومحبته وتفريغ قلبه له فانه ان نال من الطعام والشراب فوق حاجاته ضره أوأهلكه وكذلك من النكاح واللباس وان أحب شيئا بحيث يخلله فلا بد أن يسأمه أو يفارقه فالضرر حاصل له ان وجد أو فقد فان فقد تعذب بالفراق وتألم وان وجد فانه يحصل له من الالم أكثر مما يحصل له من اللذة *

وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء ان كل من أحب شيئا دون الله لغير الله فان مضرته أكثر من منفعته وعذابه أعظم من نعيمه، يزيد ذلك إيضاحا ان اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته فانه يخذل من تلك الجهة ، وهذا أيضا معلوم بالاعتبار والاستقراء فانه ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله الا خاب من تلك الجهة ولا

استنصر بغيره الاخذل قال تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقال : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ)

وقال عن امام الحنفاء انه قال للمشركين :(إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) ولما كان غاية صلاح العبد فى عبادة الله وحده واستعانته وحده كان فى عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته ، ومما يوضح الأمر فى ذلك ويبينه ان الله سبحانه غنى حميد كريم رحيم فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر لا لجلب منفعة اليه سبحانه ولا لدفع مضرة بل رحمة وإحسانا وجوداً محضاً فانه رحيم لذاته محسن لذاته جواد لذاته كريم لذاته كما أنه غنى لذاته قادر لذاته حى لذاته ، فاحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك كما ان قدرته وغناه من لوازم ذاته فلا يكون إلا كذلك ، وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم فأكثر ماعندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ليجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة وذلك من تيسير الله وأذنه لهم به فهو فى الحقيقة ولى هذه النعمة ومسديها ومجريها على أيديهم ومع هذا فانهم لايفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد فانهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فاذا أحبوا الأنبياء والأولياء فطلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك، وكذلك من أحب انسانا لشجاعته أو رياسته

أو جماله أو كرمه فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة ولولا التذاذه بها لما أحب ذلك وان جلبوا له منفعة أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ولو بالدعاء فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله ، فاجناد الملوك وعبيد المماليك . واجراء المستأجر . وأعوان الرئيس كلهم إنما يسعون فى نيل أغراضهم به لايعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قدعلم وهذب من جهة أخرى فيدخل ذلك فى الجهة الدينية أو يكون فيه طبع عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة وإلا فالمقصود بالقصد الاول هو منفعة نفسه وهذا من حكمة الله التى أقام بها مصالح خلقه إذقسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا *

﴿ فصل فى بيان منفعة الحق ومنفعة الخلق وما بينهما من التباين ﴾

إذا تبين هذا ظهر ان أحداً من المخلوقين لايقصد منفعتك بالقصد الأول بل إنما يقصد منفعته بك وقد يكون عليك فى ذلك ضرر اذا لم يراع المحب العدل فاذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه ، وأما الرب سبحانه فهو يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك وذلك منفعة لك محضة لاضرر فيها . فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق او تطلب منه منفعته لك فانه لايريد ذلك البتة بالقصد الأول بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلا أو آجلا فهو يريد نفسه لايريدك ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه فتأمل ذلك فان فيه منفعة عظيمة وراحة ويأسا من المخلوقين وسدا لباب عبوديتهم وفتحا لباب عبودية الله وحده ، فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة ورعاها حق رعايتها ، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الاحسان اليهم واحتمال أذاهم بل أحسن اليهم لله لا لرجائهم فكما لاتخافهم لا ترجوهم *

ومما يبين ذلك ان غالب الخلق يطلبون ادراك حاجتهم بك وان كان ذلك ضررا عليك فان صاحب الحاجة لا يرى الا قضاءها فهم لايبالون بمضرتك اذا أدركوا منك حاجتهم بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك، وهذا اذا تدبره العاقل علم أنه عداوة فى صورة صداقة وانه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة ، فهم يريدون أن يصيروك كالكير ينفخ بطنك ويعصر أضلاعك فى نفعهم ومصالحهم بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزرون الشاة وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسرا ومعبرا لهم الى أوطارهم وأنت لا تشعر وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم وربما علمت وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك ورحت صفر اليدين وكم فوتوا عليك من مصالح الدارين وقطعوك عنها وحالوا بينك وبينها وقطعوا طريق سفرك الى منازلك الأولى ودارك التى دعيت اليها وقالوا نحن أحبابك وخدمك وشيعتك وأعوانك والساعون فى مصالحك وكذبوا والله انهم لأعداء فى صورة أولياء وحرب فى صورة مسالمين وقطاع طريق فى صورة اعوان فواغوثاه ثم واغوثاه بالله الذى يغيث ولا يغاث (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم فى الله وخاف الله فيهم ولم يخفهم فى الله وأرضى الله بسخطهم ولم يرضهم بسخط الله وراقب الله فيهم ولم يراقبهم فى الله وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيى حب الله وخوفه

ورجاءه فيه ، فهذا هو الذى يكتب عليهم وتكون معاملته لهم كلها ربحا فبشرط ان يصبر على أذاهم ويتخذه مغنما لا مغرما وربحا لا خسرانا *

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحدمنهم ان يدفع عنك مضرة البتة الا باذن الله ومشيئته وقضائه وقدره فهو فى الحقيقة الذى لا يأتى بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) قال النبى لعبد الله بن عباس : «وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلِيقَةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»

واذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع والله أعلم *

﴿فصل فى بيان أن المنفعة والمضرة لا تكون الا من الله وحده﴾

وجماع هذا انك اذا كنت غير عالم بمصلحتك ولا قادر عليها ولا مريد لها كما ينبغى فغيرك أولى أن لا يكون عالما بمصلحتك ولا قادرا عليها ولا مريدا لها والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم ويقدر ولا تقدر ويعطيك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك ولا لتكثر بك ولا لتعزز بك ولا يخاف الفقر ولا تنقص خزائنه على سعة الانفاق ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه اليك واستغنائه بحيث اذا أخرجه أثر ذلك فى غناه وهو يحب الجود والبذل والعطاء والاحسان أعظم مما تحب انت الاخذ والانتفاع بما سألته فاذا حبسه عنك فاعلم ان هناك أمرين لا ثالث لهما *

أحدهما ان تكون أنت الواقف فى طريق مصالحك وأنت المعوق

لوصول فضله اليك وأنت حجر فى طريق نفسك وهذا هو الأغلب على الخليقة فان الله سبحانه قضى فيما قضى به ان ما عنده لا ينال الا بطاعته وانه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته ولا استديمت بغير شكره ولاعوقت وامتنعت بغير معصيته ، وكذلك اذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة فانه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك وانما أنت المسبب فى سلبها عنك فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فما أزيلت نعم الله بغير معصيته :

اذا كنت فى نعمة فارعها ... فان المعاصى تزيل النعم

فآفتك من نفسك وبلاؤك من نفسك وأنت فى الحقيقة الذى بالغت فى عداوتك وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك كما قيل :

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجب ان هذا شأنك مع نفسك وأنت تشكو المحسن البرىء عن الشكاية وتتهم أقداره وتعاتبها وتلومها فقد ضيعت فرصتك وفرطت فى حظك وعجز رأيك عن معرفة اسباب سعادتك وإرادتها ثم قعدت تعاتب القدر بلسان الحال والقال فأنت المعنى بقول القائل :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته ... حتى اذا فات أمر عاتب القدرا

ولو شعرت برأيك وعلمت من أين دهيت ومن أين أصبت لأمكنك تدارك ذلك ولكن قد فسدت الفطرة وانتكس القلب وأطفأ الهوى مصابيح العلم والايمان منه فأعرضت عن أصل بلائك ومصيبتك منه وأقبلت تشكو من كل احسان دقيق أو جليل وصل اليك فنه فاذا شكوته الى خلقه كنت كما قال بعض العارفين وقد رأى رجلا يشكو الى آخر ما أصابه ونزل به فقال : ياهذا تشكو من يرحمك الى من لا يرحمك :

وإذا أتتك مصيبة فاصبر لها صبر الكريم فانه بك أرحم
وإذا شكوت الى ابن آدم انما تشكو الرحيم الى الذي لا يرحم

وإذا علم العبد حقيقة الأمر وعرف من أين أتى ومن أي الطرق أغير على سرحه ومن اي ثغرة سرق متاعه وسلب استحى من نفسه ان لم يستح من الله ان يشكو أحدا من خلقه او يتظلمهم أو يرى مصيبته وآفته من غيره قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) وقال: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) هذا ومن المخاطب بهذا الخطاب وقال: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) فان اصررت على اتهام القدر وقلت فالسبب الذي اصبت منه واتيت منه ودهيت منه قد سبق به القدر والحكم وكان في الكتاب مسطورا فلا بد منه على الرغم مني وكيف لي أن أنفك منه وقد أودع الكتاب الأول قبل برء الخليقة والكتاب الثاني قبل خروجي الى هذا العالم وأنا في ظلمات الاحشاء حين أمر الملك بكتب الرزق والأجل والسعادة والشقاوة فلو جريت الى سعادتي ما جريت حتى بقي بيني وبينها شبر لغلب على الكتاب فأدركتني الشقاوة فما حيلة من قلبه بيد غيره يقلبه كيف يشاء ويصرفه كيف أراد ان شاء ان يقيمه أقامه وان شاء ان يزيغه أزاغه وهو الذي يحول بين المرء وقلبه وهو الذي يثبت قلب العبد اذا شاء ويزلزله اذا شاء فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه لا يتحرك الا باذنه ومشيئته قال أعلم الخلق بربه ﷺ: « ما من قلب الا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ان شاء ان يقيمه اقامه وان شاء ان يزيغه أزاغه » ثم قال: « اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على

دينك » وكان أكثر يمينه لا ومقلب القلوب ، وقال بعض السلف : مثل القلب مثل ريشة فى أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن فما حيلة قلب هو بيد مقلبه ومصرفه وهل له مشيئة بدون مشيئته كما قال تعالى : (وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وروى عن عبد العزيز ابن أبى حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال : تلا رسول الله ﷺ قوله عز وجل (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال : بلى والله يارسول الله ان عليها لاقفالها ولا يفتحها الا الذى أقفلها . فلما ولى عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله وقال: لم يقل ذلك الا من عقل . وقال طاوس: أدركت ثلثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شىء بقدر . وقال أيوب السختيانى : أدركت الناس وما كلامهم الا ان قضى ان قدر . وقال عطاء عن ابن عباس فى قوله تعالى : (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) قال : كتب الله أعمال بنى ءادم وما هم عاملون الى يوم القيامة.

قال: والملائكة تستنسخ مايعمل بنوءادم يوما بيوم فذلك قوله :(انَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وفى الآية قول ءاخر ان استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنوءادم بعد أن يعملوه، وقد يقال وهو الأظهر: ان الآية تعم الأمرين فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب اعمال بنىءادم ثم يكتبونها عليهم إذا عملوها فلا تزيد على مانسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها . وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى :(انَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) خلق الله الخلق كلهم بقدر وخلق الخير والشر فخير الخير السعادة وشر الشر الشقاوة ، وفى صحيح مسلم

عن أبي الاسود الدؤلي قال : قال لي عمران بن حصين أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم نبيهم وثبت به الحجة ؟ قال: قلت : لا بل فيما قضى عليهم ومضى قال: أفيكون ذلك ظلماً ؟ قال ففزعت فزعا شديداً وقلت : إنه ليس شيء إلا خلقه وملكه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فقال: سددك الله انما سألتك لاحزرعقلك . ان رجلامن مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله أرأيت مايعمل الناس ويتكادحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال فيما قضى عليهم ومضى فقال الرجل ففيم العمل قال رسول الله ﷺ من كان خلقه الله لاحدى المنزلتين فسيستعمله لها وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) وقال مجاهد في قوله تعالى (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) قال : علم من ابليس المعصية وخلقه لها وقال تعالى (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) قال ابن عباس : ان الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ثم قال : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمن وكافر .

وقال سعيد بن جبير: عن ابن عباس في قوله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) قال : يحول بين المؤمن والكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر والايمان وطاعة الله .

وقال ابن عباس ومالك وجماعة من السلف فى قوله تعالى (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) قالوا خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف. وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا. وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) وقال تعالى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ) أى نصيبهم مما كتب لهم، وقال (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) قال الحسن وغيره الشرك والتكذيب، وقال سبحانه (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) قال محمد ابن كعب القرظى: رقم الله سبحانه كتاب الفجار فى أسفل الأرض فهم عاملون بما قد رقم عليهم فى ذلك الكتاب ورقم كتاب الابرار فجعله فى عليين فهم يؤتى بهم حتى يعملوا ماقد رقم عليهم فى ذلك الكتاب .

وقال ابن عباس (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) بما جرى من القلم فى اللوح المحفوظ، وقال مجاهد فى قوله (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا) قال عن الحق، وفى قوله (وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) قال كالجعبة فيها السهام، وقال ابن عباس فى قوله تعالى (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) قال أضله فى سابق علمه، وقال فى قوله تعالى حكاية عن عدوه ابليس (فَبِمَا

أُغْوَيْتَنِي) قال أضللتني، وقال في قوله (مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) قال : من قضيت له أنه صال الجحيم ، وقال عمر بن عبدالعزيز: لو أراد الله أن لا يعصى لم يخلق ابليس وقد فصل لكم وبين لكم ما أنتم عليه بفاتنين إلا من قدر أن يصلي الجحيم ، وقال وهيب بن خالد: نبأنا خالد قال: قلت للحسن ألهذه خلق آدم يعني السماء أم للارض؟ فقال: لا بل للأرض قال: قلت أرأيت لو اعتصم من الخطيئة فلم يعملها أكان تركه في الجنة ؟ قال: سبحان الله أكان له بد من أن يعملها.

وقال تعالى (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) وقال تعالى (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) وقال (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) أى أئمة يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضالين يدعون الى النار ، وقال (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) وقال (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وقال (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وقال زيد بن أسلم: والله ما قالت القدرية كما قال الله ولا كما قال رسله ولا كما قال أهل الجنة ولا كما قال أهل النار ولا كما قال أخوهم ابليس قال الله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وقالت الملائكة (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) وقال شعيب (وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وقال أهل الجنة (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) وقال أهل النار (غَلَبَتْ عَلَيْنَا

شقوتنا) وقال آخرهم ابليس (رب بما اغويتني) وقال مجاهد فى قوله (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) قال: مكتوب فى عنقه شقى أو سعيد وقال ابن عباس فى قوله (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) يقول ومن يرد الله ضلالته لم تغن عنه شيئاً .

وذكر الطبرى وغيره من حديث سويد بن سعد عن سوار بن مصعب عن أبى حمزة عن مقسم عن ابن عباس صعد النبى ﷺ المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم بسط يده اليمنى فقال « بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من الله الرحمن الرحيم لأهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم فجمل أولهم على آخرهم لاينقص منهم ولا يزاد فيهم فرغ ربكم وقد يسلك بأهل السعادة طريق الشقاء حتى يقال كانهم هم بل هم هم ماأشبههم بهم بل هم هم فيردهم ماسبق لهم من الله من السعادة فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها قبل موته بفواق ناقة ، وقد يسلك بأهل الشقاء طريق السعادة حتى يقال : كانهم هم بل هم هم ماأشبههم بهم بل هم هم فيردهم ماسبق لهم من الله فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها ولو قبل موته بفواق ناقة فصاحب الجنة مختوم له بعمل اهل الجنة وان عمل عمل اهل النار وصاحب النار مختوم له بعمل اهل النار وان عمل بعمل اهل الجنة ثم قال رسول الله والأعمال بخواتيمها » وقال على بن ابى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون) وفى قوله (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وفى قوله (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله

يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا) وفى قوله (مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ)
وفى قوله (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) وقوله (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَآمَنَ مَنْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) وقوله (إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا)
وقوله (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) ونحو هذا من القرآن .

وان رسول الله كان يحرص ان يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله انه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ثم قال لنبيه (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) ويقول (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) ثم قال (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) ويقول (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

وفى صحيح مسلم عن طاوس أدركت ناسا من اصحاب رسول الله يقولون : كل شيء بقدر وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كتب الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وعرشه على الماء » وفى صحيحه ايضا عن ابى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان اصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وماشاء الله فعل فان لو تفتح عمل الشيطان »

وفي صحيحه أيضا عن ابى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « أنَّ النَّذرَ لَا يقدِّرُ لابْنِ آدمَ شيأً لَمْ يكُنْ اللهُ قَدَّرهُ ولَكِنِ النَّذرُ يُوافقُ القدرَ فيخرجُ ذَلِكَ منَ البَخيلِ مَالَمْ يكُنْ يُريدُ أنْ يُخرِجَهُ » وفي حديث جبرائيل وسؤاله النبي عن الايمان قال « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » وفي الصحيحين حديث ابن مسعود في التخليق وفيه « فو الذي لا إله غيره ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها الاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخل النار وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى مايكون بينه وبينها الاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها ».

ذكر الطبري عن الحسن بن علي الطوسي نبأنا محمد بن يزيد الاسفاطي البصري محدث البصرة قال رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت: يارسول الله حديث عبدالله بن مسعود حدثني الصادق المصدوق - أعني حديث القدر - فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو حدثت به رحم الله عبدالله بن مسعود حيث حدث به ورحم الله زيد بن وهب حيث حدث به ورحم الله الأعمش حيث حدث به ورحم الله من حدث به قبل الأعمش ورحم الله من يحدث به بعد الأعمش ، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود « الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره » وقد روى حديث تقدير السعادة والشقاوة في بطن الأم من حديث عبد الله بن مسعود . وأنس بن مالك . وعبد الله ابن عمر . وعائشة أم المؤمنين . وحذيفة بن أسيد . وابي هريرة ، وقال أبو الحسن علي بن عبيد الحافظ : سمعت أبا عبد الله بن ابي خيثمة يقول : سمعت عمرو بن علي الفلاس يقول انحدرت من سر من رأى الى بغداد في حاجة لي فبينما انا أمشي في بعض الطريق اذا بجمجمة قد نخرت فأخذتها

فاذا على الجبهة مكتوب شقي والياء مكسورة الى خلف وهؤلاء كلهم أئمة حفاظ ذكره الطبري في السنة ، وفي الصحيحين حديث على عن النبي ﷺ « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالُوا يَارَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ فَقَالَ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أما من كان من اهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » ، وفي الصحيحين عن عمران بن حصين « أن النبي سئل اعلم اهل الجنة من اهل النار؟ قال: نعم قيل. ففيم يعمل العاملون ؟ قال. نعم كل ميسر لما خلق له » وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت. ودعي رسول الله الى جنازة غلام من الأنصار فقلت. يارسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يدرك السوء ولم يعمله قال : اوغير ذلك ان الله تعالى خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم » وفي الصحيحين عن ابن عباس عن ابي بن كعب عن النبي ﷺ قال « الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ولو عاش لأرهق ابويه طغيانا وكفرا » وفي مسند الامام احمد عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال. سمعت رسول الله يقول « إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ » وفي لفظ « فَجَعَلَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَخَذَ مِنْ نُورِهِ فَأَلْقَاهُ عَلَى تِلْكَ الظُّلْمَةِ فَمَنْ أَصَابَهُ النُّورُ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ لِذَلِكَ أَقُولُ

جف القلم على علم الله » وذكر راشد بن سعد عن ابى عبد الرحمن ابن أبي قتادة السلمى سمع النبي ﷺ يقول : « خلق الله آدم واخرج الخلق من ظهره فقال . هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي قال . قيل على ما نعمل ؟ قال . على مواقع القدر » .

وذكر أبو داود في كتاب القدر عن عبدالله بن مسعود أنه مر على رجل فقالوا : هذا هذا و نالوا منه فقال عبدالله ارأيتم لو قطعتم يده كنتم تستطيعون أن تخلقوا له يدا ؟ قالوا لا قال فلو قطع رأسه أ كنتم تستطيعون ان تخلقوا له رأسا ؟ قالوا : لا قال فكما لا تستطيعون ان تغيروا خلقه لا تستطيعون أن تغيروا خلقه ان النطفة اذا وقعت في الرحم بعث الله ملكا فكتب اجله وعمله ورزقه وشقى او سعيد ، وذكر فيه عن ابن مسعود مرفوعا « إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ الْهَدْيُ وَالْكَلَامُ فَأَحْسَنُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَأَنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَأَنَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ وَأَنَّ الشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ » وقال ابن وهب : أخبرني يونس عن ابن شهاب أن عبد الرحمن بن هنيدة حدثه ان عبدالله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ « إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ النَّسَمَةَ قَالَ مَلَكُ الْأَرْحَامِ تَعَرُّضًا يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِي اللهُ أَمْرَهُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ فَيَقْضِي اللهُ أَمْرَهُ ثُمَّ يَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا هُوَ لَاقٍ حَتَّى النَّكْبَةَ يُنْكَبُهَا » وقال الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ان رسول الله قال فذكر سواء ، قال الزهري : وحدثني عبدالرحمن بن أذينة عن ابن عمر

مثل ذلك . وذكر أبو داود أيضا عن عائشة يرفعه « أن الله حين يريد ان يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل على الرحم فيقول: أى رب ماذا ؟ فيقول : غلام أو جارية أو ماشاء الله أن يخلق فى الرحم فيقول: أى رب أشقى أم سعيد فيقول: شقى أو سعيد فيقول: أى رب ما أجله فيقول: كذا وكذا فيقول: أى رب ما خلقه فيقول: كذا وكذا قال: فيقول يارب ما خلائقه ؟ فيقول: كذا وكذا قال : فما من شىء إلا وهو يخلق معه فى الرحم »

وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن أبى تميم الجيشانى عن أبى ذر أن المنى اذا مكث فى الرحم اربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به الى الرب سبحانه فى راحته فيقول. يارب عبدك ذكر أم أنثى فيقضى الله ما هو قاض أشقى ام سعيد فيكتب ما هو لاق بين عينيه ، قال ابو تميم: وزاد ابو ذر من فاتحة سورة التغابن خمس ءايات، وقال ابن وهب اخبرنى ابن لهيعة عن كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: « اذا مكثت النطفة فى رحم المرأة أربعين يوما جاءها ملك فاختلجها ثم عرج بها الى الرحمن عز وجل فقال. اخلق يا أحسن الخالقين فيقضى الله فيها بما يشاء من أمره ثم يدفع الى الملك فيسأل الملك عن ذلك فيقول: يارب سقط أم تم فيبين له ثم يقول : يارب أواحدا أو توأم فيبين له ثم يقول: يارب ذكر أم أنثى فيبين له فيقول. يارب اناقص الأجل أم تام الأجل فيبين له ذلك ثم يقول: يارب اشقى أم سعيد فيبين له ثم يقول يارب : اقطع رزقه مع خلقه فيهبط بهما جميعا فوالذى نفسى بيده ماينال من الدنيا إلا ماقسم له فاذا أكل رزقه قبض » .

وفى صحيح مسلم : عن حذيفة بن اسيد يبلغ به النبى قال: « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس واربعين ليلة فيقول:

يارب أشقى ام سعيد فيكتبان فيقول. يارب أذكر ام انثى فيكتبان ويكتب عمله واثره ورزقه ثم تطوى الصحف ولا يزاد فيها ولا ينقص ».

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك ـ ورفع الحديث ـ قال : « انَّ اللهَ وَكَّلَ بالرَّحم مَلَكًا فَيَقُولُ أى رَبِّ نُطْفَةٌ أى رَبِّ عَلَقَةٌ أىْ رَبِّ مُضْغَةٌ فَاذَا ارَادَ اللهُ انْ يقْضىَ خَلْقًا قَالَ المَلَكُ : اىْ رَبِّ ذَكَرٌ اوْ انْثى شَقىٌّ أوْ سَعيدٌ فَمَا الرِّزْقُ فَمَا الأَجَلُ فَيَكْتُبُ ذَلكَ فى بَطْن أمّه ».

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبى « ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم ينفخ فيه الروح ويبعث اليه الملك فيؤمر باربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » ، وفى حديث ابن مسعود أن هذا التقدير وهذه الكتابة فى الطور الرابع من أطوار التخليق عند نفخ الروح فيه ، وفى الأحاديث التى ذكرت أيضا آنفا ان ذلك فى الاربعين الاولى قبل كونه علقة ومضغة ، وفى رواية صحيحة إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها . وفى رواية أن ذلك يكون فى بضع وأربعين ليلة والله أعلم .

﴿ فصل فى الجمع بين الروايات المتقدمة ﴾

الجمع بين هذه الروايات ان للملك ملازمة ومراعاة بحال النطفة وأنه يقول : يارب هذه نطفة هذه علقة هذه مضغة فى أوقاتها فكل وقت يقول فيه ما صارت اليه بأمر الله وهو أعلم بها منه وبكلام الملك فتصرفه فى أوقات ، أحدها حين يخلقها الله نطفة ثم ينقلها علقة وهو أول أوقات علم الملك بانه ولد لأنه ليس كل نطفة تصير ولدا وذلك بعد الاربعين

الأولى فى أول الطور الثانى . ولهذا والله أعلم وقعت الاشارة اليه فى أول سورة أنزلها على رسوله (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) اذ خلقه من علقة هو أول مبدأ الانسانية وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ثم للملك فيه تصرف آخر فى وقت آخر وهو تصوير وتخليق سمعه وبصره وجلده وعظمه ولحمه وذكوريته وأنوثيته وهذا انما يكون فى الأربعين الثالثة قبل نفخ الروح فيها فان نفخ الروح لايكون الا بعد تمام تصويره فهنا تقديران وكتابان التقدير الأول عند ابتداء تعلق التخليق فى النطفة وهو إذا مضى عليها أربعون ودخلت فى طور العلقة . ولهذا فى إحدى الروايات إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة والتقدير الثانى الكتابة إذا كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكراً أو أنثى ، فالتقدير الاول تقدير لما يكون للنطفة بعد الأربعين ، والتقدير الثانى تقدير لما يكون للجنين بعد تصويره ثم إذا ولد قدر مع ولادته كل سنة مايلقاه فى تلك السنة وهو مايقدر ليلة القدر من العام الى العام ، فهذا التقدير أخص من التقدير الثانى والثانى أخص من الأول *

ونظير هذا أيضا ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة ثم قدر مقادير هـــذا الخلق حين خلقهم وأوجدهم ثم يقدر فى كل سنة فى ليلة القدر مايكون فى ذلك العام وهكذا تقدير أمر النطفة وشأنها يقع بعد تعلقها بالرحم وبعد كمال تصوير الجنين وقد تقدم ذلك تقدير شأنها قبل خلق السموات والأرض فهو تقدير بعد تقدير . ونظير هذا أيضا رفع الأعمال وعرضها على الله فان عمل العام يرفع فى شعبان كما أخبر به الصادق المصدوق أنه شهر يرفع فيه الأعمال قال

فاحب ان يرفع عملي وانا صائم، ويعرض عمـــل الاسبوع يوم الاثنين والخميس كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ ويعرض عمل اليوم في آخره والليلة في آخرها كما في حديث ابي موسى الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ « ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » فهذا الرفع والعرض اليومي اخص من العرض يوم الاثنين والخميس ، والعرض فيهما اخص من العرض في شعبان ، ثم إذا انقضى الأجل رفع العمل كله وعرض على الله وطويت الصحف وهذا عرض آخر ، وهذه المسائل العظيمة القدر هي من اهم مسائل الايمان بالقدر فصلوات الله وسلامه على كاشف الغمة وهادى الأمة محمد ﷺ *

﴿فان قيل﴾ ماتقولون في قوله « إذا مر بالنطفة ثنتان واربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال : يارب اذكر ام انثى فيقضي ربك ماشاء ويكتب الملك ثم يقول : يارب اجله فيقول ربك ماشاء ويكتب الملك » وهذه بعض الفاظ مسلم في الحديث وهذا يوافق الرواية الأخرى « يدخل الملك على النطفة بعد ماتستقر في الرحم باربعين او خمس واربعين ليلة فيقول : يارب اشقي او سعيد » ويوافق الرواية الاخرى ان النطفة تقع في الرحم اربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك » وهذا يدل على أن تصويرها عقيب الاربعين الأولى *

﴿قيل﴾ لاريب ان التصوير المحسوس وخلق الجلد والعظم واللحم انما يقع في الاربعين الثالثة لا يقع عقيب الاولى هذا امر معلوم بالضرورة فاما ان يكون المراد بالاربعين في هـــذه الالفاظ الاربعين الثالثة وسمى المضغة فيها نطفة اعتباراً بأول أحوالها وما كانت عليه أو يكون المراد بها الأربعين الأولى وسمى كتابة تصويره وتقديره تخليقا اعتباراً بما يؤل

فيكون قوله « صورها وخلق سمعها وبصرها أى قدر ذلك وكتبه وأعلم به ثم يفعله به بعد الأربعين الثالثة أو يكون المراد به أى الأربعين الأربعين الاولى وحقيقة التصوير فيها فيتعين حمله على تصوير خفي لايدركه إحساس البشر فان النطفة إذا جاوزت الأربعين انتقلت علقة وحينئذ يكون أول مبدا التخايق فيكون مع هذا المبدأ مبدأ التصوير الخفي الذى لايناله الحس ثم إذا مضت الاربعون الثالثة صورت التصوير المحسوس المشاهد فاحد التقديرات الثلاثة يتعين ولابد ولا يجوز غير هذا البتة إذ العلقه لاسمع فيها ولا بصر ولا جلدولا عظم ،وهـــذا التقدير الثالث اليق بألفاظ الحديث واشبه وأدل على القدر والله أعلم بمراد رسوله غير انا لانشك أن التخليق المشاهد والتقسيم الى الجلد والعظم واللحم انما يكون بعد الاربعين الثالثة *

والمقصودان كتابة الشقاوة والسعادة وماهو لاق عند أول تخليقه ويحتمل وجها رابعا وهو أن النطفة فى الاربعين الاولى لايتعرض اليها ولا يعتنى بشأنها فاذا جاوزتها وقعت فى أطوار التخليق طورا بعد طور ووقع حينئذ التقدير والكتابة ، فحديث ابن مسعود صريح بأن وقوع ذلك بعد الطور الثالث عند تمام كونها مضغة ، وحديث حذيفة بن أسيد وغيره من الاحاديث المذكورة انما فيه وقوع ذلك بعد الاربعين ولم يوقت فيهـا البعدية بل أطلقها وقد قيدها ووقتها فى حديث ابن مسعود والمطلق فى مثل هذا يحمل على المقيد بلا ريب فاخبر بما تـكون النطفة بعد الطور الاول من تفاصيل شأنها وتخليقهاومايقدر لها وعايها وذلك يقع فى اوقات متعددة وكله بعد الاربعين الاولى وبعضه متقدم على بعض كما أن كونها علقة يتقـــدم على كونها مضغة وكونها مضغة متقدم على تصويرها والتصوير متقدم على نفخ الروح مع ذلك فيصح أن يقال . ان

النطفة بعد الاربعين تكون علقة ومضغة ويصور خلقها وتركب فيها العظام والجلد ويشق لها السمع والبصر وينفخ فيها الروح ويكتب شقاوتها وسعادتها وهذا لا يقتضى وقوع ذلك كله عقيب الاربعين الاولى من غير فصل وهذا وجه حسن جدا .

والمقصود أن تقدير الشقاوة والسعادة والخلق والرزق سبق خروج العبد إلى دار الدنيا فأسكنه الجنة أو النار وهو فى بطن أمه ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « انَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَامَحَالَةَ » الحديث ، وفى صحيح البخارى عن أبى سعيد عن النبى قال « مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَ لَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله ، وفى سنن ابن ماجه عن عدى بن حاتم أنه قال « أتيت النبى فقال يَاعَدِىُّ أَسْلِمْ تَسْلَمْ قلت وَمَا الْاسْلَامُ قَالَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللهِ وَتُؤْمِنُ بِالْاقْدَارِ كُلِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا وَحُلْوِهَا وَمُرِّهَا »

وفى صحيح البخارى من حديث عمرو بن تغلب قال « أتى النبى ﷺ مال فأعطى قوما ومنع آخرين فبلغه انهم عتبوا فقال : انِّى أُعْطِى الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ وَالَّذِى أَدَعُ أَحَبُّ الَىَّ مِنَ الَّذِى أُعْطِى أُعْطِى أَقْوَامًا لِمَا فِى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ وَأَكِلُ أَقْوَامًا الَى مَاجَعَلَ اللهُ فِى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَالْخَيْرِ » الحديث ، وفى الصحيحين من حديث عمران بن حصين

عن النبى ﷺ « كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَىْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء وَخَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِى الذِّكْرِ كُلَّ شَىْء » وفى الصحيح عن ابن عباس « أن النبى قال لاشج عبد القيس ان فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة قال يارسول الله خلقين تخلقت بهما أم جبلت عليهما قال بل جبلت عليهما قال الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله» وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ « جف القلم بما أنت لاق » رواه البخارى تعليقا ، وذكر البخارى أيضا عن ابن عباس فى قوله تعالى : (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) قال سبقت لهم السعادة *

وفى سنن أبى داود . وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود . وحذيفة ابن اليمان . وأبى بن كعب . وزيد بن ثابت ان الله لو عذب اهل سمواته واهل ارضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا لهم من اعمالهم ولو انفقت مثل احد ذهبا فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم ان ما اصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار، وقاله زيد بن ثابت عن النبى ﷺ ، وفى سنن ابى داود عن ابى حفص الشامى قال قال عبادة بن الصامت يابنى انك لم تجد طعم الايمان حتى تعلم ان ما اصابك لم يكن ليخطئك وما اخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله قال « انَّ اولَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ قَالَ يَارَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَىْء حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةَ يَابُنَىَّ سمعت رسول الله يقول : «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّى » ، وفى الصحيحين عن على قال : كنا فى جنازة فيها رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد

فجاء رسول الله ﷺ فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة فى الارض ثم رفع راسه فقال : « مامنكم من احد من نفس منفوسة الا قد كتب مكانها فى النار او فى الجنه الا قد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل من القوم : يانبى الله اولا نتكل على كتابنا وندع العمل فمن كان من اهل السعادة ليكونن الى السعادة ومن كان من اهل الشقاوة ليكونن الى الشقاوة قال: اعملوا فكل ميسر أما اهل السعادة فييسرون للسعادة واما اهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ثم قرأ نبى الله (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) ».

وفى السنن الاربعة عن مسلم ابن يسار الجهنى ان عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ) الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ قد سئل عنها فقال رسول الله « خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون قال رجل: يارسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله : ان الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » .

وفى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى

قَدْر الْأَرْض جَاءَ مِنهم الْأَحمر وَالْأَبْيَض وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهل وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وذكر الطبرى من حـــديث مالك بن عبد « أن رسول الله قال لابن مسعود لا يكثر همك مايقدر يكن وماترزق يأتك » ، وذكر عن طارق بن شهاب عن عمر قال قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ الىَّ مِنَ الْهُدَى شَىْءٌ وَخُلِقَ ابليسُ مُزَيِّنًا وَلَيْسَ الَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ شَىْءٌ » ، وقال ابن وهب : أنبأنا عبدالرحمن بن سليمان عن عقيل عن عكرمة عن ابن عباس قال : خرج النبى ﷺ فسمع اناسا من أصحابه يذكرون القدر فقال : انكم قد أخذتم فى شعبتين بعيدتى الغور فيهما هلك أهل الكتاب من قبلكم ولقد أخرج يوما كتابا فقال : هـذا كتاب من الله الرحمن الرحيم فيه تسمية أهل الجنة بأسمائهم وأسماء ابائهم وقبائلهم وعشائرهم فجمل على اخرهم لاينقص منهم أحد فريق فى الجنة وفريق فى السعير ٭

وفى الترمذى عن ابن عباس قال : ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال : « يَاغُلَامُ الَّا اعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِـدْهُ أَمَامَكَ تَعَرَّفْ الَى اللهِ فِى الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِى الشِّدَّةِ اذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ رُفِعَتِ الاقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ لَوْ جَهِدَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ الَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ جَهِدَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ الَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ

اللهُ لكَ واعلم أنّ النصرَ معَ الصّبرِ وأنّ الفرجَ مَعَ الكرْبِ وأنّ معَ العُسرِ يُسرًا » وفي بعض روايات الحديث في غير الترمذي « فلو أنّ النّاسَ اجتمعُوا عَلَى أنْ يعطوكَ شيْئًا لم يعطه اللهُ لم يَقْدِرُوا عليهِ ولو أنّ النّاسَ اجتمعُوا عَلَى أنْ يمنعوكَ شيْئًا قدّرهُ اللهُ لكَ مَا استطَاعُوا فاعبُدِ اللهَ معَ الصّبْرِ عَلَى اليَقين » ، وقال علي بن الجعد، أنبأنا عبد الواحد البصري عن عطاء بن أبي رباح قال. سألت عبادة بن الصامت كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت؟ قال جعل يقول : يابني اتق الله واعلم انك لن تتقى الله وان تبلغ العلم حتى تعبد الله وحده وتؤمن بالقدر خيره وشره قلت : يا أبت كيف لي ان أومن بالقدر خيره وشره قال : تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وان ما أخطاك لم يكن ليصيبك فان مت على غير هذا دخلت النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انّ أوّلَ مَا خلَقَ اللهُ القَلَمَ فقالَ لَهُ : اكْتُبْ فقَالَ : مَا أكْتُبُ؟ فجرَى تلْكَ السّاعَةَ بمَا كَانَ ومَا هُوَ كائنٌ الَى الأبَد » ، وذكر الطبري من حديث بقية نبأنا أبو بكر العبسي عن زيد ابن أم حبيب، ومحمد بن يزيد قالا حدثنا نافع عن ابن عمر قال قالت أم سلمة : « يارسول الله لا تزال نفسك في كل عام وجعة من تلك الشاة المسمومة التي أكلتها قال : مَا أصَابَنِي شَيْءٌ مِنْهَا الاّ وهُوَ مكتوبٌ عَلَى وَآدمُ في طِينَتِهِ » .

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس في خطبة النبي ﷺ : « الحمْدُ لله

نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ »

وفى صحيحه أيضا عن زيد بن أرقم كان النبى ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا » وفى صحيحه أيضا عن على عن النبى ﷺ فى دعاء الاستفتاح : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الْأَخْلَاقِ لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ » وفى الترمذى . والمسند من حديث عمران بن حصين « ان النبى ﷺ علم أباه هذا الدعاء اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى » .

وروى سفيان الثورى عن خالد الحذاء عن عبد الله بن الحرث قال : قام عمر بن الخطاب خطيبا فقال فى خطبته : « من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » وعنده الجاثليق يسمع ما يقول قال: فنفض ثوبه كهيئة المنكر فقال عمر : ما تقولون قالوا . يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحدا قال : كذبت يا عدو الله بل الله خلقك وهو أضلك وهو يدخلك النار ان شاء الله أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك ان الله خلق الخلق فخلق أهل الجنة وما هم عاملون وخلق أهل النار وما هم عاملون قال . هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه .

وذكر الطبرى عن أبى بكر الصديق قال خلق الله الخلق فكانوا فى قبضته فقال لمن فى يمينه . ادخلوا الجنة بسلام وقال لمن فى يده الأخرى . ادخلوا النار ولا أبالى فذهبت الى يوم القيامة ، وقال ابن عمر . جاء رجل

الى ابى بكر فقال . أرأيت الزنا بقدر الله؟ فقال. نعم قال . فان الله قدره على ثم يعذبنى قال. نعم يا ابن اللخناء أما والله لو كان عندى انسان أمرت ان يجأ أنفك ، وذكر عن على انه ذكر عنده القدر يوما فأدخل أصبعيه السبابة والوسطى فى فيه فرقم بهما باطن يده فقال :اشهدان هاتين الرقمتين كانتا فى أم الكتاب ، وذكر عنه ايضا انه قال : ان أحدكم لن يخلص الايمان الى قلبه حتى يستيقن يقينا غير ظن ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ويقر بالقدر كله ، وذكر البخارى عن ابن مسعود انه قال فى خطبته . الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره ،

وقال ابن مسعود . لأن اعض على جمرة أو ان أقبض عليها حتى تبرد فى يدى احب الى من ان أقول لشىء قضاه الله ليته لم يكن ، وقال : لا يطعم رجل طعم الايمان حتى يؤمن بالقدر ويعلم انه ميت وانه مبعوث من بعد الموت ، وقال الأعمش عن ابن مسعود : ان العبد ليهم بالأمر من التجارة والامارة حتى يتيسر له نظر الله اليه من فوق سبع سموات فيقول للملائكة : اصرفوا عنه فانى ان يسرته له أدخلته النار قال فيصرفه الله عنه قال فيقول : من أين دهيت او نحو هذا وماهو الا فضل الله سبحانه

وذكر الزهرى عن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ان عبد الرحمن ابن عوف مرض مرضا شديدا أغمى عليه وأفاق فقال. اغمى على قالوا. نعم قال : انه اتانى رجلان غليظان فأخذا بيدى فقالا : انطلق نحاكمك الى العزيز الأمين فانطلقا بى فتلقاهما رجل فقال : اين تريدان به ؟ قالا : نحاكمه الى العزيز الأمين فقال . دعاه فان هذا ممن سبقت له السعادة وهو فى بطن أمه ، وقال ابن جريج عن ابن طاوس عن ابيه قال : اشهد لسمعت ابن عباس يقول . العجز والكيس بقدر ، وقال مجاهد . قيل لابن عباس: ان ناسا يقولون فى القدر قال. يكذبون بالكتاب ان احدث

سعر احدهم لا تصونه (١) ان الله عز وجل كان على عرشه قبل ان يخلق شيئا فخلق القلم فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة فانما يجرى الناس على أمر قد فرغ منه ، وقال ابن عباس ايضا. القدر نظام التوحيد فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضا للتوحيد ومن وحد الله وءامن بالقدر كانت العروة الوثقى لا انفصام لها، وقال عطاء بن أبي رباح. كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس ارايت من صدنى عن الهدى وأوردنى دار الضلالة واردا الا تراه قد ظلمنى؟ فقال. ان كان الهدى شيئا كان لك عنده فمنعكه فقد ظلمك. ان كان الهدى هو له يؤتيه من يشاء فلا يظلمك قم فلا تجالسنى، وقال عكرمة عن ابن عباس . كان الهدهد يدل سليمان على الماء فقلت له . فكيف ذاك الهدهد ينصب له الفخ عليه التراب فقال. اعضك الله بهن ابيك اذا جاء القضاء ذهب البصر، وقال الامام أحمد. أنبأ اسمعيل نبأ أبو هرون الغنوى نبأ سليمان الأزدى عن أبي يحيى مولى بنى عفراء قال : اتيت ابن عباس ومعى رجلان من الذين يذكرون القدر او ينكرونه فقلت. يا ابن عباس ما تقول فى القدر؟ فان هؤلاء يسألونك عن القدر ان زنى وان شرب وان سرق قال. فحسر قميصه حتى أخرج منكبيه وقال . يا يحيى لعلك من الذين ينكرون ويكذبون به والله لو أعلم انك منهم أو هذين معك لجاهدتكم ان زنى فبقدر وان سرق فبقدر وان شرب الخمر فبقدر ، وصح عن ابن عمر أن يحيى بن يعمر قال له. ان ناسا يقولون. لا قدر وان الأمر أنف (٢) فقال . إذا لقيت أولئك فاخبرهم أن ابن عمر برىء منهم وانهم برآء منه، وقد تقدم قول أبي بن كعب. وحذيفة. وابن مسعود . وزيد بن ثابت لو أنفقت مثل جبل أحد ذهبا فى

---

(١) بياض فى الأصل (٢) بضمتين أى مستأنف لم يسبق به قضاء

سبيل الله ماقبل منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما اخطأك لم يكن ليصيبك وان مت على غير ذلك دخلت النار *

وتقدم قول عبادة بن الصامت لن تؤمن حتى تؤمن بالقدر خيره وشره وتعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك *

وقال قتادة . عن أبي السوار عن الحسن بن علي قال. قضي القضاء وجف القلم وأمور بقضاء في كتاب قد خلا ، وقال عمرو بن العاص: انتهى عجبي الى ثلاث. المرء يفر من القدر وهو لاقيه . ويرى في عين أخيه القذا فيعيبها ويكون في عينيه مثل الجذع فلا يعيبها . ويكون في دابته الظفر فيقومها جهده ويكون في نفسه الظفر فلا يقومها، قال أبو الدرداء: ذروة الايمان أربع. الصبر للحكم. والرضا بالقدر. والاخلاص للتوكل . والاستسلام للرب، وقال الحجاج الأزدي: سألنا سلمان ما الايمان بالقدر؟ فقال. ان تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك . وقال سلمان أيضا: ان الله لما خلق آدم مسح ظهره فاخرج منه ذرارى الى يوم القيامة وكتب الآجال والأعمال والأرزاق والشقاوة والسعادة فمن علم السعادة فعل الخير ومجالس الخير ومن علم الشقاوة عمل الشر ومجالس الشر *

وقال جابر بن عبدالله : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقال هشام عن أبيه عن عائشة . إن العبد ليعمل الزمان بعمل أهل الجنة وانه عند الله مكتوب من أهل النار ، والآثار في ذلك أكثر من أن تذكر وانما اشرنا الى بعضها اشارة *

﴿فصل﴾ فالجواب أن ههنا مقامين . مقام ايمان وهدى ونجاة . ومقام ضلال وردى وهلاك زلت فيه أقدام فهوت باصحابها إلى دار الشقاء. فاما مقام الايمان والهدى والنجاة فمقام اثبات القدر والايمان به وإسناد جمع

الكائنات الى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها وان ماشاء كان وان لم يشأ الناس ومالم يشأ لم يكن وإن شاء الناس .

وهذه الآثار التى كلها تحقق هذا المقام وتبين ان من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ولبس جلباب الشرك بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه وهذا فى كل كتاب أنزله الله على رسوله، وأما المقام الثانى وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على ذنبه على الله وحمل العبد ذنبه على ربه وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الامارة بالسوء وجعل أرحم الراحمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأغنى الأغنياء أضر على العباد من ابليس كما صرح به بعضهم واحتج عليه بما خصمه فيه من لا تدحض حجته ولا تطاق مغالبته حتى يقول قائل هؤلاء .

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه فى كل حال أيها الرائى
القاه فى اليم مكتوفا وقال له اياك اياك أن تبتل بالماء

ويقول قائلهم :

دعانى وسد الباب دونى فهل الى دخولى سبيل بينوا لى قصتى

ويقول الآخر :

وضعوا اللحم للبزا ة على ذروتى عدن
ثم لاموا البزاة إذ خلعوا عنهم الرسن
لو أرادوا صيانتى ستروا وجهك الحسن

وقال بعضهم ـ وقد ذكر له من يخاف من افساده ـ : فقال لى خمس بنات لاأخاف على افسادهن غيره ، وصعد رجل يوما على سطح دار له فاشرف على غلام له يفجر بجاريته فنزل وأخذهما ليعاقبهما فقال الغلام: ان القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك فقال. لعلمك بالقضاء والقدر أحب الى من كل شىء أنت حر لوجه الله، ورأى آخر يفجر بامرأته فبادر

ليأخذه فهرب فاقبل يضرب المرأة وهى تقول : القضاء والقدر فقال : ياعدوة الله أتزنى وتعتذرى بمثل هذا؟ فقالت. أوه تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس فتنبه ورمى بالسوط من يده واعتذر اليها وقال. لولاك لضللت ، ورأى آخر رجلا يفجر بامرأته فقال : ماهذا ؟ فقالت : هذا قضاء الله وقدره فقال. الخيرة فيما قضى الله فلقب بالخيرة فيما قضى الله ، وكان إذا دعى به غضب ، وقيل لبعض هؤلاء: أليس هو يقول .(وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) فقال : دعنا من هـذا رضيه وأحبه وأراده وماأفسدنا غيره ، ولقد بالغ بعضهم فى ذلك حتى قال : القدر عذر لجميع العصاة وانما مثلنا فى ذلك كما قيل :

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم   وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

وبلغ بعض هؤلاء ان عليا مر بقتلى النهروان فقال : بؤسا لكم لقد ضركم من غركم فقيل : من غرهم ؟ فقال : الشيطان. والنفس الأمارة بالسوء . والأمانى فقال هذا القائل كان على قدريا والا فالله غرهم وفعل بهم ما فعل وأوردهم تلك الموارد ه

واجتمع جماعة من هؤلاء يوما فتذاكروا القدر فجرى ذكر الهدهد وقوله : (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) فقال : كان الهدهد قدريا أضاف العمل اليهم والتزيين الى الشيطان وجميع ذلك فعل الله ، وسئل بعض هؤلاء عن قوله تعالى لابليس : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) أيمنعه ثم يسأل مامنعه ؟ قال : نعم قضى عليه فى السر ما منعه فى العلانية ولعنه عليه قال له : فما معنى قوله : (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ) اذا كان هو الذى منعهم؟ قال: استهزاء بهم قال فما معنى قوله : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ

بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) قال : قد فعل ذلك بهم من غير ذنب جنوه بل ابتدأهم بالكفر ثم عذبهم عليه وليس للآية معنى ، وقال بعض هؤلاء وقد عوتب على ارتكابه معاصي الله فقال : ان كنت عاصيا لأمره فأنا مطيع لارادته ، وجرى عند بعض هؤلاء ذكر ابليس وأبائه وامتناعه من السجود لآدم فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه فقال : الى متى هذا اللوم؟ ولو خلى لسجد ولكن منع وأخذ يقيم عذره فقال بعض الحاضرين: تبالك سائر اليوم أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن ، وجاء جماعة الى منزل رجل من هؤلاء فلم يجدوه فلما رجع قال : كنت أصلح بين قوم فقيل له : وأصلحت بينهم قال : أصلحت ان لم يفسد الله فقيل له : بؤسا لك أتحسن الثناء على نفسك وتسيء الثناء على ربك، ومر باص مقطوع اليد على بعض هؤلاء فقال : مسكين مظلوم أجبره على السرقة ثم قطع يده عليها ، وقيل لبعضهم . أترى الله كلف عباده ما لا يطيقون ثم يعذبهم عليه؟ قال : والله قد فعل ذلك ولكن لا نجسر ان نتكلم ، وأراد رجل من هؤلاء السفر فودع أهله وبكى فقيل : استودعهم الله واستحفظهم إياه فقال : ما أخاف عليهم غيره ، وقال بعض هؤلاء : ذنبة أذنبها أحب الى من عبادة الملائكة قيل : ولم ؟ قال : لعلمي أن الله قضاها على وقدرها ولم يقضها الا والخيرة لى فيها ، وقال بعض هؤلاء : العارف لا ينكر منكرا لاستبصاره بسر الله فى القدر ، ولقد دخل شيخ من هؤلاء بلدا فأول ما بدأ به من الزيارات زيارة المواخير المشتملة على البغايا والخمور فجعل يقول . كيف أنتم فى قدر الله .

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول : عاتبت بعض شيوخ هؤلاء فقال لى . المحبة نار تحرق من القلب ماسوى مراد المحبوب والكون

كله مراد فأى شيء أبغض منه قال . فقلت له . اذا كان المحبوب قد أبغض بعض من فى الكون وعاداهم ولعنهم فأحببتهم أنت وواليتهم أكنت وليا للمحبوب أوعدوا له ؟ قال . فكأنما ألقم حجرا ، وقرأ قارىء بحضرة بعض هؤلاء (قَالَ يَا ابْلِيسُ مَا مَنَعَكَ انْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) فقال . هو والله منعه ولو قال ابليس ذلك لكان صادقا وقد أخطأ ابليس الحجة ولو كنت حاضرا لقلت له أنت منعته ، وسمع بعض هؤلاء قارئا يقرأ (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) فقال . ليس من هذا شيء بل أضلهم وأعماهم قالوا . فما معنى الآية ؟ قال : مخرقة يمخرق بها *

فيقال . الله أكبر على هؤلاء الملاحدة اعداء الله حقا الذين ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه ولا نزهوه عما لا يليق به وبغضوه الى عباده وبغضوهم اليه سبحانه وأساءوا الثناء عليه جهدهم وطاقتهم ، وهؤلاء خصماء الله حقا الذين جاء فيهم الحديث « يقال يوم القيامة اين خصماء الله فيؤمر بهم الى النار » قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى تائيته .

ويدعى خصوم الله يوم معادهم الى النار طرا فرقة القدرية
سواء نفوه اوسعوا ليخاصموا به الله او ماروا به للشريعة

وسمعته يقول . القدرية المذمومون فى السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة نفاته وهم القدرية المجوسية والمعارضون به للشريعة الذين قالوا (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) وهم القدرية المشركية . والمخاصمون به الرب سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم القدرية الابليسية وشيخهم

ابليس وهو اول من احتج على الله بالقدر فقال (بِمَا أَغْوَيْتَنِي) ولم يعترف بالذنب ويبوء به كما اعترف به آدم فمن اقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد اشبه اباه ءادم ومن اشبه اباه فما ظلم ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه ابليس ، ولا ريب ان هؤلاء القدرية الابليسية والمشركية شر من القدرية النفاة لأن النفاة انما نفوه تنزيها للرب وتعظيما له أن يقدر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب ونزهوه ان يعاقب العبد على ما لاصنع للعبد فيه البتة بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه ونحو ذلك كما يحكى عن بعض الجبرية انه حضر مجلس بعض الولاة فأتى بطرار احول فقال له الوالي: ماترى فيه؟ فقال . اضرب به خمسة عشر يعني سوطا فقال له بعض الحاضرين ممن ينفي الجبر: بل ينبغي ان يضرب ثلاثين سوطا خمسة عشر لطاره ومثلها لحوله فقال الجبري . كيف يضرب على الحول ولاصنع له فيه ؟ فقال: كما ضرب على الطار ولاصنع له فيه عندك فبهت الجبري ، واما القدرية الابليسية . والمشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله لايقر بأمر ولانهي وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ

الَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ) وقال تعالى : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ انْ هُمْ الَّا يَخْرُصُونَ) وقال . (وَاذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ انْ أَنْتُمْ الَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

فهذه أربعة مواضع فى القرءان بين سبحانه فيها ان الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل وقد افترق الناس فى الكلام على هذه الآيات أربع فرق ، الفرقة الأولى جعلت هذه الحجة حجة صحيحة وان للمحتج بها الحجة على الله ثم افترق هؤلاء فرقتين، فرقة كذبت بالأمر والوعد . والوعيد وزعمت ان الأمر والنهى والوعد . والوعيد بعد هذا يكون ظلما والله لا يظلم من خلقه أحدا ، وفرقة صدقت بالأمر والنهى والوعد . والوعيد وقالت : ليس ذلك بظلم والله يتصرف فى ملكه كيف يشاء ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده اذ العبد لا فعل له والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فان هؤلاء الكفار انما قالوا هذه المقالة التى حكاها الله عنهم استهزاء منهم ولو قالوا اعتقادا للقضاء والقدر واسنادا لجميع الكائنات الى مشيئته وقدرته لم ينكر عليهم ، ومضمون قول هذه الفرقة ان هذه حجة صحيحة اذا قالوها على وجه الاعتقاد لا على جهة الاستهزاء فيكون للمشركين على الله الحجة وكفى بهذا القول فسادا وبطلانا .

﴿ الفرقة الثانية ﴾ جعلت هذه الآيات حجة لها فى ابطال القضاء والقدر والمشيئة العامة إذ لو صحت المشيئة العامة وكان الله قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الأوثان لكانوا قد قالوا الحق وكان الله يصدقهم

عليه ولم ينكر عليهم حيث وصفهم بالخرص الذى هو الكذب ونفى عنهم العلم دل على ان هذا الذى قالوه ليس بصحيح وانهم كاذبون فيه إذ لو كان علما لكانوا صادقين فى الاخبار به ولم يقل لهم (هل عندكم من علم) وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التكذيب بالقضاء والقدر وزعمت بها أن يكون فى ملكه ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون وانه لا قدرة له على أفعال عباده من الانس والجن والملائكة ولا على أفعال الحيوانات وانه لا يقدر ان يضل احدا ولا يهديه ولا يوفقه أكثر مما فعل به ولا يعصمه من الذنوب والكفر ولا يلهمه رشده ولا يجعل فى قلبه الايمان ولا هو الذى جعل المصلى مصليا والبر برا والفاجر فاجرا والمؤمن مؤمنا والكافر كافرا بل هم الذين جعلوا أنفسهم كذلك ، فهذه الفرقة شاركت الفرقة التى قبلها فى القاء الحرب والعداوة بين الشرع والقدر فالاولى تحيزت الى القدر وحاربت الشرع والثانية تحيزت الى الشرع وكذبت القدر ، والطائفتان ضالتان واحداهما أضل من الأخرى *

﴿والفرقة الثالثة﴾ آمنت بالقضاء والقدر وأقرت بالأمر والنهى ونزلوا كل واحد منزلته فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يحتج به والأمر والنهى يمتثل ويطاع فالايمان بالقضاء والقدر عندهم من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله والقيام بالأمر والنهى موجب شهادة أن محمدا رسول الله وقالوا من لم يقر بالقضاء والقدر ويقم بالامر والنهى فقد كذب بالشهادتين وان نطق بهما بلسانه ، ثم افترقوا فى وجه هذه الآيات فرقتين فرقة قالت : انما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك فجعلوا مشيئته له وتقديره له دليلا على رضاه به ومحبته له اذ لو كرهه وأبغضه لحال بينه وبينهم فان الحكيم اذا كان قادرا

على دفع ما يكرهه ويبغضه دفعه ومنع من وقوعه واذا لم يمنع من وقوعه لزم اما عدم قدرته واما عدم حكمته وكلاهما ممتنع فى حق الله فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به ، وقد وافق هؤلاء من قال : ان الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها ولكن خالفهم فى أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها فوافقهم فى نصف قولهم وخالفهم فى الشطر الآخر ، وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين وان مشيئة الله تعالى العامة وقضاءه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكل ماشاءه وقدره ، وهؤلاء المشركون لما استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه كذبهم وأنكر عليهم وأخبر أنه لا علم لهم بذلك وانهم خارصون مفترون فان محبة الله للشيء ورضاه به انما يعلم بأمره به على لسان رسوله لا بمجرد خلقه فانه خلق ابليس وجنوده وهم أعداؤه وهو سبحانه يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه ، فهكذا فى الأفعال خلق خيرها وشرها وهو يحب خيرها ويأمر به ويثيب عليه ويبغض شرها وينهى عنه ويعاقب عليه وكلاهما خلقه ولله الحكمة البالغة التامة فى خلقه ما يبغضه ويكرهه من الذوات والصفات والأفعال كل صادر عن حكمته وعلمه كما هو صادر عن قدرته ومشيئته .

وقالت الفرقة الثانية : انما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ودفع الأمر بالمشيئة فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره فجعلوا القضاء والقدر ابطالا لدعوة الرسل ودفعا لما جاؤا به وشاركهم فى ذلك اخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصى والذنوب فى نصف أقوالهم وخالفوهم فى النصف الآخر وهو اقرارهم بالأمر والنهى ، فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام وورث كل قوم أئمتهم واسلافهم اما فى جميع تركتهم واما فى كثير منها واما

فى جزء منها وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم واصحابه فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض بل امنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة وانه ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وانه مقلب القلوب ومصرفها كيف اراد وانه هو الذى جعل المؤمن مؤمنا والمصلى مصليا والمتقى متقيا وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره وائمة الضلالة يدعون الى النار وانه الهم كل نفس فجورها وتقواها وانه يهدى من يشاء بفضله ورحمته ويضل من يشاء بعدله وحكمته وانه هو الذى وفق اهل الطاعة لطاعته فاطاعوه ولو شاء خذلهم فعصوه وانه حال بين الكفار وقلوبهم فانه يحول بين المرء وقلبه فكفروا به ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه وانه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وانه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعا إيمانا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم وانه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ *

والقضاء . والقدر عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى ، الأولى علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم ، الثانية كتابة ذلك فى الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض ، الثالثة مشيئته المتناولة لكل موجود فلا خروج لكائن عن مشيئته كما لا خروج له عن علمه ، الرابعة خلقه له وإيجاده وتكوينه فانه لا خالق الا الله والله خالق كل شيء ، فالخالق عندهم واحد وما سواه فمخلوق ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق ويؤمنون مع ذلك بحكمته وانه حكيم فى كل ما فعله وخلقه وان مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه وان حكمته حكمة حق عائدة اليه قائمة به كسائر صفاته

وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره كما تقوله نفاة الحكمة الذين يقرون بلفظها دون حقيقتها بل هي أمر وراء ذلك وهي الغاية المحبوبة له المطلوبة التي هي متعلق محبته وحمده ولأجلها خلق فسوى وقدر فهدي وأمات وأحيا وأسعد وأشقى وأضل وهدى ومنع وأعطى *

وهذه الحكمة هي الغاية والفعل وسيلة اليها فاثبات الفعل مع نفيها اثبات للوسائل ونفي للغايات وهو محال إذ نفي الغاية مستلزم لنفي الوسيلة فنفي الوسيلة وهي الفعل لازم لنفي الغاية وهي الحكمة ونفي قيام الفعل والحكمة به نفي لهما في الحقيقة إذ فعل لا يقوم بفاعله وحكمة لا تقوم بالحكيم شيء لا يعقل وذلك يستلزم إنكار ربوبيته والهيته وهذا لازم لمن نفي ذلك ولا محيد له عنه وان أبى التزامه ، وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل لم يلزم من قوله محذور البتة بل قوله حق ولازم الحق حق كائنا ما كان *

والمقصود ان ورثة الرسل وخلفاءهم لكمال ميراثهم لنبيهم آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره وقاموا مع ذلك بالأمر والنهي وصدقوا بالوعد والوعيد فآمنوا بالخلق الذي من تمام الايمان به اثبات القدر والحكمة وبالأمر الذي من تمام الايمان به الايمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب فصدقوا بالخلق والأمر ولم ينفوهما بنفي لوازمهما كما فعلت القدرية المجوسية . والقدرية المعارضة للأمر بالقدر وكانوا أسعد الناس بالخلق وأقربهم عصبة في هذا الميراث النبوي وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *

واعلم أن الايمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع الا في

قلوب خواص الخلق ولب العالم وليس الشأن فى الايمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلال فان القدرية تومن بلفظ القدر ومنهم من يرده الى العلم ومنهم من يرده الى الأمر الدينى ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة انكار القضاء والقدر وكذلك الحكمة فان الجبرية تومن بلفظها ويجحدون حقيقتها فانهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وإرادته لمراده تعالى فهى عندهم وقوع الكائنات على وفق علمه وارادته والقدرية النفاة لا يرضون بهذا بل يرتفعون عنه طبقة ويثبتون حكمة زائدة على ذلك لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ويجعلونها مخلوقا من مخلوقاته كما قالوا فى كلامه وإرادته، فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ الحكمة وجحدوا معناها وحقيقتها ، وكذلك الأمر والشرع فان من أنكر كلام الله وقال : ان الله لم يتكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول ولا يحب شيئا ولا يبغض شيئا وجميع الكائنات محبوبة له وما لم يكن فهو مكروه له ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب ولا فرق فى نفس الأمر بين الصدق والكذب والفجور والسجود للأصنام والشمس والقمر والسجود له ولم يكلف أحدا ما يقـــدر عليه بل كل تكليفه تكليف ما لا يطاق ولا قدرة للمكلف عليه البتة، ويجوز أن يعذب رجالا إذ لم يكونوا نساء ويعذب نساء إذ لم يكونوا رجالا وسودا حيث لم يكونوا بيضا وبيضا حيث لم يكونوا سودا ، ويجوز أن يظهر المعجزة على أيدى الكذابين ويرسل رسولا يدعو الى الباطل وعبادة الأوثان ويأمر بقتل النفوس وانواع الفجور ، ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهى بالكلية، ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ولكن

مشى الحال بعض المشى بتناقضهم وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها *

والمقصود انه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهى والوعد والوعيد حقيقة الايمان الا أتباع الرسل وورثتهم ، والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته ، ولهذا قال الامام أحمد : القدر قدرة الله ، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال . انه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر ولهذا كان المنكرون للقدر فرقتين ، فرقة كذبت بالعلم السابق ونفته وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة ، وفرقة جحدت كمال القدرة وأنكرت أن تكون أفعال العبادة مقدورة لله تعالى وصرحت بأن الله لا يقدر عليها فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب وأنكرت الأخرى كمال علمه . وقابلهم الجبرية فجاءت على اثبات القدرة والعلم وأنكرت الحكمة والرحمة ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرا كقوله : (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) وقال : (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) وقال : (حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) وقال فى حم فصلت بعد ذكر تخليق العالم : (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وذكر نظير هذا فى الانعام فقال : (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضى أن لا يخرج موجود عن قدرته

وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته فهو عليم بخلقه وأمره حكيم فى خلقه وأمره ، ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى فالحكمة من صفاته العلى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة . والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة والحكمة هى سنة الرسول ﷺ وهى تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به فكل هذا يسمى حكمة ، وفى الأثر « الحكمة ضالة المؤمن » وفى الحديث « أَنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً » وكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده وهو محمود على جميع ما فى الكون من خير وشر حمدا استحقه لذاته وصدر عنه خلقه وأمره فمصدر ذلك كله عن الحكمة فانكار الحكمة انكار لحمده فى الحقيقة والله أعلم .

﴿ فصل فى تفصيل ما أجمل فيما مر وتوضيحه ﴾

وإنما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة فى كل ما خلقه الله وأمر به وبيان انه كله خير من جهة إضافته اليه سبحانه وانه من تلك الاضافة خير وحكمة وان جهة الشر منه من جهة إضافته الى العبد كما قال ﷺ فى دعاء الاستفتاح : « لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس إليك » .

فهذا الذى يقتضى امتناع إضافة الشر اليه تعالى بوجه فلا يضاف الى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله فان ذاته منزهة عن كل شر وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه

وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة واحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر اليه ، وتحقيق ذلك أن الشر ليس هو الا الذنوب وعقوباتها كما فى خطبته ﷺ «الْحَمْدُ لله نَسْتَعِينه ونَسْتَغفِره وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفوس . ومن سيئات الأعمال وهى عقوباتها ، وعلى هذا فالاضافة على معنى اللام من باب إضافة المتغايرين أو يقال: المراد السيئات من الأعمال فعلى هذا الاضافة بمعنى من وهى من باب إضافة النوع الى جنسه ويدل على الأول قوله تعالى : (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ) *

قال شيخنا : وهذا أشبه لأنه اذا أريد السيئات من الأعمال فان أريد ما وقع منها فالاستعاذة إنما تكون من عقوباتها إذ الواقع من شر النفس، وأيضا فلا يقال : فى هذه التى لم توجد بعد سيئات أعمالنا فانها لم تكن بعد أعمالا فضلا عن أن تكون سيئات وإضافة الأعمال إلينا تقتضى وجودها إذ ما لم يوجد بعد ليس هو من أعمالنا الا أن يقال : من سيئات الأعمال التى اذا عملناها كانت سيئات ، ولمن رجح التقدير الثانى أن يقول : العقوبات ليست لجميع الأعمال بل المحرمات منها والأعمال أعم وحملها على المحرمات خاصة خلاف ظاهر اللفظ بخلاف ما اذا كانت الاضافة على معنى من فتكون الأعمال على عمومها والسيئات بعضها فتكون السيئات على عمومها. ويترجح أيضا ان الاستعاذة تكون قد اشتملت على أصل الشر كله وهى شر النفس الكامن فيها الذى لم يخرج الى

العمل وشر العمل الخارج الذى سولته النفس ، فالأول شر الطبيعة والصفة التى فى النفس والثانى شر العمل المتعلق بالكسب والارادة ويلزم من المعافاة من هذين الشرين المعافاة من موجبهما وهو العقوبة فتكون الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم وهذا هو اللائق بمن أوتى جوامع الكلم فان هذا من جوامع كلمه البديعة العظيمة الشأن التى لا يعرف قدرها الا أهل العلم والايمان ه

واذا عرف هذا وانه ليس فى الوجود شر الا الذنوب وموجباتها وكونها ذنوبا تأتى من نفس العبد فان سبب الذنب الظلم والجهل وهما من نفس العبد كما ان سبب الخير الحمد والعلم والحكمة والغنى وهى أمور ذاتية للرب وذات الرب سبحانه مستلزمة للحكمة والخير والجود وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم وما فيه من العلم والعدل فانما حصل له بفضل الله عليه وهو أمر خارج عن نفسه فمن أراد الله به خيرا أعطاه هذا الفضل فصدر منه من الاحسان والبر والطاعة ومن أراد به شرا أمسكه عنه وخلاه ودواعى نفسه وطبعه وموجبها فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح وليس منعه لذلك ظلما منه سبحانه فانه فضله وليس من منع فضله ظالما لاسيما اذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به، وأيضا فان هذا الفضل هو توفيقه وارادته من نفسه أن يلطف بعبده ويوفقه ويعينه ولا يخلى بينه وبين نفسه وهذا محض فعله وفضله وهو سبحانه أعلم بالمحل الذى يصلح لهذا الفضل ويليق به ويثمر به ويزكو به ه

وقد أشار تعالى الى هذا المعنى بقوله : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) فأخبر سبحانه انه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة ويشكره عليها فان

أصل الشكر هو الاعتراف بانعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضا ومن عرف النعمة و المنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضا ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضى به وعنه واستعملها فى محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها، فلا بد فى الشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم وهو الميل الى المنعم ومحبته والخضوع له كما فى صحيح البخارى عن شداد بن أوس قال قال رسول الله ﷺ: « سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا اِلَهَ اِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ».

فقوله: « ابوء لك بنعمتك على » يتضمن الاقرار والانابة الى الله بعبوديته فان المباءة هى التى يبوء اليها الشخص أى يرجع اليها رجوع استقرار والمباءة هى المستقر، ومنه قوله « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » أى ليتخذ مقعده من النار مباءة يلزمه ويستقر فيه لا كالمنزل الذى ينزله ثم يرحل عنه ، فالعبد يبوء الى الله بنعمته عليه ويبوء بذنبه يرجع اليه بالاعتراف بهذا وبهذا رجوع مطمئن الى ربه منيب اليه ليس

رجوع من أقبل عليه، ثم أعرض عنه بل رجوع من لا يعرض عن ربه بل لا يزال مقبلا عليه اذا كان لا بد له منه فهو معبوده وهو مستغاثه لا صلاح له الا بعبادته فان لم يكن معبوده هلك وفسد ولا يمكن أن يعبده الا باعانته ، وفى الحديث « مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الْفَرَسِ فى آخِيَّتِهِ يَجُولُ(١) ثُمَّ يَرْجِعُ الَى آخِيَّتِهِ كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ الَى الْايمَانِ » فقوله « أبوء » يتضمن انى وان جلت كما يجول الفرس اما بالذنب واما بالتقصير فى الشكر فانى راجع منيب أواب اليك رجوع من لا غنى له عنك، وذكر النعمة والذنب لأن العبد دائما يتقلب بينهما فهو بين نعمة من ربه وذنب منه هو كما فى الأثر الالهى « ابْنَ آدَمَ خَيْرِى الَيْكَ نَازِلٌ وَشَرُّكَ الَىَّ صَاعِدٌ أَتَحَبَّبُ الَيْكَ بِالنِّعَمِ وَأَنَا غَنِىٌّ عَنْكَ وَكَمْ تَتَبَغَّضُ الَىَّ بِالْمَعَاصِى وَأَنْتَ فَقِيرٌ الَىَّ وَلَا يَزَالُ الْمَلَكُ الْكَرِيمُ يَعْرُجُ الَىَّ مِنْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ » .

وكان فى زمن الحسن البصرى شاب لا يرى الا وحده فسأله الحسن عن ذلك فقال : انى أجدنى بين نعمة من الله وذنب منى فأريد أن أحدث للنعمة شكرا وللذنب استغفارا فذلك الذى شغلنى عن الناس أو كما قال فقال له : أنت أفقه من الحسن فالخير كله من الله كما قال تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) وقال : (وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ الَيْكُمُ الْايمَانَ

---

(١) الآخية ـ بالمد والتشديد ـ حبيل أو عويد يعرض فى الحائط ويدفن طرفه ويصير وسطه كالعروة وتشد فيه الدابة، وجمعها الأواخى مشددا، ومعنى الحديث انه يبعد عن ربه بالذنوب وأصل إيمانه ثابت

وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً) وقال (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)وقال تعالى (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) وهؤلاء المنعم عليهم هم المذكورون فى قوله : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) فالنعم كلها من نعم الله وفضله على عبده وهو سبحانه وان كان أجود الاجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين فانه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين لا يضع الأشياء الا فى مواضعها اللائقة بها ولا يناقض جوده ورحمته وفضله حكمته وعدله ، ولو رأى العقلاء واحدا منهم قد وضع المسك فى الحشوش والاخلية ووضع النجاسات والقاذورات فى مواضع الطيب والنظافة لاشتد نكيرهم عليه والقدح فى عقله ونسبوه الى السفه وخلاف الحكمة ، وكذلك لو وضع العقوبة موضع الاحسان والاحسان موضع العقوبة لسفهوه وقدحوا فى عقله كما قال القائل :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وكذلك لو وضع الدواء موضع الغذاء والغذاء موضع الدواء والاستفراغ حيث يكون اللائق بعدمه والامساك حيث يليق الاستفراغ ، وكذلك وضع الماء موضع الطعام والطعام موضع الماء وأمثال ذلك مما

يخل بالحكمة بل لو أقبل على الحيوان البهيم يريد تعليمه ما لم يخلق له من العلوم والصنائع فمن يرث حكمته العقول والألباب كيف ينبغى له أن يضع الأشياء فى غير مواضعها اللائقة بها ، ومن المعلوم ان أجل نعمه على عبده نعمة الايمان به ومعرفته ومحبته وطاعته والرضا به والانابة اليه والتوكل عليه والتزام عبوديته ، ومن المعلوم أيضا ان الأرواح منها الخبيث الذى لا أخبث منه ومنها الطيب وبين ذلك ، وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكى والقلب الخسيس الخبيث وهو سبحانه خلق الأضداد كما خلق الليل والنهار والبرد والحر والداء والدواء والعلو والسفل وهو أعلم بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التى تصلح لاستقرار هذه النعم فيها وإيداعها عندها ويذكو بذرها فيها فيكون تخصيصه لها بهذه النعمة كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذر بالبذر فليس من الحكمة أن يبذر البر فى الصخور والرمال والسباخ وفاعل ذلك غير حكيم فما الظن ببذر الايمان والقرءان والحكمة ونور المعرفة والبصيرة فى المحال التى هى أخبث المحال فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته أصلا وميراثا فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها الى عباده بالأمانة والنصيحة وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبر على أوامره والشكر لنعمه والتقرب اليه ومن لا يصلح لذلك ، وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله والقيام بخلافتهم وحمل ما بلغوه عن ربهم *

قال عبدالله بن مسعود: ان الله نظر فى قلوب العباد فرأى قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل الأرض فاختصه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته ، وفى أثر بنى اسرائيل ان الله تعالى قال لموسى : أتدرى لم اخترتك بكلامى؟ قال: لا يارب قال انى نظرت فى قلوب العباد فلم أر فيها أخضع من قلبك لى أو نحو هذا

فالرب سبحانه اذا علم من محل اهلية لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبب اليه ذلك ووضعه فيه وكتبه فى قلبه ووفقه له وأعانه عليه ويسر له طرقه واغلق دونه الأبواب التى تحول بينه وبين ذلك ثم تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أحسن من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذى هو أحب شيء اليه فلا يزال يعامله بلطفه ويختصه بفضله ويؤثره برحمته ويمده بمعونته ويؤيده بتوفيقه ويريه مواقع احسانه اليه وبره به فيزداد العبد به معرفة وله محبة واليه إنابة وعليه توكلا ولا يتولى معه غيره ولا يعبد معه سواه ، وهذا هو الذى عرف قدر النعمة وعرف المنعم واقر بنعمته وصرفها فى مرضاته واقتضت حكمة الرب وجوده وكرمه واحسانه ان بذر فى هذا القلب بذر الايمان والمعرفة وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح وأطلع عليه من نوره شمس الهداية وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة فانبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم كما فى الصحيح من حديث أبي موسى عن النبى ﷺ قال : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَسَقَى النَّاسُ وَزَرَعُوا وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِى دِينِ اللّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللّهُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ »

فمثل القلوب بالأرض التى هى محل النبات والثمار ومثل الوحى الذى وصل اليها من بارئها وفاطرها بالماء الذى ينزله على الأرض فمن الأرض

أرض طيبة قابلة للماء والنبات فلما أصابها الماء أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم وأقوات المكلفين وغيرهم وهذه بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه المستعد لزكائه فيه وثمرته ونمائه ، وهذا خير قلوب العالمين، ومن الأرض أرض صلبة منخفضة غير مرتفعة ولا رابية قابلة لحفظ الماء واستقراره فيها ففيها قوة الحفظ وليس فيها قوة النبات فلما حصل فيها الماء أمسكته وحفظته فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم ، وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه وأداه الى من هو أفهم له منه وأفقه منه وأعرف بمراده وهذا في الدرجة الثانية *

ومن الأرض أرض قيعان وهي المستوية التي لا تنبت اما لكونها سبخة أو رمالا ولا يستقر فيها الماء فاذا وقع عليها الماء ذهب ضائعا لم تمسكه لشرب الناس ولم تنبت به كلأ لأنها غير قابلة لحفظ الماء ولا لنبات الكلأ والعشب وهذا حال أكثر الخلق وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين بل لابد لكل مسلم ان يزكو الوحي في قلبه فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته فمن لم ينبت قلبه شيئا من الخير البتة فهذا من أشقى الأشقياء، فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة في كلامه وفي أمثاله *

والمقصود ان الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه ومن يصلح لها ومن لا يصلح وان حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله كما تأبى ان يمنعه من يصلح له وهو سبحانه الذي جعل المحل صالحا وجعله أهلا وقابلا فمنه الاعداد والامداد . ومنه السبب والمسبب ، ومن اعترض بقوله : فهلا جعل المحال كلها كذلك وجعل القلوب على قلب واحد

فهو من أجهل الناس وأضلهم وأسفههم وهو بمنزلة من يقول : لم خلق الأضداد وهلا جعلها كلها سببا واحدا فلم خلق الليل والنهار والفوق والتحت والحر والبرد والدواء والداء والشياطين والملائكة والروائح الطيبة والكريهة والحلو والمر والحسن والقبيح ؟ وهل يسمح خاطر من له أدنى مسكة من عقل بمثل هذا السؤال الدال على حمق سائله وفساد عقله ؟ وهل ذلك الا موجب ربوبيته والهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها ، وهل حقيقة الملك الا باكرام الأولياء وإهانة الأعداء ؟ وهل تمام الحكمة وكمال القدرة الا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها وإيصال ما يليق بكل منها اليه ؟ وهل ظهور آثار أسمائه وصفاته فى العالم الا من لوازم ربوبيته وملكه ؟ فهل يكون رزاقا وغفارا وغفورا ورحيما وحليما ولم يوجد من يرزقه ولا من يغفر له ويعفو عنه ويحلم عنه ويرحمه ؟ وهل انتقامه الا من لوازم ربوبيته وملكه فممن ينتقم ان لم يكن له أعداء ينتقم منهم ويرى أولياءه كمال نعمته عليهم واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه ، وهل فى الحكمة الالهية تعطيل الخير الكثير لأجل شر جزئى يكون من لوازمه فهذا الغيث الذى يحيي به الله البلاد والعباد والشجر والدواب كم يحبس من مسافر ويمنع من قصار ويهدم من بناء ويعوق من مصلحة ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح ؟ وهل هذه المفاسد فى جنب مصالحه الا كتفلة فى بحر؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد الا موجبا لأعظم المفاسد والهلاك ، وهذه الشمس التى سخرها الله لمنافع عباده وانضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير وفيها من المنافع والمصالح ما فيها كم تؤذى مسافرا وغيره بحرها وكم تجفف رطوبة وكم تعطش حيوانا وكم تحبس عن مصلحة وكم تنشف

من مورد وتحرق من زرع ولكن أين نفع هذا فى جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمكملة ؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير وهو خلاف موجب الحكمة الذى تنزه الله سبحانه عنه *

قلت لشيخ الاسلام: فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة فقال : خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع فان وجود الملزوم بدون لازمه محال ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ولكان عالما آخر غير هذا قال : ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمة لنوع من الأمور لا ينفك عنه كالحركة مثلا المستلزمة لكونها لا تبقى فاذا قيل : لم لم تخلق الحركة المعينة باقية ؟ قيل : لأن ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان الى مكان والتحول من حال الى حال فاذا قدر ما ليس كذلك لم يكن حركة ونفس الانسان هى فى ذاتها جاهلة عاجزة فقيرة كما قال تعالى : (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) وإنما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته فما حصل لها من كمال وخير فمن الله وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فمن منها ومن حقيقتها ، وهذه أمور عدمية وليس لها من نفسها وجود ولا كمال ، والأمور العدمية من لوازم وجودها ولو جعلت على غير ذلك لم تكن هى هذه النفس الانسانية بل مخلوقا آخر، فحقيقة نفس الانسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة والشر الذى يحصل لها نوعان عدم ووجود، فالأول كعدم العلم والايمان والصبر وإرادة الخيرات وعدم العدل بها وهذا العدم ليس له فاعل اذ العدم المحض لا يكون له فاعل لأن تأثير الفاعل انما هو فى أمر وجودى وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدم محض ليس له فاعل فان العدم

ليس بشيء أصلا وما ليس بشيء لا يقال: انه مفعول لفاعل فلا يقال انه من الله انما يحتاج الى الفاعل الأمور الوجودية ولهذا من قول المسلمين كلهم ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فكل كائن فبمشيئته كان وما لم يكن فلعدم مشيئته والعدم يعلل بعدم السبب أوالشرط تارة وبوجود المانع أخرى *

وقد يقال : علة العدم عدم العلة، وبعض الناس يقول : الممكن لايترجح أحد طرفيه الا بمرجح فلا يوجد الا بسبب ولا يعدم الا بسبب ، قال : والتحقيق فى هذا ان العدم ليس له فاعل ولا علة فاعلة أصلا اذا أضيف الى عدم السبب أو عدم الشرط فمعناه الملازمة أى عدم العلة استلزم عدم المعلول وعدم الشرط استلزم عدم المشروط ، فاذا قيل : عدم لعدم علة مستلزمة لعدمه والنفس تطلب سبب العدم فتقول : لم لم يوجد كذا؟ فيقال . لعدم كذا فيضاف عدم المعلول الى عدم علته لا إضافة تأثير ولكن اضافة استلزام وتعريف ، وأما التعليل بالمانع فلا يكون الا مع قيام السبب اذا جعل المانع مقتضيا للعدم ، وأما اذا أريد قياس الدلالة فوجود المانع يستلزم عدم الحكم سواء كان المقتضى موجودا أولم يكن*

والمقصود ان ما عدمته النفس من كمالها فمنها فانها لا تقتضى الا العدم أى عدم استعداد نفسها وقوتها هى السبب فى عدم هذا الكمال فانه كما يكون أحد الوجودين سببا الآخر فكذلك أحد العدمين يكون سببا لعدم الآخر والموجود الحادث يضاف الى السبب المقتضى لايجاده ، وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم الى فاعل يحدث العدم بل يكفى فى استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لانتفاء مشيئته فانتفاء مشيئة كونه سبب عدمه وهذا معنى قولهم : عدم علة الوجود علة العدم، وبهذا الاعتبار الممكن القابل للوجود والعدم لايترجح أحد طرفيه على الآخر الا بمرجح فمرجح عدمه عدم مرجحه،

ومعنى الترجيح والسببية ههنا الاستلزام لاالتأثير كما تقدم فظهر استحالة إضافة هذا الشر الى الله عز وجل *

وأما الشر الثاني وهو الشر الوجودي كالعقائد الباطلة والارادات الفاسدة فهو من لوازم ذلك العدم فانه متى عدم ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهل وموجبهما ولا بد لأن النفس لا بد لها من أحد الضدين فاذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد، وهذا الشر الوجودي هو من خلقه تعالى إذ لا خالق سواه وهو خالق كل شيء لكن كل ما خلقه الله فلا بد أن يكون له في خلقه حكمة لأجلها خلقه فلو لم يخلقه فاتت تلك الحكمة وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة التي هي أحب اليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها فان في وجودها من الحكمة والغايات التي يحمد عليها سبحانه أضعاف ما في عدمها من ذلك ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل بدون هذا الشر ، ووجود الشيء لا يكون الا مع وجود لوازمه وانتفاء أضداده فانتفاء لوازمه يكون ممتنعا لغيره وحينئذ فقد يكون هدى هذه النفوس الفاجرة وشهادتها مشروطا بلوازم لم تحصل او بانتفاء أضداد لم تنتف *

فان قيل: فهلا حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الاضداد، فهذا هو السؤال الأول وقد بينا ان لوازم هذا الخلق ، وهذه النشأة وهذا العالم لابد منها فلو قدر عدمها لم يكن هذا العالم بل عالما آخر ونشأة أخرى وخلقا آخر وبينا ان هذا السؤال بمنزلة أن يقال : هلا تجرد الغيث والأنهار عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى ؟ وهلا تجردت الشمس عما يحصل منها من حر وسموم وأذى ؟ وهلا تجردت طبيعة الحيوان عما

يحصل له من ألم وموت وغير ذلك ؟ وهلا تجردت الولادة عن مشقة الحمل والطلق وألم الوضع ؟ وهلا تجرد بدن الحيوان عن قبوله الآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغير أحواله ؟ وهلا تجرد فصول العالم عما فيها من البرد الشديد القاتل والحر الشديد المؤذى فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده وهل هذا الا بمنزلة أن يقال : لم كان المخلوق فقيرا محتاجا والفقر والحاجة صفة نقص فهلا تجرد منها وخلعت عليه خلعة الغنى المطلق والكمال المطلق فهل يكون مخلوقا اذا كان غنيا غنى مطلقا ، ومعلوم ان لوازم الخلق لابد منها فيه ولابد للعلو من سفل والسفل من مركز ولوازم العلو من السعة والاضاءة والبهجة والخيرات وما هناك من الأرواح العلوية النيرة المناسبة لمحلها وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة والتجرد من علائق المواد العلية لابد منها ولوازم السفل والمركز من الضيق والحصر ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر وما هناك من الأرواح السفلية المظلمة الشريرة وأعمالها وءاثارها لابد منه فهما عالمان علوى وسفلى ومحلان وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالها وطبائعهما وقد خلق كلا من المحلين معمورا بأهليه وساكنيه حكمة بالغة وقدرة قاهرة ، وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويشاكلها قال تعالى : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) اى على ما يشاكله ويناسبه ويليق به كما يقول الناس : كل إناء بالذى فيه ينضح ، فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية فى مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين ، ولو أن ملكا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم الذين تناسب أقوالهم

وأعمالهم وأخلاقهم فى القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس فى ملكه وقالوا : لا يصلح للملك فما الظن بمجاورى الملك الأعظم مالك الملوك فى داره وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الاعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم ، أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الاسنى . والدرجات العلى روح سفلية أرضية قد أخلدت الى الأرض وعكفت على ما يقتضيه طبائعها مما تشاركها فيه بل قد تزيد على الحيوان البهيم وقصرت همتها عليه وأقبلت بكليتها عليه لا ترى نعيما ولا لذة ولا سرورا الاما وافق طباعها من كل مأ كل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق ، فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والا كل باليد والا فالقلب والطبع على قلوب هذه الحيوانات وطباعها وربما كانت طباع الحيوانات خيرا من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى : (انَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) .

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب فى دار واحدة يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب قال الله تعالى : (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرج مخرج الانكار لا مخرج الأخبار لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة ، وقال تعالى : (لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

الجنة هم الفائزون) وقال تعالى : (أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب) بل الواحد من الخلق لا تستوى أعاليه وأسافله فلا يستوى عقبه وعينه ولا رأسه ورجلاه ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر فالله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع وهذه أجزاء الأرض منها ما يصلح جلاء للعين ومنها ما يصلح للاتون والنار وبهذا ونحوه يعرف كال القدرة وكمال الحكمة فكمال القدرة بخلق الأضداد وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ووضع كل منها فى موضعه، والعالم من لا يلقى الحرب بين قدرة الله وحكمته فان ءامن بالقدرة قدح فى الحكمة وعطلها وان ءامن بالحكمة قدح فى القدرة ونقصها بل يربط القدرة بالحكمة ويعلم شمولهما لجميع ما خلقه الله ويخلقه فكما انه لا يكون الا بقدرته ومشيئته فكذلك لا يكون الا بحكمته، واذا كان لا سبيل للعقول البشرية الى الاحاطة بهذا تفصيلا فيكفيها الايمان بما تعلم وتشاهد منه ثم تستدل على الغائب بالشاهد وتعتبر ما علمت بما لم تعلم، وقد ضرب الله الأمثال لعباده فى كتابه وبين لهم ما فى لوازم ما خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذى به حياتهم وأقواتهم وحياة الأرض والدواب وما خلقه لهم من المعادن التى بها صلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم من الشر والخير وبين المغمور بالاضافة الى الخير الحاصل بذلك فقال تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب

اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ) ٥

وأخبر سبحانه ان الماء بمخالطته بسبب الارض اذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدا عاليا على وجه السيل فالذى لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه ولا يرى الا غثاء ووسخا ونحو ذلك ولا يرى ما تحته من مادة الحياة ، وكذلك ما يستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها اذا أوقد عليها فى النار ليتهيأ الانتفاع بها خرج منها خبث ليس من جوهرها ولا ينتفع به وهذا لا بد منه فى هذا وهذا يجاوزه بصره ، وقد ذم تعالى من ضعفت بصيرته من المنافقين وعمى عما فى القرءان مما به ينال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير فى الدنيا والآخرة لمن لم يجاوز بصره وسمعه وعود وعيده وبروقها وصواعقها وما أعد الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه الذى هو بالاضافة الى ما فيه من حياة القلوب والأرواح ومن المعارف الالهية وتبين طريق العبوديه التى هى غاية كمال العبد وهو مقصود لتكميل ذلك وتمامه، قال تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا)٥

فهكذا حال كل من قصر نظره فى بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شر جزئى جدا بالاضافة الى الخير الكثير ولو لم تكن فى هذه النشأة الانسانية الا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرا ومصلحة ومن عاداهم وان كانوا أضعاف أضعاف أضعافهم فهم كالغش والزبالة وغثاء السيل لا يعبأ بكثرتهم ولا يقدح فى الحكمة الالهية بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه لآلاف مؤلفة من النوع الآخر فانه اذا وجد واحد يوازن البرية ويرجح عليها كان الخير الحاصل بوجوده والحكمة والمصلحة أضعاف الشر الحاصل من وجود أضداده وأثبت وأنفع وأحب الى الله من فواته بتفويت ذلك الشر المقابل له وهذا كالشمس فان الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها وأين نفع الشمس وصلاح النبات والحيوان بها من نفع الرسل وصلاح الوجود بهم ؟ بل اين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الأبدان والدين والدنيا والآخرة به *

وقد ضرب للنفس الانسانية وما فيها من الخير والشر مثل بدولاب أو طاحون شديد الدوران أى شىء خطفه ألقاه تحته وأفسده وعنده قيمه الذى يديره وقد أحكم أمره لينتفع به ولا يضر أحدا فر بإجاء الغر الذى لا يعرف فيتقرب منه فيخرق ثوبه أو بدنه أو يؤذيه فاذا قيل لصاحبه لم لم تجعله ساكنا لا يؤذى من اقترب منه قال : هذه صفته اللازمة الذى كان بها دولابا وطاحونا ولو جعل على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه ، وكذلك اذا أوقدنا نار الاتون التى تحرق ما وقع فيها وعندها وقاد حاذق يحشيها فاذا غفل عنها أفسدت واذا أراد أحد أن يقرب منها نهاه وحذره فاذا استغفله من قرب منها حتى أحرقته لم يقل لصاحب النار هلا قللت حرها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه ؟ فانه يقول : هذه صفتها التى لا يحصل المقصود

منها الا بها ولو جعلتها دون ذلك لم تحرق أحجار الكلس ولم تطبخ الآجر ولم تنضج الأطعمة الغليظة ونحو ذلك فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته وما يحصل بها من شر هو من طبيعتها التي خلقت عليها التي لا تكون نارا الا بها فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارا وكذلك النفس فما يحصل لها من شر فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها وما حصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته والله خالقها وخالق كل شيء قام بها من قدرة وارادة وعلم وعمل وغير ذلك، فأما الأمور العدمية فهي باقية على ما كانت عليه من العدم والانسان جاهل ظالم بالضرورة كما قال تعالى : (وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) فان الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيأ وهي ظالمة نفسها فهي الظالمة المظلومة اذ كانت منقوصة من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها بها وتلك الكمالات التي عدمت كان وجودها سببا لكمالات أخرى فصار عدمها مستلزما لعدم تلك الكمالات التي لا سعادة لها بدونها فان أحد الموجودين قد يكون مشروطا بالآخر فيستحيل وجوده بدونه لأن عدم الشرط يستلزم عدم المشروط فاذا عدمت النفس هذا الكمال المستلزم لكمال آخر مثله أو أعلى منه وهي موصوفة بالنقص الذي هو الظلم والجهل ولوازمهما من أصل الخلقة صارت مستلزمة للشر وقوة شرها وضعفه بحسب قوتها وضعفها في ذاتها ، وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى الى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم قال تعالى : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) والنسيان سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما ههنا فهو أمر

عدمي ولهذا قال آدم لما رأى مادخل عليه من ذلك : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فانه إذا اعترف بنقصه خص نفسه بما حصل لها من عدم العلم والصبر بالنسيان الذى أوجب فوات حظه من الجنة ثم قال: (وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فانه سبحانه إن لم يغفر السيآت الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويقي العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولا بد كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوى بشرب الترياق ونحوه والا ضره ولا بد وان لم يرحمه سبحانه بايجاد مايصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به والاخسر والمغفرة تمنع الشر والرحمة توجب الخير والرب سبحانه ان لم يغفر للانسان فيقيه السيآت ويرحمه فيؤتيه الحسنات والا هلك ولا بد اذا كان ظالما لنفسه ظلوما بنفسه فان نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها وهى متحركة بالذات فان لم تتحرك الى الخير تحركت الى الشر فضرت صاحبها وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسا لأن ماليس حساسا متحركا بالارادة فليس نفسا ففى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أصدق الأسماء حارث وهمام » فالحارث الكاسب العامل والهمام الكثير الهم والهم مبدأ الارادة فالنفس لا تكون الا مريدة عاملة فان لم توفق للارادة الصالحة والا وقعت فى الارادة الفاسدة والعمل الضاره

وقد قال تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ) فأخبر سبحانه أن الانسان خلق على هذه الصفة وان من كان على غيرها فلاجل مازكاه الله به من فضله واحسانه،

وقال تعالى :(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) قال طاوس . ومقاتل . وغيرهما: لا يصبر عن النساء ، وقال الحسن : هوخلقه من ماء مهين ، وقال الزجاج: ضعف عزمه عن قهر الهوى والصواب ان ضعفه يعم هذا كله وضعفه أعظم من هذا وأكثر فانه ضعيف البنية ضعيف القوة ضعيف الارادة ضعيف العلم ضعيف الصبر والآفات اليه مع هذا الضعف أسرع من السيل فى صبب الحدود فبالاضطرار لا بدله من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده فان تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب اليه من نفسه وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التى يحمد عليها الرب سبحانه ويثنى عليه بها وهو موجب حكمته وعزته فكل مايحدث من هذه الخلقة ويلزم عنها فهو بالنسبة الى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة اذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته وبالنسبة الى العبد تنقسم الى خير وشر وحسن وقبيح كما يكون بالنسبة اليه طاعة ومعصية وبرا وفجورا بل أخص من ذلك مثل كونه صلاة وصياما وحجا وزنا وسرقة وأكلا وشربا إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه وموجب أمر الله له ونهيه ، ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ماخلقه وأمر به وعلى مالم يخلقه مما لو شاءه لخلقه وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع فى معصيته وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة وأحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنع وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله فى ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التى لاتنال غاياتها الا بها ، فوجود هذه الأسباب بالنسبة الى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة ولهذا يقرن سبحانه فى

كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة وبين اسمه العزيز تارة كقوله (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وقوله (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ *

فان العزة تتضمن القوة ولله القوة جميعا ، يقال : عز يعز بفتح العين اذا اشتد وقوى ومنه الأرض العزاز الصلبة الشديدة وعز يعز بكسر العين اذا امتنع ممن يرومه وعز يعز بضم العين اذا غلب وقهر فأعطوا أقوى الحركات - وهى الضمة - لاقوى المعانى وهو الغلبة والقهر للغير وأضعفها وهى الفتحة لا ضعف هذه المعانى وهو كون الشيء فى نفسه صلبا ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه ، والحركة المتوسطة وهى الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوى الممتنع عن غيره ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه فاعطوا الأقوى للاقوى والأضعف للاضعف والمتوسط للمتوسط، ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر فان قهره عن ارادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر والعز ضد الذل والذل أصله الضعف والعجز فالعز يقتضى كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذما له بخلاف الكبر قال رجل للحسن البصرى: انك متكبر فقال . لست بمتكبر ولكنى عزيز، وقال تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) وقال ابن مسعود: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «اللهم أعز الاسلام بأحد هذين الرجلين عمر بن الخطاب أو أبى جهل بن هشام » وفى بعض الآثار « ان الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ولا يجدونها الا فى طاعة الله عز وجل» وفى الحديث «اللهم

أَعِزَّنَا بِطَاعَتِكَ وَلاَ تُذِلَّنَا بِمَعْصِيَتِكَ» وقال بعضهم : من أراد عزا بلا سلطان وكثرة بلا عشيرة وغنى بلا مال فلينتقل من ذل المعصية الى عز الطاعة فالعزة من جنس القدرة والقوة ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير» فالقدرة ان لم يكن معها حكمة بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر فى العاقبة ولا حكمة محمودة يطلبها بارادة ويقصدها بفعله كان فعلها فسادا كصاحب شهوات الغى والظلم الذى يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغى فى بطنه وفرجه ومن ظلم الناس فان هذا وان كان له قوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده ، وكذلك العلم كله ان تقترن به الحكمة والا فالعالم الذى لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه بل يريد ما يهواه سفيه غاو وعلمه عون له على الشر والفساد هذا اذا كان عالما قادرا مريدا له ارادة من غير حكمة وان قدر أنه لا ارادة له بحال فهذا أولا ممتنع من الحى فان وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا ارادة ممتنع كوجود ارادة بدون الشعور ، وأما القدرة والقوة اذا قدر وجودها بدون ارادة فهى كقوة الجماد فان القوة الطبيعية التى هى مبدأ الفعل والحركة (١) وقد قال بعض الناس: ان تحملها شعورا يليق به واحتج بقوله تعالى : (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) وبقوله تعالى : (جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) وهذه مسئلة كبيرة تحتاج الى كلام،

---

(١) هنا بياض فى الأصل

يليق بهذا الموضع .

والمقصود أن العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لايحصل بهما الكمال والصلاح وإنما يحصل ذلك بالحكمة معهما ، واسمه سبحانه الحكيم يتضمن حكمته فى خلقه وأمره فى إرادته الدينية والكونية وهو حكيم فى كل ماخلقه وأمر به ، والناس فى هـــذا المقام أربع طوائف ، الطائفة الأولى الجاحدة لقدرته وحكمته فلا يثبتون له سبحانه قدرة ولا حكمة كما يقوله من ينفى كونه تعالى فاعلا مختارا وأن صدور العالم عنه بالايجاب الذاتى لابالقدرة والاختيار وهؤلاء يثبتون حكمة يسمونها عناية الهية وهم من أشد الناس تناقضا إذ لايعقل حكيم لاقدرة له ولا اختيار وانما يسمون مافى العالم من المصالح والمنافع عناية الهية من غير أن يرجع منها الى الرب سبحانه ارادة ولا حكمة ، وهؤلاء كما أنهم مكذبون لجميع الرسل والكتب فهم مخالفون لصريح العقل والفطرة قد نسبوا الرب سبحانه الى أعظم النقص وجعلوا كل قادر مريد مختار أكمل منه وان كان من كان بل سلبهم القدرة والاختيار والفعل عن رب العالمين أشر من شرك عباد الأصنام به بكثير وشر من قول النصارى أنه تعالى عن قولهم ثالث ثلاثة وأن له صاحبة وولدا فان هؤلاء أثبتوا له قدرة وارادة واختيارا وحكمة ووصفوه مع ذلك بما لايليق به وأما أولئك فنفوا ربوبيته وقدرته بالكلية وأثبتوا أسماء لاحقائق لها ولا معنى .

والطائفة الثانية أقرت بقدرته وعموم مشيئته للكائنات وجحدت حكمته وماله فى خلقه من الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه التى يفعل لأجلها ويأمر لأجلها فحافظت على القدر وجحدت الحكمة وهؤلاء هم النفاة للتعليل والأسباب والقوى والطبائع فى المخلوقات فعندهم لايفعل لشىء ولا لأجل شىء وليس فى القرءان عندهم لام تعليل ولاباء تسبب

وكل لام توهم التعليل فهى عندهم لام العاقبة وكل باء تشعر بالتسبب فهى عندهم باء المصاحبة ، وهؤلاء سلطوا نفاة القدر عليهم بما نفوه من الحكمة والتعليل والأسباب فاستطالوا عليهم بذلك ووجدوا مقالا واسعا بالشناعة فقالوا وشنعوا ولعمر الله انهم لمحقون فى أكثر ما شنعوا عليهم به إذ نفى الحكمة والتعليل والأسباب له لوازم فى غاية الشناعة والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاء *

والطائفة الثالثة أقرت بحكمته وأثبتت الأسباب والعلل والغايات فى أفعاله وأحكامه وجحدت كمال قدرته فنفت قدرته على شطر العالم وهو أشرف ما فيه من أفعال الملائكة والجن والانس وطاعاتهم بل عندهم هذه كلها لا تدخل تحت مقدوره سبحانه ولا يوصف بالقدرة عليها ولا هى داخلة تحت مشيئته ولا ملكه وليس فى مقدوره عندهم أن يجعل المؤمن مؤمناً والمصلى مصلياً والموفق موفقاً بل هو الذى جعل نفسه كذلك، وعندهم ان أفعال العباد من الملائكة والجن والانس كانت بغير مشيئته واختياره فتعالى الله عن قولهم ، وهؤلاء سلطوا عليهم نفاة الحكمة والتعليل والأسباب فمزقوهم كل ممزق ووجدوا طريقا وسيعا إلى الشناعة عليهم وأبدوا تناقضهم فقالوا وشنعوا ورموهم بكل داهية ونفى قدرة الرب سبحانه على شطر المملكة له لوازم فى غاية الشناعة والقبح والفساد والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاء ونفى التزامها تناقض بين فصاروا بذلك بين التناقض وهو أحسن حالهم وبين التزام تلك العظائم التى تخرج عن الايمان كما كان نفاة الحكمة والأسباب والغايات كذلك فهدى الله الطائفة الرابعة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم فآمنوا بالكتاب كله وأقروا بالحق جميعه ووافقوا كل واحدة من الطائفتين على ما معها من الحق وخالفوهم

فيما قالوه من الباطل فامنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه وأنه سبحانه المحمود على خلقه وأمره وانه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة وأنه على كل شيء قدير فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها كما لا يخرج عن علمه فكل ماتعلق به علمه من العالم تعلقت به قدرته ومشيئته وءامنوا مع ذلك بان له الحجة على خلقه وأنه لاحجة لأحد عليه بل لله الحجة البالغة وأنه لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم بل كان تعذيبهم منه عدلا منه وحكمة لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب والحكمة لما يقوله الجبرية ولا يجعلون القدر حجة لأنفسهم ولا لغيرهم بل يؤمنون به ولا يحتجون به ويعلمون ان الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات وانها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه وان المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة وانهم هم جناتها وهم الذين اجترحوها ولا يحملونها على القضاء والقدر مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خير وشر وطاعة وعصيان وكفر وإيمان وإن مشيئة الله سبحانه محيطة بذلك كما حاطة علمه به وانه لو شاء لايعصى لما عصى وأنه تعالى أعز وأجل من أن يعصى قسراً والعباد أقل من ذلك وأهون وانه ماشاء الله كان وكل كائن فهو بمشيئته وما لم يشأ لم يكن وما لم يكن فلعدم مشيئته فله الخلق والأمر وله الملك والحمد وله القدرة التامة والحكمة الشاملة البالغة. فهذه الطائفة هم أهل البصر التام والأولى لهم العمى المطلق والثانية والثالثة كل طائفة منهما له عين عين ومع هذا فسرى العمى من العين العمياء إلى العين الصحيحة فاعماها ولا يستكثر تكرار هذه الكلمات من يعلم شدة الحاجة اليها وضرورة النفوس اليها فلو تكررت ما تكررت فالحاجة اليها في محل الضروره والله المستعان *

﴿فصل فى إثبات الحمد كله لله عز وجل﴾

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث هو عقد نظامهما وجامع شملهما وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء هذين الأصلين وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين فانه المحمود على ماخلقه وأمر به ونهى عنه فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وايمانهم وكفرهم وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم وهو المحمود على عدله فى أعدائه كما هو المحمود على فضله وانعامه على أوليائه فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده وكان فى قول النبي صلى الله عليه وسلم عند الاعتدال من الركوع «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ» فله سبحانه الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذى بين السموات والأرض ويملأ مايقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده *

وذاك يحتمل أمرين ، أحدهما أن يملأ مايخلقه الله بعد السموات والأرض والمعنى أن الحمد ملء ماخلقته وملء ماتخلقه بعد ذلك ، الثاني أن يكون المعنى ملء ماشئت من شىء بعد يملؤه حمدك أى يقدر مملوأ بحمدك وان لم يكن موجودا ولكن يقال: المعنى الأول أقوى لأن قوله: «ماشئت من شىء بعد» يقتضى أنه شىء يشاؤه وماشاء كان والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له فتأمله لكنه اذا شاء كونه فله الحمد ملأه فالمشيئة راجعة الى المملوء بالحمد فلابد أن يكون شيأ موجودا يملؤه حمده ، وأيضا فان قوله «من شىء بعد» يقتضى أنه شىء يشاؤه سبحانه بعد هذه

المخلوقات كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها ولو أريد تقدير خلقه لقيل وملء ما شئت من شيء مع ذلك لأن المقدر يكون مع المحقق ، وأيضا فانه لم يقل ملء ماشئت أن يملأه الحمد بل قال : ماشئت والعبد قد حمد حمداً أخبر به وإن شاء ووصفه بانه يملأ ماخلقه الرب سبحانه وما يشاء بعد ذلك ، وأيضا فقوله «وملء ماشئت من شيء بعد» يقتضى اثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك ، وعلى الوجه الثانى قد تتعلق المشيئة بملء المقدر وقد لا تتعلق ، وأيضا فاذا قيل ماشئت من شيء بعد ذلك كان الحمد مالئا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما ولا ريب ان له الحمد دائما فى الأولى والآخرة ، وأما اذا قدر ما يملاه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لاحد لها وما من شيء منها ألا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لانهاية له لتقدير الاعداد ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة بل قيل بملء ما لايتناهى فاما مايشاؤه الرب فلا يكون الاموجودا مقدرا وان كان لاآخر لنوع الحوادث أو بقاء مايبقى منها فهذا كله مما يشاؤه بعد ، وأيضا فالحمد هو الاخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ومحاسن المحمود تعالى اما قائمة بذاته واما ظاهرة فى مخلوقاته فاما المعدوم المحض الذى لم يخلق ولا خلق قط فذلك ليس فيه محاسن ولا غيرها فلا محامد فيه ألبتة فالحمد لله الذى يملأ المخلوقات ماوجد منها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة فى مخلوقاته وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام فجعل الحمد مالئاله جعله مالئا لما لاحقيقة له .

وقد اختلف الناس فى معنى كون حمده يملأ السموات والارض ومابينهما فقالت طائفة : على جهة التمثيل أى لوكان أجساما لملأ السموات والأرض ومابينهما قالوا : فان الحمد من قبيل المعانى والاعراض التى

لا تملأها الأجسام ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام، والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد فان ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوء فاذا قيل امتلأ الاناء ماء وامتلأت الجفنة طعاما فهذا الامتلاء نوع واذا قيل: امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر، واذا قيل: امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر، واذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمدا أو ذما لفلان فهذا نوع آخر كما فى أثر معروف «أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له» وقال عمر بن الخطاب فى عبد الله بن مسعود: كنيف ملىء علما، ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا وكان يقال: ملأ ابن أبى الدنيا الدنيا علما ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق وحبه قد ملأ القلوب وبغض فلان قد ملأ القلوب وامتلأ قلبه رعبا، وهذا أكثر من أن يستوعب شواهده وهو حقيقة فى بابه، وجعل الملء والامتلاء حقيقة للاجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لا دليل عليها البتة والأصل الحقيقة الواحدة والاشتراك المعنوى هو الغالب على اللغة والافهام والاستعمال فالمصير اليه أولى من المجاز والاشتراك وليس هذا موضع تقرير المسئلة.

والمقصود ان الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة وله المثل الأعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم موصوف بصفة الكمال مذكور بنعوت الجلال منزه عن الشبيه والمثال ومنزه عما يضاد صفات كماله فمنزه عن الموت المضاد للحياة وعن السنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز واللغوب والاعياء موصوف

بالعدل منزه عن الظلم موصوف بالحكمة منزه عن العبث موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك موصوف بالغنى التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه ومستحق للحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولاحي وله الحمد كله واجب لذاته فلا يكون الا محمودا كما لايكون الا الها وربا وقادرا .

فاذا قيل : الحمد كله لله فهذا له معنيان ، أحدهما أنه محمود على كل شيء وبكل مايحمد به المحمود التام وان كان بعض خلقه يحمد أيضا كما يحمد رسله وأنبياؤه وأتباعهم فذلك من حمده تبارك وتعالى بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات وما نالوه من الحمد فانما نالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وهذا كما أنه بكل شيء عليم ، وقد علم غيره من علمه مالم يكن يعلمه بدون تعليمه ، وفى الدعاء المأثور «اللّهمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّه وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّه وبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّه وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمرُ كُلُّه أسألُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّه وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّه» وهو سبحانه له الملك وقد أتى من المملكة بعض خلقه وله الحمد وقد أتى غيره من الحمد ماشاء وكما أن ملك المخلوق داخل فى ملكه فحمده أيضا داخل فى حمده فما من محمود يحمد على شيء مما دق أوجل الا والله المحمود عليه بالذات والأولوية أيضا ، واذا قال: اللهم لك الحمد فالمراد به أنت المستحق لكل حمد ليس المراد به الحمد الخارجي فقط : المعنى الثانى أن يقال: لك الحمد كله أى الحمد التام الكامل فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة .

والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعا فله عموم الحمد وكماله، وهذا من

خصائصه سبحانه فهو المحمود على كل حال وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء الا هو وليس الملك التام الكامل الا له وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد فانهم يقولون : انه خالق كل شيء وربه ومليكه لايخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة فله الملك كله ، والقدرية المجوسية يخرجون من ملكه أفعال العباد ويخرجون سائر حركات الملائكة والجن والانس عن ملكه ، واتباع الرسل يجعلون ذلك كله داخلا فى ملكه وقدرته ويثبتون كمال الحمد أيضا وانه المحمود على جميع ذلك وعلى كل ما خلقه ويخلقه لما له فيه من الحكم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل، واما نفاة الحكمة والأسباب من مثبتى القدر فهم فى الحقيقة لايثبتون له حمدا كما لايثبتون له الحكمة فان الحمد من لوازم الحكمة والحكمة إنما تكون فى حق من يفعل شيئا لشيء فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله فأما من لايفعل شيئا لشيء ألبتة فلايتصور فى حقه الحكمة، وهؤلاء يقولون: ليس فى أفعاله وأحكامه لام تعليل وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فانما اقترنت بها اقترانا عاديا لاان هذا كان لأجل هذا ولانشأ السبب لأجل المسبب بل لاسبب عندهم ولامسبب البتة انهو الامحض المشيئة وصرف الارادة التى ترجح مثلا على مثل بل لامرجح أصلا وليس عندهم فى الأجسام طبائع وقوى تكون أسبابا لحركاتها ولا فى العين قوة امتازت بها على الرجل يبصر بها ولافى القلب قوة يعقل بها امتاز بها عن الظهر بل خص سبحانه أحد الجسمين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصا لمثل على مثل بلاسبب أصلا ولاحكمة فهؤلاء لم يثبتوا له كمال الحمد كما لم يثبت له أولئك كمال الملك وكلا القولين منكر عند السلف وجمهور الامة ولهذا كان منكرو الأسباب والقوى

والطبائع يقولون : العقل نوع من العلوم الضرورية كما قاله القاضيان أبو بكر بن الطيب . وأبو يعلى بن الفراء . وأتباعهما، وقد نص أحمد على أنه غريزة. وكذلك الحرث المحاسبي. وغيرهما فأولئك لا يثبتون غريزة ولا قوة ولا طبيعة ولا سببا وأبطلوا مسميات هذه الأسماء جملة وقالوا . ان ما فى الشريعة من المصالح والحكم لم يشرع الرب سبحانه ما شرع من الأحكام لأجلها بل اتفق اقترانها بها أمرا اتفاقيا كما قالوا نظير ذلك فى المخلوقات سواء ، والعلل عندهم أمارات محضة لمجرد الاقتران الاتفاق ، وهم فريقان أحـــدهما لا يعرجون على المناسبات ولا يثبتون العلل بها البتة وانما يعتمدون على تأثير العلة بنص أو اجماع فان فقـدا فزعوا الى الاقيسة الشبهية، والفريق الثانى أصلحوا المذهب بعض الاصلاح وقربوه بعض الشيء وأزالوا تلك النفرة عنه فأثبتوا الأحكام بالعلل والعلل بالمناسبات والمصالح ولم يمكنهم الـكلام فى الفقه الا بذلك ولـكن جعلوا اقتران أحكام تلك العلل والمناسبات بها اقترانا عاديا غير مقصود فى نفسه والعلل والمناسبات أمارات ذلك الاقتران ، وهؤلاء يستدلون على اثبات علم الرب بما فى مخلوقاته من الاحكام والاتقان والمصالح وهذا تناقض بين منهم فان ذلك انمـا يدل اذا كان الفاعل يقصد أن يفعل الفعل على وجه مخصوص لأجل الحـكمة المطلوبة منه ، وأما من لم يفعل لأجل ذلك الاحكام والاتقان وإنما اتفق اقترانه بمفعولاته عادة فان ذلك الفعل لا يدل على العلم، ففى أفعال الحيوانات من الاحكام والاتقان والحـكم ما هو معروف لمن تأمله ولـكن لمـا لم تـكن تلك الحـكم والمصالح مقصودة لها لم تدل على علمها *

والمقصود أن هؤلاء اذا قالوا: انه تعالى لا يفعل لحـكمة امتنع عندهم أن تـكون الأحكام دليلا على العلم ، وأيضا فعلى قولهم يمتنع أن يحمد على

مافعله لأمر ما حصل للعباد من نفع فهو سبحانه لم يقصد بما خلقه نفعهم ولا خلقه لنفعهم ومصالحهم بل انما أراد مجرد وجوده لا لأجل كذا ولا لنفع أحد ولا لضره فكيف يتصور فى حق من يكون فعله ذلك حمد فلا يحمد على فعل عدل ولا على ترك ظلم لأن الظلم عندهم هو الممتنع الذى لا يدخل فى المقـــدور وذلك لايمدح أحد على تركه وكل ماأمكن وجوده فهو عندهم عدل فالظلم مستحيل عندهم اذ هو عبارة عن الممتنع المستحيل لذاته الذى لايدخل تحت المقدور ولايتصور فيه ترك اختيارى فلا يتعلق به حمد ، واخباره تعالى عن نفسه بقيامه بالقسط حقيقته عندهم مجرد كونه فاعلا لا ان هناك شيئا هو قسط فى نفسه يمكن وجود ضده وكذلك قوله : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) نفى عندهم لما هو مستحيل فى نفسه لا حقيقة له كجعل الجسم فى مكانين فى آن واحد وجعله موجودا معدوما فى آن واحد فهذا ونحوه عندهم هو الظلم الذى تنزه عنه، وكذلك قوله : (يَاعِبَادِى انِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا) فالذى حرمه على نفسه هو المستحيل الممتنع لذاته كالجمع بين النقيضين وليس هناك ممكن يكون ظلما فى نفسه وقد حرمه على نفسه ، ومعلوم أنه لايمدح الممدوح بترك مالوأراده لم يقدر عليه، وأيضا فانه قال : (وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا بَيْنَكُمْ) فالذى حرمه على نفسه هو الذى جعله محرما بين عباده وهو الظلم المقدور الذى يستحق تاركه الحمد والثناء، والذى أوجب لهم هذا مناقضة القدرية المجوسية ورد أصولهم وهدم قواعدهم ولكن ردوا باطلا بباطل وقابلوا بدعة ببدعة وسلطوا عليهم خصومهم بما التزموه من الباطل فصارت الغلبـــة بينهم وبين خصومهم سجالا مرة يغلبون ومرة يغلبون لم يستقر لهم نصرة وانما النصرة الثابتة لأهل السنة

المحضة الذين لم يتحيزوا الى فئتين غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلتزموا غير ما جاء به ولم يؤصلوا أصلا ببدعة يسلطون عليهم به خصومهم بل أصلهم مادل عليه كتاب الله وكلام رسوله وشهدت به الفطر والعقول ٭

﴿فصل فى بيان أن حمده تعالى شامل لكل مايحدثه﴾

والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل مايحدثه من احسان ونعمة وامتحان وبلية وما يقضيه من طاعة ومعصية والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر ، أما حمد المدح فالله محمود على كل ماخلق اذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين ، وأما حمد الشكر فلان ذلك كله نعمة فى حق المؤمن اذا اقترن بواجبه والاحسان والنعمة اذا اقترنت بالشكر صارت نعمة والامتحان والبلية اذا اقترنا بالصبر كان نعمة والطاعة من أجل نعمه ، وأما المعصية فاذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والانابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضا وإن كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب سبحانه ولكنه يحب مايترتب عليها من التوبة والاستغفار وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل اذا أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فاذا بها قد تعلق خطامها فى أصل شجرة فجاء حتى أخذها ، فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب اليه من هذا براحلته ، فهذا الفرح العظيم الذى لا يشبهه شيء أحب اليه سبحانه من عدمه وله أسباب ولوازم لابد منها ومايحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبا له فهذا الفرح أحب اليه بكثير ووجوده بدون لازمه ممتنع فله من الحكمة فى تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة هذا بالاضافة الى الرب سبحانه ، وأما بالاضافة

الى العبد فانه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على أسباب لا تحصل بدونها، فتقدير الذنب عليه اذا اتصل به التوبة والانابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه وان كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه والرب سبحانه محمود على الأمرين فان اتصل بالذنب الاثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والانابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية وان لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون الا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة فى الملأ الأعلى ، ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها فلا بد من خروج ذلك منها من القوة الى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة فى المحل الأسفل، فان هذه النفوس اذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التى توصلها إلى ما هى مهيأة له ولا يليق بها سواه ، والرب سبحانه محمود على ذلك أيضا كما هو محمود على انعامه وإحسانه على أهل الاحسان والانعام القابلين له فما كل أحد قابلا لنعمته تعالى، فحمده وحكمته تقتضى أن لا يودع نعمه وإحسانه وكنوزه فى محل غير قابل لها، ولا يبقى إلا أن يقال: فما الحكمة فى خلق هذه الأرواح التى هى غير قابلة لنعمته؟ فقد تقدم من الجواب عن ذلك ما فيه كفاية وان خلق الأضداد والمقابلات، وترتيب آثارها عليها موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزته ، وان تقدير عدم ذلك هضم من جانب الربوبية ، وأيضا فان هذه الحوادث نعمة فى حق المؤمن فانها إذا وقعت فهو مأمور أن ينكرها بقلبه ويده ولسانه أو بقلبه ولسانه فقط أو بقلبه فقط ومأمور أن يجاهد أربابها بحسب الامكان فيترتب له على الانكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه

ومصالح دنياه وءاخرته مالم يكن ينال بدون ذلك والمقصود بالقصد الأول اتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة وكان فى تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك ايصال إلى الكمال الذى يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والانكار عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له فان تمام العبودية لاتحصل إلا بالمحبة الصادقة وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة فى مرضاة محبوبه والتقرب اليه فان بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة، ومن المعلوم أن من لوازم ذلك التى لايحصل الابها أن يخلق ذواتا وأسبابا وأعمالا وأخلاقا وطبائع تقتضى معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته لها وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها فكل أحد يحب الاحسان والراحة والدعة واللذة ويحب من يوصل اليه ذلك ويحصله له ولكن الشأن فى أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه ومحبة مايحبه مما هو أكره شىء إلى النفوس وأشق شىء عليها مما لايلائمها فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويحب مايحب ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح والرياسة فان أعطى منها رضى وان منعها سخط وعتب على ربه وربما شكاه وربما ترك عبادته، فلولاخلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له ولاعبودية بذل الأرواح. والأموال. والأولاد. والقوى فى جهاد أعدائه ونصرته ولاعبودية مفارقة الناس أحوج مايكون اليهم عنده لأجله فى مرضاته، ولايتحيز اليهم وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم فيرضى بمفارقتهم ومشاقتهم وإيثار موالاة الحق عليهم فلولا

الأضداد والأسباب التى توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار ، وأيضا فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس ومنعها من خوضها وشهواتها محبة لله وإيثارا لمرضاته وطلبا للزلفى لديه والقرب منه ، وأيضا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الانسانية إنسانية بل كانت ملكية فان الله سبحانه خلق خلقه أطوارا فخلق الملائكة عقولا لاشهوات لها ولاطبيعة تتقاضى منها خلاف مايراد منها من مادة نورية لاتقتضى شيئا من الآثار والطبائع المذمومة ، وخلق الحيوانات ذوات شهوات لاعقول لها ، وخلق الثقلين الجن والانس وركب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة لآثار مختلفة بحسب موادها وصورها وتركيبها *

وهؤلاء هم أهل الامتحان والابتلاء وهم المعرضون للثواب والعقاب ولو شاء سبحانه لجعل خلقه على طبيعة وخلق واحد ولم يفاوت بينهم لكن مافعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الالهية، ولو كان الخلق كله طبيعة واحدة ونمطا واحدا لوجد الملحد مقالا وقال: هذا مقتضى الطبيعة ولو كان فاعلا بالاختيار لتنوعت أفعاله ومفعولاته ولفعل الشىء وضده والشىء وخلافه ، ولذلك لولا شهود هذه الحوادث المشهودة لوجد الملحد أيضا مقالا وقال . لوكان لهذا العالم خالقا مختارا لوجدت فيها الحوادث على حسب إرادته أو اختياره كما روى الحسن أو غيره قال : كان أصحاب محمد يقولون: جل ربنا القديم انه لولم يتغير هذا الخلق لقال الشاك فى أنه لو كان لهذا العالم خالق لاحدثه بينا هوليل اذ جاء نهار بينا هو نهار إذ جاء ليل هو صحو اذ جاء غيم وبينا هو غيم إذ جاء صحو ونحو هذا من الكلام *

ولهذا يستدل سبحانه فى كتابه بالحوادث تارة وباختلافها تارة اذ

هذا وهذا يستلزم ربوبيته وقدرته واختياره ووقوع كل الكائنات على وفق مشيئته، فتنوع أفعاله ومفعولاته من أعظم الأدلة على ربوبيته وحكمته وعلمه، ولهذا خلق سبحانه النوع الانسانى أربعة أقسام ، أحدها لا من ذكر ولا أنثى وهو خلق أبيهم وأصلهم ءادم ، الثانى خلقه من ذكر بلا أنثى كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع ءادم من غير أن تحمل بها أنثى أو يشتمل عليها بطن ، الثالث خلقه من أنثى بلا ذكر كخلق المسيح عيسى ابن مريم ، الرابع خلق سائر النوع الانسانى من ذكر وأنثى،وكل هذا ليدل عباده على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وكمال حكمته وان الأمر ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من أن ذلك أمر طبيعى لم يزل هكذا ولا يزال وأنه ليس للنوع أب ولا أم وأنه ليس الا أرحام تدفع وأرض تبلع وطبيعة تفعل ما يرى ويشاهد ولم يعلم هؤلاء الجهال الضلال ان الطبيعة قوة وصفة فقيرة الى محلها محتاجة الى حامل لها وأنها من أدل الدلائل على وجود أمره طبعها وخلقها وأودعها الأجسام وجعل فيها هذه الأسرار العجيبة ، فالطبيعة مخلوق من مخلوقاته ومملوك من مماليكه وعبيده مسخرة لأمره تعالى منقادة لمشيئته ودلائل الصنعة وأمارات الخلق والحدوث وشواهد الفقر والحاجة شاهدة عليها بأنها مخلوقة مصنوعة لا تخلق ولا تفعل ولا تتصرف فى ذاتها ونفسها فضلا عن اسناد الكائنات اليها .

والمقصود أن تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك وهو أيضا من موجبات الحمد فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمه أيضا فان مخلوقاته هو موجبات أسمائه وصفاته فلكل اسم وصفة أثر لابد من ظهوره فيه واقتضائه له فيمتنع تعطيل ءاثار أسمائه وصفاته كما يمتنع تعطيل ذاته عنها، وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع

أن لا توجد لما تقدم التنبيه عليه ، وأيضا فان تنويع أسباب الحمد أمر مطلوب للرب محبوب له فكما تنوع أسباب الحمد تنوع الحمد بتنوعها وكثر بكثرتها ، ومعلوم أنه سبحانه محمود على انتقامه من أهل الاجرام والاساءة كما هو محمود على اكرامه لأهل العدل والاحسان فهو محمود على هذا وعلى هذا مع ما يتبع ذلك من حمده على حلمه وعفوه ومغفرته وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها والعفو عن كثير من جنايات العبيد فنبههم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذى عفا عنه وانه لو عاجلهم بعقوبته واخذهم بحقه لقضى اليهم اجلهم ولما ترك على ظهرها من دابة ولكنه سبقت رحمته غضبه وعفوه انتقامه ومغفرته عقابه فله الحمد على عفوه وانتقامه وعلى عدله واحسانه، ولا سبيل الى تعطيل اسباب حمده ولا بعضها فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبر وليعطه حقه يطلعه على ابواب عظيمة من اسرار القدر وتهبط به على رياض منه معشبة وحدائق مؤنقة والله الموفق الهادى للصواب ه

وايضا فان الله سبحانه نوع الأدلة الدالة عليه والتى تعرف عباده به غاية التنوع وصرف الآيات وضرب الأمثال ليقيم عليهم حجته البالغة ويتم عليهم بذلك نعمته السابغة ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه بل الحجة كلها له والقدرة كلها له فأقام عليهم حجته ولو شاء لسوى بينهم فى الهداية كما قال تعالى : (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فأخبر ان له الحجة البالغة وهى التى بلغت إلى صميم القلب وخالطت العقل واتحدت به فلا يمكن العقل دفعها ولا جحدها ، ثم اخبر انه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ولكن حكمته تأبى ذلك وعدله يأبى تعذيب احد واخذه بلا حجة فأقام الحجة وصرف الآيات وضرب الأمثال ونوع الادلة ولو كان الخلق

كلهم على طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الأمور ولا تنوعت هذه الأدلة والأمثال ولا ظهرت عزته سبحانه فى انتقامه من اعدائه ونصر اوليائه عليهم ولا حججه التى اقامها على صـــدق انبيائه ورسله ولا كان للناس ءاية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم راى العين ولا كان للخلق ءاية باقية ما بقيت الدنيا فى شأن موسى وقومه وفرعون وقومه وفلق البحر لهم ودخولهم جميعا فيه ثم انجاء موسى وقومه ولم يغرق احد منهم واغرق فرعون وقومه لم ينج منهم احد. فهذا التعرف الى عباده وهذه الآيات وهذه العزة والحكمة لا سبيل الى تعطيلها البتة ولا توجد بدون لوازمها.

وأيضا فان حقيقة الملك انما تتم بالعطاء والمنع والاكرام والاهانة والاثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل واعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل قال تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وقال تعالى : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) يغفر ذنبا ويفرج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظالما ويفك عانيا ويغنى فقيرا ويجبر كسيرا ويشفى مريضا ويقيل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويعطى سائلا ويذهب بدولة ويأتى بأخرى ويداول الايام بين الناس ويرفع أقواما ويضع ءاخرين يسوق

المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام الى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه فهو المتصرف في الممالك كلها وحـــده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والاحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك *

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني ثنا اسحق بن سليمان عن معاوية بن يحيي عن يونس بن ميسرة عن أبي ادريس عن أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين »، وفيه أيضا من حديث حماد بن سلمة ثنا الزبير أبو عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن أبيه قال قال عبد الله بن مسعود: ان ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه أيامكم عنده ثنتا عشرة ساعة تعرض عليه أعمالكم بالأمس ثلاث ساعات من أول النهار فيطلع منها على مايكره فيغضب فيكون أول من يعلم بغضبه حملة العرش فتسبح حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى خلق لله في السموات ولا في الأرض إلا سمعه الا الثقلين ويسبحونه لذلك حتى يمتلىء الرحمن رحمة فتلك ست ساعات (١) ثم يدعو

---

(١) هنا بياض في الاصل

بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات (يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) فتلك تسع ساعات ثم يدعو بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات (فَيَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) فتلك ثنتا عشرة ساعة ثم قرأ عبد الله (كل يوم هو فى شأن) ثم قال: هذا شأنكم وشأن ربكم عز وجل ، وذكره الطبرى فى المعجم الكبير من وجه آخر ، وهذا من تمام تصرفه فى ملكه سبحانه فلو قصر تصرفه على وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرفا تاما .

والمقصود أن الملك والحمد فى حقه متلازمان فكل ماشمله ملكه وقدرته شمل حمده فهو محمود فى ملكه وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الوجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره لينبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده فهو محمود على كل ماخلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ويجمعهما التبارك (فتبارك الله) يشمل ذلك كله ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله (الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) .

فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح والطرق الى العلم به فى غاية الكثرة والسبيل الى اعتباره فى ذرات العالم وجزئياته، وتفاصيل الامر والنهى واسعة جدا لان جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد وصفاته حمد وأفعاله حمد وأحكامه حمد وعدله حمد وانتقامه من أعدائه حمد وفضله فى احسانه الى أوليائه حمد والخلق والامر إنما قام بحمده ووجد بحمده وظهر بحمده وكان الغاية هى حمده، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله، فحمده

روح كل شيء وقيام كل شيء بحمده وسريان حمده فى الموجودات وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالابصار والبصائر، فمن الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات معرفة أسمائه وصفاته واقرار العبد بان للعالم الها حيا جامعا لكل صفة كمال واسم حسن وثناء جميل وفعل كريم وانه سبحانه له القدرة التامة والمشيئة النافذة والعلم المحيط والسمع الذى وسع الاصوات والبصر الذى أحاط بجميع المبصرات والرحمة التى وسعت جميع المخلوقات والملك الاعلى الذى لا يخرج عنه ذرة من الذرات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات والحكمة البالغة المشهود آثارها فى الكائنات والعزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات والكلمات التامات النافذات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر من جميع البريات واحد لاشريك له فى ربوبيته ولا فى الهيته ولا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وليس له من يشركه فى ذرة من ذرات ملكه أو يخلفه فى تدبير خلقه أو يحجبه عن داعيه أو مؤمليه أو سائليه أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيس أو فرية أو كذب كما يكون بين الرعايا وبين الملوك ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود وفسد العالم بأسره فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا، ولو كان معه آلهة أخرى كما يقوله أعداؤه المبطلون لوقع من النقص فى التدبير وفساد الامر كله مالا يثبت معه حال ولا يصلح عليه وجود *

ومن أعظم نعمه علينا وما استوجب حمد عباده له أن يجعلنا عبيدا له خاصة ولم يجعلنا ربنا منقسمين بين شركاء متشاكسين ولم يجعلنا عبيدا لاله نحتته الافكار لا يسمع أصواتنا ولا يبصر أفعالنا ولا يعلم أحوالنا ولا يملك لعابديه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا تكلم قط ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا ترفع اليه الايدى ولا تعرج

الملائكة والروح اليه ولا يصعد اليه الكلم الطيب ولا يرفع اليه العمل الصالح وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا محايثا له ولا مباينا ولا هو مستو على عرشه ولا هو فوق عباده وحظ العرش منه حظ الحشوش والاخلية ولا تنزل الملائكة من عنده بل لا ينزل من عنده شيء ولا يصعد اليه شيء ولا يقرب منه شيء ولا يحب ولا يحب ولا يلتذ المؤمنون بالنظر الى وجهه الكريم فى دار الثواب بل ليس له وجه يرى ولا له يد يقبض بها السموات وأخرى يقبض بها الأرض ولا فعل يقوم به ولا حكمة تقوم به ولا كلم موسى تكليما ولا تجلى للجبل فجعله دكا هشيما ولا يجيء يوم القيامـــة لفصل القضاء ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول: أسأل عن عبادى غيرى ولا يفرح بتوبة عبده اذا تاب اليه، ويجوز فى حكمته تعذيب أنبيائه ورسله وملائكته وأهل طاعته أجمعين من أهل السموات والأرضين وتنعيم أعدائه من الكفار به والمحاربين له والمكذبين له ولرسله والكل بالنسبة اليه سواء ولا فرق البتة إلا أنه أخبر أنه لا يفعل ذلك فامتنع للخبر بأنه لا يفعله لا لأنه فى نفسه مناف لحكمته ومع ذلك فرضاه عين غضبه وغضبه عين رضاه ومحبته كراهته وكراهته محبته ان هو الا إرادة محضة ومشيئة صرفة يشاء بها لا لحكمة ولا لغاية ولا لأجل مصلحة ومع ذلك يعذب عباده على مالم يعملوه ولا قدرة لهم عليه بل يعذبهم على نفس فعله الذى فعله هو ونسبه اليهم ويعذبهم اذا لم يفعلوا فعله ويلومهم عليه يجوز فى حكمته أن يعذب رجالا اذا لم يكونوا نساء ونساء حيث لم يكونوا رجالا وطوالا حيث لم يكونوا قصارا وبالعكس وسودا اذ لم يكونوا بيضا وبالعكس بل تعذيبه لهم على

مخالفته هو من هذا الجنس اذ لا قدرة لهم البتة على فعل ماأمروا به ولا ترك مانهوا عنه ٭

فلله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل اذ لم يجعلنا عبيدا لمن هذا شأنه فنكون مضيعين ليس لنا رب نقصده ولا صمد نتوجه اليه ونعبده ولا إله نعول عليه ولا رب نرجع اليه بل قلوبنا تنادى فى طرق الحيرة من دلنا وجمع علينا ربا ضائعا لاهو داخل العالم ولا خارجه ولامباين له ولا محاذ له ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا ينزل من عنده شيء ولا يصعد اليه شيء ولا كلم أحدا ولايكلمه أحد ولا ينبغى له أن يعاقب بالقيل أوالضرب والحبس من ذكرها أوأخبر عنه بها أوأثبتها له أونسبها اليه أو عرفه بها بل التوحيد الصرف جحدها وتعطيله عنها ونفى قيامها به واتصافه بها ومالم تدركه عقولنا من ذلك فالواجب نفيه وجحده وتكفيرمن أثبته واستحلال دمه وماله أوتبديعه وتضليله وتفسيقه، وكلما كان النفى أبلغ كان التوحيد أتم فليس كذا وليس كذا أبلغ فى التوحيد من قولنا هو كذاوهو كذا فلله العظيم أعظم حمد وأتمه وأكمله على مامن به من معرفته وتوحيده والاقرار بصفاته العلياوأسمائه الحسنى واقرار قلوبنا بأنه الله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة رب العالمين قيوم السموات والأرضين إله الأولين والآخرين ولا يزال موصوفا بصفات الجلال منعوتا بنعوت الكمال منزها عن أضدادها من النقائص والتشبيه والمثال فهو الحى القيوم الذى لكمال حياته وقيوميته لاتأخذه سنة ولانوم مالك السموات والأرض الذى لكمال ملكه لايشفع عنده أحد الا باذنه العالم بكل شيء الذى لكمال علمه يعلم مابين أيدى الخلائق وما خلفهم فلا تسقط ورقة الا بعلمه ولا تتحرك ذرة الا باذنه يعلم دبيب الخواطر فى القلوب حيث لا يطلع عليها الملك ويعلم ماسيكون منها حيث لايطلع

عليه القلب البصير الذى لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها ويرى دبيبها على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ويرى ماتحت الأرضين السبع كما يرى مافوق السموات السبع السميع الذى قد استوى فى سمعه سر القول وجهره وسع سمعه الأصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه ولا يشغله منها سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه كثرة السائلين، قالت عائشة: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشكو الى رسول الله وانى ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله عز وجل (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي الَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا انَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) القدير الذى لكمال قدرته يهدى من يشاء ويضل من يشاء ويجعل المؤمن مؤمنا والكافر كافرا والبر برا والفاجر فاجرا وهو الذى جعل ابراهيم وآله أئمة يدعون اليه ويهدون بأمره وجعل فرعون وقومه أئمة يدعون الى النار ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء سبحانه أن يعلمه اياه ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسه من لغوب ولا يعجزه أحد من خلقه ولا يفوته بل هو فى قبضته أين كان فان فر منه فانما يطوى المراحل فى يديه كما قيل :

وكيف يفر المرء عنك بذنبه إذا كان يطوى فى يديك المراحلا

ولكمال غناه استحال اضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون اذنه اليه ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسيه السموات والأرض ولم تسعه أرضه ولا سمواته ولم تحط به مخلوقاته بل هو العالى على كل شىء وهو بكل شىء محيط ولا تنفد كلماته ولا تبديل لو أن البحر يمده من

بعده سبعة أبحر مدادا وأشجار الأرض أقلاما فكتب بذلك المداد وبتلك الأقلام لنفد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلماته اذ هي غير مخلوقة ويستحيل ان يفنى غير المخلوق بالمخلوق ولو كان كلامه مخلوقا كما قاله من لم يقدره حق قدره ولا أثنى عليه بما هو أهله لكان أحق بالفناء من هذا المداد وهذه الأقلام لأنه اذا كان مخلوقا فهو نوع من أنواع مخلوقاته ولا يحتمل المخلوق افناء هذا المداد وهذه الأقلام وهو باق غير فان ، وهو سبحانه يحب رسله وعباده المؤمنين ويحبونه بل لاشيء أحب اليهم منه ولاأشوق اليهم من لقائه ولا أقر لعيونهم من رؤيته ولا احظى عندهم من قربه وأنه سبحانه له الحكمة البالغة فى خلقه وأمره وله النعمة السابغة على خلقه وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وأنه أفرح بتوبة عبده من واجد راحلته الدى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها ، وأنه سبحانه لم يكلف عباده الا وسعهم وهو دون طاقتهم فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم بخلاف وسعهم فانه مايسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه كما هو الواقع وأنه سبحانه لايعاقب أحدا بغير فعله ولايعاقبه على فعل غيره ولايعاقبه بترك مالا يقدر على فعله ولا على فعل مالاقدرة له على تركه وانه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود صبور شكور يطاع فيشكر ويعصى فيغفر لا أحد أصبر على أذى سمعه منه ولا أحب اليه المدح منه ولاأحب اليه العذر منه ولا أحد أحب اليه الاحسان منه فهو محسن يحب المحسنين شكور يحب الشاكرين جميل يحب الجمال طيب يحب كل طيب نظيف يحب النظافة . عليم يحب العلماء من عباده كريم يحب الكرماء . قوى

والمؤمن القوى أحب اليه من المؤمن الضعيف، بر يحب الأبرار . عدل يحب أهل العدل . حيي ستير يحب أهل الحياء والستر . عفو غفور يحب من يعفو عن عباده ويغفر لهم . صادق يحب الصادقين . رفيق يحب الرفق . جواد يحب الجود وأهله . رحيم يحب الرحماء . وتر يحب الوتر ويحب أسماءه وصفاته ويحب المتعبدين له بها ويحب من يسأله ويدعوه بها ويحب من يعرفها ويعقلها ويثني عليه بها ويحمده ويمدحه بها كما فى الصحيح عن النبى «وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ» وفى حديث آخر صحيح «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» .

ولمحبته لأسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها فأمرهم بالعدل والاحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والاناة والتثبت، ولما كان سبحانه يحب أسماءه وصفاته كان أحب الخلق من اتصف بالصفات التي يحبها وأبغضهم اليه من اتصف بالصفات التى يكرهها فانما أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لأن اتصافه بها ظلم اذ لا يليق به هذه الصفات ولا تحسن منه لمنافاتها لصفات العبيد وخروج من اتصف بها من ربقة العبودية ومفارقته لمنصبه ومرتبته وتعديه طوره وحده وهذا خلاف ماتقدم من الصفات كالعلم والعدل والرحمة والاحسان والصبر والشكر فانها لاتنافى العبودية

بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته اذ المتصف بها من العبيد لم يتعد طوره ولم يخرج بها من دائرة العبوديه.

والمقصود أنه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوف بكل صفة كمال منزه عن كل نقص له كل ثناء حسن ولا يصدر عنه الا كل فعل جميل ولا يسمى الا بأحسن الأسماء ولايثنى عليه الا بأكمل الثناء وهو المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والاكرام على كل ماقدره وخلقه وعلى كل ماأمر به وشرعه.

ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقرأ آثارها فى الخلق والامر رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام ورأى سريان اثارها فيهما وعلم بحسب معرفته بها مايليق بكماله وجلاله أن يفعله ومالا يليق فاستدل بأسمائه على مايفعله وما لا يفعله فانه لايفعل خلاف موجب حمده وحكمته ، وكذلك يعلم مايليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به فيعلم أنه لايأمر بخلاف موجب حمده وحكمته فاذا رأى فى بعض الأحكام جورا وظلما أو سفها وعبثا ومفسدة أومالا يوجب حمدا وثناء فليعلم أنه ليس من أحكامه ولادينه وأنه برىء منه ورسوله فانه انما أمر بالعدل لابالظلم وبالمصلحة لابالمفسدة وبالحكمة لا بالعبث والسفه وانما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة وبعثه بالرحمة لابالقسوة فانه أرحم الراحمين ورسوله رحمة مهداة الى العالمين ودينه كله رحمة وهو نبى الرحمة وأمته الأمة المرحومة وذلك كله موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة فلا يخبر عنه الا بحمده ولا يثنى عليه الا بأحسن الثناء كما لايسمى الا بأحسن الأسماء.

وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه فى أول

الخلق ومآخره وعند الأمر والشرع وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين وحمد نفسه على تفرده بالالهية وعلى حياته وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته اليه وحمد نفسه على علوه وكبريائه وحمد نفسه فى الأولى والآخرة وأخبر عن سريان حمده فى العالم العلوى والسفلى ونبه على هذا كله فى كتابه وحمد نفسه عليه فتنوع حمده وأسباب حمده وجمعها تارة وفرقها أخرى ليتعرف الى عباده ويعرفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه وليتحبب اليهم بذلك ويحبهم اذا عرفوه وأحبوه وحمدوه .

قال تعالى: (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وقال تعالى: (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) وقال تعالى: (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ) وقال (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) وقال تعالى: (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال (وَهُوَ اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وقال: (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقال: (فَسُبْحَانَ

الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) *

وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده كما ان اهل النار لم يدخلوها إلا بحمده فقال أهل الجنة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) و (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقال عن أهل النار: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) وقال: (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلموا أنهم كانوا كاذبين فى الدنيا مكذبين بآيات ربهم مشركين به جاحدين لالهيته مفترين عليه وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم وأخذهم ببعض حقه عليهم وأنه غير ظالم لهم وأنهم انما دخلوا النار بعدله وحمده وانما عوقبوا بأعمالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه لا كما يقول الجبرية *

وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية الى الاحاطة به ولا الى التعبير عنه، ولكن بالجملة فكل صفة علياء واسم حسن وثناء جميل وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال واكرام فهو لله

عز وجل على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها وجميع ما يوصف به يذكر به ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس فسبحانه وبحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق مايثنى به عليه خلقه فله الحمد أولا وآخرا حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده *

فهذا تنبيه على أحد نوعى حمده وهو حمد الصفات والأسماء ، والنوع الثانى حمد النعم والآلاء وهذا مشهود للخليقة برها وفاجرها مؤمنها وكافرها من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديه وجميل صنائعه وحسن معاملته لعباده وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه واجابته لدعوات المضطرين وكشف كربات المكروبين واغاثة الملهوفين ورحمته للعالمين وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق بل ابتداء منه بمجرد فضله وكرمه واحسانه ودفع المحن والبلايا بعـــد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها واطفه تعالى فى ذلك باتصاله الى من أراده باحسن الألطاف وتبليغه من ذلك الى مالا تبلغه الآمال وهدايته خاصته وعباده الى سبيل دار السلام ومدافعته عنهم أحسن الدفاع وحمايتهم عن مراتع الآثام وحبب اليهم الايمان وزينه فى قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين وكتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم وذكرهم قبل أن يذكروه وأعطاهم قبل أن يسألوه وتحبب اليهم بنعمه مع غناه وتبغضهم اليه بالمعاصى وفقرهم اليه . ومع هذا كله فاتخذ لهم دارا وأعدلهم فيها من كل ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وملأها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم أرسل اليهم الرسل يدعونهم اليها ثم يسر لهم الأسباب

التي توصلهم اليها وأعانهم عليها ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدا بالاضافة إلى بقاء دار النعيم وضمن لهم ان أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرا وإن أساؤا واستغفروه أن يغفر لهم ووعدهم أن يمحو ماجنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات ، وذكرهم بآلائه وتعرف اليهم بأسمائه وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم واحسانا لاحاجة منه اليهم ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لابخلا منه عليهم وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه ونصحهم بأحسن النصائح ووصاهم بأكمل الوصايا وأمرهم بأشرف الخصال ونهاهم عن اقبح الأقوال والأعمال وصرف لهم الآيات وضرب لهم الأمثال ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته وفتح لهم أبواب الهداية وعرفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه ويخاطبهم بألطف الخطاب ويسميهم بأحسن أسمائهم كقوله: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ. يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. قُلْ لِعِبَادِي. وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي) فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا

يغرنكم بالله الغرور) (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك
فسواك فعدلك) (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا
وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله
عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على
شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)
(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا
ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا
لكم الآيات ان كنتم تعقلون) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى
وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق
يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا
فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم
ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا
لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه
وانه اليه تحشرون واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا
أن الله شديد العقاب واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فى الأرض
تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبات

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ انَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَانْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَاقَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ انَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا الاَّ ابْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً) فتحت هذا الخطاب انى عاديت ابليس وطردته من سمائى وباعدته من قربى اذ لم يسجد لابيكم ءادم ثم انتم يابنيه توالونه وذريته من دونى وهم اعداء لكم، فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالارواح وأكثر القرءان جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة واعلم عباده انه لايرضى لهم الا اكرم الوسائل وافضل المنازل واجل العلوم والمعارف قال تعالى :(انْ تَكْفُرُوا فَانَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَانْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) وقال : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْاسْلَامَ دِيناً) وقال : (يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وقال (وَاللّهُ يُرِيدُ انْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) (يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللّهُ يُرِيدُ انْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً يُرِيدُ اللّهُ انْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْانْسَانُ ضَعِيفاً).

ويتنصل سبحانه الى عباده من مواضع الظنة والتهمة التى نسبها اليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره من تكليف عباده مالا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة وتعذيبهم ان شكروه وءامنوا به وخلق السموات والارض وما بينهما الا لحكمة ولا لغاية وانه لم يخلق خلقه لحاجة منه اليهم ولا ليتكثر بهم من قلة ولا ليتعزز بهم كما قال (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ) فاخبر انه لم يخلق الجن والانس لحاجة منه اليهم ولا ليربح عليهم لكن خلقهم جودا واحسانا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الارباح كقوله (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذى يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم قال تعالى : (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وقال فى الاضاحى والهدايا (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن اخراج الردىء من المال : (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) يقول سبحانه انى غنى عما تنفقون ان ينالنى منه شىء حميد مستحق المحامد كلها فانفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمدا بل هو الغنى بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وانفاقكم انما نفعه لكم وعائدته عليكم ، ومن المتمين

على من لم يباشر قلبه حلاوة هذا الخطاب وجلالته ولطف موقعه وجذبه للقلوب والارواح ومخالطته لها أن يعالج قلبه بالتقوى وان يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك ويتعرض الى الاسباب التي يناله بها من صدق الرغبة واللجأ الى الله أن يحيي قلبه ويزكيه ويجعل فيه الايمان والحكمة، فالقلب الميت لايذوق طعم الايمان ولايجد حلاوته ولايتمتع بالحياة الطيبة لافي الدنيا ولافي الآخرة، ومن أراد مطالعة أصول النعم فليسم سرح الذكر في رياض القرءان وليتأمل ماعدد الله فيه من نعمه وتعرف بها الى عباده من أول القرءان الى ءاخره حين خلق أهل النار وابتلاهم بابليس وحزبه وتسليط اعدائهم عليهم وامتحانهم بالشهوات والارادات والهوى لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته، فلله على أوليائه وعباده أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من محبوب ومكروه ونعمة ومحنة وفي كل ما أحدثه في الارض من وقائعه بأعدائه واكرامه لاوليائه وفي كل ماقضاه وقدره، وتفصيل ذلك لاتفي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوى العباد وانما هو التنبيه والاشارة، ومن استقرى الاسماء الحسنى وجدها مدائح وثناء تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها وتعجز الاوهام عن الاحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر ولا هجست في الضمائر ولالاحت لمتوسم ولا سنحت في فكر ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم باسمائه وصفاته ومحامده «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك او استأثرت به في علم الغيب عندك ان تجعل القرءان ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي» وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال «فيفتح على من محامده بشيء لاأحسنه الآن

وكان يقول فى سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فلا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه البتة وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل ، ونسبة مايعلم العباد من ذلك الى مالا يعلمونه كنقرة عصفور فى بحر ٭

﴿ فان قيل ﴾ فكيف يصنعون بما يشاهد من أنواع الابتلاء والامتحان والالام للاطفال والحيوانات ومن هو خارج عن التكليف ومن لا ثواب ولا عقاب عليه ؟ ومايقولون فى الاسماء الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها ؟ قيل : قد تقدم من الكلام فى ذلك مايكفى بعضه لذى الفطرة السليمة والعقل المستقيم ، وأما من فسدت فطرته وانتكس قلبه وضعفت بصيرة عقله فلو ضرب له من الأمثال ما ضرب فانه لايزيده الا عمى وتحيرا ، ونحن نزيد ماتقدم ايضاحا وبيانا إذ بسط هذا المقام أولى من اختصاره ٭

فنقول : قد علمت أن جميع أسماء الرب سبحانه حسنى وصفاته كماله وأفعاله حكمة ومصلحة وله كل ثناء وكل حمد ومدحة ، وكل خير فمنه وله وبيده والشر ليس اليه بوجه من الوجوه لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى أسمائه وان كان فى مفعولاته ، فهو خير باضافته اليه وشر باضافته إلى من صدر عنه ووقع به فتمسك بهذا الأصل ولا تفارقه فى كل دقيق وجليل وحكمه على كل مايرد عليك وحاكم اليه واجعله آخيتك التى ترجع اليها وتعتمد عليها ، واعلم ان لله خصائص فى خلقه ورحمة وفضلا يختص به من يشاء وذلك موجب ربوبيته والهيته وحمده وحكمته فاياك ثم اياك أن تصغى الى وسوسة شياطين الانس والجن والنفس الجاهلة الظالمة انه هلا سوى بين عباده فى تلك الخصائص وقسمها بينهم على السواء

فان هذا عين الجهل والسفه من المعترض به وقد بينا فيما تقدم ان حكمته تأبى ذلك وتمنع منه ولكن اعلم أن الأمر قسمه بين فضله وعدله فيختص برحمته من يشاء ويقصد بعذابه من يشاء وهو المحمود على هذا فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته والخبيثون مقصودون بعذابه ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان وكل مستعمل فيما هو له مهيأ وله مخلوق وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين فانه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون واستعملهم فيها فلم يدر كوا ذلك إلا به ولا استحقوه الا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته فكذلك لا تضرهم الادواء ولا السموم بل متى وسوس لهم العدو واغتالهم بشيء من كيده أومسهم بشيء من طيفه تذكروا فاذاهم مبصرون واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون وإذا واقعوا معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمة وانقلب فى حقهم دواء وبدل حسنة بالتوبة النصوح والحسنات الماحية لأنه سبحانه عرفهم بنفسه وبفضله وبان قلوبهم بيده وعصمتهم اليه حيث نقض عزماتهم وقد عزموا أن لا يعصوه وأراهم عزته فى قضائه وبره واحسانه فى عفوه ومغفرته وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل وأشهدهم حاجتهم اليه وافتقارهم وذلهم وأنه ان لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل الى النجاة ابدا فانهم لما أعطوا من أنفسهم العزم أن لا يعصوه وعقدوا عليه قلوبهم ثم عصوه بمشيئته وقدرته عرفوا بذلك عظيم اقتداره وجميل ستره اياهم وكريم حلمه عنهم وسعة مغفرته لهم برد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته وأنه حليم ذو اناة لايعجل ورحيم سبقت رحمته غضبه وانهم متى رجعوا اليه بالتوبة وجدوه غفورا رحيما حليما كريما يغفر لهم السيآت ويقيلهم العثرات ويردهم بعد التوبة ويحبهم فتضرعوا اليه حينئذ بالدعاء وتوسلوا اليه بذل العبودية وعز الربوبية

فتعرف سبحانه اليهم بحسن اجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه فى أن ألهمهم دعاءه ويسرهم للتوبة والانابة وأقبل بقلوبهم اليه بعد اعراضها عنه ولم تمنعه معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم وبره لهم واحسانه اليهم فتاب عليهم قبل أن يتوبوا اليه وأعطاهم قبل أن يسألوه فلما تابوا اليه واستغفروه وانابوا اليه تعرف اليهم تعرفا آخر فعرفهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبره وامتنانه وكرمه وشرعه ومبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور وشدة النفور والايضاع فى طرق معاصيه وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم وكرمه فى أن خلى بينهم وبين المعصية فنالوها بنعمته واعانته ثم لم يخل بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذى لا يرجى معه فلاح بل تداركهم بالدواء الشافى فاستخرج منهم داء لو استمر معهم لافضى الى الهلاك ثم تداركهم بروح الرجاء فقذفه فى قلوبهم وأخبر أنه عند ظنونهم به ولو أشهدهم عظم الجناية وقبح المعصية وغضبه ومقته على من عصاه فقط لاورثهم ذلك المرض القاتل أو الداء العضال من اليأس من روحه والقنوط من رحمته وكان ذلك عين هلاكهم ولكن رحمهم قبل البلاء وجعل تلك الآثار التى توجبها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمة لهم وسببا الى علو درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده فاشهدهم بالجناية عزة الربوبية وذل العبودية ورقاهم بآثارها الى منازل قربه ونيل كرامته فهم على كل حال يربحون عليه ويتقلبون فى كرمه واحسانه وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير له يسوقه الى كرامته وثوابه وكذلك عطاياه الدنيوية نعم منه عليهم فاذا استرجعها أيضا منهم وسلبهم اياها انقلبت من عطايا الآخرة كما قيل:

ان الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخرة ... فاذا استرجعها كانت عطايا الآخرة

والرب سبحانه قد تجلى لقلوب المؤمنين العارفين وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه ومضى مشيئته وعظيم سلطانه وعلو شأنه وكرمه وبره واحسانه وسعة مغفرته ورحمته وما ألقاه فى قلوبهم من الايمان باسمائه وصفاته الى حيث احتملته القوى البشرية ووراءه عالم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل فى خلد مالانسبة لما عرفوه اليه، فاعلم ان الذين كان قسمهم أنواع المعاصى والفجور وفنون الكفر والشرك والتقلب فى غضبه وسخطه وقلوبهم وارواحهم شاهدة عليهم بالمعاصى والكفر مقرة بان له الحجه عليهم وان حقه قبلهم ولا يذكر أحد منهم النار الا وهو شاهد بذلك مقر به معترف اعتراف طائع لا مكره مضطهد ، فهذه شهادتهم على أنفسهم وشهادة أوليائه عليهم والمؤمنون يشهدون فيهم بشهادة اخرى لا يشهد بها اعداؤه ولو شهدوا بها وباؤا بها لكانت رحمته أقرب اليهم من عقوبته فيشهدون أنهم عبيده وملكه وانه أوجدهم ليظهر بهم مجده وينفذ فيهم حكمه ويمضى فيهم عدله ويحق عليهم كلمته ويصدق فيهم وعيده ويبين فيهم سابق علمه ويعمر بها ديارهم ومساكنهم التى هو محل عدله وحكمته وشهد أولياؤه عظيم ملكه وعز سلطانه وصدق رسله وكمال حكمته وتمام نعمته عليهم وقدر ما اختصهم به ومن أى شيء حماهم وصانهم وأى شىء صرف عنهم وانه لم يكن لهم اليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها اليه أن لا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين وشهدوا له سبحانه بان ما كان منه اليهم وفيهم مما يقتضيه اتمام كلماته الصدق والعدل وصدق قوله وتحقق مقتضى أسمائه فهو محض حقه وكل ذلك منه حسن جميل له عليه أتم حمد وأكمله وأفضله وهو حكم عدل وقضاء فصل وانه المحمود على ذلك كله فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث بل ذلك عين الحكمة ومحض الحمد وكمال أظهره فى حقه وعز أبداه وملك أعلنه ومراد له أنفذه كما فعل

بالبدن وضروب الاذلام أتم بها مناسك أوليائه وقرابين عباده وان كان ! ذلك بالنسبة الى الاسلام هلاكا واتلافا فاعداؤه الكفار المشركون به الجاحدون أولى أن يكون دماؤهم قرابين أوليائه وضحايا المجاهدين فى سبيله كما قال حسان بن ثابت :

يتطهرون يرونه قربانهم بدماء من علقوا من الكفار

وكذلك لما ضحى خالد بن عبد الله القسرى بشيخ المعطلة الفرعونية جعد بن درهم فانه خطبهم فى يوم أضحى فلما أكمل خطبته قال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحايا كم فانى مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه فكان ضحيته، ذكر ذلك البخارى فى كتاب خلق الافعال، فهذا شهود اوليائه من شأن اعدائه ولكن اعداؤه فى غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يقرون به ولو شهدوه واقروا به لادركهم حنانه ورحمته ولكن لما حجبوا عن معرفته ومحبته وتوحيده واثبات اسمائه الحسنى وصفات العليا ووصفه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق به صاروا اسوأ حالا من الانعام وضربوا بالحجاب وابعدوا عنه باقصى البعد واخرجوا من نوره الى الظلمات وغيبت قلوبهم فى الجهل به وبكماله وجلاله وعظمته فى غيابات ليتم عليهم امده وينفذ فيهم حكمه والله عليم حكيم والله اعلم *

﴿ فصل فى أن الله خلق دارين وخص كل دار باهل ﴾

والله سبحانه مع كونه خلق كل شيء فهو موصوف بالرضا والغضب والعطاء والمنع والخفض والرفع والرحمة والانتقام فاقتضت حكمته سبحانه ان خلق دارا لطالبي رضاه العاملين بطاعته المؤثرين لامره القائمين بمحابه وهي الجنة وجعل فيها كل شيء مرضي وملأها من كل محبوب

ومرغوب ومشتهى ولذيذ وجعل الخير بحذافيره فيها وجعلها محل كل طيب من الذوات والصفات والاقوال ، وخلق دارا أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه المؤثرين لاغراضهم وحظوظهم على مرضاته العاملين بانواع مخالفته القائمين بما يكره من الاعمال والاقوال الواصفين له بما لايليق به الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله وهي جهنم وأودعها كل شيء مكروه وسجنها ملئ من كل شيء مؤذ ومؤلم وجعل الشر بحذافيره فيها وجعلها محل كل خبيث من الذوات والصفات والاقوال والاعمال فهاتان الداران هما دارا القرار .

وخلق دارا ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين ومنها يتزود المسافرون اليهما وهي دار الدنيا، ثم أخرج اليها من أثمار الدارين بعض مااقتضته أعمال أربابهما وما يستدل به عليهما حتى كأنهما رأي عين ليصير الايمان بالدارين وان كان غيبا وجه شهادة تستأنس به النفوس وتستدل به ، فاخرج سبحانه الى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه والطيبات والملابس الفاخرة والصور الجميلة وسائر ملاذ النفوس ومشتهاها ماهو نفحة من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال فاذا رآه المؤمنون ذكرهم بما هناك من الخير .والسرور .والعيش الرخي كما قيل :

فاذا رآك المسلمـــون تيقنوا   حور الجنان لدى النعيم الخالد

فشمروا اليه وقالوا: اللهم لاعيش الاعيش الآخرة وأحدثت لهم رؤيته عزمات وهمما وجدا وتشميرا الان النعيم يذكر بالنعيم والشيء يذكر بجنسه فاذا رأى أحدهم مايعجبه ويروقه ولاسبيل له اليه قال: موعدك الجنة وانما هي عشية أو ضحاها فوجود تلك المشتهيات والملذوذات في هذه الدار رحمة من الله يسوق بها عباده المؤمنين الى تلك الدار التي هي أكمل منها وزاد لهم

من هذه الدار اليها فهى زاد وعبرة ودليل وأثر من ءاثار رحمته التى أودعها تلك الدار ، فالمؤمن يهتز برؤيتها الى ماأمامه ويثير ساكن عزماته الى تلك ، فنفسه ذواقة تواقة اذا ذاقت شيئا منها تاقت الى ماهو أكمل منه حتى تتوق الى النعيم المقيم فى جوار الرب الكريم ، وأخرج سبحانه الى هذه الدار أيضاً من ءاثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الاعيان والصفات مايستدل بجنسه على ما فى دار الشقاء من ذلك مع ان ذلك من ءاثار النفسين الشتاء والصيف اللذين أذن الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما فاقتضى ذانك النفسان ءاثاراظهرت فى هذه الدار كانت دليلا وعبرة عليها، وقدأشار تعالى الى هذا المعنى ونبه عليه بقوله فى نار الدنيا : (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ) تذكرة يذكر بها الآخرة ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون يقال : أقوى الرجل اذا نزل بالقى والقوى وهى الارض الخالية ، وخص المقوين بالذكر وان كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده والله أعلم بمراده من كلامه على انهم كلهم مسافرون وانهم فى هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وانهم عابرو سبيل وابناء سفر *

والمقصود انه سبحانه أشهد فى هذه الدار ما أعد لاوليائه وأعدائه فى دار القرار وأخرج الى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ماهو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطا يسوق بها عباده المؤمنين فاذا رأوها حذروا كل الحذر واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما فى تلك الدار من المكروهات والعقوبات وكان وجودها فى هذه الدار واشهادهم اياها وامتحانهم باليسير منها رحمة منه بهم واحسانا اليهم وتذكرة وتنبيها *

ولما كانت هذه الدار ممزوجا خيرها بشرها وأذاها براحتها ونعيمها بعذابها اقتضت حكمة أحكم الحاكمين ان خلص خيرها من شرها وخصه بدار أخرى هي دار الخيرات المحضة ودار السرور المحضة فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط وخلط فيها بين الفريقين وابتلى بعضهم ببعض وجعل بعضهم لبعض فتنة حكمة بالغة بهرت العقول وعزة قاهرة فقام بهذا الاختلاط سوق العبودية كما يحبه ويرضاه ولم يكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها الا على هذا الوجه بل العبد الواحد جمع فيه بين أسباب الخير والشر وسلط بعضه على بعض ليستخرج منه مايحبه من العبودية التي لاتحصل الا بذلك فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط أعقبه بالتمييز والتخليص فميز بينهما بدارين ومحلين وجعل لكل دار مايناسبها واسكن فيها من يناسبها، وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته. واعداءه الكافرين لنقمته. والمخلطين للامرين فهؤلاء أهل الرحمة وهؤلاء أهل النقمة وهؤلاء أهل النقمة والرحمة، وقسم اخر لايستحقون ثوابا ولا عقابا ورتب على كل قسم من هذه الاقسام الخمسة حكمه اللائق به وأظهر فيه حكمته الباهرة ليعلم العباد كمال قدرته وحكمته وانه يخلق مايشاء ويختار من خلقه من يصلح للاختيار وانه يضع ثوابه موضعه وعقابه موضعه ويجمع بينهما فى المحل المقتضى لذلك ولا يظلم أحدا ولا يبخسه شيئا من حقه ولا يعاقبه بغير جنايته هذا مع مافى ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحكم الراجعة الى العبيد أنفسهم من استخراج صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم واستخراج كمالاتهم الكامنة فى نفسهم من القوة الى الفعل ودفع الاسباب بعضها ببعض وكسر كل شيء بمقابله ومصادمته بضده لتظهر عليه آثار القهر وسمات الضعف والعجز ويتيقن العبد أن القهار لايكون الا واحدا وانه يستحيل أن يكون له شريك بل القهر والوحدة متلازمان

فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار ومن سواه مربوب مقهور له ضد ومناف ومشارك، فخلق الرياح وسلط بعضها على بعض تصادمها وتكسر سورتها وتذهب بها، وخلق الماء وسلط عليه الرياح تصرفه وتكسره ،وخلق النار وسلط عليها الماء يكسرها ويطفئها.وخلق الحديد وسلط عليه النار تذيبه وتكسر قوته وخلق الحجارة وسلط عليها الحديد يكسرها ويفتتها وخلق ءادم وذريته وسلط عليهم ابليس وذريته وخلق ابليس وذريته وسلط عليهم الملائكة يشردونهم كل مشرد ويطردونهم كل مطرد.وخلق الحر والبرد والشتاء والصيف وسلط كلا منها على الآخر يذهبه ويقهره وخلق الليل والنهار وقهر كلا منهما بالاخر وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر لكل منهم مضاد ومغالب فاستبان للعقول والفطر أن القاهر الغالب لذلك كله واحد وانه من تمام ملكه ايجاد العالم على هذا الوجه وربط بعضه على بعض واحواج بعضه الى بعض وقهر بعضه ببعض وابتلاء بعضه ببعض وامتزاج خيره بشره وجعل شره بخيره الفداء ولهذا يدفع الى كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له: هذا فداؤك من النار وهكذا المؤمن فى الدنيا يسلط عليه من الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله وقد تكون تلك الأسباب فداء له من شرور أكثر منها فى هذا العالم أيضاً فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التدبر يتبين له حكمة اللطيف الخبير *

(فصل) وقد تقرر ان الله سبحانه كامل الصفات له الأسماء الحسنى ولا يكون عن الكامل فى ذاته وصفاته الا الفعل المحكم وهو سبحانه خلق عباده على الفطرة وكل مولود فانما يولد على الفطرة ويعدلون بهم عنها ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرها ولكن أخرجوهم عن سنن الحنيفية وأفسدوا فطرهم وقلوبهم وهكذا الاضداد والاغيار يخرج بعض

المخلوقات عن سنن الاتقان والحكمة ولولا تلك الاضداد والأغيار لكانت فى مرتبتها كالمولود فى فطرته ولذلك أمثلة ﴿ المثال الأول ﴾ ان الماء خلقه الله طاهرا مطهرا فلو ترك على حالته التى خلق عليها ولم يخالطه ما يزيل طهارته لم يكن الا طاهرا ولكن بمخالطة أضداده من الأنجاس والأقذار تغيرت أوصافه وخرج عن الخلقة التى خلق عليها فكانت تلك النجاسات والقاذورات بمعنى أبوى الطفل وكافليه الذين يهودونه وينصرونه ويمجسونه ويشركونه كما ان الماء اذا فسد بمخالطته الانجاس والقاذورات لم يصلح للطهارة فكذلك القلوب اذا فسدت فطرها بالأغيار لم تصلح لحظيرة القدس ﴿ المثال الثانى ﴾ الشراب المعتصر من العنب فانه طيب يصلح للدواء ولا صلاح الغذاء والمنافع التى يصلح لها فلو خلى على حاله لم يكن الا طاهرا طيبا ولكن أفسد بتهيئته للسكر واتخاذه مسكرا فخرج بذلك عن خلقته التى خلق عليها من الطهارة والطيب فصار أخبث شيء وأنجسه فلو انقلب خلا أو زال تغير الماء كان بمنزلة رجوع الكافر الى فطرته الأولى فان الحكم اذا ثبت لعلة زال بزوالها والله أعلم *

﴿ المثال الثالث ﴾ الأغذية الطيبة النافعة اذا خالطت باطن الحيوان واستقرت هناك خرجت عن حالتها التى خلقت عليها واكتسبت بهذه المخالطة والمجاورة خبثا وفسادا لم يكن فيها لسلوكها فى غير طرقها التى بها كمالها، ولما أنزل الله الماء طاهرا نافعا فمازج الأرض وسالت به أوديتها أوجد جل جلاله بينهما بسبب هذه المخالطة والممازجة أنواع الثمار والفواكه والزروع والنخيل والزيتون وسائر الأغذية والأقوات، وأوجد مع ذلك المر والشوك والحنظل وغير ذلك واللقاح واحد

ولكن الآم مختلفة ،قال تعالى: (وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ثم انه سبحانه يصرف ما أخرجه من هذا الماء ويقلبه ويحيل بعضه الى بعض وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته الى طبيعة أخرى وهذا كما خلق كل دابة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها وأمشى بعضا على بطنه وبعضا على رجلين وبعضا على أربع حكمة بالغة وقدرة باهرة ، وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار ويقلب ما يوجد فيهما ويقلب أحوال العالم كما يشاء ويسلك بذلك مسلك الحكمة البالغة التى بها يتم مراده ويظهر ملكه (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وهذا القرءان المجيد عمدته ومقصوده الاخبار عن صفات الرب سبحانه وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه والانباء عن عظمته وعزته وحكمته وانواع صنعه والتقدم الى عباده بأمره ونهيه على ألسنة رسله وتصديقه يفهم بما أقامه من الشواهد والدلالات على صدقهم وبراهين ذلك ودلائله وتبيين مراده من ذلك كله،وكان من تمام ذلك الاخبار عن الكافرين والمكذبين وذكر ما أجابوا به رسلهم وقابلوا رسالات ربهم ووصف كفرهم وعنادهم وكيف كذبوا على الله وكذبوا رسله وردوا أمره ومصالحه فكان فى اجتلاب ذلك من العلوم والمعارف والبيان ووضوح شواهد الحق وقيام أدلته وتنوعها وكان موقع هذا من خلقه موقع تسبيحه تعالى وتنزيهه من الثناء عليه وان أسماءه الحسنى وصفاته العليا هى موضع

الحمد ومن تمام حمده تسبيحه وتنزيهه عما وصفه به أعداؤه والجاهلون به بما لا يليق به وكان فى تنوع تنزيهه عن ذلك من العلوم والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما فى بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه، ولهذا كان تسبيحه تعالى من تمام حمده وحمده من تمام تسبيحه ولهذا كان التسبيح والتحميد قريبتين وكان ما نسبه اليه أعداؤه والمعطلون لصفات كماله من علوه على خلقه وانزاله كلامه الذى تكلم به على رسله وغير ذلك مما نزه عنه نفسه وسبح به نفسه وكان فى ذلك ظهور حمده بخلقه وتنوع أسبابه وكثرة شواهده وسعة طرق الثناء عليه به وتقرير عظمته ومعرفته فى قلوب عباده فلولا معرفة الأسباب التى يسبح وينزه ويتعالى عنها وخلق من يضيفها اليه ويصفه بها لما قامت حقيقة التسبيح ولا ظهر لقلوب أهل الايمان عن أى شيء يسبحونه وعما ذا ينزهونه فلما رأوا فى خلقه من قد نسبه الى ما لا يليق به وجحد من كماله ما هو أولى به سبحوه حينئذ تسبيح مجل له معظم له منزه له عن أمر قد نسبه اليه أعداؤه والمعطلون لصفاته، ونظير هذا اشتمال كلمة الاسلام وهى شهادة أن لا اله الا الله على النفى والاثبات فكان فى الاتيان بالنفى فى صدر هذه الكلمة من تقرير الاثبات وتحقيق معنى الالهية وتجريد التوحيد الذى يقصد بنفى الالهية عن كل ما ادعيت فيه سوى الاله الحق تبارك وتعالى، فتجريد هذا التوحيد من العقد واللسان بتصور اثبات الالهية لغير الله كما قاله أعداؤه المشركون ونفيه وابطاله من القلب واللسان من تمام التوحيد وكماله وتقريره وظهور أعلامه ووضوح شواهده وصدق براهينه، ونظير ذلك أيضا ان تكذيب أعداء الرسل وردهم ما جاؤهم به كان من الأسباب الموجبة ظهور براهين صدق الرسل ودفع ما احتج به أعداؤهم عليهم من الشبه الداحضة

ودحض حججهم الباطلة وتقرير طرق الرسالة وايضاح أدلتها فان الباطل كلما ظهر فساده وبطلانه أسفر وجه الحق واستنارت معالمه ووضحت سبله وتقررت براهينه فكسر الباطل ودحض حججه وأقام الدليل على بطلانه من أدلة الحق وبراهينه. فتأمل كيف اقتضى الحق وجود الباطل وكيف تم ظهور الحق بوجود الباطل وكيف كان كفر أعداء الرسل بهم وتكذيبهم لهم ودفعهم ما جاؤا به وهو من تمام صدق الرسل وثبوت رسالات الله وقيام حججه على العباد *

ولنضرب لذلك مثالا يتبين به وهو ملك له عبد قد توحد فى العالم بالشجاعة والبسالة والناس بين مصدق ومكذب فمن قائل: هو كذلك ومن قائل: هو بخلاف مايظن به فانه لم يقابل الشجعان ولا واجه الاقران ولو بارز الاقران وقابل الشجعان لظهر أمره وانكشف حاله فسمع به شجعان العالم وأبطالهم فقصدوه من كل أوب وأتوه من كل قطر فاراد الملك أن يظهر لرعيته ماهو عليه من الشجاعة فمكن تلك الشجعان من منازلته ومقاومته وقال: دونكم واياه وشأنكم به فهل تسليط الملك لاولئك على عبده وعلوه الا اعلاء شأنه واظهار شجاعته فى العالم وتخويف اعدائه به وقضاء الملك اوطاره به كما يترتب على هذا اظهار شجاعة عبده وقوته وحصول مقصوده بذلك فكذلك يترتب عليه ظهور كذب من ادعى مقاومته وظهور عجزهم وفضيحتهم وخزيهم وانهم ليسوا ممن يصلح لمهمات الملك وحوائجه فاذا عدل بهم عن مهماته وولايته وعدل بها عنهم كان ذلك مقتضى حكمة الملك وحسن تصرفه فى ملكه وانه لو استعملهم فى تلك المهمات لتشوش امر المملكة وحصل الخلل والفساد والله أعلم بالشاكرين *
والمقصود ان خلق الاسباب المضادة للحق واظهارها فى مقابلة الحق من ابين

دلالاته وشواهده فكان فى خلقها من الحكمة مالوفاتت تلك الحكمة وهى أحب الى الله من تفويتها بتقدير تفويت هذه الاسباب والله أعلم

﴿ فصل فى بيان ما للناس فى دخول الشر فى القضاء الالهى من الطرق والاصول التى تفرعت عنها هذه الطرق ﴾

وللناس فى دخول الشر فى القضاء الالهى طرق فنذكرها ونذكر أصولهم التى تفرعت عليها هذه الطرق قبل ذلك فنقول : الناس قائلان، أحدهما قول أهل الاسلام وأتباع المرسلين كلهم: ان الله سبحانه فعال لما يريد يفعل باختياره وقدرته ومشيئته فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وهو الذى يعبر عنه متأخرو المتكلمين بكونه فاعلا بالاختيار، وللفريق الثانى قول من نفى ذلك وقال: صدر العلم عنه تعالى صدورا ذاتيا كصدور النور عن الشمس والحرارة عن النار والتبريد عن الماء ويسمى المتكلمون هذا الايجاب الذاتى ومصدره موجبات الذات وهذا قول الفلاسفة المشائين وهو الذى يذكره ابن الخطيب وغيره عن الفلاسفة ولا يحكى عنهم غيره وانما هو قول المشائين وقرب متأخرهم وفاضلهم ابن سينا الى الاسلام بعض التقريب مع مباينته لماجاءت به الرسل ولما دل عليه صريح العقل والفطرة ، والفريقان متفقون على ان مصدر الكائنات باسرها خير محض من جميع الوجوه وكمال صرف ووجود الشر فى العالم مشهود والخير لا يصدر عنه الا الخير ولاجرم اختلفت طرقهم فى كيفية دخول الشر فى القضاء الالهى وتنوعت الى أربعة طرق ٥

﴿ الطريق الاولى ﴾ طريق نفاة التعليل والحكمة والاسباب فانهم سدوا على أنفسهم هذا الباب وأثبتوا مشيئة محضة لا غاية لها ولاسبب ولاحكمة تفعل لاجلها ولا يتوقف فعل المختار بها على مصلحة ولا حكمة ولاغاية

لها تفعل بل كل مقدور يحسن منه فعله ولا حقيقة عندهم للقبيح لولا المستحيل لذاته الذى لا يوصف بالقدرة عليه ، وهؤلاء نفوا مسمى الرحمة والحكمة وان أقروا بلفظ لا حقيقة له ، وكان شيخهم الجهم بن صفوان يقف بأصحابه على المجذمين وهم يتقلبون فى بلائهم فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا يعنى انه ليس فى الحقيقة رحمة وانما هو محض مشيئة وصرف ارادة مجردة عن الحكمة والرحمة ، وهؤلاء قابلوا أصحاب الطريق الثانى وهم الذين أثبتوا له حكمة وغاية وقالوا : لا يفعل شيئا الا لحكمة وغاية مطلوبة ولكن حجروا عليه سبحانه فى ذلك وشرعوا له شريعة وضعوها بعقولهم وظنوا ان ما يحسن من خلقه يحسن منه وما يقبح منهم يقبح منه فجعلوا ما أثبتوه له من الحكمة والرحمة من جنس ما هو للخلق ولهذا كانوا مشبهة الافعال كما ان من شبهه بخلقه فى صفاته فهو مشبه الصفات فاقتسموا التشبيه نصفين هؤلاء فى أفعاله وإخوانهم فى صفاته ، وقالوا : إنه تعالى لو خص بعض عبيده عن بعض باعطائه توفيقا وقدرة وإرادة ولم يعطها الآخر لكان ظالما للذى منعه وقالوا : لو شاء من عباده أفعال المعاصى لكان ينزه عنه كما فى الشاهد ، ولو شاء منهم الكفر والفسوق والعصيان ثم عذبهم عليه لكان ظالما فى الشاهد أيضا فان السيد إذا أراد من عبده شيئا ففعل العبد ما أراد سيده فانه إذا عذبه عده الناس ظالما له وجعلوا العدل فى حقه من جنس العدل فى حق عباده والظلم الذى تنزه عنه كالظلم الذى يتنزهون عنه ، وجعلوا ما يحسن منه من جنس ما يحسن منهم وما يقبح منه من جنس ما يقبح منهم ، وقالوا : لو أراد الشر لكان شريرا كما فى المشاهد فان مريد الشر شرير ، وقالوا : لو ختم على قلوب أعدائه وأسماعهم وحال بينهم وبين قلوبهم وأضلهم عن الايمان وجعل على أبصارهم غشاوة وجعل من بين أيديهم

سدا ومن خلفهم سدا ، ثم عذبهم لكان ظالما لهم لأن أحدنا لو فعل ذلك بعبده ثم عذبه لكان ظالما له .

فهؤلاء المشبهة حقا فى الافعال فعدلهم تشبيه وتوحيدهم تعطيل فجمعوا بين التشبيه والتعطيل ، وهؤلاء قسموا الشر الواقع فى العالم إلى قسمين أحدهما شرور هى أفعال العباد وما تولد منها فهذه لا تدخل عندهم فى القضاء الالهى تنزيها للرب عن نسبتها إليه ولا تدخل عندهم تحت قدرته ولا مشيئته ولا تكوينه ، والثانى الشرور التى لا تتعلق بافعال العباد كالسموم والأمراض وأنواع الآلام وكابليس وجنوده وغير ذلك من شرور المخلوقات كايلام الأطفال وذبح الحيوان فهذا النوع هو الذى كدر على القدرية أصولهم وشوش عليهم قواعدهم ، وقالوا : ذلك كله حسن لما فيه من اللطف والمصلحة العاجلة والآجلة قالوا : أما الآلام والأمراض فمفعولة لغرض صحيح وهو ماضمن الرب سبحانه لمن أصابه بها من العوض الوافى قالوا : وذلك يجرى مجرى استئجار أجير فى فعل شاق فانه بغرض الاستئجار أخرج الاستئجار عن كونه عبثا وبالاجرة عن كونه ظلما فكان حسنا .

قالوا : فان قيل اذا كان الله قادرا على التفضل بالعوض وباضعافه بدون توسط الالم فاى حاجة الى توسطه ؟ ، وأيضا فاذا حسن الالم لاجل العوض فهل يحسن منا أن يؤلم أحدنا بغير اذنه لعوض يصل اليه؟ فالجواب ان الله سبحانه لا يمرض ولا يؤلم الا من يعلم من حاله أنه لو أطلعه على الاعواض التى تصل اليه لرضى بالالم ولرغب فيه لوفور الأعواض وعظمها وليس كذلك فى الشاهد استئجار الاجير من غير اختياره قالوا : وليس كذلك ايلام أحدنا لغيره لأجل التعويض فان من قطع يد غيره

أو رجله ليعوضه عنها لم يحسن ذلك منه لأن العوض يصل اليه وهو مقطوع اليد والرجل وليس من العقلاء من يختار ملك الدنيا مع ذلك والله يوصل الأعواض فى الآخرة الى الأحياء وهم أكمل شىء خلقه وأتمه أعضاء فلذلك افترق الشاهد والغائب فى هذا قالوا: فان فرضتموه فى ضرب وجلد مع سلامة الأعضاء قبح لأنه عيب فان فرض فيه مصلحة ورضى المضروب بذلك وعظمت الأعواض عنه فهو حسن فى العقل لامحالة ، قالوا : وسر الأمر أن بالعوض يخرج الالم عن كونه ظلما لأنه نفع موقوف على مضرة الالم وباعتبار كونه لطفا فى الدين يخرج عن كونه عبثا قالوا : وقد رأينا فى الشاهد حسن الالم للنفع فانه يحسن فى الشاهد ايلام أنفسنا واتعابها فى طالب العلوم والأرباح التى لانصل اليها الا على جنس من التعب والمشقة ، قالوا : وهذا الوجه هو الذى حسن لأجله ايلام الاطفال والبهائم فانه ايلام للنفع فان أبدان الأطفال لاتستقيم الا على الأسباب الجالبة للآلام وكذلك نفوسهم إنما تكمل بذلك وايلام الحيوان لنفع الآدمى به غير قبيح ، قالوا : وأما الالم المستحق للعقوبة فانه حسن فى الشاهد ولكنه غير متحقق فى الغائب بالنسبة الى الأطفال والبهائم لعدم تكليفها ولكن لابد فى ايلامها من مصلحة ترجع اليها وهى ما يحصل لهم من العوض فى الاخرة قالوا : ويجب اعادتها لاستيفاء ذلك الحق الذى لها وهى العوض على الآلام التى حصلت لها . قالوا : وبقاؤها بعد الاعادة موقوف (١) ونعيم الاطفال والمجانين دائم ، واختلفوا فى البهائم فقال بعضهم : يدوم عوضهم وقال آخرون بانقطاعه فانهم يصيرون ترابا قالوا . فان لم يكن للبهائم عوض يجب لأجله أن تعاد لم تجب اعادتها عقلا وتحسن اعادتها

---

(١) هنا بياض فى الاصل وارى أن الكلام لاسقط فيه ، ومعنى موقوف أى غير دائم

وما يحسن قد يفعله الله وقد لا يفعله وهل تجوز الآلام للتعويض المجرد ؟
فيه قولان لهم مبنيان على أصل اختلفوا فيه وهو أنه هل يحسن منه سبحانه
التفضل بمثل العوض ابتداء فصار بعضهم الى امتناعه كما يمتنع التفضل
بمثل الثواب ابتداء عندهم وهم مجمعون على امتناعه لئلا يسوى بين العامل
وغيره وصار من ينتمى الى التحصيل منهم الى أن التفضيل بمقدار الأعواض
ممكن غير ممتنع فمن قال بامتناع التفضل بمقدار العوض جوز وقوع
الالام للتعويض المجرد ومن جوز التفضل بامثال الاعواض لم يحسن
عنده الآلام بمجرد التعويض ، بل قالوا : انما يحسن لوجهين لابد من
اقترانهما ، احدهما التزام التعويض ، والثانى اعتبار غير المؤلم بتلك الالام
وكونها الطافا فى زجر غاو عن غوايته اذا شاهدها فى غيره ، وذهب
عباد الصيمرى منهم الى ان الالام تحسن لمجرد الاعتبار من غير تعويض
لمن اصابته ، ورد عليه جماهير القدرية ذلك قالوا والالام التى يفعلها سبحانه
اما ان تكون مستحقة كعقوبات الدنيا وعذاب الاخرة ، واما للتعويض
واما للمصلحة الراجحة ، قالوا : ومايفعله فى الآخرة منها فكله للاستحقاق
ومايفعله فى الدنيا فللعوض والمصلحة وقد يفعله عقوبة ، واما ماشرعه من
أسباب الآلام فعقوبات محضة *

وأما مشايخ القوم فقالوا : إنمـا يحسن منه سبحانه الإيلام لأنه
المنعم بالصحة والحياة ، ولأنه فى حكم من أعار تلك المنفعة لمن لايملكها
فله قطعها إذا شاء ولأنه قادر على التعويض عالم بقدره وليس كذلك
الواحد من الخلق ، قالوا : فاذا استرجع عارية الصحة والحياة خلفها الآلم
ولابد وأطالوا الكلام فى الآلام وأسبابها وما يحسن منها ومايقبح وعلى
أى وجه يقع وحصروا أنفسهم غاية الحصر فاستطالت عليهم الجبرية بالأسئلة
والمضايقات وألجؤهم الى مضايق تضايق عنها أن تولجها الابر وأضحكوا

العقلاء منهم بابداء تناقضهم وألزموهم الزامات لابد من التزامها أو ترك المذهب ، وسأل أبو الحسن الأشعرى ابا على الجبائى عن ثلاثة اخوة لأب وام مات احدهم صغيرا وبلغ الآخر ، فاختار الاسلام وبلغ الآخر فاختار الكفر فاجتمعوا عند رب العالمين فرفع درجة البالغ المسلم فقال أخوه الصغير : يارب ارفع درجتى حتى ابلغ منزلة اخى فقال : انك لاتستحق ان أخاك بلغ فعمل اعمالا استحق بها تلك الدرجة فقال : يارب فهلا احييتنى حتى ابلغ فاعمل عمله فقال: كانت تلك المصلحة تقتضى اخترامك قبل البلوغ لانى علمت أنك لوبلغت لاخترت الكفر فكانت المصلحة فى قبضك صغيرا قال : فصاح الثالث بين اطباق النار ، وقال : يارب لم لم تمتنى صغيرا ؟ فماجواب هـذا أيها الشيخ ؟ فلم يرد اليه جوابا ، قالوا : واذا علم سبحانه من بعض العبيد أنه لايختار الا الاسلام وأنه لا يكون الا كافرا مفسدا فى الأرض فاى مصلحة لهذا العبد فى ايجاده؟ قالوا : وأى مصلحة لابليس وذريته الكفار فى ايجادهم ، فان قلتم : عرضهم للثواب ، قيل لكم : كيف يعرضهم لامر قد يعلم أنهم لايفعلونه ولايقع منهم البتة .

ومن هنا انكر غلاتهم العلم القديم وكفرهم السلف على ذلك ومن أقر به منهم فاقراره به مبطل لمذهبه وأصله فى وجوب مراعاة الصلاح والأصلح ، وهذا معنى قول السلف: ناظروا القدرية بالعلم . فان جحدوه كفروا وان أقروا به خصموا ، قالوا : وأما حديث العوض على الالام فالرب سبحانه قادر على ايصال تلك المنافع بدون توسط الالام .

قالوا : وهذا بخلاف المستأجر فان له منفعة وحاجة فى توسط تعب الأجير واستيفاء منفعته ، فاما من تعالى عن الانتفاع بخلقه ولايحتاج الى أحد منهم البتة فلا يعقل فى حقه ذلك ، قالوا : وأما وقوع الآلام على وجه العقوبات

فذلك إنما يحسن فى الشاهد لحصول التشفى من الجناة وإطفاء نار الغيظ والغضب بالانتقام منهم وذلك لحاجة المعاقب إلى العقاب وانتفاعه به وقياس الغائب على الشاهد فى ذلك ممتنع ، قالوا : وأما الايلام للاعتبار بأن يعتبر الغير بالألم الواقع بغيره فيكون ذلك أدعى له إلى الاذعان والانقياد فلا ريب أن الصبى إذا شاهد المعلم يضرب غيره على لعبه وتفريطه كان ذلك مصلحة واعتبارا له ولعله أن ينتفع بضرب ذلك الغير أكثر من انتفاع المضروب أو حيث لا ينتفع المضروب ولكن انما يحسن ذلك اذا كان المضروب مستحقا للضرب فأين استحقاق الأطفال والبهائم ؟ قالوا : وكذلك تمكينه تعالى عباده أن يؤلم بعضهم بعضا ويضر بعضهم بعضا مع قدرته على منع المؤلم المضر أى مصلحة لمن مكن من ذلك وأقدر عليه وهل كانت مصلحته الا تعجيزه وأن يحال بينه وبين القدرة على الأداء وصون العباد .

قالوا : فهذه الشريعة التى وضعتموها لرب العباد وأوجبتم عليه ما أوجبتم وحرمتم عليه ما حرمتم وحجرتم عليه فى تصرفه فى ملكه بغير ما أصلتم وفرعتم بعقولكم وآرائكم تشبيها له وتمثيلا بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح مع أنها شريعة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان فانكم لم تطردوها بل أنتم متناقضون فيها غاية التناقض خارجون فيها عما يوجبه كل عقل صحيح وفطرة سليمة فلا للتشبيه والتمثيل طردتم ولا بالتعويض قلتم ولا على حقيقة الحكمة والحمد وقفتم بل أثبتم له نوع حكمة لا تقوم به ولا ترجع اليه بل هى قائمة بالخلق فقط وقدحتم بها فى تمام ملكه كما أثبت له اخوانكم من الجبرية قدرة مجردة عن حكمة وحمد وغاية يفعل لأجلها ، بل جعلوا حمده وحكمته اقتران أفعاله بما اقترن به من المصالح عادة ووقوعها مطابقة لمشيئته وعلمه فقط فقدحوا بذلك فى تمام حمده .

وقام حزب الله وحزب رسوله وأنصار الحق بلا اله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير حق القيام ورعوا هذه الكلمة حق رعايتها علما ومعرفة وبصيرة ولم يلقوا الحرب بين حمده وملكه ، بل أثبتوا له الملك التام الذي لايخرج عنه شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها والحمد التام الذي وسع كل معلوم وشمل كل مقدور، وقالوا: ان له في كل ماخلقه وشرعه حكمة بالغة ونعمة سابغة لأجلها خلق وأمر ويستحق أن يثني عليه ويحمد لأجلها كما يثني عليه ويحمد لأسمائه الحسنى ولصفاته العليا فهو المحمود على ذلك كله أتم حمد وأكمله لما اشتملت عليه صفاته من الكمال وأسماؤه من الحسن وأفعاله من الحكم والغايات المقتضية لحمده المطابقة لحكمته الموافقة لمحابه فانه سبحانه كامل الذات كامل الاسماء والصفات لا يصدر عنه الا كل فعل كريم مطابق للحكمة موجب للحمد يترتب عليه من محابه مافعل لأجله ، وهذا أمر ذهب عن طائفتي الجبرية والقدرية وحال بينهم وبينه أصول فاسدة أصلوها وقواعد باطلة أسسوها من تعطيل بعض صفات كماله كما عطل الفريقان حقيقة محبته عند الجبرية مشيئته وارادته ومحبة العباد له ارادتهم لما يخلقه من النعيم في دار الثواب فالمحبة عندهم انما تعلقت بمخلوقاته لا بذاته، وحقيقة محبته وكراهته عند القدرية أمره ونهيه ومحبة العباد له محبتهم لثوابه المنفصل؛ وأصل الفريقان انه لايقوم بذاته حكمة ولاغاية يفعل لأجلها، ثم اختلفوا فقالت الجبرية: لايفعل لغاية ولا لحكمة أصلا وتكايست القدرية بعض التكايس فقالت : يفعل لغاية وحكمة لاترجع اليه ولا تقوم به ولايعود اليه منها وصف ؛ وأصل الفريقان أيضا أنه لايقوم بذاته فعل البتة بل فعله عين مفعوله فعطلوا أفعاله القائمة به وجعلوها نفس المخلوقات المشاهدة التي لاتقوم به فلم يقم به عندهم

فعل البتة كما عطل غلاة الجهمية صفاته فلم يثبتوا له صفة تقوم به وإن تناقضوا، وكما عطلت السينائية اتباع ابن سينا ذاته فلم يثبتوا له ذاتا زائدة على وجود مجرد لا يقارن ماهية ولا حقيقة، واصلت الجبرية أنه تعالى لا ينزه عن فعل مقدور يكون قبيحا بالنسبة اليه بل كل مقدور ممكن فهو جائز عليه، وان علم عدم فعله فبالسمع وإلا فالعقل يقضي بجوازه عليه فلا ينزه عن ممكن مقدور إلا مادل عليه بالسمع فيكون تنزيهه عنه لا لقبحه في نفسه بل لأن وقوعه يتضمن الخلف في خبره وخبر رسوله ووقوع الأمر على خلاف علمه ومشيئته فهذا حقيقة التنزيه عند القوم، وأصلت القدرية ان مايحسن من عباده يحسن منه ومايقبح منهم يقبح منه مع تناقضهم في ذلك غاية التناقض .

فاقتضت هذه الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة فروعا ولوازم كثيرة منها مخالف لصريح العقل ولسليم الفطرة كما هو مخالف لما أخبرت به الرسل عن الله فجعل أرباب هذه القواعد والأصول قواعدهم وأصولهم محكمة وماجاء به الرسول متشابها ثم أصلوا أصلا في رد هذا المتشابه الى المحكم وقالوا : الواجب فيما خالف هذه القواطع العقلية بزعمهم من الظواهر الشرعية أحد أمرين اما يخرجها على ما يعلم العقلاء أن المتكلم لم يرده بكلامه من المجازات البعيدة والألغاز المعقدة ووحشي اللغات والمعاني المهجورة التي لا يعرف أحد من العرب عبر عنها بهذه العبارة ولا يحتملها لغة القوم البتة وانما هي محامل انشؤها هم ، ثم قالوا : نحمل اللفظ عليها فانشؤا محامل من تلقاء أنفسهم وحكموا على الله ورسوله بارادتها بكلامه فانشؤا منكرا وقالوا زورا فاذا ضاق عليهم المجال وغلبتهم النصوص وبهرتهم شواهد الحقيقة من اطرادها وعدم فهم العقلاء سواها ومجيئها على طريقة واحدة وتنوع الالفاظ الدالة على الحقيقة واحتفافها بقرائن من

السياق والتأكيد وغير ذلك يقطع كل سامع بأن المراد حقيقتها وما دلت عليه .

قالوا : الواجب ردها وأن لا يشتغل بها وان أحسنوا العبارة والظن قالوا : الواجب تفويضها وان نكل علمها الى الله من غير أن يحصل لنا بها هدى أو علم أو معرفة بالله وأسمائه وصفاته أو ننتفع بها فى باب واحد من أبواب الايمان بالله ومايوصف به وماينزه عنه بل نجرى ألفاظها على ألسنتنا ولا نعتقد حقيقتها لمخالفتها للقواطع العقلية فسموا أصولهم الفاسدة وشبههم الباطلة التى هى كبيت العنكبوت ، وكما قال فيها القائل شعرا :

شبه تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

قواطع عقلية مع اختلافهم فيها وتناقضهم فيها ومناقضتها لصريح المعقول وصريح المنقول فسموا كلام الله ورسوله ظواهر سمعية ازالة لحرمته من القلوب ومنعا للتعلق به والتمسك بحقيقته فى باب الايمان والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته فعبروا عن كلامهم بأنه قواطع عقلية فيظن الجاهل بحقيقته أنه اذا خالفه فقد خالف صريح المعقول وخرج عن حد العقلاء وخالف القاطع وعبروا عن كلام الله ورسوله بأنه ظواهر فلا جناح على من صرفه عن ظاهره وكذب بحقيقته واعتقد بطلان الحقيقة بل هذا عندهم هو الواجب وأشهد الله عباده الذين أوتوا العلم والايمان أن الأمر بعكس ماقالوه وأن كلامه وكلام رسوله هو الشفاء والعصمة والنور الهادى والعلم المطابق لعلومه وانه هو المشتمل على القواطع العقلية السمعية والبراهين اليقينية وأن كلام هؤلاء المتهوكين الحيارى المتضمن بخلاف ماأخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله هو الشبهات الفاسدة والخيالات الباطلة وأنه كالسراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه

لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، وهؤلاء هم أهل العلم حقاً الذين شهد الله لهم به فقال (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) ومن سواه من الصم البكم الذين قال الله فيهم: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال تعالى :(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) وكان ماشهدوه من ذلك بالعقل والفطرة لا بمجرد الخبر بل جاء اخبار الرب واخبار رسوله مطابقا لما في فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة فتظافر على ايمانهم به الشريعة المنزلة والفطرة المكملة والعقل الصريح فكانوا هم العقلاء حقاً وعقولهم هي المعيار فمن خالفها فقد خالف صريح المعقول والقواطع العقلية ، ومن أراد معرفة هذا فليقرأ كتاب شيخنا وهو بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح فانه كتاب لم يطرق العالم له نظير في بابه فانه هدم فيه قواعد أهل الباطل من أسها فخرت عليهم سقوفه من فوقهم وشيد فيه قواعد أهل السنة والحديث وأحكمها ورفع أعلامها وقررها بمجامع الطرق التي تقرر بها الحق من العقل والنقل والفطرة والاعتبار فجاء كتابا لا يستغني من نصح نفسه من أهل العلم عنه فجزاه الله عن أهل العلم والايمان أفضل الجزاء وجزى العلم والايمان عنه كذلك .

﴿ فصل ﴾ عدنا إلى تمام الكلام في كيفية دخول الشر في القضاء الالهي وبيان طرق الناس في ذلك واختلافهم في ايلام الأطفال والبهائم ، وقالت البكرية ـ وهم أتباع بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد البصري ـ بأن البهائم والاطفال لا تألم البتة والذي حملهم على هذا موجب التعليل والحكمة

ولم يرتضوا ماقالت الجبرية من نفى ذلك ولا ماقالت المعتزلة من حديث الاعواض ومافرعوه عليه ولم يمكنهم القول بمذهب التناسخية القائلين بأن الأرواح الفاجرة الظالمة تودع فى الحيوانات التى تناسبها فينالها من ألم الضرب والعذاب بحسبها ، ولا بمذاهب المجوس من اسناد الشر والخير الى الهين مستقلين كل منهما يذهب بخلقه ولا بقول من يقول : ان البهائم مكلفة ،مأمورة منهية مثابة معاقبة وانه فى كل أمة منها رسول ونبى منها وهذه الالام والعقوبات الدنياوية جزاء على مخالفتها لرسولها ونبيها فلم يجدوا بدا من التزام ماذهبوا اليه من انكار وقوع الآلام بها ووصولها اليها،وقد رد عليهم الناس بأنهم كابروا الحس وجحدوا الضرورة وان العلم بخلاف ماذهبوا اليه ضرورى ، وقال من أنصف القوم: لاسبيل الى نسبة هؤلاء الى جحد الضرورة مع كثرتهم ولكنهم ربما رأوا أن الطفل والبهيمة لا تدرك الآلام حسبما يدركها العقلاء فان العاقل اذا أدرك تألم جوارحه وأحس به تألم قلبه وطال حزنه وكثر هم روحه وغمها واشتدت فكرته فى ذلك وفى الأسباب الجالبة له والأسباب الدافعة له ، وهذه الالام زائدة على مجرد ألم الطبيعة ،ولاريب أن البهائم والأطفال لاتحصل لها تلك الالام كما يحصل للعقل المميز ، فان أراد القوم هذا فهم مصيبون وان أرادوا أنه لاشعور لها بالالام البتة وأنها لاتحس بها فمكابرة ظاهرة فان الواحد منا يعلم باضطرار أنه كان يتألم فى طفوليته بمس النار له وبالضرب وغير ذلك، وقالت طائفة: كل مايتألم به الطفل والبهيمة ليس من قبل الله ولا فعل الله فيه الألم لما ثبت من حكمته، وهذا يشبه قولهم فى أفعال الحيوان أنها ليست من خلق الله ولا كانت بمشيئته لكن هذا أشد فسادا من ذلك فان هذه الالام حوادث لاتتعلق باختيار من قامت به ولا بارادته فلا بد لها من محدث اذ وجود حادث بلا محدث محال والله خالقها بأسبابها

المفضية اليها فخالق السبب خالق للمسبب ، فان أراد هؤلاء نفى فعلها
من الله مباشرة من غير توسط بسبب أصلا فهذا قديكون حقا، وان أرادوا
أنها غير منسوبة الى قدرته ومشيئته البتة فباطل، وذهبت طائفة الى أن فى كل
نوع من أنواع الحيوانات أنبياء ورسلا وأنها مستحقة للثواب والعقاب
وأن ما ينزل بها من الآلام فجزاء لها وعقوبات على معاصيها ومخالفتها
واحتجوا بقوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ
أَمْثَالُكُمْ) وقال تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) وقالت طائفة
من التناسخية: إن الله خلق خلقه كلهم جملة واحدة بصفة واحدة ثم أمرهم ونهاهم فمن
عصى منهم نسخ روحه فى جسد بهيمة تبتلى بالذبح والقتل كالدجاج والغنم
والابل والبقر والبراغيث والقمل فما سلط على هذه البهائم من الآلام
فهو للارواح الآدمية التى أودعت هذه الاجساد فمن كان منهم زانيا
أو زانية كوفىء بأن جعل فى بدن حيوان ما يمكنه الجماع كالبغال ومن كان
منهم عفيفا عن الزنا مع ظلمه وغشمه كوفىء بأن جعل فى بدن تيس أو عصفور
أو ديك ومن كان منهم جبارا عنيدا كوفىء بأن جعل فى بدن قملة أو قرادة
ونحوهما الى ان يقتص منهم ثم يردون فمن عصا منهم بعد كذبه كر راجعا
عليه ذلك التناسخ هكذا أبدا حتى يطيع طاعة لا معصية بعدها أبدا فينتقل
إلى الجنة من وقته، وقد ذهب الى هذا المذهب من المنتسبين الى الاسلام رجل
يقال له: أحمد بن حائط طرد الاصول القدرية وشريعتهم التى شرعوها لله
فأوجبوا بها عليه وحرموا ، وذهب المجوس الى أن هذه الآلام والشرور
من الاله الشرير المظلم فلا تضاف الى الاله الخير العادل ولا تدخل تحت
قدرته ، ولهذا كان أشبه أهل البدع بهم القدرية النفاة، وقالت الزنادقة
والدهرية : كل ذلك من تصرف الطبيعة وفعلها وليس لذلك فاعل مختار مدبر

بمشيئته وقدرته ولابد فى النار من احراق ونفع وفى الماء من اغراق ونفع وليس وراء ذلك شيء، فهذه مذاهب أهل الأرض فى هذا المقام ٭

ولما انتهى أبو عيسى الوراق الى حيث انتهت اليه أرباب المقالات طاش عقله ولم يتسع لحكمة ايلام الحيوان وذبحه صنف كتابا سماه النوح على البهائم فاقام عليها المآتم وناح وباح بالزندقة الصراح، وممن كان على هذا المذهب أعمى البصر والبصيرة كلب معرة النعمان المكنى بأبى العلاء المعرى فانه امتنع من أكل الحيوان زعم لظلمه بالايلام والذبح، وأما ابن خطيب الرى فانه سلك فى ذلك طريقة مركبة من طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة المشائين وهذبها ونقحها واعترف فى آخرها بأنه لاسبيل الى الخلاص عن الشبه التى أوردها على نفسه الا بالتزام انه تعالى موجب بالذات لافاعل بالقصد والاختيار فاقر على نفسه بالعجز عن أجوبة تلك المطالبات الا بانكار قدرة الله ومشيئته وفعله الاختيارى وذلك جحد لربوبيته فزعم أنه لا يمكنه تقرير حكمته الا بجحد ربوبيته ونحن نذكر كلامه بألفاظه، قال فى مباحثه المشرقية :

﴿ الفصل السادس فى كيفية دخول الشر فى القضاء الالهى ﴾

وقبل الخوض فيه لابد من تقديم مقدمتين ٭

﴿ المقدمة الأولى ﴾ الأمور التى يقال لها: انها شر اما أن تكون أمورا عدمية أو أمورا وجودية فان كانت أمورا عدمية فهى على أقسام ثلاثة لأنها اما أن تكون عدما لأمور ضرورية للشيء فى وجوده مثل عدم الحياة . واما أن تكون عدما لأمور نافعة قريبة من الضرورة كالأعمى وأن لا تكون كذلك كعدم العلم بالفلسفة والهندسة وأما الأمور الوجودية التى يقال: انها شرور وهى كالحرارة المفرقة لاتصال العضو ٭

واعلم أن الشر بالذات هو عدم ضروريات الشيء وعدم منافعه مثل عدم

الحياة وعدم البصر فان الموت والعمى لاحقيقة لهما الا أنهما عدم الحياة وعدم البصر وهما من حيث هما كذلك شر فاذن ليس لهما اعتبار آخر بحسبه يكونان شرين ، وأما عدم الفضائل المستغنى عنها مثل عدم العلم بالفلسفة فظاهر ان ذلك ليس بشر ، وأما الأمور الوجودية فانها ليست شرورا بالذات بل بالعرض من حيث أنها تتضمن عدم أمور ضرورية أونافعة ، ويدل عليه انا لانجد شيئا من الأفعال التى يقال لها شر الا وهو كمال بالنسبة الى الفاعل وأما شريته فبالقياس الى شيء آخر ، فالظلم مثلا يصدر عن قوة ظلامة للغلبة وهى القوة الغضبية والغلبة هى كمالها وفائدة خلقتها ، فهذا الفعل بالقياس اليها خير لأنها ان ضعفت عنه فهو بالقياس اليها شر وانما كان شرا المظلوم لفوات المال وغيره عنه ، والنفس الناطقة كمالها الاستيلاء على هذه القوة فعند قهر القوة الغضبية يفوت النفس ذلك الاستيلاء ولاجرم كان شرا لها ، وكذلك النار اذا أحرقت فان الاحراق كمالها ولكنها شر بالنسبة الى من زالت سلامته بسببها وكذلك القتل وهو استعمال الالة القطاعة فى قطع رقبة انسان فان كون الانسان قويا على استعمال الآلة ليس شرا له بل خيرا وكذلك كون الالة قطاعة هو خير لها وكذلك كون الرقبة قابلة للانقطاع كل ذلك خيرات ولكن القتل شر من حيث أنه متضمن لزوال الحياة ، فثبت بما ذكرنا أن الأمور الوجودية ليست شرا بالذات بل بالعرض والله أعلم *

﴿ المقدمة الثانية ﴾ ان الأشياء اما أن تكون مادية أو لا تكون فان لم تكن مادية لم يكن فيها ما بالقوة فلا يكون فيها شر أصلا ، وان كانت مادية كانت فى معرض الشر ، وعروض الشر لها اما أن يكون فى ابتداء تكونها او بعد تكونها ، اما الأول فهو اما ان تكون المادة التى تتكون انسانا او فرسا يعرض لها من الأسباب ما يجعلها رديئة المزاج رديئة الشكل

والخلقة فرداءة مزاج ذلك الشخص ورداءة خلقه ليس لأن الفاعل حرم بل لأن المنفعل له لم يقبل ، وأما الثانى وهو أن يعرو الشيء للشيء وطرو طارىء عليه بعد تكونه فكذلك الطارىء اما شيء يمنع المكمل من الاكمال مثل تراكم السحب واظلال الجبال الشاهقات اذ صار مانعا من تأثير الشمس والنبات ؛ واما شيء يفسد مثل البرد الذى يصل الى النبات فيفسد بسبب ذلك استعداده للنشو والنمو ٭

واذا عرفت ذلك فنقول: قد بينا أن الشر بالحقيقة اما عدم ضروريات الشيء واما عدم منافعه فنقول: الموجود اما أن يكون خيرا من كل الوجوه أو شرا من كل الوجوه أو خيرا من وجه وشرا من وجه، وهذا على تقدير أقسام فانه اما أن يكون خيره غالبا على شره أو يكون شره غالبا على خيره أو متساويا خيره وشره فهذه أقسام خمسة ، أما الذى يكون خيرا من كل الوجوه وهو موجود اما الذى يكون كذلك لذاته فهو الله تبارك وتعالى، واما الذى يكون لغيره فهو العقول والافلاك لان هذه الامور مافاتها شيء من ضروريات ذاتها ولا من كمالاتها، والذى كله شر أو الغالب فيه او المساوى فهو غير موجود لان كلامنا فى الشيء بمعنى عدم الضروريات والمنافع لا بمعنى عدم الكمال الزائد فلا شك أن ذلك مغلوب والخير غالب لان الامراض وان كثرت الا ان الصحة اكثر منها، فالحرق والغرق والخسف وان كانت قد تكثر الا ان السلامة اكثر منها، فأما الذى يكون خيره غالبا على شره فالاولى فيه ان يكون موجودا لوجهين ، الاول أنه ان لم يوجد فلا بد وان يفوت الخير الغالب وفوت الخير الغالب شر غالب فاذا فى عدمه يكون الشر اغلب من الخير وفى وجوده يكون الخير اغلب من الشر ويكون وجود هذا القسم اولى ، مثاله النار فى وجودها منافع كثيرة وايضا مفاسد كثيرة مثل احراق الحيوانات ، لكننا اذا قابلنا منافعها بمفاسدها كانت مصالحها

اكثر بكثير من مفاسدها ولولم توجد لفاتت تلك المصالح وكانت مفاسدها عدمها اكثر من مصالحها فلا جرم وجب ايجادها وخلقها ، الثانى وهو الذى يكون خيره ممزوجا بالشر ليس الا الامور التى تحت كرة القمر فلا شك انها معلولات العلل العالية فلو لم يوجد هذا القسم لكان يلزم من عدمها عدم عللها الموجبة لها وهى خيرات محضة فيلزم من عدمها عدم الخيرات المحضة وذلك شر محض فاذا لابد من وجود هذا القسم *

﴿فان قيل﴾: فلم يخلق الخالق هذه الاشياء عرية عن كل الشرور؟ فنقول: لانه لوجعلها كذلك لكان هذا هو القسم الاول وذلك مما قد فرغ منه، وبقى فى العقل قسم آخر وهو الذى يكون خيره غالبا على شره وقد بينا ان الاولى بهذا القسم ان يكون موجودا ، قال : وهذا الجواب لايعجبنى لان لقائل ان يقول : ان جميع هذه الخيرات والشرور انما توجد باختيار الله وارادته،مثلا الاحتراق الحاصل عقيب النار ليس موجبا من النار بل الله اختار خلقه عقيب مماسة النار، واذا كان حصول الاحتراق عقيب مماسة النار باختيار الله وارادته فكان يمكنه أن يختار خلق الاحراق عندما يكون خيرا ولايختار خلقه عندما يكون شرا ولاخلاص عن هذه المطالبة الا ببيان كونه سبحانه فاعلا بالذات لا بالقصد والاختيار، ويرجع الكلام فى هذه المسئلة الى مسئلة القدم والحدوث ﴿قلت﴾ لما لم يكن عند الرازى الا مذهب الفلاسفة المشائين القائلين بوجوب رعاية الصلاح أو الاصلح أو مذهب الجبرية نفاة الاسباب والعلل والحكم وكان الحق عنده مترددا بين هذه المذاهب الثلاثة فتارة يرجح مذهب المتكلمين وتارة مذهب المشائين وتارة يلقى الحرب بين الطائفتين ويقف فى النظارة وتارة يتردد بين الطائفتين وانتهى الى هذا المضيق ورأى انه لاخلاص له منه الا بالتزام طريق الجبرية وهى غير مرضية عنده وان كان فى كتبه الكلامية يعتمد عليها ويرجع

فى مباحثه اليها وطريق المعتزلة القائلين برعاية الصلاح وهى متناقضة غير مطردة لم يجد بدا من تحيزه الى أعداء الملة القائلين بأن الله لاقدرة له ولامشيئة ولااختيار ولافعل يقوم به، ومعلوم ان هذه المذاهب بأسرها باطلة متناقضة وان كان بعضها أبطل من بعض، وانما ألجأه الى التزام القول بانكار الفاعل المختار فى هذا المقام تسليمه لهم الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة التى قادت الى التزام بعض انواع الباطل ، ولو اعطى الدليل حقه وضم مامع كل طائفة من الحق الى حق الطائفة الاخرى وتحيز الى ماجاءت به الرسل على علم وبصيرة وهو تقرير لما جاؤا به بجميع طرق الحق تخلص من تلك المطالبات مع اقراره بأن رب العالمين فعال لما يريد يفعل بمشيئته وقدرته وحكمته وان له المشيئة النافذة والحكمة البالغة وان تقدير تجريد النار عما خلقت عليه من الاحراق ، والماء عما خلق عليه ، والرياح ، والنفوس البشرية عما هيأت له وخلقت عليه مناف للحكمة المطلوبة المحبوبة للرب سبحانه وأن هذا تقرير لعالم آخر وتعطيل الاسباب التى نصبها الله سبحانه مقتضيات لمسبباتها وان تلك الاسباب مظهر حكمته وحمده وموضع تصرفه خلقه وامره فتقدير تعطيلها تعطيل للخلق والامر وهو اشد منافاة للحكمة وابطالا لها واقتضاء هذه الاسباب لمسبباتها كاقتضاء الغايات لاسبابها فتعطيلها منها قدح فى الحكمة وتفويت لمصلحة العالم التى عليها نظامه وبها قوامه ولكن الرب سبحانه قد يخرق العائدة ويعطلها عن مقتضياتها أحيانا اذا كان فيه مصلحة راجحة على مفسدة فوات تلك المسببات كما عطل النار التى القى فيها ابراهيم وجعلها عليه بردا وسلاما عن الاحراق لما فى ذلك من المصالح العظيمة، وكذلك تعطيل الماء عن اغراق موسى وقومه وعما خلق عليه من الأسالة والتقاء أجزائه بعضها ببعض هو لما فيه من المصالح العظيمة والآيات الباهرة والحكمة التامة التى ظهرت فى الوجود

وترتب عليها من مصالح الدنيا والآخرة ماترتب فهكذا سائر أفعاله سبحانه مع انه شهد عباده بذلك انه مسبب الاسباب وان الاسباب خلقه وانه يملك تعطيلها عن مقتضياتها وآثارها وان كونها كذلك لم يكن من ذاتها وانفسها بل هو الذى جعلها كذلك وأودع فيها من القوى والطبائع ما أقتضت به آثارها وانه إن شاء أن يسلبها إياها سلبها الا كما يقول أعداؤه من الفلاسفة والطبائعيين وزنادقة الأطباء اه ليس فى الامكان تجريد هذه الأسباب عن آثارها وموجباتها ويقولون: لا تعطيل فى الطبيعة وليست الطبيعة عندهم مربوبة مقهورة تحت قهر قاهر وتسخير مسخر يصرفها كيف يشاء بل هى المتصرفة المدبرة ولا كما يقول من نقص علمه ومعرفته باسرار مخلوقاته وما أودعها من القوى والطبائع والغرائز وبالاسباب التى ربط بها خلقه وأمره وثوابه وعقابه فجحد ذلك كله ورد الامر الى مشيئة محضة مجردة عن الحكمة والغاية وعن ارتباط العالم بعضه ببعض ارتباط الأسباب بمسبباتها والقوى بمحالها ثم المحذور اللازم من انكار الفاعل المختار الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته فوق كل محذور فان القائل بذلك يجعل هذه الشرور بأسرها لازمة له لزوم الطفل لحامله والحرارة للنار ولا يمكنه دفعها ولا تخليص الحرارة منها فهم فروا من اضافة الشر إلى خلقه ومشيئته واختياره ثم ألزموه اياه وأضافوه اليه إضافة لا تمكن ازالتها مع تعطيل قدرته ومشيئته وخلقه وعلمه بتفاصيل أحوال عباده وفى ذلك تعطيل ربوبيته للعالمين ففروا من محذور بالتزام عدة محاذير واستجاروا من الرمضاء بالنار ، وهذا كما نزهه الجهمية عن استوائه على عرشه وعلوه على مخلوقاته فانه فرار من التحيز والجهة ثم جعلوه سبحانه فى كل مكان مخالطا للقاذورات والاماكن المكروهات وكل مكان يأنف العاقل من مجاورته ففروا من تخصيصه بالعلو فعمموا به كل مكان ، ولما

علمت الفرعونية بطلان هذا المذهب فروا إلى شر منه فاخلوا داخل العالم وخارجه منه البتة وقالوا: ليس فوق العرش رب يعبد ولا إله يصلى له ويسجد ولا ترفع اليه الايدى ولا يصعد اليه الكلم الطيب والعمل الصالح ولا عرج بمحمد اليه بل عرج به الى عدم صرف، ولا فرق بالنسبة اليه بين العرش وبين أسفل سافلين، ومن المعلوم انه ليس موجودا فى أسفل سافلين فاذا لم يكن موجودا فوق العرش فهذا إعدام له البتة وتعطيل لوجوده فلما رأت الحلولية واخوانهم من الاتحادية أشباه النصارى مافى ذلك من الاحالة قالوا: بل هو هذا الوجود السارى فى الموجودات الظاهر فيها على اختلاف صورها وأنواعها بحسنها فهو فى الماء ماء وفى الخمر خمر وفى النار نار وهو حقيقة كل شيء وماهيته فنزهوه عن استوائه على عرشه وجعلوه وجود كل موجود خسيس أو شريف صغير أو كبير طيب أو غيره تعالى الله عما يقول أعداؤه علوا كبيرا. وكذلك القائلون بقدم العالم نزهوه عن قيام الارادات والافعال المتجددة به ثم جعلوا جميع الحوادث لازمة له لاينفك عنها ونزهوه عن ارادته لخلق العالم وأن يكون صدوره عن مشيئته وارادته وجعلوه لازما لذاته كالمضطر الى صدوره عنه وكذلك المعتزلة الجهمية نزهوه عن صفات كماله لئلا يقعوا فى تشبيه ثم شبهوه بخلقه فى أفعاله وحكموا عليه بحسن مايحسن منهم وقبح مايقبح منهم مع تشبيهه بها فى سلب صفات كماله بالجمادات والناقصات وان من فر من اثبات السمع والبصر والكلام والحياة له لئلا يشبهه فقد شبهه بالأحجار التى لاتسمع ولا تبصر ولا تتكلم. ومن عطله عن صفة الكلام لما يلزم من تشبيه بزعمه فقد شبهه بأصحاب الخرس والآفات الممتنع منهم الكلام ومن نزهه عن نزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ودنوه عشية عرفة من أهل الموقف ومجيئه يوم القيامة للقضاء بين عباده فرارا من تشبيهه

بالأجسام فقد شبهه بالجماد الذى لا يتصرف ولا يفعل ولا يجىء ولا يأتى ولا ينزل . ومن نزهه عن أن يفعل لغرض أو حكمة أو لداع إلى الفعل حذرا من تشبيهه بالفاعلين لذلك فقد شبهه بأهـــل السفه والعبث الذين لا يقصدون بأفعالهم غاية محمودة ولا غرضا مطلوبا محبوبا ، ومن نزهه عن خلق أفعال عباده وتصرفه فيهم بالهداية والاضلال وتخصيص من شاء منهم بفضله أو منعه لمن شاء حذرا من الظلم بزعمه فقد وصفه بأقبح الظلم والجور حيث يخلد فى أطباق النيران من استنفد عمره كله فى طاعته إذا فعل قبل الموت كبيرة واحـدة فانها تحبط جميع ذلك الطاعات وتجعلها هباء منثورا ويخلد فى جهنم مع الكفار مالم يتب منها الى غير ذلك من أصولهم الفاسدة فروى (١) منه (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ﴿قاعدة﴾ كمال العبد وصلاحه يتخلف عنه من أحد جهتين إما أن يكون طبيعته يابسة قاسية غير لينة ولا منقادة ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها وإما أن تكون لينة منقادة سلسة القياد لكنها غير ثابتة على ذلك بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلب ، فمتى رزق العبد انقيادا للحق وثباتا عليه فليبشر فقد بشر بكل خير وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿قاعدة﴾ إذا ابتلى الله عبده بشىء من أنواع البلايا والمحن فان رده ذلك الابتلاء والمحن الى ربه وجمعـــه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وارادة الخير به والشدة بتراء لادوام لها وان طالت فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله وهو رجوعه إلى الله بعد ان كان شارداً عنه وإقباله عليه بعد ان كان نائيا عنه وانطراحه على بابه بعد ان كان معرضا وللوقوف على أبواب غيره متعرضا وكانت البلية فى حق هذا عين النعمة وان ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان

مكروه النفوس إلى محبوبها سببا مامثله سبب وقوله تعالى فى ذلك هو الشفاء والعصمة (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وإن لم يرده ذلك البلاء اليه بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة اليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع اليه فهو علامة شقاوته وارادة الشر به فهذا اذا أقلع عنه البلاء رده الى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الاشر والبطر والاعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء كما أعرض عن ذكره والتضرع اليه فى الضراء فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص فى حقه ، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل وبالله التوفيق *

﴿قاعدة فى مشاهد الناس فى المعاصى والذنوب﴾

الناس فى البلوى التى تجرى عليهم أحكامها بارادتهم وشهواتهم متفاوتون بحسب شهودهم لأسبابها وغاياتها أعظم تفاوت وجماع ذلك ثمانية مشاهد *

﴿ أحدها ﴾ شهود السبب الموصل اليها والغاية المطلوبة منها فقط وهو شهود الحيوانات اذ لاتشهد الا طريق وطرها وبرد النفس بعد تناولها وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم فى ذلك فرق إلا بدقيق الحيلة فى الوصول اليها ، وربما زاد غيره من الحيوانات عليه مع تناولها ولذتها *

﴿ المشهد الثانى ﴾ من يشهد مع ذلك مجرد الحكم القدرى وجريانه عليه ولايجوز شهوده ذلك وربما رأى أن الحقيقة هى توفية هذا المشهد

حقه ولا يتم له ذلك الا بالفناء عن شهود فعله هو جملة فيشهد الفاعل فيه غيره والمحرك سواه فلا ينسب إلى نفسه فعلا ولا يرى لها اساءة ويزعم أن هذا هو التحقيق والتوحيد، وربما زاد على ذلك أنه يشهد نفسه مطيعا من وجه وان كان عاصيا من وجه آخر فيقول: أنا مطيع الارادة والمشيئة وان كنت عاصيا للامر وان كان ممن يرى الأمر تلبيسا وضبطا للرعاع عن الخبط والحرمان مع حكم الطبيعة الحيوانية فقد رأى نفسه مطيعا لا عاصيا كما قال قائلهم فى هذا المعنى:

أصبحت منفعلا لما يختاره   منى ففعلى كله طاعات

وأصحاب المشهد الأول أقرب الى السلامة من هؤلاء وخير منهم، وهذا المشهد بعينه هو المشهد الذى يشهده المشركون عباد الأصنام ووقفوا عنده كما قالوا: (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) وقالوا: (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) فهذا مشهد من أشرك بالله ورد أمره وهو مشهد ابليس الذى انتهى اليه اذ يقول لربه: (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) والله أعلم *

﴿ المشهد الثالث ﴾ مشهد الفعل الكسبي القائم بالعبد فقط ولا يشهد الا صدوره عنه وقيامه به ولا يشهد مع ذلك مشيئة الرب له ولا جريان حكمه القدرى به ولا عزة الرب فى قضائه ونفوذ أمره بل قد فنى بشهود معصيته بذنبه وقبح ما اجترمه عن شهود المشيئة النافذة والقدر السابق اما لعدم اتساع قلبه لشهود الأمرين فقد امتلأ من شهود ذنبه وجرمه وفعله مع أنه مؤمن بقضاء الرب وقدره وأن العبد أقل قدرا من أن يحدث فى نفسه

مالم يسبق به مشيئة بارئه وخالقه، وأما الانكاره القضاء والقدر جملة وتنزيهه للرب أن يقدر على العبد شيئا ثم يلومه عليه ، فأما الأول وان كان مشهده صحيحا نافعا له موجبا له ان لا يزال لائما لنفسه مزريا عليها ناسبا للذنب والعيب اليها معترفا بانه يستحق العقوبة والنكال وأن الله سبحانه ان عاقبه فهو العادل فيه وانه هو الظالم لنفسه وهذا كله حق لاريب فيه لكن صاحبه ضعيف مغلوب مع نفسه غير معان عليها بل هو معها كالمقهور المخذول فانه لم يشهد عزة الرب فى قضائه ونفوذ أمره الكونى ومشيئته وانه لو شاء لعصمه وحفظه وأنه لامعصوم الا من عصمه ولا محفوظ الا من حفظه وانه هو محل لجريان أقضيته واقداره مسوق اليها فى سلسلة ارادته وشهوته وأن تلك السلسلة طرفها بيد غيره فهو القادر على سوقه فيها الى مافيه صلاحه وفلاحه والى مافيه هلاكه وشقاؤه فهو لغيبته عن هذا المشهد وغلبة شهود المعصية والكسب على قلبه لايعطى التوحيد حقه ولا الاستعاذة بربه والاستغاثة به والالتجاء اليه والافتقار والتضرع والابتهال حقه بحيث يشهد سر قوله ﷺ « أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك » فانه سبحانه رب كل شيء وخالق كل شيء والمستعاذ منه واقع بخلقه ومشيئته ولو شاء لم يكن فالفرار منه اليه والاستعاذة منه به ولا ملجأ منه الا اليه ولا مهرب منه الا اليه لا اله الا هو العزيز الحكيم *

وأما الثانى وهو منكر القضاء والقدر فمخذول محجوب عن شهود التوحيد مصدود عن شهود الحكمة الالهية موكول الى نفسه ممنوع عن شهود عزة الرب فى قضائه وكمال مشيئته ونفوذ حكمه وعن شهود عجزه هو وفقره وأنه لاتوفيق له الا بالله وأن من لم يمده الله فهو مخذول وان لم يوفقه ويخلق له عزيمة الرشد وفعله فهو عنه ممنوع لحجابه عن الله غليظ فانه لا حجاب أغلظ من الدعوى ولا طريق الى الله أقرب من دوام الافتقار اليه *

﴿ المشهد الرابع ﴾ مشهد التوحيد والأمر فيشهد انفراد الرب بالخلق ونفوذ مشيئته وتعلق الموجودات بأسرها بها وجريان حكمه على الخليقة وانتهاءها الى ماسبق لها فى علمه وجرى به قلمه وشهد مع ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه وارتباط الجزاء بالأعمال واقتضاءها له ارتباط المسببات بأسبابها التى جعلت أسبابا مقتضية له شرعا وقدرا وحكمة فشهوده توحيد الرب وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعاذة ودوام الالتجاء اليه والافتقار اليه وذلك يدنيه من عتبة العبودية ويطرحه بالباب فقيرا عاجزا مسكينا لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وشهوده أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الجد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالأمر والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنة العظيمة وبين شهود التقصير والاساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها، فهذا هو العبد الموفق المعان الملطوف به المصنوع له الذى أقيم مقام العبودية وضمن له التوفيق، وهذا هو مشهد الرسل فهو مشهد أبيهم آدم اذ يقول: (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ومشهد أول الرسل نوح اذ يقول: (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ومشهد امام الحنفاء وشيخ الأنبياء ابراهيم صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين اذ يقول: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي

ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) وقال فى دعائه :(رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) فعلم ﷺ ان الذى يحول بين العبد وبين الشرك وعبادة الأصنام هو الله لا رب غيره فسأله ان يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وهذا هو مشهد موسى اذ يقول فى خطابه لربه .(أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) أى ان ذلك الا امتحانك واختبارك كما يقال فتنت الذهب اذا امتحنته واختبرته وليس من الفتنة التى هى الفعل المسىء كما فى قوله تعالى :(ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) وكما فى قوله تعالى :(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) فان تلك فتنة المخلوق فان موسى أعلم بالله أن يضيف اليه هذه الفتنة وانما هى كالفتنة فى قوله (وفتناك فتونا) أى ابتليناك واختبرناك وصرفناك فى الاحوال التى قصها الله علينا من لدن ولادته الى وقت خطابه له وانزاله عليه كتابه .

والمقصود أن موسى شهد توحيد الرب وانفراده بالخلق والحكم وفعل السفهاء ومباشرتهم الشرك فتضرع اليه بعزته وسلطانه وأضاف الذنب الى فاعله وجانيه ، ومن هذا قوله :(رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى) قال تعالى :(فغفر له انه هو الغفور الرحيم) وهذا مشهد ذى النون اذ يقول:

(لَا اِلَهَ اِلَّا أَنت سُبْحَانَكَ انى كُنتُ من الظَّالمِينَ) فوحد ربه ونزهه عن كل عيب واضاف الظلم الى نفسه، وهذا مشهد صاحب سيد الاستغفار اذ يقول فى دعائه: «اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك مااستطعت أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» فاقر بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سبحانه بالخلق وعموم المشيئة ونفوذها وتوحيد الالهية المتضمن لمحبته وعبادته وحده لاشريك له والاعتراف بالعبودية المتضمن للافتقار من جميع الوجوه اليه سبحانه؛ ثم قال «وأنا على عهدك ووعدك» فتضمن ذلك التزام شرعه وأمره ودينه وهو عهده الذى عهده إلى عباده وتصديق وعده وهو جزاؤه من ثوابه فتضمن التزام الأمر والتصديق بالموعود وهو الايمان والاحتساب؛ ثم لما علم أن العبد لا يوفى هذا المقام حقه الذى يصلح له تعالى علق ذلك باستطاعته وقدرته التى لايتعداها فقال: (مااستطعت) أى ألتزم ذلك بحسب استطاعتى وقدرتى، ثم شهد المشهدين المذكورين وهما مشهد القدرة والقوة ومشهد التقصير من نفسه فقال: «وأعوذ بك من شر ماصنعت» فهذه الكلمة تضمنت المشهدين معا ثم أضاف النعم كلها إلى وليها وأهلها والمبتدىء بها والذنب إلى نفسه وعمله فقال: «وأبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى» فانت المحمود والمشكور الذى له الثناء كله والاحسان كله ومنه النعم كلها فلك الحمد كله ولك الثناء كله ولك الفضل كله وأنا المذنب المسىء المعترف بذنبه المقر بخطئه كما قال بعض العارفين: العارف يسير بين مشاهدة المنة من الله ومطالعة عيب النفس والعمل، فشهود المنة يوجب له المحبة لربه سبحانه وحمده والثناء عليه، ومطالعة عيب النفس والعمل يوجب استغفاره ودوام توبته وتضرعه

واستكانته لربه سبحانه ، ثم لما قام هذا بقلب الداعي وتوسل اليه بهذه الوسائل قال : « فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

﴿ فصل ﴾ ثم أصحاب هذا المشهد فيه قسمان : أحدهما من يشهد تسليط عدوه عليه وقياده اياه وسلسلة الهوى وكبحه إياه بلجام الشهوة فهو أسير معه بحيث يسوقه الى ضرب عنقه وهو مع ذلك ملتفت الى ربه وناصره ووليه عالم بأن نجاته فى يديه وناصيته بين يديه وأنه لو شاء طرده عنه وخلصه من يديه فكلما قاده عدوه وكبحه بلجامه أكثر الالتفات الى وليه وناصره والتضرع اليه والتذلل بين يديه وكلما أراد اغترابه وبعده عن بابه تذكر عطفه وبره وإحسانه وجوده وكرمه وغناه وقدرته ورأفته ورحمته فانجذبت دواعي قلبه هاربة اليه بترامية على بابه منطرحة على فنائه كعبد قد شدت يداه الى عنقه وقدم ليضرب عنقه وقد استسلم للقتل فنظر الى سيده أمامه وتذكر عطفه ورأفته به ووجد فرجة فوثب اليه منها وثبة طرح نفسه بين يديه ومد له عنقه وقال : انا عبيدك ومسكينك وهذه ناصيتى بين يديك ولا خلاص لى من هذا العدو الا بك وانى مغلوب فانتصر ، فهذا مشهد عظيم المنفعة جليل الفائدة تحته من أسرار العبودية مالا يناله الوصف وفوقه مشهد أجل منه وأعظم وأخص تجفو عنه العبارة وان الاشارة اليه بعض الاشارة وتقريبه الى الفهم بضرب مثل تعبر منه اليه وذلك مثل عبد أخذه سيده بيده وقدمه ليضرب عنقه بيده فهو قد أحكم ربطه وشد عينيه وقد أيقن العبد انه فى قبضته وانه هو قاتله لا غيره وقد علم مع ذلك بره به ولطفه ورحمته ورأفته وجوده وكرمه فهو يناشده بأوصافه ويدخل عليه به قد ذهب عن وهمه وشهوده كل نسب فانقطع تعلقه بشىء سواه فهو معرض عن عدوه الذى كان سبب غضب سيده عليه قد محى شهوده من قلبه فهو مقصور النظر الى سيده وكونه فى قبضته ناظر الى ما يصنعه

منتظر منه ما يقتضيه عطفه وبره وكرمه، ومثل الأول مثل عبد أمسكه عدوه وهو يخنقه للموت وذلك العبد يشهد ذنوعدوه له ويستغيث بسيده وسيده يغيثه ويرحمه ولكن ما يحصل للثاني فى مشهده ذلك من الأمور العجيبة فوق ما يحصل للاول وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبه فهو يخنقه خنقة وهو لا يشهد الا خنقه له فهو يقول : اخنق خنقك فانت تعلم أن قلبى يحبك، وفى هذا المثل اشارة وكفاية ومن غلظ حجابه وكثفت طباعه لا ينفعه التصريح فضلا عن ضرب الأمثال والله المستعان وعليه التكلان ولا قوة الا بالله فهذه ستة مشاهد *

(المشهد السابع) مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله فى تخليته بينه وبين الذنب واقداره عليه وتهيئته أسبابه له وانه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه ولكنه خلى بينه وبينه لحكمة عظيمة لا يعلم مجموعها الا الله *

(أحدها) أنه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب ثم اذا كان ممن سبقت له العناية قضى له بالتوبة *

(الثانى) تعريف العبد عزة الله سبحانه فى قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه

(الثالث) تعريفه حاجته الى حفظه وصيانته وانه ان لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولا بد والشياطين قد مدت ايديها اليه ممزقة كل ممزق *

(الرابع) استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه ودعاءه والتضرع اليه والابتهال بين يديه *

(الخامس) ارادته من عبده تكميل مقام الذل والانكسار فانه متى يشهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وظن انه وانه فاذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذلت وتيقن وتمنى انه وانه *

(السادس) تعريفه بخنقته نفسه وانها الخطالة الجاهلة وان كل ما فيها من علم او عمل او خير فمن الله من به عليه لا من نفسه *

﴿السابع﴾ تعريفه عبده سعة حلمه وكرمه فى ستره عليه فانه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يصف له معهم عيش *

﴿الثامن﴾ تعريفه أنه لا طريق الى النجاة الا بعفوه ومغفرته *

﴿التاسع﴾ تعريفه كرمه و قبول توبته ومغفرته له على ظلمه واساءته *

﴿العاشر﴾ اقامة الحجة على عبده فان له عليه الحجة البالغة فان عذبه فبعدله وببعض حقه عليه بل باليسير منه *

﴿الحادى عشر﴾ أن يعامل عباده فى اساءتهم اليه وزلاتهم معه بما يجب أن يعامله الله به فان الجزاء من جنس العمل فيعمل فى ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه *

﴿الثانى عشر﴾ أن يقيم معاذير الخلائق ويتسع رحمته لهم مع اقامة أمر الله فيهم فيقيم أمر الله فيهم رحمة لهم لا قسوة وفظاظة عليهم *

﴿الثالث عشر﴾ أن يخلع صولة الطاعة والاحسان من قلبه فتتبدل برقة ورأفة ورحمة *

﴿الرابع عشر﴾ أن يعريه من رداء العجب بعمله كما قال النبى ﷺ: « لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو اشد منه العجب » أوكما قال *

﴿الخامس عشر﴾ أن يعريه من لباس الادلال الذى يصلح للملوك ويلبسه لباس الذل الذى لا يليق بالعبد سواه *

﴿السادس عشر﴾ أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما من البكاء والاشفاق والندم *

﴿السابع عشر﴾ أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله فى توفيقه وعصمته فان من تربى فى العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار العافية *

﴿الثامن عشر﴾ أن يستخرج منه محبته وشكره لربه اذا تاب اليه ورجع

اليه فان الله يحبه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبة وشكر ورضى لا يحصل بدون التوبة وان كان يحصل بغيرها من الطاعات أثر اخر لكن هذا الاثر الخاص لا يحصل إلا بالتوبة *

﴿التاسع عشر﴾ انه إذا شهد اساءته وظلمه واستكثر القليل من نعمة الله لعلمه بان الواصل اليه منها كثير على مسيء مثله فاستقل الكثير من عمله لعلمه بان الذى يصلح له أن يغسل به نجاسته وذنوبه أضعاف أضعاف ما يفعله فهو دائما مستقل لعلمه كائنا ما كان ولو لم يكن فى فوائد الذنب وحكمه إلا هذا وحده لكان كافيا *

﴿العشرون﴾ انه يوجب له التيقظ والحذر من مصايد العدو ومكايده ويعرفه من أين يدخل عليه وبماذا يحذر منه كالطبيب الذى ذاق المرض والدواء *

﴿الحادى والعشرون﴾ ان مثل هذا ينتفع به المرضى لمعرفته بامراضهم وادوائها *

﴿الثانى والعشرون﴾ انه يرفع عنه حجاب الدعوى ويفتح له طريق الفاقة فانه لا حجاب أغلظ من الدعوى ولا طريق أقرب من العبودية فان دوام الفقر الى الله مع التخليط خير من الصفا مع العجب *

﴿الثالث والعشرون﴾ أنه يكون فى القلب أمراض مزمنة لا يشعر بها فيطلب دواءها فيمن عليه اللطيف الخبير ويقضى عليه بذنب ظاهر فيجد ألم مرضه فيحتمى ويشرب الدواء النافع فتزول تلك الأمراض التى لم يكن يشعر بها، ومن لم يشعر بهذه اللطيفة فغلظ حجابه كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الاجسام بالعلل

﴿الرابع والعشرون﴾ أن يذيقه ألم الحجاب والبعد بارتكاب الذنب ليكمل له نعمته وفرحه وسروره إذا أقبل بقلبه اليه وجمعه عليه وأقامه فى

طاعته فيكون التذاذه فى ذلك بعد أن صدر منه ماصدر بمنزلة التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال والشديد الخوف بالأمن والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه وان لطف الرب وبره واحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا فيابؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته .

﴿الخامس والعشرون﴾ امتحان العبد واختباره هل يصح لعبوديته وولايته أم لا فانه اذا وقع الذنب سلب حلاوة الطاعة والقرب ووقع فى الوحشة فان كان ممن يصلح اشتاقت نفسه الى لذة تلك المعاملة فحنت وأنت وتضرعت واستعانت بربها ليردها الى ماعودها من بره ولطفه وان ركنت عنها واستمر اعراضها ولم تحن الى تعهدها الأول وألمها ولم تحس ضرورتها وفاقتها الشديدة الى مراجعة قربها من ربها علم أنها لا تصلح لله ، وقد جاء هذا بعينه فى أثر الهى لا أحفظه .

﴿السادس والعشرون﴾ ان الحكمة الالهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فى الانسان أو بعضها ولولم يخلق فيه هذه الدواعى لم يكن انسانا بل ملكا فالذنب من موجبات البشرية كما ان النسيان من موجباتها كما قال النبى ﷺ « كل بنى ءادم خطاء وخير الخطائين التوابون » ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك والله أعلم .

﴿السابع والعشرون﴾ ان ينسيه رؤية طاعته ويشغله برؤية ذنبه فلا يزال نصب عينيه فان الله اذا أراد بعبد خيرا سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والاخبار بها من لسانه وشغله برؤية ذنبه فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة فان ما تقبل من الأعمال رفع من القلب رؤيته ومن اللسان ذكره ، وقال بعض السلف : ان العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه اذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله وبادر إلى محوها

وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار .

﴿ الثامن والعشرون ﴾ ان شهود ذنبه وخطيئته يوجب له أن لا يرى له على أحد فضلا ولا له على أحد حقا فانه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطأها وذنوبها لا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر واذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الاكرام يتقاضاهم اياها ويذمهم على ترك القيام بها فانها عنده أخس قدرا وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها أو لها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجله فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن اليه وبذل له مالا يستحقه فاستراح فى نفسه واستراح الناس من تعبه وشكايته فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقر عينه ، وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه أسخط؟ فسبحان ذى الحكمة الباهرة التى بهرت عقول العالمين .

﴿ التاسع والعشرون ﴾ انه يوجب له الامساك عن عيوب الناس والفكر فيها فانه فى شغل بعيبه ونفسه وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالاول علامة السعادة والثانى علامة الشقاوة .

﴿ الثلاثون ﴾ انه يوجب له الاحسان الى الناس والاستغفار لاخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير هجيراه رب اغفر لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات فانه يشهد أن اخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أصيب به محتاجون الى مثل ما هو محتاج اليه فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لاخيه المسلم ، وقد قال بعض

السلف : ان الله لما عتب على الملائكة فى قولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) وامتحن هاروت وماروت جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبنى ءادم ويدعون الله لهم *

(الحادى والثلاثون) أنه يوجب له سعة ابطائه وحلمه ومغفرته لمن أساء اليه فانه اذا شهد نفسه مع ربه سبحانه مسيئا خاطئا مذنبا مع فرط احسانه اليه وبره وشدة حاجته الى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين وهذا حاله مع ربه فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملونه بمحض الاحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة ؟ وكيف يطمع ان يطيعه مملوكه وولده وزوجته فى كل ما يريد وهو مع ربه ليس كذلك وهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغضى عن الاستقصاء فى طلب حقه قبلهم *

(قاعدة) كثير ما يتكرر فى القرآن ذكر الانابة والأمر بها كقوله تعالى :(وَأَنِيبُوا الَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ) وقوله حكاية عن شعيب أنه قال : (وَمَا تَوْفِيقِى الاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَالَيْهِ أُنِيبُ) وقوله :(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) وقوله :(انَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى الَيْهِ مَنْ أَنَابَ) وقوله عن نبيه داود (وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) والانابة الرجوع الى الله وانصراف دواعى القلب وجواذبه اليه وهى تتضمن المحبة والخشية فان المنيب محب لمن أناب اليه خاضع له خاشع ذليل *

والناس فى انابتهم على درجات متفاوتة فمنهم المنيب الى الله بالرجوع اليه من المخالفات والمعاصى وهذه الانابة مصدرها مطالعة الوعيد والحامل عليها العلم والخشية والحذر ، ومنهم المنيب اليه بالدخول فى أنواع العبادات والقربات فهو ساع فيها بجهده وقد حبب اليـــه فعل الطاعات وأنواع

القربات ، وهذه الانابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوسا من أهل القسم الأول وأشرح صدورا،وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعا ولكن خوف هؤلاء اندرج فى رجائهم فانابوا بالعبادات ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت انابتهم بترك المخالفات ؛ ومنهم المنيب الى الله بالتضرع والدعاء والافتقار اليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه ، ومصدرهذه الانابة شهودالفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة فانزلوا به حوائجهم وعلقوا به آمالهم فانابتهم اليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهى ولكن انابتهم الخاصة إنما هى من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الانابة الخاصة وأملهم المنيب اليه عند الشدائدوالضراء فقط انابة اضطرار لا انابة اختياركحال الذين قال الله فى حقهم: (وَاذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا اِيَّاهُ) وقوله تعالى : (فَاذَا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) *

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه الى مألوف طبيعى نفسانى قد حال بينها وبين انابتها بذاتها الى معبودها والهها الحق فهى ملتفتة إلى غيره ولهـا اليه انابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له ، فاعلى أنواع الانابات انابة الروح بجملتها اليه لشدة المحبة الخالصةالمغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم وحين أنابت اليه أرواحهم لم يتخلف منهم شىءعن الانابة فان الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح فلمـا أنابت الروح بذاتهااليه انابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولامفصل الا وفيه حب ساكن لمحبوبه أنابت جميع القوى والجوارح فأناب القلب أيضا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار،وأناب العقل بانفعاله

لأوامر المحبوب ونواهيه وتسليمه لها وتحكيمه اياها دون غيرها فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها ، وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والارادات الفاسدة وانقادت لأوامره خاضعة له وداعية فيه مؤثرة اياه على غيره فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضا الى مولاها ورضى بقضائه وتسليما لحكمه ، وقد قيل : ان تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة فى النفس وأناب الجسد فى الأعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه ، وأنابت كل جارحة وعضو انابتها الخاصة فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل الا وله انابة ورجوع الى الحبيب الحق الذى كل محبة سوى محبته عذاب على صاحبها وان كانت عذبة فى مباديها فانها عذاب فى عواقبها ، فانابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الانابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من انابة سنين كثيرة من غيره فأين انابة هذا من انابة من قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء بل هذا روحه منيبة أبدا وان توارت عنه شهود انابتها باشتغال فهى كامنة فيها كمون النار فى الزناد ه

وأما أصحاب الانابات المتقدمة فان أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب اليه فهو ينيب ببعضه ساعة ثم يترك ذلك مقبلا على دواعى نفسه وطبعه والله الموفق المعين لا رب غيره ولا إله سواه ه

(قاعدة) فى ذكر طريق قريب يوصل الى الاستقامة فى الأحوال والأقوال والأعمال وهى شيئا ن ، أحدهما : حراسة الخواطر وحفظها والحذر من اهمالها والاسترسال معها فان أصل الفساد كله من قبلها يجىء لأنها هى بذر الشيطان والنفس فى أرض القلب فاذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير ارادات ثم يسقيها حتى

تكون عزائم ثم لايزال بها حتى تثمر الأعمال ولاريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الارادات والعزائم فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت ارادة جازمة وهو المفرط اذا لم يدفعها وهى خاطر ضعيف كمن تهاون بشرارة من نار وقعت فى حطب يابس فلما تمكنت منه عجز عن اطفائها ٭

﴿فان قلت﴾: فما الطريق الى حفظ الخواطر؟ قلت : أسباب عدة أحدها العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره الى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك ، الثانى حياؤك منه ، الثالث اجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر فى بيته الذى خلق لمعرفته ومحبته ، الرابع خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر ، الخامس ايثارك له أن تساكن قلبك غير محبته ، السادس خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل مافى القلب من الايمان ومحبة الله فتذهب به جملة وأنت لاتشعر ، السابع أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذى يلقى للطائر ليصاد به فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة فى فخ منصوب لصيدك وأنت لاتشعر ، الثامن ان تعلم ان تلك الخواطر الرديئة لاتجتمع هى وخواطر الايمان ودواعى المحبة والانابة أصلا بل هى ضدها من كل وجه وما اجتمعا فى قلب الا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الايمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه ٭

﴿التاسع﴾ ان يعلم ان تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لاساحل له فاذا دخل القلب فى غمراته غرق فيه وتاه فى ظلماته فيطلب الخلاص منه فلا يجد اليه سبيلا فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لايفيد ٭

﴿ العاشر ﴾ ان تلك الخواطر هى وادى الحمقى وأمانى الجاهلين فلا يثمر لصاحبها إلا الندامة والخزى واذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها وأفسدت عليه رعيته وألقته فى الاسر الطويل وكما أن هذا معلوم فى الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الايمانية الرحمانية هى أصل الخير كله فان أرض القلب اذا بذر فيها خواطر الايمان والخشية والمحبة والانابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب وسقيت مرة بعد مرة وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها أثمرت له كل فعل جميل وملأت قلبه من الخيرات واستعملت جوارحه فى الطاعات واستقر بها الملك فى سلطانه واستقامت له رعيته، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها وجل عملها، وهذا نافع لصاحبه بشرطين، أحدهما ان لايترك به واجبا ولاسنة، الثانى أن لايجعل مجرد حفظها هو المقصود بل لايتم ذلك الا بان يجعل موضعها خواطر الايمان والمحبة والانابة والتوكل والخشية فيفرغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره باضدادها والا فمتى عمل على تفريغه منهما معا كان خاسرا فلا بد من التفطن لهذا، ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا على القاء الخواطر وازالتها جملة فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات فظنوها تحقيقا وفتحا رحمانيا وهم فيها غالطون وإنما هى خيالات شيطانية والميزان هو الكتاب الناطق والفطرة السليمة والعقل المؤيد بنور النبوة والله المستعان ه

﴿ فصل ﴾ صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه فى حصول استقامته فان من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه الى الله وعكفت همته على الله وعلى محبته وايثار مرضاته واستحدثت همة أخرى وعلوما أخر وولد

ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها الى الدار الآخرة كنسبة جسمه الى هذه الدار بعد أن كان فى بطن أمه فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة وكما كان بطن أمه حجابا لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة فخروج قلبه عن نفسه بارزا إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً الى هذه الدار ، وهذا معنى ما يذكر عن المسيح أنه قال : «يابنى اسرائيل انكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين ، ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها فضلا عن أن يصدقوا بها فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير أو كيف يولد القلب لم يكن لهم اليها همة ولا عزيمة اذ كيف يعزم على الشيء من لايعرفه ولايصدقه؟ ولكن اذا كشف حجاب الغفلة عن القلب صدق بذلك وعلم أنه لم يولد قلبه بعد *

والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الايمانية ومقامات السالكين الى الله ومنازل السائرين اليه من اليقظة والتوبة والانابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولارب سواه *

﴿ قاعدة شريفة ﴾ الناس قسمان : علية ، وسفلية فالعلية من عرف الطريق الى ربه وسلكها قاصدا للوصول اليه وهذا هو الكريم على ربه والسفالة من لم يعرف الطريق الى ربه ولم يتعرفها فهذا هو اللئيم الذى قال الله فيه :(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) والطريق الى الله فى الحقيقة واحد لاتعدد فيه وهو صراطه المستقيم الذى نصبه موصلا لمن سلكه

قال الله تعالى : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) فوحد سبيله لأنه فى نفسه واحد لا تعدد فيه وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متعددة كما ثبت أن النبى ﷺ خط خطا ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم قرأ (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) ومن هذا قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) فوحد النور الذى هو سبيله وجمع الظلمات التى هى سبل الشيطان . ومن فهم هذا فهم السر فى افراد النور وجمع الظلمات فى قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) مع أن فيه سرا ألطف من هذا يعرفه من يعرف منبع النور ومن أين فاض وعما ذا حصل وان أصله كله واحد .

وأما الظلمات فهى متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها وهى كثيرة جدا لكل حجاب ظلمة خاصة ولا ترجع الظلمات الى النور الهادى جل جلاله أصلا لا وصفا وذاتا ولا اسما ولا فعلا وانما ترجع الى مفعولاته فهو جاعل الظلمات ومفعولاته متعددة متكثرة بخلاف النور فانه يرجع الى اسمه وصفته تعالى أن يكون كمثله شىء وهو نور السموات والأرض *

قال ابن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والارض من نور وجهه ذكره الدارمى عنه ؛ وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قلت: «يارسول الله

هل رأيت ربك ؟ قال : نور انى أراه *

والمقصود أن الطريق الى الله واحد فانه الحق المبين والحق واحد مرجعه الى واحد ، وأما الباطل والضلال فلا ينحصر بل كل ماسواه باطل وكل طريق الى الباطل فهو باطل فالباطل متعدد وطرقه متعددة ، وأما مايقع فى كلام بعض العلماء أن الطريق الى الله متعددة متنوعة جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمة منه وفضلا فهو صحيح لا ينافى ماذكرناه من وحدة الطريق ، وكشف ذلك وايضاحه أن الطريق هى واحدة جامعة لكل مايرضى الله ومايرضيه متعدد متنوع فجميع مايرضيه طريق واحد ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال وكلها طرق مرضاته فهذه هى التى جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم ولو جعلها نوعا واحدا مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها الا واحد بعد واحد ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرىء الى ربه طريقا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله ، ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد مع وحدة المعبود ودينه ؛ ومنه الحديث المشهور «الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُهُمْ وَاحِدٌ» فأولاد العلات أن يكون الأب واحدا والأمهات متعددة فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالامهات المتعددة فانها وإن تعددت فمرجعها الى أب واحد كلها، وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذى يعد سلوكه الى الله طريق العلم والتعليم قد وفر عليه زمانه مبتغيا به وجه الله فلا يزال كذلك عاكفا على طريق العلم والتعليم حتى

يصل من تلك الطريق الى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت فى طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته قال تعالى : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً الَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ) •

وقد حكى عن جماعة كثيرة ممن أدركه الاجل وهو حريص طالب للقرءان أنه رؤى بعد موته وأخبر أنه فى تكميل مطلوبه وانه يتعلم فى البرزخ فان العبد يموت على ماعاش عليه ، ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله فمتى فتر عنه أوقصر رأى أنه قد غبن وخسر ، ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة فمتى قصر فى ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره ، ومن الناس من يكون طريقه الاحسان والنفع المتعدى كقضاء الحاجات وتفريج الكربات واغاثة اللهفات وأنواع الصدقات قد فتح له فى هذا وسلك منه طريقا الى ربه . ومن الناس من يكون طريقه الصوم فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله ، ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرءان وهى الغالب على أوقاته وهى أعظم أوراده ، ومنهم من يكون طريقه الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قد فتح الله له فيه ونفذ منه الى ربه ، ومنهم من يكون طريقه الذى نفذ فيه الحج والاعتمار ، ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الاوقات أن تذهب ضائعة •

ومنهم جامع المنفذ السالك الى الله فى كل واد الواصل اليه من كل طريق فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت ويسير معها حيث سارت قد ضرب مع كل فريق بسهم فاين كانت العبودية وجدته هناك ان كان علم وجدته مع أهله أو جهاد وجدته فى صف المجاهدين

أو صلاة وجدته فى القانتين أو ذكر وجدته فى الذاكرين أو إحسان ونفع وجدته فى زمرة المحسنين او محبة ومراقبة وانابة الى الله وجدته فى زمرة المحبين المنيبين يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها ويتوجه اليها حيث استقرت مضاربها لو قيل له : ماتريد من الاعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربى حيث كانت وأين كانت جالبة ماجلبت مقتضية ما اقتضت جمعتنى أو فرقتنى ليس لى مراد الا تنفيذها والقيام بأدائها مراقبا له فيها عاكفا عليه بالروح والقلب والبدن والسر قد سلمت اليه المبيع منتظرا منه تسليم الثمن (إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ) فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ اليه حقيقة، ومعنى النفوذ اليه أن يتصل به قلبه ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه فيسلو به عن جميع المطالب سواه فلا يبقى فى قلبه الا محبة الله وأمره وطلب التقرب اليه *

فاذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربه فقربه واصطفاه وأخذ بقلبه اليه وتولاه فى جميع أموره فى معاشه ودينه وتولى تربيته أحسن وابلغ مما يربى الوالد الشفيق ولده فانه سبحانه القيوم المقيم لكل شىء من المخلوقات طائعها وعاصيها فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وءاثره على ماسواه ورضى به من الناس حبيبا وربا ووكيلا وناصرا ومعينا وهاديا فلو كشف الغطاء عن الطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لايعلم لذاب قلبه محبة له وشوقا اليه ويقطع شكرا له ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك اخلادها الى عالم الشهوات والتعلق بالاسباب فصدت عن كمال نعيمها وذلك تقدير العزيز العليم والا فأى قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن الى غيره ويسكن الى ما سواه هذا

ما لا يكون ابدا ومن ذاق شيئا من ذلك وعرف طريقا موصلة الى الله ثم تركها واقبل على ارادته وراحاته وشهواته ولذاته وقع فى ءاثار المعاطب واودع قلبه سجون المضايق وعذب فى حياته عذابا لم يعذب به احد من العالمين فحياته عجز وغم وحزن وموته كدر وحسرة ومعاده اسف وندامة قد فرط عليه امره وشتت عليه شمله واحضر نفسه الغموم والاحزان فلا لذة الجاهلين ولا راحة العارفين يستغيث فلا يغاث ويشتكى فلا يشكى فقد ترحلت افراحه وسروره مدبرة واقبلت ءالامه واحزانه وحسراته فقد ابدل بأنسه وحشة وبعزه ذلا وبغناه فقراً وبجمعيته تشتيتا وابعدوه فلم يظفر بقربهم وابدلوه مكان الانس ايحاشا ذلك بأنه عرف طريقة الى الله ثم تركها ناكبا عنها مكبا على وجهه فابصر ثم عمى وعرف ثم انكر وأقبل ثم أدبر ودعى فما أجاب وفتح له فولى ظهره الباب قد ترك طريق مولاه وأقبل بكليته على هواه فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحاته وشؤنه فهو مقيد القلب عن انطلاقه فى فسيح التوحيد وميادين الانس ورياض المحبة وموائد القرب قد انحط بسبب اعراضه عن الهه الحق الى أسفل سافلين وحصل فى عداد الهالكين فنار الحجاب تطلع كل وقت على فؤاده واعراض الكون عنه إذ أعرض عن ربه حائل بينه وبين مراده فهو قبر يمشى على وجه الأرض وروحه فى وحشة من جسمه وقلبه فى ملال من حياته يتمنى الموت ويشتهيه ولو كان فيه ما فيه حتى اذا جاءه الموت على تلك الحال والعياذ بالله فلا تسأل عما يحل به من العذاب الاليم بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحق واحراقه بنار البعد عن قربه والاعراض عنه وقد حيل بينه وبين سعادته وأمنيته ٭

فلو توهم العبد المسكين هذه الحال وصورتها له نفسه وأرته إياها على حقيقتها لتقطع والله قلبه ولم يلتذ بطعام ولا شراب ولخرج إلى الصعدات

يجأر الى الله ويستغيث به ويستعتبه في زمن الاستعتاب هذا مع أنه إذا آثر شهواته ولذاته الفانية التي هي كخيال طيف أو مزنة صيف نغصت عليه لذتها أحوج ما كان اليها وحيل بينه وبينها أقدر ما كان عليها وتلك سنة الله في خلقه كما قال تعالى : (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وهذا هو غب اعراضه وإيثار شهوته على مرضاة ربه يعوق القدر عليه أسباب مراده فيخسر الامرين جميعا فيكون معذبا في الدنيا بتنغيص شهواته وشدة اهتمامه بطلب مالم يقسم له وان قسم له منه شيء فحشوه الخوف والحزن والنكد والالم فهم لاينقطع وحسرة لا تنقضي وحرص لاينفد وذل لاينتهي وطمع لايقلع ، هذا في هذه الدار وأما في البرزخ فأضعاف اضعاف ذلك قد حيل بينه وبين مايشتهي وفاته ما كان يتمناه من قرب ربه وكرامته ونيل ثوابه وأحضر جميع غمومه وأحزانه، وأما في دار الجزاء فسجن أمثاله من المبعودين المطرودين فوا غوثاه ثم واغوثاه بغياث المستغيثين وأرحم الراحمين ، فمن أعرض عن الله بالكلية أعرض الله عنه بالكلية ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاء والبؤس والبخس في أحواله وأعماله وقارنه سوء الحال وفساده في دينه وما له فان الرب اذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس وأظلمت أرجاؤها وانكسف أنوارها وظهر عليها وحشة الاعراض وصارت مأوى للشياطين وهدفا للشرور ومصبا للبلاء فالمحروم كل المحروم من عرف طريقا اليه ثم أعرض عنها أووجد بارقة من حبه ثم سلبها لم ينفذ الى ربه منها خصوصا إذا مال بتلك الارادة الى

شيء من اللذات وانصرف بجملته الى تحصيل الاغراض والشهوات عاكفا على ذلك فى ليله ونهاره وغدوه ورواحه هابطا من الاوج الاعلى الى الحضيض الادنى قد مضت عليه برهة من أوقاته وكان همه الله وبغيته قربه ورضاه وإيثاره على كل ما سـواه على ذلك يصبح ويمسى ويظل ويضحى وكان الله فى تلك الحال وليه لانه ولى من تولاه وحبيب من أحبه ووالاه فأصبح فى سجن الهوى ثاويا وفى أسر العدو مقيما وفى بئر المعصية ساقطا وفى أودية الحيرة والتفرقة هائما معرضا عن المطالب العالية الى الأغراض الخسيسة الفانية كان قلبه يحوم حول العرش فاصبح محبوسا فى أسفل الحش :

فأصبح كالبازى المنتف ريشه يرى حسرات كلما طار طائر
وقد كان دهرا فى الرياض منعما على كل مايهوى من الصيد قادر
إلى أن أصابته من الدهر نكبة اذا هو مقصوص الجناحين حاسر

فيا من ذاق شيئا من معرفة ربه ومحبته ثم أعرض عنها واستبدل بغيرها منها ياعجبا له بأى شيء تعوض وكيف قر قراره فما طلب الرجوع الى أحبته وما تعرض وكيف اتخذ سوى احبته سكنا وجعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله وطنا أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار ووافقه على مساكنة الأغيار فيامعرضا عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم ويابائعا سعادته العظمى بالعذاب الأليم ويامسخطا من حياته وراحته وفوزه فى رضاه وطالبا رضى من سعادته فى ارضاء سواه إنما هى لذة فانية وشهوة منقضية تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها فرح ساعة لا شهر وغم سنة بل دهر طعام لذيذ مسموم أوله لذة وآخره هلاك فالعامل عليها والساعى فى تحصيلها كدودة القز يسد على نفسه المذاهب بما نسج عليها من المعاطب فيندم حين لا تنفع الندامة ويستقيل حين لاتقبل الاستقالة فطوبى لمن أقبل على الله بكليته وعكف

عليه بارادته ومحبته فان الله يقبل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته وان الله سبحانه إذا أقبل على عبد استنارت جهاته وأشرقت ساحاتها وتنورت ظلماتها وظهر عليه آثار اقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال وتوجه اليه أهل الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة لأنهم تبع لمولاهم فاذا أحب عبدا أحبوه واذا والى وليا والوه اذا أحب الله العبد نادى ياجبرائيل انى أحب فلانا فأحبه فينادى جبرائيل فى السماء ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم يحبه أهل الأرض فيوضع له القبول بينهم ويجعل الله قلوب اوليائه تفد اليه بالود والمحبة والرحمة وناهيك من يتوجه اليه مالك الملك ذو الجلال والاكرام بمحبته ويقبل عليه بانواع كرامته ويلحظه الملأ الاعلى واهل الارض بالتبجيل والتكريم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *

﴿ قاعدة ﴾ السائر الى الله والدار الآخرة بل كل سائر الى مقصد لايتم سيره ولايصل الى مقصوده الا بقوتين قوة علمية وقوة عملية فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها ويجتنب اسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشى فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور مايقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ويبصر بذلك النور ايضا اعلام الطريق وادلتها المنصوبة عليها فلايضل عنها فيكشف له النور عن الأمرين اعلام الطريق ومعاطبها ، وبالقوة العملية يسير حقيقة بل السير هو حقيقة القوة العملية فان السير هو عمل المسافر وكذلك السائر الى ربه اذا ابصر الطريق واعلامها وابصر المغاير والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح وبقى عليه الشطر الآخر وهو ان يضع

عصاه على عاتقه ويشمر مسافرا فى الطريق قاطعا منازلها منزلة بعد منزلة فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الآخرى واستشعر القرب من المنزل فهان عليه مشقة السفر وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة فهو يقول : يا نفس ابشرى فقد قرب المنزل ودنا التلاقى فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الاحبة فان صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة وتلقتك الاحبة بانواع التحف والكرامات وليس بينك وبين ذلك الا صبر ساعة فان الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة وعمرك درجة من درج تلك الساعة فالله الله لا تنقطعى فى المفازة فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين ، فان استصعبت عليه فليذكرها ما امامها من احبابها وما لديهم من الاكرام والانعام وما خلفها من اعدائها وما لديهم من الاهانة والعذاب وانواع البلاء فان رجعت فالى اعدائها رجوعها وان تقدمت فالى احبابها مصيرها وان وقفت فى طريقها ادركها اعداؤها فانهم وراءها فى الطلب ولا بد لها من قسم من هذه الاقسام الثلاثة فلتختر ايها شاءت *

وليجعل حديث الاحبة حاديها وسائقها ونور معرفتهم وارشادهم هاديها ودليلها وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره ولا يغتر بكثرة المنقطعين فالم انقطاعه وبعاده واصل اليه دونهم وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ، وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هى من عوارض الطريق فسوف تبدو له الخيام وسوف يخرج اليه المتلقون يهنؤنه بالسلامة والوصول اليهم فياقرة عينه اذ ذاك ويافرحته اذ يقول: (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ

بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع ودرن النفس وبطء سيرها وكلما أدمن على السير وواظب عليه غدوا ورواحا وسحرا قرب من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته انسا وكثافته لطافة ودرنه طهارة ه

﴿فصل فى تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية﴾

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها واعلامها وعوارضها ومعاثرها وتكون هذه القوة اغلب القوتين عليه ويكون ضعيفا فى القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها فهو فقيه مالم يحضر العمل فاذا حضر العمل شارك الجهال فى التخلف وفارقهم فى العلم وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم والمعصوم من عصمه الله ولا قوة الا بالله، ومن الناس من تكون له القوة العملية الارادية وتكون أغلب القوتين عليه وتقتضى هذه القوة السير والسلوك والزهد فى الدنيا والرغبة فى الاخرة والجد والتشمير فى العمل ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات فى العقائد والانحرافات فى الاعمال والأقوال والمقامات كما كان الاول ضعيف العقل عند ورود الشهوات، فداء هذا من جهله وداء الاول من فساد ارادته وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم بل على طريق الذوق والوجد والعادة يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده فتارة يعبده بذوقه ووجده، وتارة يعبده بعادة قومه واصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها ، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل فى الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه

كائنا ما كان وهنا طرق ومتاهات لايحصيها الا رب العباد ، فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه لايعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من احــــدينا سواه كما أنهم لايعرفون صفات ربهم التى تعرف بها الى عباده على ألسنة رسله ودعاهم الى معرفته ومحبته من طريقها فلا معرفة بالرب ولا عبادة له ، فمن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره الى الله ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته فان القواطع كثيرة شأنها شديد لايخلص من حبائلها الا الواحد بعد الواحد ولولا القواطع والآفات لكان الطريق معمورة بالسالكين ولو شاء الله لازالها وذهب بها ولكن الله يفعل مايريد والوقت كما قيل سيف فان قطعته والاقطعك.

فاذا كان السير ضعيفا والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفا والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فانه جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الاعداء الا أن يتدارك الله برحمة منه من حيث لايحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدى القواطع والله ولى التوفيق .

﴿ قاعدة نافعة ﴾ العبد من حين استقرت قدمه فى هذه الدار فهو مسافر فيها الى ربه ومدة سفره هى عمره الذى كتب له فالعمر هو مدة سفر الانسان فى هذه الدار الى ربه ، ثم قد جعلت الايام والليالى مراحل لسفره فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهى السفر فالكيس الفطن هو الذى يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالما غانما فاذا قطعها جعل الاخرى نصب عينيه ولا يطول عليه الامد فيقسو قلبه ويمتد امله ويحضر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد فى قطعها بخير مابحضرته فانه اذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل فطوعت له نفسه

الانقياد الى التزود فاذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك فلا يزال هذا دأبه حتى يطوى مراحل عمره كلها فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته فاذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سراه وينجاب عنه كراه فما أحسن مايستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه، ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان فقسم قطعوها مسافرين فيها الى دار الشقاء فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه والسعى فى اطفاء نوره وابطال دعوته واقامة دعوة غيرها فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها الى الدار التى خلقوا لها واستعملوا بها فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقا كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) أى تزعجهم إلى المعاصى والكفر أزعاجا وتسوقهم سوقا *

﴿ القسم الثانى ﴾ قطعوا تلك المراحل سائرين فيها الى الله والى دار السلام وهم ثلاثة أقسام ظالم نفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات باذن الله، وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى الى الله ولكن متفاوتون فى التزود وتعبية الزاد واختياره وفى نفس السير وسرعته وبطئه فالظالم لنفسه مقصر فى الزاد غير آخذ منه مايبلغه المنزل لافى قدره ولافى صفته بل مفرط فى زاده الذى ينبغى له أن يتزوده ومع ذلك فهو متزود مايتأذى به فى طريقه ويجد غب أذاه اذا وصل المنزل بحسب ماتزود من ذلك المؤذى الضار، والمقتصد اقتصر من الزاد على مايبلغه ولم يشد مع ذلك احمال التجارة الرابحة ولم يتزود مايضره فهو سالم غانم لكن فاتته

المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة ، والسابق بالخيرات همه فى تحصيل الارباح وشد أحمال التجارات لعلمه بمقدار الربح الحاصل فيرى خسرانا أن يدخر شيئا مما بيده ولا يتجر به فيجد ربحه يوم تغتبط التجار بارباح تجاراتهم فهو كرجل قد علم أن امامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر وعنده حاصل وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجاره فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل مايملك حتى يهيء به تجارة الى ذلك البلد لفعل فهكذا حال السابق بالخيرات باذن الله يرى خسرانا بينا أن يمر عليه وقت فى غير متجر فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الاقسام الثلاثة ليعلم العبد من أى التجار هو ، فأما الظالم لنفسه فانه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته الى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها فاذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة ومرة يتقدم على الذنب وترك الحق تهاونا ووعدا بالتوبة فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والايمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للاغلب منهما فاذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده وكان الحكم للراجح منهما وحكم الله من وراء ذلك لايعدم منه فضله وعدله ☼

﴿ فصل ﴾ وأما المقتصدون فادوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها فلا حصلوا على ارباح التجار ولا بخسوا الحق الذى عليهم ، فاذا استقبل احدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة فى وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها ثم ينصرف منها الى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التى أذن الله فيها مشتغلا بها قائما بأعيانها مؤديا واجب الرب فيها غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الاذكار والتوجه فاذا

حضرت الفريضة الأخرى بادر اليها كذلك فاذا أكملها انصرف إلى حاله الأول فهو كذلك سائر يومه فاذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر فيقوم الى غدائه ووظيفته فاذا جاء الصوم الواجب قام بحقه ، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب ، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط لايظلمهم ولا يترك حقه لهم *

﴿ فصل ﴾ وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان أبرار ومقربون ، وهؤلاء الاصناف الثلاثة هم أهل اليمين وهم المقتصدون والابرار والمقربون وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الاطلاق وإن كان مآله الى أصحاب اليمين كما أنه لايسمى مؤمنا عند الاطلاق وان كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه ، وقد اختلف في قوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) الآية هل ذلك راجع الى الأصناف الثلاثة الظالم لنفسه . والمقتصد . والسابق بالخيرات أو يختص بالقسمين الاخيرين وهما المقتصد . والسابق دون الظالم على قولين : فذهبت طائفة الى أن الأصناف الثلاثة كلهم فى الجنة وهذا يروى عن ابن مسعود . وابن عباس . وأبي سعيد الخدرى . وعائشة أم المؤمنين ، قال أبو اسحق السبيعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج ، قال أبو داود الطائى نبأنا الصلت بن دينار ثنا عقبة بن صهبان الهنائى قال : سألت عائشة عن قول الله (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) فقالت لى : يا بنى كل هؤلاء فى الجنة فاما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق ، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلك قال : فجعلت نفسها معنا ،

وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث ثلث يدخلون الجنة بغير حساب . وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة . وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله : ماهؤلاء وهو أعلم بهم فتقول الملائكة: هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا فيقول الله أدخلوهم فى سعة رحمتى ، وقال كعب : تحاذت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا باعمالهم ، وقال الحسن: السابقون من رجحت حسناته . والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته : والظالم من خفت موازينه *

واحتجت هذه الفرقة بانه سبحانه سمى الكل مصطفين وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد ومحال من أن يكون الكافر والمشرك من المصطفين لأن الاصطفاء هو الاختيار وهو الافتعال من صفوة الشىء وهو خياره، فعلم أن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق وبعضهم خير من بعض فسابقهم مصطفى عليهم ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك *

واحتجت أيضا بآثار روتها تؤيد ماذهبت اليه فمنها مارواه سليمان الشاذكونى ثنا حصين بن بهز عن أبى ليلى عن أخيه عن أبيه عن أسامة بن زيد عن النبى ﷺ فى هذه الآية، قال : كلهم فى الجنة، ومنها مارواه الطبرانى ثنا أحمد بن حماد بن زغبة ثنا يحى بن بكر ثنا ابن لهيعة عن أحمد بن حازم لمعارفى عن صالح مولى التوأمة عن أبى الدرداء قال: قرأ النبى هذه الآية (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ) فقال: أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا، واما الظالم فيجلس فى طول المحبس ثم يتجاوز الله عنه ، ومنها مارواه زكريا الساجى عن الحسن بن على الواسطى عن أبى سعيد الخزاعى عن

الحسن بن سالم عن سعد بن ظريف عن أبى هاشم الطائى قال : قدمت المدينة فدخلت مسجدها فجلست إلى سارية فجاء حذيفة فقال : ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «يبعث الله تبارك وتعالى هذه الأمة ـ أو كما قال ـ ثلاثة أصناف وذلك فى قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بلا حساب والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا والظالم لنفسه يدخل الجنة برحمة الله» *

ومنها مارواه الطبرانى عن محمد بن إسحق بن راهويه ثنا أبى ثنا جرير عن الاعمش عن رجل سماه عن أبى الدرداء قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قوله تعالى:(فمنهم ظالم لنفسه) الاية قال: السابق بالخيرات والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب والظالم لنفسه يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة» *

ومنها مارواه ابن لهيعة عن أبى جعفر عن يونس بن عبد الرحمن عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول هذه. الآية «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ـ الى قوله ـ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ قَالَ فَأَمَّا السَّابِقُونَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَأَمَّا الْمُقْتَصِدُ فَيُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَأَمَّا الظَّالِمُونَ فَيُحَاسَبُونَ فَيُصِيبُهُمْ عَنَاءٌ وَكَرْبٌ ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ثُمَّ يَقُولُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» ومنها ماروراه الحميدى ثنا سفيان ثنا طعيمة ابن عمرو الجعفرى عن رجل قال قال أبو الدرداء لرجل: الا احدثك بحديث اخصك به لم احدث به احدا قال رسول الله ﷺ : فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ الاية جنات عدن قال: دخلوا الجنة جميعا *

واحتجت ايضا بالايات والأحاديث التي تشهد بنجاة الموحدين من اهل الكبائر ودخولهم الجنة ؛ واحتجت ايضا بان ظلم النفس انما يراد بها ظلمها بالذنوب والمعاصي فان الظلم ثلاثة انواع ظلم في حق النفس باتباعها شهواتها وإيثارها لها على طاعة ربها وظلم في حق الخلق بالعدوان عليهم ومنعهم حقوقهم وظلم في حق الرب بالشرك به فظلم النفس انما هو بالمعاصي وقد تواترت النصوص بان العصاة من الموحدين مآلهم إلى الجنة، وقالت طائفة: بل الوعد بالجنات أنما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه فان الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق والظالم لنفسه هنا هو الكافر والمقتصد المؤمن العاصي والسابق المؤمن التقي وهذا يروى عن عكرمة. والحسن .وقتادة وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب الكشاف . ومنذر بن سعيد في تفسيره والرماني وغيرهم،قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم وهي نظير آية الواقعة قوله (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) قالوا : فأصحاب الميمنة هم المقتصدون وأصحاب المشأمة الظالمون لانفسهم والسابقون "سابقون هم السابقون بالخيرات،قالوا. ولم يصطف الله من خلقه ظالما لنفسه بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم والظالمون لانفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ويتناولهم فعل الاصطفاء، قالوا .وأيضا صفوة الله هم أحباؤه والله لا يحب الظالمين فلا يكونون مصطفين قالوا : ولأن الظالم لنفسه وان كان ممن أورث الكتاب فهو بترك العمل بما فيه قد ظلم نفسه والله سبحانه انما اصطفى من عباده من أورثه كتابه ليعمل بما فيه فأما من نبذه وراء ظهره فليس من المصطفين من عباده *

قالوا: ولان الاصطفاء افتعال من صفوة الشيء وهو خلاصته ولبه واصله اصتفى فأبدلت التاء طاء لوقوعها بعد الصاد كالاصطباح والاصطلام ونحوه، والظالم لنفسه ليس صفوة العباد ولا خلاصتهم ولا لبهم فلا يكون مصطفى، قالوا: ولان الله سلم على المصطفين من عباده فقال: (قُلْ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) وهذا يقتضى سلامتهم من كل شر وكل عذاب والظالم لنفسه غير سالم من هذا ولا هذا فكيف يكون من المصطفين، قالوا: وأيضا فطريقة القرآن أن الوعد المطلق بالثواب انما يكون للمتقين لا للظالمين كقوله تعالى: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) فاين الظالم لنفسه هنا، وقوله تعالى: (اذلك خير ام جنة الخلد التى وعد المتقون، وقوله تعالى: (وَسَارِعُوا الَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وقوله: (انَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً لَا يَسْمَعُونَ) الى قوله (حسابا) والقرآن مملوء من هذا ولم يجيء فيه موضع واحد باطلاق الوعد بالثواب للظالم لنفسه أصلا، قالوا: وأيضا فلم يجيء فى القرآن ذكر الظالم لنفسه إلا فى معرض الوعيد لا الوعد كقوله تعالى: (انَّ الْمُجْرِمِينَ فى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) وقوله (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ

أحاديث ومزقناهم كل ممزق) وقوله : (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) قالوا : وأيضا فالظالم لنفسه هو الذى خفت موازينه ورجحت سيئاته والقرآن كله يدل على خسارته وانه غير ناج كقوله تعالى : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) وقوله:(ومن خفت موازينه فأمه هاوية) فكيف يذكر وعده بجناته وكرامته للظالمين أنفسهم الخفيفة موازينهم؟

قالوا : وأيضا فقوله تعالى :(جنات عدن) مرفوع لانه بدل من قوله: (ذلك هو الفضل الكبير) وهو بدل نكرة من معرفة كقوله:(لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة) وحسن وقوعه مجيء النكرة موصوفة لتخصيصها بالوصف وقربها من المعرفة ، ومعلوم أن المبدل منه وهو الفضل الكبير مختص بالسابقين بالخيرات والمعنى أن سبقهم بالخيرات نادته (١) ذلك هو الفضل الكبير وهو جنات عدن يدخلونها وجعل السبق بالخيرات نفس الجنات لانه سببها وموجبها .

قالوا : وأيضا فانه وصف حليتهم فيها بأنها أساورة من ذهب ولؤلؤ وهذه جنات السابقين لا جنات المقتصدين فان جنات الفردوس أربع كما ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «جنتان من ذهب آنيتها وحليتهما ومافيهما وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما ومافيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» ومعلوم أن الجنتين الذهبيتين أعلى وأفضل من الفضيتين فاذا كان الجنتان

---

(١) هنا بياض فى الأصول .

الذهبيتان للظالمين لأنفسهم فمن يسكن الجنتين الفضيتين فعلم أن هذه الجنات المذكورة لاتتناول الظالمين لأنفسهم *

قالوا : وأيضا فان أقرب المذكورات الى ضمير الداخلين هم السابقون بالخيرات فوجب اختصاصهم بالدخول الى الجنات المذكورات ، قالوا : وفى اختصاصهم بعد ذكر الأقسام بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ماهو معلوم من طريقة القرءان إذ يصرح بذكر ثواب الأبرار والمتقين والمخلصين والمحسنين ومن رجحت حسناتهم ويذكر عقاب الكفار والفجار والظالمين لانفسهم ومن خفت موازينهم ويسكت عن القسم الذى فيه شائبتان وله مادتان هذه طريقة القرءان كقوله (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ) وقوله (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى) وهذا كثير فى القرءان قالوا : وفى السكوت عن شأن صاحب الشائبتين تحذير عظيم وتخويف له فان أمره مرجأ الى الله وليس عليه ضمان ولا له عنده وعد ، وليحذر كل الحذر وليبادر بالتوبة النصوح التى تلحقه بالمضمون لهم النجاة والفلاح، قالوا : وأيضا من المحال أن يقع على أحد من المصطفين اسم الظلم مطلقا وانما يقع اسم الظلم مطلقا على الكافر كما قال تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وقال (وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) مع قوله (اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) والظالم لاولى له فلا يكون من المؤمنين *

قالوا : وأيضا فمن تدبر الآيات وتأمل سياقها وجدها قداستوعبت جميع أقسام الخلق ودلت على مراتبهم في الجزاء فذكر سبحانه أن الناس نوعان ظالم ومحسن ثم قسم المحسن الى قسمين مقتصد وسابق ثم ذكر جزاء المحسن فلما فرغ منه ذكر جزاء الظالم فقال : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) وقال (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) فذكر أنواع العباد وجزاءهم .

قالوا : وأيضا فهذه طريقة القرآن في ذكر أصناف الخلق الثلاثة كما ذكرهم الله تعالى في سورة الواقعة والمطففين وسورة الانسان فاما سورة الواقعة فذكرهم في أولها وفي آخرها فقال في أولها : (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) فأصحاب المشأمة هم الظالمون وأما أصحاب اليمين فقسمان : أبرار وهم أصحاب الميمنة وسابقون وهم المقربون وفي آخرها (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) فذكر حالهم في القيامة الكبرى في أول السورة ثم ذكر حالهم في القيامة الصغرى في البرزخ في آخر السورة ولهذا قدم قبله ذكر

الموت ومفارقة الروح فقال: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ثم قال (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) الى ءاخرها وأما فى أولها فذكر أقسام الخلق عقب قوله (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً) وأما سورة الانسان فقال: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) فهؤلاء الظالمون أصحاب المشأمة ثم قال :(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) فهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ثم قال (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) فهؤلاء المقربون السابقون ولهذا خصهم بالاضافة اليه وأخبر أنهم يشربون بتلك العين صرفا محضا وانها تمزج للابرار مزجا كما قال فى سورة المطففين فى شراب الأبرار (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) وقال : يشرب بها المقربون ولم يقل منها اشعارا بأن شربهم بالعين نفسها خالصة لا بها وبغيرها فضمن يشرب معنى يروى فعدى بالباء وهذا ألطف مأخذا وأحسن معنى من أن يجعل الباء بمعنى من ولكن يشرب الفعل معنى فعل ءاخر فيتعدى تعديته وهذه طريقة الحذاق من النحاة وهى طريقة سيبويه وأئمة أصحابه ، وقال فى الأبرار: (يَشْرَبُونَ مِنْ

كأس كَانَ مزَاجهَا كَافُورًا) لأن شرب المقربين لما كان أكمل استعير له الباء الدالة على شرب الرى بالعين خالصة ودلالة القرءان ألطف وأبلغ من أن يحيط بها البشر، وقال تعالى فى سورة المطففين (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ - الى قوله - كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) فهؤلاء الظالمون أصحاب الشمال ثم قال: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) فهؤلاء الأبرار المقتصدون وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم أى يكتب بحضرتهم ومشهدهم لا يغيبون عنه اعتناء به وإظهارا لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه ثم ذكر سبحانه نعيم الأبرار ومجالستهم ونظرهم إلى ربهم وظهور نضرة النعيم فى وجوههم ثم ذكر شرابهم فقال: (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) ثم قال: (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) والتسنيم أعلى أشربة الجنة فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج ولهذا قال: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) كما قال تعالى فى سورة الانسان سواء، قال ابن عباس. وغيره: يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صرفا ويمزج لأصحاب اليمين مزجا وهذا لأن الجزاء وفاق العمل فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم فمن أخلص أخلص شرابه ومن مزج مزج شرابه:

يالاهيا فى غمرة الجهل والهوى   صريما على فرش الردى يتقلب
تأمل هداك الله ما ثم وانتبه   فهذا شراب القوم حقا يركب
وتركيبه فى هذه الدار ان تفت   فليس له بعد المنية مطلب
فيا عجبا من معرض عن حياته   وعن حظه العالى ويلهو ويلعب
ولو علم المحروم أى بضاعة   أضاع لأمسى قلبه يتلهب
فان كان لايدرى فتلك مصيبة   وإن كان يدرى فالمصيبة أصعب
بلى سوف يدرى حين ينكشف الغطا   ويصبح مسلوبا ينوح ويندب
ويعجب ممن باع شيئا بدون ما   يساوى بلا علم وأمرك أعجب
لانك قد بعت الحياة وطيبها   بلذة حلم عن قليل سيذهب
فهلا عكست الأمر إن كنت حازما   ولكن أضعت الحزم والحكم يغلب
تصد وتنأى عن حبيبك دائما   فاين عن الاحباب ويحك تذهب
ستعلم يوم الحشر أى تجارة   أضعت اذا تلك الموازين تنصب

قالوا: فهكذا هذه الايات التى فى سورة الملائكة ذكر فيها الأقسام الثلاثة الظالم لنفسه وهو من اصحاب الشمال وذكر المقتصد وهو من أصحاب اليمين وذكر السابقين وهم المقربون، قالوا: وليس فى الاية ما يدل على اختصاص الكتاب بالقرآن والمصطفين بهذه الامة بل الكتاب اسم جنس الكتب التى أنزلها على رسله فانه أورثها المصطفين من عباده من كل امة وهم الأنبياء هم الذين أورثوه أولا ثم أورثوه المصطفون من اممهم بعدهم قال تعالى :(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ) فاخبر أنه انما يكون هدى وذكرى لمن له لب عقل به الكتاب وعمل بما فيه والعامل بما فيه هو الذى أورثه الله عليه

وتأمل قوله تعالى (وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ

مِنْهُ مُرِيبٌ) كيف حذف الفاعل هنا وبنى الفعل للمفعول لما كان فى معرض الذم لهم ونفى العلم عنهم ولما كان فى سياق ذكر نعمه وءالائه ومنته عليهم قال: (وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ) ونظير هذه الآية (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) ومن ذلك قوله (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ) وانه لما كان الكلام فى سياق ذمهم على اتباعهم شهواتهم وايثارهم العرض الفانى على حظهم من الآخرة وتماديهم فى ذلك لم ينسب التوريث اليه بل نسبه الى المحل فقال: أورثوا الكتاب ولم يقل أورثناهم الكتاب وقد ذكرت نظير هذا فى قوله (آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) انه للمدح وأورثوا الكتاب اما فى سياق الذم ، واما منقسم فى كتاب التحفة المكية .

والمقصود أن الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده أولا وآخرا ، قالوا: وأما قوله تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) لا يرجع الى المصطفين بل اما أن يكون الكلام قد تم عند قوله: (مِنْ عِبَادِنَا) ثم استأنف جملة أخرى وذكر فيها أقسام العباد وان منهم ظالم ومنهم مقتصد ومنهم سابق ويكون الكلام جملتين مستقلتين بين فى إحداهما أنه أورث كتابه من اصطفاه من عباده وبين فى الأخرى ان من عباده ظالما ومقتصدا وسابقا واما أن يكون المعنى تقسيم المرسل اليهم بالنسبة الى قبول الكتاب وان منهم من لم يقبله وهو الظالم لنفسه ، ومنهم من قبله مقتصدا فيه ومنهم من قبله

سابقا بالخيرات باذن الله ، قالوا: والذى يدل على هذا الوجه أنه سبحانه ذكر ارساله فى كل أمة نذيرا ممن تقدم هذه الأمة فقال: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ثم ذكر أن رسلهم جاءتهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير الآيات الدالة على صدقهم وصحة رسالاتهم والزبر الكتاب وأحدها زبور بمعنى مزبور أى مكتوب الكتاب المبين من باب عطف الخاص على العام لتميزه عن المسمى العام بفضله وشرفه امتاز بها واختص بها عن غيره وهو كعطف وجبريل وميكال على الملائكة وكعطف أولى العزم على النبيين من قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) والكتاب المنير ههنا التوراة والانجيل ثم ذكر اهلاك المكذبين لكتابه ورسله فقال: (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) ثم ذكر التالين لكتابه وهم المتبعون له العاملون بشرائعه فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ - الى قوله - غَفُورٌ شَكُورٌ) ثم ذكر الكتاب الذى خص به خاتم أنبيائه ورسله محمدا فقال: (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) ثم ذكر من أورثهم الكتاب بعد أولئك وانه اصطفاهم لتوريث كتابه اذرده المكذبون ولم يقبلوا توريثه *

قالوا: وأما قولكم: ان الاصطفاء افتعال من الصفوة وهى الخيار

وهى انما تكون فى السعداء فهذا بعينه حجة لنا فى أن الظالم لنفسه ليس عمن اصطفاه الله من عباده وقد تقدم تقريره *

قالوا : وأما الآثار التي رويتموها عن النبي ﷺ فى ذلك فكلها ضعيفة الأسانيد ومنقطعة لا تثبت كيف وهى معارضة بآثار مثلها أو أقوى منها ، قال ابن مردويه فى تفسيره ، ثنا الحسن بن عبدالله ثنا صالح بن أحمد ثنا أحمد بن محمد بن المعلى الآدمى ثنا حفص بن عمار ثنا مبارك بن فضالة عن عبيد الله بن عمرو بن نافع بن عمر عن النبي ﷺ فى قوله تعالى: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه) قال: الكافر ، قالوا : وأما النصوص الدالة على أن اهل التوحيد يدخلون الجنة فصحيحة لا ننازعكم فيها غير انها مطلقة ولها شروط وموانع كما أن النصوص الدالة على عذاب أهل الكبائر صحيحة متواترة ولها شروط وموانع يتوقف لحقوق الوعيد عليها فكذلك نصوص الوعد يتوقف مقتضاها على شروطها وانتفاء موانعها *

قالوا : وأما قولكم ان ظلم النفس انما يراد به ظلمها بالذنوب والمعاصى دون الكفر فليس بصحيح فقد ذكرنا فى القرآن ما يدل على أن ظالم النفس يكون بالكفر والشرك ولو لم يكن فى هذا الا قول موسى :(يَاقَوْمِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ) وقوله عز وجل :(وَظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) ونظائره كثيرة ، قالت الطائفة الاولى : لو تدبرتم القرءان حق تدبره وأعطيتم الآيات حقها من الفهم وراعيتم وجوهه الدالة وسياق الكلام لعلمتم أن الصواب معنا وان هذا التقسيم الذى دلت عليه أخص من التقسيم المذكور فى سورة الواقعة . والانسان . والمطففين فان ذلك تقسيم للناس الى شقى . وسعيد وتقسيم

السعداء الى أبرار . ومقربين وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصي الظالم لنفسه ، وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الأمة الى محسن ، ومسيء فالمسيء هو الظالم لنفسه، والمحسن نوعان مقتصد . وسابق بالخيرات فان الوجود شامل لهذا القسم بل هو أغلب أقسام الأمة فكيف يخلو القرءان عن ذكره وبيان حكمه ، ثم لما استوفى أقسام الامة ذكر الخارجين عنهم وهم الذين كفروا فعمت الاية أقسام الخلق كلهم ، وعلى ماذهبتم اليه تكون الاية قد أهملت ذكر القسم الأغلب الاكثر وكررت ذكر حكم الكافر أولا واخرا ولا ريب أن ماذكرناه أولى لبيان هذا القسم وعموم الفائدة وأيضا فان قوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) صريح في ان الذين اورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده ، وقوله عز وجل: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) اما أن يرجع الى الذين اصطفاهم واما ان يرجع الى العباد، ورجوعه الى الذين اصطفاهم لوجهين، أحدهما ان قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ) انما يرجع الى المصطفين لا الى العباد فكذلك قوله تعالى : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) ولا يقال: بل الضمائر كلها تعود على العباد لان سياق الاية والاتيان بالفاء والتقسيم المذكور كله يدل على أن المراد بيان أقسام الوارثين للكتاب لا بيان أقسام العباد اذ لو أراد ذلك لاتى بلفظ يزيل الوهم ولا يلتبس به المراد بغيره، وكأن وجه الكلام على هذا أن يقال: ومن عبادنا ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا منهم وهذا معنى الكلام عندكم ولا ريب أن سياق الاية لايدل عليه إنما يدل على أنه أورث الكتاب طائفة من عباده وان تلك الطائفة ثلاثة أقسام هذا وجه الكلام الذي يدل عليه ظاهره ، الثاني انك اذا قلت: أعطيت مالي

البالغين من أولادى فنهم تاجر. ومنهم خازن. ومنهم مبذر ومسرف هل يفهم من هذا أحد قط أن هذا التقسيم لجملة أولاده بل لا يفهم منه الا ان أولاده كانوا فى أخذهم المال أقساما ثلاثة ولهذا أتى فيها بالفاء الدالة على تفصيل ما أجمله أولا كما إذا قلت: خذ هذا المال فاعط فلانا كذا واعط فلانا كذا ونظائره متعددة ولا وجه للاتيان بالفاء ههنا الا تفصيل المذكور أولا لا تفصيل المسكوت عنه والآية قد سكتت عن تفصيل العباد الذين اصطفى منهم من أورثه الكتاب فالتفصيل المذكور ليس الا فتأمله فانه واضح *

قالوا: وأما قولكم ان الله لا يصطفى من عباده ظالما لنفسه لان الاصطفاء هو الاختيار من الشيء صفوته وخياره الى ءاخر ما ذكرتم فجوابه أن كون العبد مصطفى لله وليا له ومحبوبا لله ونحو ذلك من الاسماء الدالة على شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافى ظلم العبد نفسه أحيانا بالذنوب والمعاصى بل أبلغ من ذلك أن صديقيته لا تنافى ظلمه لنفسه ولهذا قال صديق الأمة وخيارها للنبى ﷺ: «علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال: قل اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى انك أنت الغفور الرحيم» وقد قال تعالى: (وَسَارِعُوا الَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ اذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) وأخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنهم يقع منهم ظلم النفس. والفاحشة. لكن لا يصرون على ذلك، وقال تعالى: (وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ

جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) فهؤلاء الصديقون المتقون قد أخبر سبحانه أن لهم أعمالا سيئة يكفرها ولا ريب أنها ظلم للنفس ، وقال موسى : (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) وقال آدم عليه السلام: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال يونس عليه السلام : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) وقال تعالى: (إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم) *

واذا كان ظلم النفس لاينافى الصديقية والولاية ولايخرج العبد عن كونه من المتقين بل يجتمع فيه الامران يكون وليا لله صديقا متقيا وهو مسيء ظالم لنفسه علم أن ظلمه لنفسه لايخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه اذ هو مصطفى من جهة كونه من ورثة الكتاب علما وعملا ظالم لنفسه من جهة تفريطه فى بعض ما أمر به وتعديه بعض مانهى عنه كما يكون الرجل وليا لله محبوبا له من جهة ومبغوضا له من جهة أخرى وهذا عبد الله حمار كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة، ولهذا نهى النبى ﷺ عن لعنته وقال : أنه يحب الله ورسوله ، ونكتة المسألة أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الأبرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزء والانقسام والكمال والنقصان كما هو

ثابت باتفاق المسلمين فى أصل الايمان ، وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفى من وجه ظالم لنفسه من وجه اخر وظلم النفس نوعان . نوع لا يبقى معه شيء من الايمان والولاية والصديقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر . ونوع يبقى معه حظه من الايمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصى وهو درجات متفاوتة فى القدر والوصف ، فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل اشكالها بحمد الله .

قالوا : وأما قولكم ان قوله تعالى : (جَنَّاتُ عَدْنٍ) مرفوع لانه بدل من قوله: (ذلك هو الفضل الكبير) وهو مختص بالسابقين وذكر حليتهم فيها من أساور من ذهب يدل على ذلك الى اخره ، فجوابه من وجهين . أحدهما أن هذا بعينه وارد عليكم فان المقتصد من أهل الجنات ومعلوم أن جنات السابقين بالخيرات أعلى وأفضل من جناته فما كان جوابكم عن المقتصد فهو الجواب بعينه عن الظالم لنفسه فان التفاوت حاصل بين جنات الاصناف الثلاثة ويختص كل صنف بما يليق بهم ويقتضيه مقامهم وعلمهم ، الجواب الثانى انه سبحانه ذكر جزاء السابقين بالخيرات هنا مشوقا لعباده اليه منبها لهم على مقداره وشرفه وسكت عن جزاء الظالمين لانفسهم والمقتصدين ليحذر الظالمون ويجد المقتصدون ، وذكر فى سورة الانسان جزاء الابرار منبها على ما هو أعلى وأجل منه وهو جزاء المقربين السابقين ليدل على أن هذا اذا كان جزاء للابرار المقتصدين فالظن بجزاء المقربين السابقين فقال (انَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً - الى قوله - وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ - الى قوله - عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن

فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا) فذكر هنا الأساور من الفضة والأكواب من الفضة فى جزاء الأبرار وذكر فى سورة الملائكة الأساور من الذهب فى جزاء السابقين بالخيرات فعلم جزاء المقتصدين من سورة الانسان وعلم جزاء السابقين من سورة الملائكة فانتظمت السورتان جزاء المقربين على أتم الوجوه والله أعلم باسرار كلامه وحكمه *

قالوا : وهذا هو الجواب عن قولكم ان الضمير يختص به أقرب مذكور اليه . قالوا : وأما قولكم ان الظالم لنفسه انما هو الكافر فقد تقدم جوابه وذكر مايبطله ، قالوا : وأما قولكم ان هذه الآيات نظير آيات الواقعة . وسورة الانسان . وسورة المطففين فى تقسيم الناس الى ثلاثة أقسام أصحاب الشمال . وأصحاب اليمين . والمقربون فلا ريب أن هذه الآية وافية بالأقسام الثلاثة مع مزيد تقسيم آخر وهو تقسيم أصحاب اليمين الى ظالم لنفسه ومقتصد فهى مشتملة على تلك الاقسام وزيادة *

قالوا : وأما قولكم : إن الآثار الدالة على أن الأصناف الثلاثة هم السعداء أهل الجنة ضعيفة لاتقوم بها حجة فجوابه انها قد بلغت فى الكثرة الى حد يشد بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض ونحن نسوق منها آثارا غير ماذكرناه يعلم به كثرتها وتعدد طرقها ، فروى ابن مردويه فى تفسيره من حديث سفيان عن الأعمش عن رجل عن أبى ثابت أن رجلا دخل المسجد فقال : اللهم ارحم غربتى وآنس وحشتى وسق لى جليسا صالحا فقال أبو الدرداء : ان كنت صادقا لانا أسعد بذلك منك وسمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) قال : أما

السابق بالخيرات فيدخله الجنة بغير حساب ، واما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا واما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام حتى يدخله الهم والحزن ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الاية (الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور) وقد ذكرنا فيما تقدم حديث أبى ليلى عن أخيه عيسى عن أبيه عن أسامة بن زيد فى قوله تعالى: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) قال قال رسول الله ﷺ :كلهم من هذه الأمة ، وروى ابن مردويه أيضا من حديث الفضل بن عمرة العبسى عن ميمون بن سياه عن أبى عثمان النهدى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له » وقرأ عمر (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) ، وروى أيضا من حديث أبى داود عن شعبة عن الوليد بن العيزار قال سمعت رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبى سعيد « أن النبى ﷺ قال فى هذه الاية: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) قال: كلهم فى الجنة أو قال كلهم بمنزلة واحدة » قال شعبة أحدهما ، ورواه داود بن ابراهيم عن شعبة به وقال وادخلوا الجنة كلهم بمنزلة واحدة فهذا حديث صحيح إلى شعبة واذا كان شعبة فى حديث لم يطرح بل شد يديك به ، ورواه يحيى بن سعيد عن الوليد بن العيزار فذكره بمثله ، وروى محمد بن سعد عن أبيه عن عمه ثنا أبى عن أبيه عن ابن عباس فى قوله عز وجل :(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية قال: جعل الله أهل الايمان على ثلاث منازل كقوله وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون فهم على هذا المثال قلت : يريد ابن عباس ان الله قسم اصحاب اليمين الى ثلاث منازل كما قسم

الخلق فى الواقعة الى ثلاث منازل فان أصحاب الشمال المذكورين فى الواقعة هم الكفار المنكرون للبعث فكيف تكون هذه منزلة من منازل أهل الايمان ؟ ويجوز أن يريد ان الظالمين لأنفسهم المستحقين للعذاب هم من أهل الشمال ولكن ايمانهم يجعلهم ءاخرا من اهل اليمين ، وروى من حديث معاوية بن صالح عن على بن أبى طالب (١) عن ابن عباس فى هذه الآية قال: هم أمة محمد ورثهم الله كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، وروى من حديث عثمان بن أبى شيبة ثنا الحسن بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ثنا عمران بن محمد بن أبى ليلى ثنا أبى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن البراء بن عازب أو عن رجل عن البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وءاله وسلم: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله» قال كلهم ناج وهى هذه الأمة، ورواه الفريابى ثنا سفيان عن أبى ليلى عن الحكم عن رجل حدثه عن البراء قال قال رسول الله ﷺ فى هذه الآية (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) الآية قال: كل ناج ، وقال ءادم بن أبى أياس ثنا أبو فضالة عن الأزهرى عبد الله الخزاز ثنا من سمع عثمان بن عفان يقول : ألا ان سابقنا أهل جهادنا ألا وان مقتصدنا أهل حضرنا الا وان ظالمنا أهل بدونا، وقد تقدم حديث عائشة. وأبى الدرداء . وحذيفة، قالوا: فهذه الآثار يشد بعضها بعضا وانها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها وسياق الآية يشهد لها بالصحة

[١] هنا بياض فى الأصل *

فلا نعدل عنها *

والمقصود الكلام على مراحل العالمين وكيفية قطعهم اياها فلنرجع اليه فنقول: أما الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلى دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه. ومعاداة كتبه ورسله .وما بعثوا به ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله . ومحاربة من يدعو الى دينه ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس واقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم فى ضد مايحبه الله ويرضاه ، وأما السائرون اليه فظالمهم قطع مراحل عمره فى غفلاته وايثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره مع ايمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر لكن نفسه مغلوبة معه مأسور مع حظه وهواه يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع الى الله فهذا حال المسلم ، وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع الى الله والانابة اليه أصلا فهذا لا يكاد اسلامه أن يكون صحيحا أبدا ولا يكون هذا الا منسلخ القلب من الايمان ونعوذ بالله من الخذلان ، وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام باقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه فهممهم مصروفة الى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة فاول مايستيقظ أحدهم من منامه يسبق الى قلبه القيام الى الوضوء والصلاة كما أمره الله فاذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار الى حين تطلع الشمس فيركع الضحى ، ثم ذهب الى ماأقامه الله فيه من الاسباب فاذا حضر فرض الظهر بادر الى التطهر والسعي الى الصف الاول من المسجد فادى فريضته كما أمر مكملا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدى الرب فينصرف من

الصلاة وقد أثرت فى قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه ويجد ثمرتها فى قلبه من الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر وحببت اليه لقاء الله ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله فهو مغموم مهموم كأنه فى سجن حتى تحضر الصلاة فاذا حضرت قام الى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه فهو لا تطيب له الحياة الا بالصلاة هذا وهم فى ذلك كله يراعون لحفظ السنن لا يخلون منها بشىء ما أمكنهم فيقصدون من الوضوء أكمله ومن الوقت أوله ومن الصفوف أولها عن يمين الامام أو خلف ظهره ويأتون بعد الفريضة بالاذكار المشروعة كالاستغفار ثلاثا . وقول: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَاذَا الْجَلَالِ وَالاكْرَامِ . وقوله: لَا إِلَهَ الَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ لَا اِلَهَ الَّا اللهُ وَلَا نَعْبُدُ الَّا اِيَّاهُ لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ لَا اِلَهَ الَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، ثم يسبحون ويحمدون ويكبرون تسعا وتسعين ويختمون المائة بلا اله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، ومن أراد المزيد قرأ آية الكرسى والمعوذتين عقيب كل صلاة فان فيها أحاديث رواها النسائى وغيره ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه هذا دأبهم فى كل فريضة.

فاذا كان قبل غروب الشمس توفروا على اذكار المساء الواردة فى السنة نظير اذكار الصباح الواردة فى أول النهار لا يخلون بها أبدا، فاذا جاء الليل

كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التى قسمها بين عباده فاذا أخذوا مضاجعهم أتوا باذكار النوم الواردة في السنة وهي كثيرة تبلغ نحوا من أربعين فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه من قراءة سورة الاخلاص والمعوذتين ثلاثا ثم يمسحون بها رؤسهم ووجوههم وأجسادهم ثلاثا ويقرؤن آية الكرسي وخواتيم سوره البقرة ويسبحون ثلاثا وثلاثين ويحمدون ثلاثا وثلاثين ويكبرون أربعا وثلاثين ثم يقول أحدهم : اللهم انى أسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك وفوضت أمرى اليك وألجأت ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك لاملجأ ولا منجا منك الا اليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت ، وان شاء قال: باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فان أمسكت نفسى فاغفر لها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، وان شاء قال: اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربى ورب كل شىء فالق الحب والنوى منزل التوارة والانجيل والفرقان اعوذبك من شر كل دابة انت اخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الاخر فليس بعدك شيء وانت الظاهر فليس فوقك شيء وانت الباطن فليس دونك شيء اقض عنى الدين وأغنني من الفقر، وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله فهذ امنامه عبادة وزيادة له فى قربه من الله فاذا استيقظ عاد الى عادته الأولى ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى وتشييع الجنائز .واجابة لدعوة والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال وزيارتهم وتفقدهم وقائم بحقوق أهله وعياله فهو منتقل فى منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر فاذا وقع منه تفريط فى حق من حقوق الله .بادر الى الاعتذار والتوبة والاستغفار ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره فهذا وظيفته دائما ه

وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذى لا اله الا هو أولا من وصف

حالتهم وعدم الاتصاف به بل ما شممنا له رائحة ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها وان كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ففى معرفة حال القوم فوائد عديدة، منها ان لا يزال المتخلف المسكين مزريا على نفسه ذاما لها، ومنها ان لا يزال منكسر القلب بين يدى ربه تعالى ذليلا له حقيرا يشهد منازل السابقين وهو فى زمرة المنقطعين ويشهد بضائع التجار وهو فى رفقة المحرومين ، ومنها انه عساه أن تنهض همته يوما الى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد، ومنها انه لعله ان يصدق فى الرغبة واللجأ الى من بيده الخير كله ان يلحقه بالقوم ويهيئه لاعمالهم فيصادف ساعة اجابة لا يسأل الله فيها شيأ الا اعطاه، ومنها ان هذا العلم هو من أشرف علوم العباد وليس بعد علم التوحيد اشرف منه وهو لا يناسب الا النفوس الشريفة ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة فاذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق اليه وتحبه وتأنس باقله فليبشر بالخير فقد أهل له فليقل لنفسه يا نفس فقد حصل لك شطر السعادة فاحرصى على الشطر الآخر فان السعادة فى العلم بهذا الشأن والعمل به فقد قطعت نصف المسافة فلا تقطعين باقيها فتفوزين فوزا عظيما ، ومنها ان العلم بكل حال خير من الجهل فاذا كان اثنان احدهم عالم بهذا الشأن غير موصوف به ولا قائم به والآخر جاهل به غير متصف به فهو خلو من الامرين فلا ريب ان العالم به خير من الجاهل وان كان العالم المتصف به خيرا منهما فينبغى أن يعطى كل ذى حق حقه وينزل فى مرتبته، ومنها انه اذا كان العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه فلا بد ان ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة ولو بارقة ولو انه يحدث نفسه بالنهضة اليه، ومنها انه لعله يجرى منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده او بغير قصده والله لا يضيع مثقال ذرة فعسى ان يرحم بذلك العامل، وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر فلا ينبغى ان تصغى الى من يثبطك عنه وتقول: انه لا ينفع بل احذره واستعن بالله ولا تعجز

ولكن لا تغتر وفرق بين العلم والحال واياك أن تظن ان بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من اهله هيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغنى بالفعل وبين العالم باسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل فاسمع الآن وصف القوم واحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل فان وجدت من نفسك حركة وهمة الى التشبه بهم فاحمد الله وادخل فالطريق واضح والباب مفتوح *

اذا أعجبتك خصال امرىء * فكنه تكن مثل ما يعجبك

فليس على الجود والمكرما * ت اذا جئتها حاجب يحجبك

فنبأ القوم عجيب وامرهم خفى الا على من له مشاركة مع القوم فانه يطلع من حالهم على ما يريه اياه القـــدر المشترك ، وجملة أمرهم انهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله وغمرت بمحبته وخشيته واجلاله ومراقبته فسرت المحبة فى اجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل الا وقد دخله الحب قد أنساهم حبه ذكر غيره وأوحشهم أنسهم به ممن سواه قد فنوا بحبه عن حب من سواه وبذكره عن ذكر من سواه وبخوفه ورجائه والرغبة اليه والرهبة منه والتوكل عليه والانابة اليه والسكون اليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره فاذا وضع احدهم جنبه على مضجعه صعدت انفاسهم الى الهه ومولاه واجتمع همه عليه متذكرا صفاته العلى واسماءه الحسنى مشاهدا له فى أسمائه وصفاته قد تجلت على قلبه انوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته فبات جسمه فى فراشه يتجافى عن مضجعه وقلبه قد أوى الى مولاه وحبيبه فآواه اليه وأسجده بين يديه خاضعا خاشعا ذليلا منكسرا من كل جهة من جهاته فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء ، وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلب بين يدى ربه؟ قال: اى والله بسجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم القيامة فشتان بين قلب يبيت عند ربه

قد قطع فى سفره اليه بيداء الاكوان وخرق حجب الطبيعة ولم يقف عند رسم ولا سكن الى علم حتى دخل على ربه فى داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله وهو مستو على عرشه يدبر أمر عباده ويصعد اليه شؤن العباد ويعرض عليه حوائجهم وأعمالهم فيأمر فيها بما يشاء فينزل الأمر من عنده نافذا كما أمر فيشاهد الملك الحق قيوما بنفسه مقيما لكل ماسواه غنيا عن كل من سواه فقيرا اليه (يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) يغفر ذنبا ويفرج كربا ويفك عانيا وينصر ضعيفا ويجبر كسيرا ويغنى فقيرا ويميت ويحيى ويسعد ويشقى ويضل ويهدى وينعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين ويعز أقواما ويذل آخرين ويرفع أقواما ويضع آخرين *

ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم فى خبره حيث يقول فى الحديث الصحيح: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (١)» أرأيتم ماأنفق منذ خلق الخلق فانه لم يغض مافى يمينه وبيده الأخرى الميزان

(١) قوله «لايغيضها» أى لاينقصها ، وقوله «سحاء» أى دائمة الصب والهطل بالعطاء يقال سح يسح سحا فهو ساح والمؤنثة سحاء وهى فعلاء لاأفعل لها كهطلاء ، وفى رواية «سحا» بالتنوين على المصدر ، قال صاحب النهاية : واليمين ههنا كناية عن محل عطائه ووصفها بالامتلاء لكثرة منافعها فجعلها كالعين الثرة التى لايغيضها الاستقاء ولا ينقصها الامتياح ، وخص اليمين لانها فى الاكثر مظنة العطاء على طريق المجاز والاتساع ، والليل والنهار منصوبان على الظرف اه اقول: ولو أبقى اللفظ على حقيقته وفوض الامر فيه اليه عز وجل لكان أتم *

يخفض ويرفع فيشاهده كذلك يقسم الارزاق ويجزل العطايا ويمن بفضله على من يشاء من عباده بيمينه وباليد الأخرى الميزان يخفض به من يشاء ويرفع به من يشاء عدلا منه وحكمة لا إله إلا هو العزيز الحكيم فيشهده وحده القيوم بأمر السموات والأرض ومن فيهن ليس له بواب فيستأذن ولا حاجب فيدخل عليه ولا وزير فيؤتى ولا ظهير فيستعان به ولا ولى من دونه فيشفع به اليه ولا نائب عنه فيعرفه حوائج عباده ولا معين له فيعاونه على قضائها أحاط سبحانه بها علما ووسعها قدرة ورحمة فلا يزيده كثرة الحاجات الا جودا وكرما فلا يشغله منها شأن عن شان ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين لو اجتمع أول خلقه وءاخرهم وإنسهم وجنهم وقاموا فى صعيد واحد ثم سألوه فاعطى كلا منهم مسألته مانقص ذلك مما عنده ذرة واحدة إلا كما ينقص المخيط البحر إذا غمس فيه ولو أن أولهم وءاخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئا ذلك بأنه الغنى الجواد الماجد فعطاؤه كلام وعذابه كلام (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) *

ويشهده كما أخبر عنه أيضا الصادق المصدوق حيث يقول : «ان الله لاينام ولاينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه» *

وبالجملة فيشهده فى كلامه فقد تجلى سبحانه وتعالى لعباده فى كلامه وتراءى لهم فيه وتعرف اليهم فيه فبعدا وتبا للجاحدين والظالمين أفى الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، فاذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهداً لقلبه أنسته ذكر غيره وشغلته عن حب من سواه

وحديث دواعي قلبه الى حبه تعالى بكل جزء من اجزاء قلبه وروحه وجسمه فحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي كما اخبر عن نفسه على لسان رسوله ، ومن غلظ حجابه وكثف طبعه وصلب عوده فهو عن فهم هذا بمعزل بل لعله أن يفهم منه ما لا يليق به تعالى من حلول او اتحاد او يفهم منه غير المراد منه فيحرف معناه ولفظه (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) ، وقد ذكرت معنى الحديث والرد على من حرفه وغلط فيه في كتاب التحفة المكية *

وبالجملة فيبقى قلب العبد الذي هذا شأنه عرشا للمثل الأعلى اي عرشا لمعرفة محبوبه ومحبته وعظمته وجلاله وكبريائه وناهيك بقلب هذا شأنه فياله من قلب من ربه ما ادناه ومن قربه ما احظاه فهو ينزه قلبه أن يساكن سواه أو يطمئن بغيره ، فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش وأبدانهم في فرشهم كما قال أبو الدرداء إذا نام العبد المؤمن عرج بروحه حتى تسجد تحت العرش فان كان طاهرا أذن لها في السجود وإن كان جنبا لم يؤذن لها بالسجود ، وهذا والله أعلم هو السر الذي لاجله امر النبي صلى الله عليه وسلم الجنب اذا اراد النوم ان يتوضأ ،وهو اما واجب على احد القولين او مؤكد الاستحباب على القول الآخر فان الوضوء يخفف حدث الجنابة ويجعله طاهرا من بعض الوجوه ، ولهذا روى الامام احمد وسعيد بن منصور وغيرهما عن اصحاب رسول الله ﷺ انهم اذا كان احدهم جنبا ثم اراد ان يجلس في المسجد توضا ثم جلس فيه ، وهذا مذهب الامام احمد وغيره مع ان المساجد لا تحل لجنب على

ان وضوءه رفع حكم الجنابة المطلقة الكاملة التى تمنع الجنب من الجلوس فى بيت الله وتمنع الروح من السجود بين يدى الله سبحانه فتامل هذه المسألة وفقهها واعرف بها مقدار فقه الصحابة وعمق علومهم فهل ترى أحدا من المتاخرين وصل الى مبلغ هذا الفقه الذى خص الله به خيار عباده وهم أصحاب نبيه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فاذا استيقظ هذا القلب من منامه صعد إلى الله بهمه وحبه وأشواقه مشتاقا اليه طالبا له محتاجا له عاكفا عليه فحاله كحال المحب الذى غاب عن محبوبه الذى لا غنى له عنه ولا بدله منه وضرورته اليه أعظم من ضرورته الى النفس والطعام والشراب فاذا نام غاب عنه فاذا استيقظ عاد إلى الحنين اليه والى الشوق الشديد والحب المقلق فحبيبه آخر خطراته عند منامه وأولها عند استيقاظه كما قال بعض المحبين لمحبوبه :

وآخر شيء أنت فى كل هجعة　　وأول شيء أنت عند هبوبى

فقد أفصح هذا المحب عن حقيقة المحبة وشروطها، فاذا كان هذا فى محبة مخلوق لمخلوق فما الظن فى محبة المحبوب الأعلى فاف لقلب لا يصلح لهذا ولا يصدق به لقد صرف عنه خير الدنيا والآخرة .

﴿ فصل ﴾ فاذا استيقظ أحدهم وقد بدر الى قلبه هذا الشان فاول ما يجرى على لسانه ذكر محبوبه والتوجه اليه واستعطافه والتملق بين يديه والاستعانة به أن لا يخلى بينه وبين نفسه وأن لا يكله اليها فيكله إلى ضعة وعجز وذنب وخطيئة بل يكلؤه كلاءة الوليد الذى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فاول ما يبدأ به الحمد لله الذى احيانا بعد ما اماتنا واليه النشور متدبرا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بان أحياه بعد نومه الذى هو اخو الموت واعاده إلى حاله سويا سليما محفوظا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التى هو غرض وهدف

لسهامها كلها تقصده بالهلاك أو الأذى التي من بعضها شياطين الانس والجن فانها تلتقي بروحه إذا نام فتقصد اهلاكه واذاه فلولا ان الله سبحانه يدفع عنه لما سلم هذا ويلقى الروح في تلك الغيبة من انواع الاذى والمخاوف والمكاره والتهزيمات ومحاربة الاعداء والتشويش والتخبيط بسبب ملابستها لتلك الارواح، فمن الناس من يشعر بذلك لرقة روحه ولطافتها ويجد اثار ذلك فيها اذا استيقظ من الوحشة والخوف والفزع والوجع الروحي الذي ربما غلب حتى سرى الى البدن، ومن الناس من تكون روحه اغلظ وأكثف وأقسى من أن تشعر بذلك فهي مثخنة بالجراح مزمنة بالأمراض ولكن لنومها لا تحس بذلك، هذا وكم من مريد لاهلاك جسمه من الهوام وغيرها وقد حفظه منه فهي في اجحارها محبوسة عنه لو خليت وطبعها لاهلكته فمن ذا الذي كلأه وحرسه وقد غاب عنه حسه وعلمه وسمعه وبصره فلو جاءه البلاء من اي مكان جاء لم يشعر به، ولهذا ذكر سبحانه عباده هذه النعمة واعدها عليهم من جملة نعمه فقال: ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فاذا تصور العبد ذلك فقال: الحمد لله كان حمده ابلغ وأكمل من حمد الغافل عن ذلك ثم تفكر في ان الذي اعاده بعد هذه الاماتة حيا سليما قادرا على أن يعيده بعد موتته الكبرى حيا كما كان ولهذا يقول بعدها واليه النشور ثم يقول لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله ثم يدعو ويتضرع ثم يقوم الى الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه ثم يصلي ما كتب الله له صلاة محب ناصح لمحبوبه متذلل منكسر بين يديه لا صلاة مدل بها عليه يرى من اعظم نعم محبوبه عليه ان اقامه وانام غيره واستزاره وطرد غيره واهله وحرم غيره فهو يزداد بذلك محبة

الى محبته يرى أن قرة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره في تلك الصلاة فهو يتمنى طول ليله ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنى المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك فهو كما قيل :

يود ان ظلام الليل دام له   وزيد فيه سواد القلب والبصر

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم ويناجيه بكلامه معطيا لكل ءاية حظها من العبودية فتجذب قلبه وروحه اليه ءايات المحبة والوداد والآيات التي فيها الأسماء والصفات والآيات التي تعرف بها إلى عباده بآلائه وانعامه عليهم واحسانه اليهم وتطيب له السير آيات الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيب له السير ويهونه وتقلقه ءايات الخوف والعدل والانتقام واحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره المائلين الى سواه فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه ، فتأمل هـــذه الثلاثة وتفقه فيها والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله .

وبالجملة فيشاهد المتكلم سبحانه وقد تجلى في كلامه ويعطي كل ءاية حظها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة على مجرد تلاوتها والتصديق بانها كلام الله بل الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها ثم شان ءاخر لو فطن له العبد لعلم أنه كان قبل يلعب كما قيل :

وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى   الى غاية مابعدها لي مذهب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها   تيقنت أني إنما كنت ألعب

فواأسفاه واحسرتاه كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ماشم لهذا رائحة وخرج من الدنيا كما دخل اليها وماذاق أطيب مافيها بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس فكانت حياته عجزا وموته كمدا ومعاده حسرة واسفا اللهم فلك الحمد واليك المشتكى وانت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولاحول ولا قوة الا بك .

﴿فصل﴾ فاذا صلى ما كتب الله جلس مطرقا بين يدى ربه هيبة له واجلالا واستغفره استغفار من قد تيقن انه هالك ان لم يغفرله ويرحمه فاذاقضى من الاستغفار وطرا وكان عليه بعدليل اضطجع على شقه الايمن بجما نفسه مريحا لها مقويا لها على أداء وظيفة الفرض فيستقبله نشيطا بجده وهمته كأنه لم يزل نائما طول ليلته لم يعمل شيأ فهو يريد أن يستدرك مافاته فى صلاة الفجر فيصلى السنة ويبتهل الى الله بينها وبين الفريضة فان لذلك الوقت شأنا يعرفه من عرفه ويكثر فيه من قول ياحى ياقيوم لااله الا انت فلهذا الذكر فى هذا الموطن تأثير عجيب، ثم ينهض الى صلاة الصبح قاصدا الصف الاول عن يمين الامام أو خلف قفاه فان فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن فان للقرب من الامام تأثيرا فى سر الصلاة ولهذا القرب تأثير فى صلاة الفجر خاصة يعرفه من عرف قوله تعالى :(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) قيل: يشهده الله عز وجل وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون فى صلاة الفجر وذلك لانها هى أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار، واحتج لهذا القول بما فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن ابى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة» ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر لقول أبى هريرة واقرءوا ان شئتم (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) رواه البخارى فى الصحيح، قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافى قولنا وهو ان يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر وليس المراد الشهادة العامة فان الله على كل شىء شهيد بل المراد شهادة خاصة وهى شهادة حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله

الى سماء الدنيا فى الشطر الآخير من الليل . وقد روى الليث بن سعد حدثنى زيادة بن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد الانصارى عن أبى الدرداء عن رسول الله ﷺ قال : « ان الله عز وجل ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره غيره فيمحو الله مايشاء ويثبت ثم ينزل فى الساعة الثانية الى جنة عدن وهى داره التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهى مسكنه لايسكنها معه من بنى آدم غير ثلاث وهم النبيون والصديقون والشهداء ثم يقول: طوبى لمن دخلك ثم ينزل فى الساعة الثالثة الى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول: قومى بعزتى ثم يطلع الى عباده فيقول: هل من مستغفر فاغفر له؟ ألا من سائل يسألنى فاعطيه؟ ألا من داع يدعونى فاجيبه؟ حتى يكون صلاة الفجر ولذلك يقول الله عز وجل : (وقرءان الفجر ان قرءان الفجر كان مشهودا) يشهده الله عزوجل وملائكته ملائكة الليل والنهار » ففى هذا الحديث أن النزول يدوم الى صلاة الفجر وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرءان الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له وهذه خاصة لصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لاينافى دوام النزول فى سائر الآحاديث الى طلوع الفجر ولا سيما وهو معلق فى بعضها على انفجار الصبح وهو اتساع ضوئه وفى لفظ «حتى يضىء الفجر» وفى لفظ «حتى يسطع الفجر» وذلك هو وقت قراءة الفجر، وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها فى أول وقتها فكان النبى ﷺ يقرأ فيها بالستين الى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لايعرفن من الغلس وهذا لا يكون الا مع شدة التقديم فى أول الوقت لتقع القراءة فى وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص مع أنه قد جاء فى بعض الآحاديث مصرحا به دوام ذلك الى الانصراف من صلاة الصبح رواه الدار قطنى فى كتاب

نزول الرب كل ليلة الى سماء الدنيا من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله عز وجل الى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول : من ذا الذي يدعوني فاستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فاعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فاغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارىء من صلاة الصبح » رواه عن محمد جماعة ، منهم سليمان بن بلال ، واسماعيل بن جعفر ، والدراوردي ، وحفص بن غياث ، ويزيد بن هرون ، وعبد الوهاب بن عطاء ، ومحمد بن جعفر ، والنضر بن شميل كلهم قال « أو ينصرف القارىء من صلاة الفجر » فان كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد وان لم تكن محفوظة وكانت من شك الراوي هل قال هذا أو هذا فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول الى وقت صلاة الفجر وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود كما رواه يونس بن أبي اسحق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال : « شهدت على أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري انهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال : « ان الله عز وجل يمهل حتى اذا كان ثلث الليل هبط الى هذه السماء ثم أمر بابواب السماء ففتحت ثم قال : هل من سائل فاعطيه ؟ هل من داع فاجيبه؟ هل من مستغفر فاغفر له ؟ هل من مستغيث أغيثه ؟ هل من مضطر أكشف عنه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا ثم يصعد الى السماء » قال الدارقطني : فزاد فيه يونس بن اسحق زيادة حسنة ، والمقصود ذكر القرب من الامام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها والله أعلم .

﴿ فصل ﴾ فاذا فرغ من صلاة الصبح اقبل بكليته على ذكر الله والتوجه اليه بالاذكار التي شرعت أول النهار فيجعلها وردا له لا يخل بها ابدا ثم

يزيد عليها ماشاء من الاذكار الفاضلة او قراءة القرءان حتى تطلع الشمس فاذا طلعت فان شاء ركع ركعتى الضحى وزاد ماشاء وإن شاء قام من غير ركوع ثم يذهب متضرعا الى ربه سائلا له أن يكون ضامنا عليه متصرفا فى مرضاته بقية يومه فلا ينقلب الا فى شىء يظهر له فيه مرضاة ربه وان كان من الأفعال العادية الطبيعية قلبه عبادة بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب *

وبالجملة فيقف عند أول الداعى الى فعله فيفتش ويستخرج منه منفذا ومسلكا يسلك به الى ربه فينقلب فى حقه عبادة وقربة وشتان كم بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الرب لابد له من فعله وفتش فيه على مراد لنفسه وغرض لطبعه ففعل لأجل ذلك وجعل الأمر طريقا له ومنفذا لمقصده فسبحان من فاوت بين النفوس الى هذا الحد والغاية فهذا عباداته عادات والاول عاداته عبادات، فاذا جاء فرض الظهر بادر اليه مكملا له ناصحا فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه الذى قد طلب منه أن يعمل له شيئاما فهو لايبقى مجهودا بل يبذل مقدوره كله فى تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإتمامه ليقع موقعا من محبوبه فينال به رضاه عنه وقربه منه أفلا يستحى العبدمن ربه ومولاه ومعبوده أن لا يكون فى عمله هكذا وهو يرى المحبين فى أشغال محبوبهم من الخلق كيف يجتهدون فى ايقاعها على أحسن وجه وأكمله بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبه من الخلق فلا أقل من أن يكون مع ربه بهذه المنزلة ، ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحى من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوب له من الناس لبذل فيه نصحه ولم يدع من حسنه شيئا الا فعله *

وبالجملة فهذا حال هذا العبد مع ربه فى جميع أعماله فهو يعلم أنه لايوفى

هذا المقام حقه فهو أبدا يستغفر الله عقيب كل عمل ، وكان النبى ﷺ اذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا ، وقال تعالى: (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) قال الحسن : مدوا الصلاة الى السحر ثم جلسوا يستغفرون ربهم ، وقال تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة . والمزدلفة وشرع للمتوضىء أن يقول بعد وضوئه : «اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين» فهذه توبة بعد الوضوء . وتوبة بعد الحج . وتوبة بعد الصلاة وتوبة بعد قيام الليل ، فصاحب هذا المقام مضطر الى التوبة والاستغفار كما تبين فهو لايزال مستغفرا تائبا ، وكلما كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره .

﴿ فصل ﴾ وجماع الامر فى ذلك انما هو بتكميل عبودية الله فى الظاهر والباطن فتكون حركات نفسه وجسمه كلها فى محبوبات الله ، وكمال عبودية العبد موافقته لربه فى محبته ماأحبه وبذل الجهد فى فعله وموافقته فى كراهة ما كرهه وبذل الجهد فى تركه، وهذا انما يكون للنفس المطمئنة لاللأمارة ولاللوامة، فهذا كمال من جهة الارادة والعمل وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة فى معرفة الاسماء والصفات والافعال له شهود خاص فيها مطابق لماجاء به الرسول ﷺ لامخالف له فان بحسب مخالفته له فى ذلك يقع الانحراف ويكون مع ذلك قائما باحكام العبودية الخاصة التى تقتضيها كل صفة بخصوصها وهذا سلوك الاكياس الذين هم خلاصة العالم والسالكون على هذا الدرب أفراد من

العالم طريق سهل قريب موصل طريق ءامن أكثر السالكين فى غفلةعنه ولكن يستدعى رسوخا فى العلم ومعرفة تامة به واقداما على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله ، وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقوها عن قوم معظمين عندهم ثم لاحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم ولم يتجاوزوها فصارت حجابا لهم وأى حجاب *

فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وايمانه حتى خرقها وجاوزها الى مقتضى الوحى والفطرة والعقل فقد أوتى خيرا كثيرا ولا يخاف عليه الا من ضعف همته فاذا انضاف الى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقا وأجد الناس بزمانه لايلحق شأوه ولايشق غباره، فشتان ما بين من يتلقى أحواله وارداته عن الاسماء والصفات وبين من يتلقاها عن الاوضاع الاصطلاحية والرسوم أوعن مجرد ذوقه ووجده اذا استحسن شيئا قال هذا هو الحق، فالسير الى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب وفتحه عجب صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) وليس العجب من سائر فى ليله ونهاره وهو فى الثرى لم يبرح من مكانه وانما العجب من ساكن لايرى عليه أثر السفر وقد قطع المراحل والمفاوز، فسائر قد ركبته نفسه فهو حاملها سائر بها ملبوك يعاقبها وتعاقبه ويجرها وتهرب منه ويخطو بها خطوة الى أمامه فتجذبه خطوتين الى ورائه فهو معها فى جهد وهى معه كذلك، وسائر قد ركب نفسه وملك عنانها فهو يسوقها كيف شاء وأين شاء لاتلتوى عليه ولا تنجذب ولاتهرب منه بل هى معه كالاسير الضعيف فى يد مالكه وأسره وكالدابة الريضة المنقادة فى يد سائسها وراكبها فهى منقادة معه حيث قادها فاذا رام التقدم به جزت به وأسرعت فاذا أرسلها سارت

به وجرت فى الحلبة الى الغاية ولا يردها شىء فتسير به وهو ساكن على ظهرها ليس كالذى نزل عنها فهو يجرها بلجامها ويشحطها ولا تنشحط فشتان ما بين المسافرين فتأمل هذا المثل فانه مطابق لحال السائرين المذكورين والله يختص برحمته من يشاء *

﴿ فصل ﴾ ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذى يخالف تدبيره تعالى واختياره بل قد سلموا اليه سبحانه التدبير كله فلا يزاحم تدبيرهم تدبيره ولا اختيارهم اختياره لتيقنهم أنه الملك القاهر القابض على نواصى الخلق المتولى لتدبير أمر العالم كله وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم فى أفعاله الذى لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة فلم يدخلوا أنفسهم معه فى تدبيره لملكه وتصريفه أمور عباده بلو كان كذا وكذا ولا بعسى ولعل ولا بليت ؛ بل ربهم أجل وأعظم فى قلوبهم من أن يعترضوا عليه أو يتسخطوا تدبيره أو يتمنوا سواه وهم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن يتهموه فى تدبيره أو يظنوا به الاخلال بمقتضى حكمته وعدله بل هو ناظر بعين قلبه إلى بارىء الأشياء وفاطرها ناظر الى اتقان صنعه مشاهدا لحكمته فيه وان لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم *

قال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض أحب الى من أن أقول لشىء قضاه الله: ليته لم يقضه ، وقال آخر : أذنبت ذنبا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة وكان قد اجتهد فى العبادة قيل له: وماهو ؟ قال : قلت مرة لشىء كان ليته لم يكن ، وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها لأنها صنعته وأثر حكمته وهو سبحانه أحسن كل شىء خلقه وأتقن كل شىء وهو أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين له فى كل شىء حكمة بالغة وفى كل مصنوع صنع متقن والرجل اذا عاب صنعة

وجل آخر وذمها سرى ذاك الى صانعها فمن عاب صنعة الرب سبحانه بلا اذنه سرى ذلك الى الصانع لأنه كذلك صنعها وعن حكمته أظهرها اذا كانت الصنعة مجبولة لم تصنع نفسها ولا صنع لها فى خلقها فالعارف لا يعيب إلا ما عابه الله ولا يذم الا ماذمه واذا سبق الى قلبه ولسانه عيب مالم يعبه الله وذم مالم يذمه الله تاب الى الله منه كما يتوب صاحب الذنب من ذنبه فانه يستحى من الله أن يكون فى داره وهو يعيب آلات تلك الدار وما فيها فهو يرى نفسه بمنزلة رجل دخل الى دار ملك من الملوك ورأى مافيها من الآلات والبناء والترتيب فأقبل يعيب منها بعضها ويذمه ويقول: لو كان كذا بدل كذا لكان خيرا ولو كان هذا فى مكان هذا لكان أولى، وشاهد الملك يولى ويعزل ويحرم ويعطى فجعل يقول: لو ولى هذا مكان فلان كان خيرا ولو عزل هذا المتولى لكان أولى ولو عوفى هذا ولو أغنى هذا فكيف يكون مقت الملك لهذا المعترض واخراجه له من قربه؟ وكذلك لو أضافه صاحب له فقدم اليه طعاما فجعل يعيب صنعته ويذمه أكان ذلك يهون على صاحب الطعام، قالت عائشة: «ماعاب رسول الله ﷺ طعاما قط إن اشتهى شيئا أكله والا تركه» ه

والمقصود أن من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار بل همهم كله فى اقامة حقه عليهم، وأما التدبير العام والخاص فقد سلموه لولى الأمر كله ومالكه الفعال لما يريد ولعلك تقول: من ذا الذى ينازع الله فى تدبيره فانظر الى نفسك فى عجزها وضعفها وجهلها كيف هى عرضت للمنازعة منازعة جاهل عاجز ضعيف لو قدر لظهرت منه العجائب فسبحان من أذله بعجزه وضعفه وجهله وأراه العبر فى نفسه لو كان ذا بصر كيف هو عاجز القدرة جبار الارادة عبد مربوب مدبر مملوك ليس له من الامر شىء وهو مع ذلك ينازع الله ربوبيته وحكمته وتدبيره لا يرضى بما رضى الله

به ولا يسكن عند مجارى أقداره بل هو عبد ضعيف مسكين يتعاطى الربوبية فقير مسكين فى مجموع حالاته يرى نفسه غنيا جاهل ظالم ويرى نفسه عارفا محسنا فما أجهله بنفسه وبربه وما أتركه لحقه وأشد اضاعته لحظه ولو أحضر رشده لرأى ناصيته ونواصى الخلائق بيد الله سبحانه وتعالى يخفضها ويرفعها كيف يشاء وقلوبهم بيده سبحانه وفى قبضته يقلبها كيف يشاء يزيغ منها من يشاء ويقيم من يشاء ولكان هذا غالبا على شهود قلبه فيغيب به عن مشيآته ولمراداته واختياره ولعرف ان التدبير والركون الى حول العبد وقوته من الجهل بنفسه وبربه فينفى العلم بالله الجهل عن قلبه فتمحى منه الارادات والمشيآت والتدبيرات ويفوضها الى مالك القلوب والنواصى فيصير بذلك عبدا لربه تقلبه يد القدرة ويصير ابن وقته لا ينتظر وقتا آخر يدبر نفسه فيه لان ذلك الوقت بيد موقته فيرى نفسه بمنزلة الميت فى قبره ينتظر ما يفعل به مستسلم لله منقطع المشيئة والاختيار *

هذا ما يجرى على أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكونى فاذا جاء الأمر جاءت الارادة والاختيار والجد والسعى واستفراغ الفكر وبذل الجهد فهو قوى حى فعال يشاهد عبودية مولاه فى أمره فهو متحرك فيها بظاهره وباطنه قد أخرج مقدوره من القوة الى الفعل وهو مع ذلك مستعين بربه قائم بحوله وقوته ملاحظ لضعفه وعجزه قد تحقق بمعنى (اياكَ نَعبدُ واياكَ نَستَعِينُ) فهو ناظر بقلبه الى مولاه الذى حركه مستعين به فى أن يوفقه لما يحبه ويرضاه عينه فى كل لحظة شاخصة الى حقه المتوجه عليه لربه ليؤديه فى وقته على أكمل أحواله فاذا وردت عليهم أقداره التى تصيبهم بغير اختيارهم، قابلوها بمقتضاها من العبودية وهم فيها على مراتب ثلاثة، احداها الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق اليه وهذا نشأ من مشاهدتهم للطفه فيها وبره واحسانه

العاجل والآجل ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونصبها سببا لمصالحهم وشوقهم بها الى حبه ورضوانه ولهم من ذلك مشاهد أخر لا تسعها العبارة وهى فتح من الله على العبد لا يبلغه علمه ولا عمله ﴿المرتبة الثانية﴾ شكره عليها كشكره على النعم وهذا فوق الرضا عنه بها ومنه ينتقل الى هذه المرتبة فهذه مرتبتان لاهل هذا الشأن ﴿والثالثة﴾ للمقتصدين وهى مرتبة الصبر التى اذا نزل منها نزل الى نقصان الايمان وفواته من التسخط والتشكى واستبطاء الفرج واليأس من الروح والجزع الذى لا يفيد الا فوات الاجر وتضاعف المصيبة فالصبر اول منازل الايمان ودرجاته واوسطها وآخرها فان صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر فى مرتبته بل الصبر معه وبه يتحقق الرضا والشكر لا تصور ولا تحقق لهما دونه وهكذا كل مقام مع الذى فوقه كالتوكل مع الرضا وكالخوف والرجاء مع الحب فان المقام الاول لا ينعدم بالترقى الى الآخر ولو عدم لخلفه ضده وذلك رجوع الى نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة وانما يندرج حكمه فى المقام الذى أعلى منه فيصير الحكم له كما يندرج مقام التوكل فى مقام المحبة والرضا وليس هذا كمنازل سير الابدان الذى اذا قطع منها منزلا خلفه وراء ظهره واستقبل المنزل الآخر معرضا عن الاول بارتحاله بل هذا كمنزلة التاجر الذى كلما باع شيئا من ماله وربح فيه ثم باع الثانى وربح فقد ربح بهما معا وهكذا أبدا يكون ربحه فى كل صفقة متضاعفا بانضمامه الى ما قبله فالربح الاول اندرج فى الثانى ولم يعدم، فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه يزل عنك ما يعرض من الغلط فى علل المقامات وتعلم ان دعوى المدعى انها من منازل العوام ودعوى انها معلولة غلط من وجهين، أحدهما ان أعلى المقامات مقرون بادناها مصاحب له كما تقدم متضمن له تضمن الكل لجزئه أومستلزم له استلزام الملزوم للازمه لا ينفك عنه أبدا ولكن لاندراجه فيه وانطواء حكمه تحته يصير

المشهد والحكم العالى (الوجه الثانى) ان تلك المقامات والمنازل انما هى منازل العوام وتعرض لها العلل بحسب متعلقا تها وغاياتها فان كان متعلقها وغاياتها بريئا من شوائب العلل وهو أجل متعلق وأعظمه فلا علة فيها بحال وهى من منازل الخواص حينئذ، وان كان متعلقها حظا للعبد أو أمرا مشوبا بحظه فهى معلولة من جهة تعلقها بحظه، ولنذكر لذلك أمثلة، المثال الاول الارادة فان الله جعلها من منازل صفوة عباده وأمر رسوله أن يصبر نفسه مع أهلها فقال: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) وقال: (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) وقال حكاية عن أوليائه قولهم: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) وهو لام التعليل الداخلة على الغايات المرادة وهى كثيرة فى القرءان فقالت طائفة: الارادة حلية العوام وهى تجريد القصد وجزم النية والجد فى الطلب وذلك غير فى طريق الخواص وتفرق ورجوع الى النفس فان ارادة العبد عين حظه وهو رأس الدعوى وانما الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد كقوله تعالى: (وإن يردك بخير فلا راد لفضله) فيكون مراده ما يراد به واختياره ما اختير له اذ لا ارادة للعبد مع سيده ولا نظر كما قال:

أريد وصاله ويريد هجرى   فاترك ما أريد لما يريد

ومن هذا قول أبى يزيد: قيل لى ما تريد؟ قلت أريد أن لا اريد لانى أنا المراد وأنت المريد فيقال ليس المراد من العوام فى كلامهم العامة الجهال وانما مرادهم بهذه اللفظة عموم السالكين دون أهل الخصوص الواصلين منازل الفناء وعين الجمع ه

واذا عرف هذا فالكلام على ما ذكر فى الارادة من وجوه (أحدها) ان الارادة هى مركب العبودية وأساس بنائها الذى لا تقوم الا عليه فلا عبودية لمن

لاارادة له بل أكمل الخلق أكملهم عبودية ومحبة وأصحهم حالا وأقومهم معرفة واتمهم ارادة فكيف يقال: انها حلية العوام أو من منازل العوام ؟ه

﴿الوجه الثانى﴾ انه يلزم من هذا أن تكون المحبة من منازل العوام وتكون معلولة ايضا لانها ارادة تامة للمحبوب ووجود المحبة بلا ارادة كوجود الانسانية من غير حيوانية وكوجود مقام الاحسان بدون الايمان والاسلام فاذا كانت الارادة معلولة وهى من منازل العوام لزم أن تكون المحبة كذلك ﴿فان قيل﴾ المحبة التى لا علة فيها هى تجرد المحب عن الارادة وفناه بارادة محبوبه عن ارادته ﴿قيل﴾ هذا هو حقيقة الارادة أن يبقى مراده مراد محبوبه فلو لم يكن مريدا لمراد محبوبه لم يكن موافقا له فى الارادة، والمحبة هى موافقة المحبوب فى ارادته فعاد الامر الى ما أشرنا اليه ان المعلول من ذلك ماتعلق بحظ المريد دون محبوبه، فاذا صارت ارادته موافقة لارادة محبوبه لم تكن تلك الارادة من منازل العوام ولا معلولة بل هذه أشرف منازل الخواص وغاية مطالبهم وليس وراءها الا التجرد عن كل ارادة والفناء بشهوده عن ارادة مايريد، وهذا هو الذى يشير اليه السالكون الى منازل الفناء ويجعلونه غاية الغايات، وهذا عند أهل الكمال نقص وتغيير فى وجه المحبة وهضم لجانب العبودية وفناء بحظ المحب من مشاهدته جمال محبوبه وفنائه فيه عن حق المحبوب ومراده فهو الوقوف مع نفس الحظ والهروب عن حق المحبوب ومراده هل مثل هذا الا كمثل رجلين ادعيا محبة ملك فحضرا بين يديه فقال: ماتريدان؟ فقال أحدهما: أريد أن لاأريد شيئا بل أفنى عن ارادتى وأكون أنا المراد وأنت تريد بى ما تشاء، وقال الآخر: أريد أن أنفق أنفاسى وذراتى فى محابك ومرضاتك منفذا لاوامرك مشمرا فى طاعتك أتوجه حيث توجهنى وأفعل ماتأمرنى هذا الذى أريده، فقال للاخر: وأنا أريد منك أن تفعل مثل هذا فانى سابعثكما فى أشغالى ومهماتى، فاما أحدهما فقال: لاحظ لى سوى اتباع مرضاتك والقيام

بحقوقك، وقال الآخر : لاأريد الامشاهدتك والنظر اليك والفناء فيك فهل يكونان فى نظره سواء،وهل تستوى منزلتهما عنده؟ولو أنعموا النظر لعلموا ان صاحب الفناء هو طالب الحظ الواقف معه وان الآخر وان لم ينسلخ من الحظ ولكن حظه مراد المحبوب منه لامراده هو من المحبوب وبين الامرين من الفرق كما بين الأرض والسماء، فالعجب ممن يفضل صاحب الحظ الذى يريده من محبوبه على من صار حظه مراد محبوبه منه بل الفناء الكامل أن يفنى بارادته عن ارادة من سواه وبحبه عن حب ماسواه وبرجائه عن رجاء ماسواه وبخشيته عن خشية ماسواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ماسواه ليس ان تفنى بحظك منه عن مراده منك، وهذا موضع يشتبه علما وحالا وذوقا الاعلى من فتح الله عليه بفرقان بين هذا وهذا ﴿الوجه الثالث﴾ ان الارادة انما تكون ناقصة بحسب نقصان المراد فاذا كان مرادها أشرف المرادات فارادته أشرف الارادات ثم اذا كانت الوسيلة اليه أجل الوسائل وأنفعها وأكملها فارادتها كذلك فلا تخرج ارادته عن ارادة أشرف الغايات وارادة أقرب الوسائل اليه وأنفعها فاى علة فى هذه الارادة واى شىء فوقها للخواص؟﴿الوجه الرابع﴾ ان نقصان الشىء يكون من وجهين،أحدهما أن يوجب ضررا، والثانى أن تكون له ثمرة نافعة لكن يشغل عما هو أكمل منه وكلاهما منتف عن الارادة فكيف تكون ناقصة معلولة، فان قيل:لما كان الوقوف معها رجوعا الى النفس وتفرقا ووقوفا مع حظ المريد كانت ناقصة،قيل:هذا منشأ الغلط وجوابه بالوجه الخامس وهو أن يقال قوله: أن الارادة تفرق فان أردتم بالتفرق شهود المريد لارادته ولمراده ولعبوديته ولمعبوده ولمحبته ولمحبوبه فلم قلتم انهذا التفرق نقص وهل هذا الاعين الكمال وهل تتم العبودية الا بهذا ؟فان من شهد عبوديته وغاب بها عن معبوده كان محجوبا ومن شهد المعبود وغاب به عن شهود عبوديته وقيامه بما امره

به كان ناقص العبودية ضعيف الشهود وهل الكمال الاشهود المعبود مع شهود عبادته فانها عين حقه ومراده ومحبوبه من عبده فهل يكون شهود العبد لحق محبوبه ومراده منه وانه قائم به ممتثل له نقصا ويكون غيبته عن ذلك واعراضه عنه وفناؤه عن شهوده كمالا وهل هذا الاقلب للحقائق؟

فغاية صاحب هذا الحال والمقام أن يكون معذورا يضيق قلبه عن شهود هذا وهذا اما لضعف المحل أو لغلبة الوارد وعجزه عن احتمال شيء اخر معه فاما أن يكون هذا هو الكمال المطلوب والآخر نقص فكلا وأين مقام من يشهد عبوديته ومنة الله عليه فيها وتوفيقه لها وجعله محلا وآلة وهو ناظر مع ذلك الى معبوده بقلبه شاهدا له فانيا عن شهود غيره في عبوديته من مقام من لايتسع لهذا وهذا، وتأمل حال أكمل الخلق وأفضلهم وأشدهم حبا لله كيف كان فى عبادته جامعا بين الشهودين حتى كان لايغيب عن أحوال المأمومين فضلا عن شهود عبادته وكان يراعى أحوالهم وهو فى ذلك المقام بين يدى ربه سبحانه فالكمل من أمته على منهاجه وطريقته ﷺ فى ذلك، فالواجب التمييز بين المراتب واعطاء كل ذى حق حقه فقد جعل الله لكل شيء قدرا، وان أردتم بالتفرق شتات القلب فى شعاب الحظوظ وأودية الهوى فهذه الارادة لاتستلزم شيئا من ذلك بل هى جمعية القلب على المحبوب وعلى محابه ومراداته، ومثل هذا التفرق هو عين البقاء ومحض العبودية ونفس الكمال وما عداه فمحض حظ العبد لاحق محبوبه *

﴿ الوجه السادس ﴾ أن قوله ان الارادة رجوع الى النفس وان ارادة العبد عين حظه كلام فيه اجمال وتفصيل فيقال: ماتريدون بقولكم: ان الارادة رجوع الى النفس؟ أتريدون انها رجوع عن ارادة الرب وارادة محابه الى ارادة النفس وحظوظها أم تريدون أنها رجوع الى

ارادة النفس لربها وارضاته؟ فان أردتم الأول علم أن هذه الارادة معلولة ناقصة فاسدة ولكن ليست هذه الارادة التي يتكلم فيها، وان أردتم المعنى الثاني فهو عين الكمال وانما النقصان خلافه *

﴿ الوجه السابع ﴾ أن قولكم : ان هذه الارادة عين حظ العبد قلنا: نعم وهي أكبر حظ له واجله واعظمه وهل للعبد حظ اشرف من ان يكون الله وحده الهه ومعبوده ومحبوبه ومراده ؟ فهذا هو الحظ الأوفر والسعادة العظمى ولكن لم قلتم : ان اشتغال العبد بهذا الحظ نقص في حقه وهل فوق هذا كمال فيطلبه العبد؟ ، ثم يقال : لو كان فوقه شيء اكمل منه لكان اشتغال العبد به وطلبه اياه اشتغالا بحظه ايضا فيكون ناقصا فأين الكمال؟ فان قلتم : في تركه حظوظه كلها قيل لكم: وتركه هذا الحظ ايضا هو من حظوظه فانه لا يبقى معطلا فارغا من الارادة اصلا بل لا بد له من ارادة ومراد وكل ارادة لكم رجوع الى الحظ فأي اشتغل به وبارادته كان وقوفا عن حظه فيا لله العجب متى يكون عبدا محضا خالصا لربه *

﴿ يوضح هذا الوجه الثامن ﴾ ان الحي لا ينفك عن الارادة مادام شاعرا بنفسه وانما ينفك عنها اذا غاب عنه شعوره بعارض من العوارض فالارادة من لوازم الحياة فدعوى ان الكمال في التجرد عنها دعوى باطلة مستحيلة طبعا وحسا بل الكمال في التجرد عن الارادة التي تزاحم مراد المحبوب لا عن الارادة التي توافق مراده *

﴿ الوجه التاسع ﴾ قوله: الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد الى اخره فيقال: هذا على نوعين، احدهما مايراد بالعبد من المقدور الذي يجري عليه بغير اختياره كالفقر والغنى والصحة والمرض والحياة والموت وغير ذلك فهذا لاريب ان الكمال فناء العبد فيه عن ارادته ووقوفه مع ما يراد به لا يكون له ارادة تزاحم ارادة الله منه كحال الثلاثة الذين

قال احدهم : أنا احب الموت للقاء الله ، وقال الآخر : احب البقاء لطاعته وعبادته ، فقال الثالث : غلطتما ولكن انا احب من ذلك مايحب فان كان يحب اماتتى احببت الموت وان كان يحب حياتى احببت الحياة فانا احب مايحبه من الحياة والموت فهذا اكمل منهما واصح حالا فيما يراد بالعبد *

والنوع الثانى مايراد من العبد من الأوامر والقربات فهذا ليس الكمال إلا فى إرادته وان فرقته فهو مجموع فى تفرقته متفرق فى جمعيته وهذا حال الكمل من الناس متفرق الارادة فى الأمر مجتمع على الآمر فهو مجموع عليه متفرق فيه ولا يكون فعل المرادات المختلفة بارادة واحدة بالعين وانما غايتها أن تكون هذا ارادتان، أحدهما ارادة واحدة للمراد المحبوب ، والثانى ارادات متفرقة لحقه ومحابه ومأمر به فهو وان تعددت وتكاثرت فرجعها الى مراد واحد بارادة كلية وكل فعل منها له ارادة جزئية محضة *

﴿الوجه العاشر﴾ ان قول أبى يزيد: أريد أن لا أريد تناقض بين فانه قد أراد عدم الارادة فاذا قال : أريد أن لا أريد يقال له : فقد أردت، وأحسن من هذا أن يكون الجواب أريد ماتريد لا ما أريد، واذا كان لا بد من ارادة ففرق بين الارادتين ارادة سلب الارادة وارادة موافقة المحبوب فى مراده والله أعلم *

﴿ الوجه الحادى عشر ﴾ انه فسر الارادة بتجريد القصد وجزم النية والجد فى الطلب وهذا هو عين كمال العين وهو متضمن للصدق والاخلاص والقيام بالعبودية فأى نقص فى تجريد القصد وهو تخليصه من كل شائبة نفسانية او طبيعية وتجريده للمراد المحبوب وحده والجد فى طلبه وطلب مرضاته وجزم النية وهو ان لا يعتريها وقفة ولا تأخير ، وهذا الأمر هو غاية منازل الصديقين وصديقية العبد بحسب رسوخه فى هذا المقام

وكلما ازداد قربه وعلا مقامه قوى عزمه وتجرد صدقه، فالصادق لا نهاية لطلبه ولا فتور لقصده بل قصده اتم وطلبه اكمل ونيته احزم قال تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) واليقين هنا الموت باتفاق الاسلام فجاهه صلى الله عليه وسلم اذ جاهه وارادته وقصده ونيته فى الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها فاين العلة فى هذه الارادة ولكن العلة والنقص فى الارادة التى يكون مصدرها النفس والهوى وغايتها نيل حظ المريد من محبوبه وان كان المحبوب يريد ذلك لكن غيره احب اليه منه وهو ان يكون مراده محض حق محبوبه وحصول مرضاته فانيا عن حظه هو من محبوبه بل قد صار حظه منه نفس حقه ومراده، فهذه هى الارادة . والمحبة التى لا علة فيها ولا نقص، نسأل الله تعالى أن يمن علينا ويحيينا ولو بنفس منها كما من بتعليمها ومعرفتها انه جواد كريم.

﴿ الوجه الثانى عشر ﴾ أنه قال بعد هذا: فصحة الارادة بذل الوسع واستفراغ الطاقة مع ترك الاختيار والسكون الى مجارى الاقدار فيكون كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء ، فاين هذا من قوله: وذلك فى طريق الخواص نقص وتفرق ، وهل يكون بذل الوسع واستفراغ الطاقة الا مع تمام الارادة ؟ وانما الذى يعرض له النقص من الارادة نوعان : احدهما ارادة مصدرها طالب الحظ ، والثانى اختياره فيما يفعل به بغير اختياره فمن هاتين الارادتين ينبغى الفناء وفيهما يكون النقص، فالكمال ترك الاختيار فيهما والسكون الى مراد المحبوب وحقه فى الأولى والى مجارى أقداره وحكمه فى الثانية فيكون فى الأولى حيا فعالا منازعا القواطعه عن مراد محبوبه، وفى الثانية كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء، وبهذا التفصيل ينكشف سر هذه المسألة ويحصل التمييز بين محض العبودية وحظ

النفس والله الموفق للصواب *

﴿ فصل ﴾ المثال الثانى للزهد، قال أبو العباس : هو للعوام أيضاً لأنه حبس النفس عن المذوذات وامساكها عن فضول الشهوات ومخالفة دواعى الهوى وترك ما لا يعنى من الأشياء ؛ وهذا نقص فى طريق الخاصة لأنه تعظيم للدنيا واحتباس عن انتقادها وتعذيب للظاهر بتركها مع تعلق الباطن بها والمبالاة بالدنيا عين الرجوع الى ذاتك وتضييع الوقت فى منازعة نفسك وشهود جنسك وبقائك معك، ألا ترى إلى من أعطاه الله الدنيا بحذافيرها كيف قال : (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب) وذلك حيث عافى باطنه من شهودها وظاهره من التعلق بها، فالزهد صرف الرغبة اليه وتعلق الهمة به والاشتغال به عن كل شيء يشتغل عنه ليتولى هو حسم هذه الاسباب عنك كما قيل : أن بعض المريدين سأل بعض المشايخ فقال : أيها الشيخ باى شيء تدفع ابليس اذا قصدك بالوسوسة ؟ فقال الشيخ : انى لا اعرف ابليس فاحتاج الى دفعه نحن قوم صرفنا هممنا اليه فكفانا مادونه ، وكما قيل:

تسترت عن دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام ما اسمى مادرت وأين مكانى ما عرفن مكانى

فيقال : الكلام على هذا من وجوه ، احدها ان جعل الزهد للعوام لما ذكره انما يتم اذا كان الزهد ملزوما لمنازعة النفس ومجاذبتها لدواعى الشهوة والهوى وحينئذ فيكون قلبه مشغولا بتلك الدواعى والجواذب ونفسه تطالبه بها وزهده يأمره باجتنابها، ولاريب ان فوق هذا مقاما اعلى منه وهو طمأنينة نفسه وسكونها الى محبوبها وانجذاب دواعيها إلى محابه ومرضاته وهذا للخواص من المؤمنين ولكن هذه المنازعة غير لازمة للزهد

وان كان لابد منها فى حكم الطبيعة لتحقق الابتلاء والامتحان وليتحقق ترك العبد حظه وهواه لربه ايثارا له على هواه ونفسه، الثانى أنه ولو كانت هذه المنازعة وحبس النفس عن الملذوذات من لوازم الزهد لم يكن فيها نقص ولا علة فانها من لوازم الطبيعة وأحكام الجبلة وهى كالجوع والعطش والألم والتعب فحبس النفس عن إجابة دواعيها ايثارا لله ومرضاته عليها لا يكون نقصا ولا مستلزما لنقص ، وقد اختلف أرباب السلوك هنا فى هذه المسألة وهى أيهما أفضل من له داعية وشهوة وهو يحبسها لله ولا يطيعها حبا له وحياء منه وخوفا أو من لاداعية له تنازعه بل نفسه خالية من تلك الدواعى والشهوة قد اطمأنت الى ربها واشتغلت به عن غيره وامتلأت بحبه وارادته فليس فيها موضع لارادة غيره ولا حبه فرجحت طائفة الأول وقالت: هذا يدل على قوة تعلقه وشدة محبته فهو يعاصى دواعى الطبع والشهوة ويقهرها سلطان محبته وارادته وخوفه من الله وهذا يدل على تمكنه من نفسه وتمكن حاله مع الله وغلبة داعى الحق عنده على داعى الطبع والنفس . قالوا : وأيضا فله مزيد فى حاله وايمانه بهذا الايثار والترك مع حضور داعى الفعل عنده ومزيد مجاهدة عدوه الباطن ونفسه وهواه كما يكون له مزيد مجاهدة عدوه الظاهر .

قالوا : والذوق والوجد يشهد ازيده من الحب والأنس والسرور والفرح بربه عند ايثاره على دواعى الهوى والنفس، والمطمئن الذى ليس فيه هذا الداعى ليس له مزيد من هذه الجهة وان كان مزيده من جهة أخرى فهى مشتركة بينهما ويختص هذا بمزيده من الايثار والمجاهدة ، قالوا : وأيضا فهذا مبتلى بهذه الدواعى والارادات وذلك معافى منها، وقد جرت سنة الله فى المؤمنين من عباده أن يبتليهم على حسب ايمانهم فمن ازداد ايمانه زيد فى بلائه كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : «يبتلى المرء على حسب دينه فان

كان فى دينه صلابة شدد عليه البلاء وان كان فى دينه رقة خفف عنه البلاء»
والمراد بالدين هنا الايمان الذى يثبت عند نوازل البلاء فان المؤمن يبتلى
على قدر مايحمله ايمانه من وارد البلاء ، قالوا : فالبلاء بمخالفة دواعى النفس
والطبع من أشد البلاء فانه لايصبر عليه الا الصديقون، وأما البلاء الذى
يجرى على العبد بغير اختياره كالمرض والجوع والعطش ونحوها فالصبر
عليه لا يتوقف على الايمان بل يصبر عليه البر والفاجر لاسيما إذا علم أنه
لامعول له الا الصبر فانه ان لم يصبر اختيارا صبر اضطرارا ، ولهذا كان
بين ابتلاء يوسف الصديق لما فعل به اخوته من الأذى والالقاء فى الجب
وبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه وابتلائه بمراودة المرأة وهو شاب
عزب غريب بمنزلة العبد لها وهى الداعية الى ذلك فرق عظيم لا يعرفه الا
من عرف مراتب البلاء، فان الشباب داع الى الشهوة والشاب قد يستحى
من أهله ومعارفه من قضاء وطره فاذا صار فى دار الغربة زال ذلك
الاستحياء والاحتشام واذا كان عزبا كان أشد لشهوته واذا كانت المرأة هى الطالبة
كان أشد وإذا كانت جميلة كان أعظم فان كانت ذات منصب كان أقوى فى
الشهوة فان كان ذلك فى دارها وتحت حكمها بحيث لا تخاف الفضيحة ولا
الشهرة كان أبلغ فان استوثقت بتغليق الأبواب والاحتفاظ من الداخل
كان أقوى أيضا للطلب فان كان الرجل كمملوكها وهى كالحاكمة عليه
الآمرة الناهية كان أبلغ فى الداعى فاذا كانت المرأة شديدة العشق والمحبة
للرجل قد امتلأ قلبها من حبه فهذا الابتلاء الذى صبر معه مثل الكريم
ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين، ولا ريب
أن هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الأول بل هو من جنس ابتلاء الخليل
بذبح ولده اذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعى النفس والشهوة ومفارقة
حكم طبعه وهذا بخلاف البلوى التى أصابت ذا النون والتى أصابت أيوب *

قالوا: وأيضا فان هذه هي النكتة التي من أجلها كان صالحو البشر أفضل من الملائكة لان الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب دواعي النفس والشهوات البشرية فهي صادرة عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق وهي كالنفس للحي وأما عبادات البشر فمع منازعات النفوس وقمع الشهوات ومخالفة دواعي الطبع فكانت أكمل ، ولهذا كان أكثر الناس على تفضيلهم على الملائكة لهذا المعنى ولغيره، فمن لم يخلق له تلك الدواعي والشهوات فهو بمنزلة الملائكة ومن خلقت له وأعانه الله على دفعها وقهرها وعصيانها كان أكمل وأفضل *

قالوا : وأيضا فان حقيقة المحبة إيثار المحبوب ومرضاته على ماسواه قالوا : وكيف يصح الايثار ممن لاتنازعه نفسه وطبعه إلى غير المحبوب .

قالوا : وليس العجب من قلب خال عن الشهوات والارادات قد ماتت دواعي طبعه وشهوته إذا عكف على محبوبه ومعبوده واطمأن اليه واجتمعت همته وإنما العجب من قلب قد ابتلى بما ابتلى به من الهوى والشهوة ودواعي الطبيعة مع قوة سلطانها وغلبتها وضعفه وكثرة الجيوش التي تغير على قلبه كل وقت إذا آثر ربه ومرضاته على هواه وشهوته ودواعي طبعه فهو هارب إلى ربه من بين تلك الجيوش وعاكف عليه في تلك الزعازع والأهوية التي تغشى على الاسماع والابصار والافئدة يتحمل منها لاجل محبوبه مالاتتحمله الجبال الراسيات *

قالوا : وأيضا فنهي النفس عن الهوى عبودية خاصة لها تأثير خاص وإنما يحصل اذا كان ثم ماينهى عنه النفس ، قالوا : وأيضا فالهوى عدو الانسان فاذا قهر عدوه وصار تحت قبضته وسلطانه كان أقوى وأكمل ممن لاعدو له يقهره ، قالوا : ولهذا كان حال النبي صلى الله عليه وسلم في قهره قرينه حتى انقاد وأسلم له فلم يكن يأمره إلا بخير أكمل من حال

عمر حيث كان الشيطان إذا رءاه يفر منه وكان إذا سلك فجا سلك غير فجه *

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو كيف لا يقف الشيطان لعمر بل يفر منه ومع هذا قد تفلت على النبي ﷺ وتعرض له وهو فى الصلاة وأراد ان يقطع عليه صلاته؟ ومعلوم ان حال الرسول أكمل وأقوى *

والجواب ماذكرناه ان شيطان عمر كان يفر منه فلا يقدر أحدهما على قهر صاحبه، وأما الشيطان الذى تعرض للنبي ﷺ فقد أخذه وأسره وجعله فى قبضته كالاسير وأين من يهرب منه عدوه فلا يظفر به الى من يظفر بعدوه فيجعله فى أسره وتحت يده وقبضته، فهذا ونحوه مما احتج به أرباب هذا القول *

﴿واحتج أرباب القول الثانى﴾ وهم الذين رجحوا من لا منازعة فى طباعه ولا هوى له يغالبه بان قالوا: كيف تستوى النفس المطمئنة الى ربها العاكفة على حبه التى لا منازعة فيها أصلا ولا داعية تدعوها الى الاعراض عنه والنفس المشغولة بمحاربة هواها ودواعيها وجواذبها، قالوا: وأيضا ففى الزمن الذى يشتغل هذا بنفسه ومحاربة هواه وطبعه يكون صاحب النفس المطمئنة قد قطع مراحل من سيره وفاز بقرب فات صاحب المحاربة والمنازعة *

قالوا: وهذا كما لو كان رجلان مسافرين فى طريق فطلع على أحدهما قاطع اشتغل بدفعه عن نفسه ومحاربته ليتمكن من سيره والآخر سائر لم يعرض له قاطع بل هو على جادة سيره فان هذا يقطع من المسافة أكثر مما يقطع الاول ويقرب الى الغاية أكثر من قربه، قالوا: وأيضا فان للقلب قوة يسير بها فاذا صرف تلك القوة فى دفع العوارض والدواعى القاطعة له عن السير اشتغل قلبه بدفعها عن السير فى زمن المدافعة، قالوا: ولان المقصود بالقصد الأول انما هو السير الى الله والاشتغال بدفع العوارض مقصود لغيره والاشتغال بالمقصود لنفسه أولى وأفضل من الاشتغال بالوسيلة *

قالوا: وأيضا فالعوارض المانعة للقلب من سيره هى من باب المرض واجتماع

القلب على الله وطمأنينته به وسكونه اليه بلا منازع ولا جاذب ولا معارض هو صحته وحياته ونعيمه فكيف يكون القلب الذى يعرض له مرض وهو مشغول بدوائه أفضل من القلب الذى لا داء به ولا علة، قالوا: وأيضا فهذه الدواعى والميول والارادات التى فى القلب تقتضى جذبه وتعويقه عن وجه سيره وما فيه من داعى المحبة والايمان يقتضى جذبه عن طريقها فتتعارض الجواذب فان لم توقفه عوقته ولا بد فأين السير بلا معوق من السير مع المعوق؟.

قالوا: وأيضا فالذى يسير العبد باذن ربه انما هو همته والهمة اذا علت وارتفعت لم تلحقها القواطع والآفات كالطائر اذا علا وارتفع فى الجو فات الرماة ولم يلحقه الحصا ولا البنادق ولا السهام وانما تدرك هذه الاشياء للطائر اذا لم يكن عاليا فكذلك الهمة العالية قد فاتت الجوارح والكواسر وانما تلحق الآفات والدواعى والارادات الهمة النازلة فاما اذا علت فلا تلحقها الآفات، قالوا: وأيضا فالحس والوجود شاهد بأن قلب المحب متى خلا من غير المحبوب واجتمعت شؤنه كلها على محبوبه ولم يبق فيه التفات الى غيره كان أكمل محبة من القلب الملتفت الى الرقباء المقيم بمحاربتهم ومدافعتهم والهرب منهم والتوارى عنهم، قالوا: فكم بين محب يجتاز على الرقباء فيطرقون من هيبته وخشيته ولا يرفع أحد منهم رأسه اليه وبين محب اذا اجتاز بالرقباء هاشوا عليه كالزنابير او كالكلاب فاشتغل بدفعهم وحرابهم او جد فى الهرب منهم فكيف يسوى هذا بهذا ام كيف يفضل عليه مع هذا التباين ؟. قالوا: وايضا فالمحبة الخالصة الصادقة حقيقتها انها نار تحرق من القلب ماسوى مراد المحبوب واذا احترق ماسوى مراده عدم وذهب اثره فاذا بقى فى القلب شىء من سوى مراده لم تكن المحبة تامة ولا صادقة بل هى محبة مشوبة بغيرها فالمحب الصادق ليس فى قلبه سوى مراد محبوبه حتى ينازعه ويدافعه والآخر فى قلبه بقية لغير المحبوب

فهو جاهد على إخراجها واعدامها ، قالوا : وايضا فالواردات الالهية ترد على القلوب على قدر استعدادها وقبولها فاذا صادفت القلب خاليا فارغا من العوارض والمنازعات ودواعى الطبع والهوى ملأته على قدر فراغه واذا امتلأ منها لم يبق لاضدادها واعدائها فيه مسلك واذا صادفت فيه موضعا مشغولا بغير من الاغيار لم يساكن ذلك الموضع فيدخل الضد والعدو من تلك الثلمة كما قال القائل :

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها اليه العذل

وقال : ومهما بقى للصحو فيه بقية يجد نحوك اللاحى سبيلا الى العذل

قالوا : وأيضا فدواعى الطبع وارادات النفس وشهواتها مصدرها اما جهل واما ضعف فانها لا تصدر الامن جهل العبد بآثارها وموجباتها أو يكون عالما بذلك لكن فيه ضعف وعجز يمنعه عن محوها من قلبه بالكلية وما كان سببه جهلا أو عجزا لا يكون كمالا ولا مستلزما لكمال وأما القلب الخالى منها ومن الاشتغال بدفعها فقلب شريف قوى علوى رفيع .

قالوا : وأيضا فهذه الارادات والدواعى لا تسير العبد بل اما أن تنكسه ان أجابها واما أن تعوقه وتوقفه ان اشتغل بمدافعتها وأما ارادات القلب السليم منها والنفس المطمئنة بربها فكل ارادة منها تسير به مراحل على مهله فهو يسير رويداً وقد سبق السعادة كما قيل :

من لى بمثل سيرك المذلل تمشى رويداً وتجى فى الاول

قالوا : وأيضا فان هذه الدواعى والارادات انما تحمد عاقبتها اذا ردت صاحبها الى حال السليم منها فيكون كماله فى تشبيهه به وسيره معه فكيف يكون أكمل ممن كماله انما هو فى تشبهه به ، قالوا : وأيضا فالنفوس ثلاثة . أمارة . ولوامة . ومطمئنة والنفس الامارة هى المطيعة لدواعى طباعها وشهواتها فمبادى كونها أمارة هى تلك الدواعى والارادات فتستحكم

فتصير عزمات ثم توجب الافعال فمبدأ صفة الذم فيها تلك الدواعي، وأما النفس المطمئنة فهي التي عدمت هذه المبادى فعدمت غاياتها فكيف تكون مبادى النفس الامارة مما يوجب لها مزية على النفس المطمئنة ؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة أيضا لقولها، والحق ان كلا الطائفتين على صوابه من القول لكن كل فرقة لحظت غير ما لحظ الفرقة الاخرى فكأنهما لم يتواردا على محل واحد بل الفرقة الاولى نظرت الى نهاية سير المجاهد لنفسه وارادته وما ترتب له عليها من الاحوال والمقامات فأوجب لها شهود نهايته رجحانه فحكمت بترجيحه واستحلت بتفضيله، والفرقة الثانية نظرت الى بدايته في شأنه ذلك ونهاية النفس المطمئنة فأوجب لها شهود الأمرين الحكم بترجيح القلب الخالى من تلك الدواعي ومجاهدتها وكل واحدة من الطائفتين فقد أدلت بحجج لا تمانع وأنت ببينات لا ترد ولا تدافع ٠

وفصل الخطاب في هذه المسألة يظهر بمسألة يرتضع منها من لبانها ويخرج من مشكاتها وهي ان العبد اذا كان له حال أو مقام مع الله ثم نزل عنه الى ذنب ارتكبه ثم تاب من ذنبه هل يعود الى مثل ما كان أو لا يعود بل ان رجع رجع الى أنزل من مقامه وانقص من رتبته اويعود خيرا مما كان فقالت طائفة: يعود بالتوبة الى مثل حاله الاولى فان التائب من الذنب كمن لاذنب له واذا محى أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه فكأنه لم يكن فيعود الى مثل حاله، قالوا: ولان التوبة هي الرجوع الى الله بعد الاباق منه فان المعصية اباق العبد من ربه فاذا تاب الى الله فقد رجع اليه واذا كان مسمى التوبة هو الرجوع فلولم يعد الى حالته الاولى مع الله لم تكن توبته تامة والكلام انما هو في التوبة النصوح ٠

قالوا : ولان التوبة كما ترفع أثر الذنب في الحال بالاقلاع عنه وفي المستقبل بالعزم على أن لا يعود فكذلك ترفع اثره في الماضي جملة ومن اثره في الماضي انحطاط منزلته عند الله ونقصانه عنده فلابد من ارتفاع هذا الاثر بالتوبة

وإذا ارتفع بها عاد الى مثل حاله؛ قالوا : ولانه لو بقى نازلا من مرتبته منحطا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها لم تكن التوبة قد محت أثر الذنب ولا أفادت فى الماضى شيئا وان عاد الى دون منزلته ولم يبلغها فبلوغه تلك الدرجة انما كان بالتوبة فلو ضعف تأثير التوبة عن اعادته الى منزلته الأولى لضعف عن تبليغه تلك المنزلة التى وصل اليها وان لم تكن التوبة ضعيفة التأثير عن تبليغه تلك المنزلة لم تكن ضعيفة التأثير عن اعادته الى المنزلة الأولى ، قالوا : وأيضا سبحانه ربط الجزاء بالأعمال ربط الأسباب بمسبباتها فالجزاء من جنس العمل فكما رجع التائب الى الله بقلبه رجوعا تاما رجع الله عليه بمنزلته وحاله بل ما رجع العبد الى الله حتى رجع الله بقلبه اليه أولا فرجع الله اليه وتاب عليه ثانيا، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله توبة منه اذنا وتمكينا فتاب بها العبد وتاب الله عليه قبولا ورضى فتوبة العبد بين توبتين من الله وهذا يدل على عنايته سبحانه وبره ولطفه بعبده التائب فكيف يقال : انه لا يعيده مع هذا اللطف والبر الى حاله؟*

قالوا : وأيضا فان التوبة من أجل الطاعات وأوجبها على المؤمنين وأعظمها غناء عنهم وهم اليها أحوج من كل شىء وهى من أحب الطاعات الى الله فانه يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده اذا تاب اليه أعظم فرح وأكمله واذا كانت بهذه المثابة فالآتى بها آت بما هو من أفضل القربات وأجل الطاعات ،فاذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاط ونزول مرتبة فبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة فان لم تكن درجته بعد التوبة أعلى فانها لا تكون أنزل . قالوا : وأيضا فانا اذا قابلنا بين جناية المعصية والتقرب بالتوبة وجدنا الحاصل من التوبة أرجح من الأثر الحاصل من المعصية والكلام انما هو فى التوبة النصوح الكاملة و جانب الفضل أرجح

من جانب العدل ولهذا كان فى جانب العدل احاد باحاد وجانب الفضل احاد بعشرات الى سبعمائة الى اضعاف كثيرة وهذا يدل على رجحان جانب الفضل وغلبته، وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة فان رحمة الرب تغلب غضبه ، قالوا : وأيضا فالذنب بمنزلة المرض والتوبة بمنزلة العافية والعبد اذا مرض ثم عوفى وتكاملت عافيته رجعت صحته الى ما كانت بل ربما رجع أقوى وأكمل مما كانت عليه لأنه ربما كان معه فى حال العافية آلام وأسقام كامنة فاذا اعتل ظهرت تلك الأسقام ثم زالت بالعافية جملة فتعود قوته خيرا مما كانت واكمل ، وفى مثل هذا قال الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وهذا الوجه هو احد ما احتج به من قال: انه يعود بالتوبة خيرا مما كان قبل التوبة، واحتجوا لقولهم ايضا بأن التوبة تثمر للعبد محبة من الله خاصة لا تحصل بدون التوبة بل التوبة شرط فى حصولها وان حصل له محبة اخرى بغيرها من الطاعات فالمحبة الحاصلة له بالتوبة لا تنال بغيرها فان الله يحب التوابين ومن محبته له فرحه بتوبة أحدهم أعظم فرح وأكمله فاذا أثمرت له التوبة هذه المحبة ورجع بها الى طاعاته التى كان عليها أولا انضم أثرها إلى أثر تلك الطاعات فقوى الأثران فحصل له المزيد من القرب والوسيلة، وهذا بخلاف ما يظنه من نقصت معرفته بربه من أنه سبحانه اذا غفر لعبده ذنبه فانه لا يعود الود الذى كان له منه قبل الجناية *

واحتجوا فى ذلك بأثر اسرائيلى مكذوب ان الله قال لداود عليه السلام: يا داود أما الذنب فقد غفرناه وأما الود فلا يعود ، وهذا كذب قطعا فان الود يعود بعد التوبة النصوح أعظم مما كان فانه سبحانه يحب التوابين ولو لم يعد الود لما حصلت له محبته ، وأيضا فانه يفرح بتوبة التائب ومحال أن يفرح بها أعظم فرح وأكمله وهو لا يحبه ، وتأمل سر

اقتران هذين الاسمين في قوله تعالى: (إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود) تجد فيه من الرد والانكار على من قال: لايعود الود والمحبة منه لعبده أبدا ماهو من كنوز القرءان ولطائف فهمه ، وفى ذلك مايهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفا على ربه الذى لااله الا هو ولا رب له سواه عكوف المحب الصادق على محبوبه الذى لاغنى له عنه ولابد له منه ولاتندفع ضرورته بغيره أبدا .

واحتجوا أيضا بان العبد قد يكون بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية والانكسار والتذليل لله والتضرع بين يديه والبكاء على خطيئته والندم عليها والأسف والاشفاء ماهو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له فى دنياه وآخرته ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها اذ حصول الملزوم بدون لازمه محال والله يحب من عبده كسرته وتضرعه وذله بين يديه واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته فاذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيرا له وليس ذلك الا للمؤمن .

ولهذا قال بعض السلف: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء اليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، وقيل: أن فى بعض الآثار يقول الله تعالى لداود عليه السلام: ياداود كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك .

قالوا وقد قال غير واحد من السلف: كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، قالوا: ولهذا قال سبحانه: (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) فزاده على المغفرة أمرين . الزلفى وهى

درجة القرب منه وقد قال فيها سلف الامة وائمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم ومن اراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف . والثاني حسن المآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله، قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا وأن العبد بعد التوبة يعود خيرا مما كان، قالوا : وأيضا فان للعبودية لوازم وأحكاما وأسرارا وكمالات لا تحصل الا بها، ومن جملتها تكميل مقام الذل للعزيز الرحيم فان الله سبحانه يحب من عبده أن يكمل مقام الذل له وهذا هو حقيقة العبودية واشتقاقها يدل على ذلك فان العرب تقول: طريق معبد أى مذلل بوطء الاقدام.

والذل انواع أكملها ذل المحب لمحبوبه، الثاني ذل المملوك لمالكه، الثالث ذل الجاني بين يدى المنعم عليه المحسن اليه المالك له، الرابع ذل العاجز عن جميع مصالحه وحاجاته بين يدى القادر عليها التي هي في يده وبأمره، وتحت هذا قسمان، أحدهما ذل له في أن يجلب له ما ينفعه. والثاني ذل له في أن يدفع عنه ما يضره على الدوام، ويدخل في هذا ذل المصائب كالفقر والمرض وأنواع البلاء والمحن، فهذه خمسة أنواع من الذل اذا وفاها العبد حقها وشهدها كما ينبغي وعرف ما يراد به منه وقام بين يدى ربه مستصحبه لها شاهدا لذله من كل وجه ولعز ربه وعظمته وجلاله كانت قليل اعماله قائمة مقام الكثير من أعمال غيره، قالوا: وهذه أسرار لا تدرك بمجرد الكلام فمن لا نصيب له منها فلا يضره أن يخلى المطى وحاديها ويعطى القوس باريها

فللكثافة أقوام لها خلقوا وللمحبة أكباد وأجفان

قالوا: وأيضا فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لله اشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته» قالوا: وهذا أعظم ما يكون من الفرح وأكمله فان صاحب هذه الراحلة كان عليها مادة حياته من الطعام والشراب وهي مركبه الذي

يقطع به مسافة سفره فلو عدمه لانقطع فى طريقه فكيف اذا عدم مع مركبه طعامه وشرابه ثم انه عدمها فى أرض دوية لاأنيس بها ولا معين ولا من يأوى له ويرحمه ويحمله، ثم انها مهلكة لاماء بها ولا طعام فلما أيس من الحياة بفقدها وجلس ينتظر الموت اذا هو براحلته قد أشرفت عليه ودنت منه فأى فرحة تعدل فرحة هذا ولو كان فى الوجود فرح أعظم من هذا لمثل به النبى صلى الله عليه وءاله وسلم، ومع هذا ففرح الله بتوبة عبده اذا تاب اليه أعظم من فرح هذا براحلته، وتحت هذا سر عظيم يختص الله بفهمه من يشاء. فان كنت عن غلظ حجابه وكثفت نفسه وطباعه فعليك بوادى الخفا وهو وادى المحرفين للكلم عن مواضعه الواضعين له على غير المراد منه فهو واد قد سلكه خلق وتفرقوا فى شعابه وطرقه ومتاهاته ولم يستقر لهم فيه قدم ولا لجؤا منه الى ركن وثيق بل هم كحاطب الليل وحاطم السيل، وان نجاك الله من هذا الوادى فتأمل هذه الالفاظ النبوية المعصومة التى مقصود المتكلم بها غاية البيان مع مصدرها عن كمال العلم بالله وكمال النصيحة للامة، ومع هذه المقامات الثلاث أعنى كمال بيان المتكلم وفصاحته وحسن تعبيره عن المعانى وكمال معرفته وعلمه بما يعبر عنه وكمال نصحه وارادته لهداية الخلائق يستحيل عليه أن يخاطبهم بشىء وهو لا يريد منهم مايدل عليه خطابه بل يريد منه أمرا بعيدا عن ذلك الخطاب انما يدل عليه كدلالة الألغاز والاحاجى مع قدرته على التعبير عن ذلك المعنى بأحسن عبارة واوجزها فكيف يليق به ان يعدل عن مقتضى البيان الرافع للاشكال المزيل للاجمال ويوقع الأمة فى اودية التأويلات وشعاب الاحتمالات والتجويزات سبحانك هذا بهتان عظيم، وهل قدر الرسول حق قدره أو مرسله حق قدره من نسب كلامه سبحانه او كلام رسوله الى مثل ذلك، ففصاحة الرسول وبيانه وعلمه ومعرفته ونصحه وشفقته يدل عليه ان يكون مراده من كلامه

مايحمله عليه المحرفون للكلم عن مواضعه المتأولون له غير تأويله وان يكون كلامه من جنس الالغاز والاحاجى والحمد لله رب العالمين *

(فان قلت) فهل من مسلك غيرهذا الوادى الذى ذممته فنسلك فيه أو من طريق يستقيم عليه السالك؟ (قلت) نعم بحمد الله الطريق واضحة المنار بينة الأعلام مضيئة للسالكين، وأولها أن تحذف خصائص المخلوقين عن اضافتها الى صفات رب العالمين فان هذه العقدة هى أصل بلاء الناس فمن حلها فما بعدها أيسر منها ومن هلك بها فما بعدها أشد منها، وهل نفى أحد مانفى من صفات الرب ونعوت جلاله الا لسبق نظره الضعيف اليها واحتجابه بها عن أصل الصفة وتجردها عن خصائص المحدث فان الصفة يلزمها لوازم باختلاف محالها فيظن القاصر اذا رأى ذلك اللازم فى المحل المحدث أنه لازم لتلك الصفة مطلقا فهو يفر من اثباتها للخالق سبحانه حيث لم يتجرد فى ظنه عن ذلك اللازم وهذا كما فعل من نفى عنه سبحانه الفرح والمحبة والرضى والغضب والكراهة والمقت والبغض وردها كلها الى الارادة فانه فهم فرحا مستلزما لخصائص المخلوق من انبساط دم القلب وحصول ماينفعه وكذلك فهم غضبا هو غليان دم القلب طلبا للانتقام وكذلك فهم محبة ورضى وكراهة ورحمة مقرونة بخصائص المخلوقين فان ذلك هو السابق الى فهمه وهو المشهود فى علمه الذى لم تصل معرفته الى سواه ولم يحط علمه بغيره *

ولما كان هو السابق الى فهمه لم يجد بدا من نفيه عن الخالق والصفة لم تتجرد فى عقله عن هذا اللازم فلم يجد بدا من نفيها *

ثم لأصحاب هذه الطريق مسلكان . أحدهما : مسلك التناقض البين وهو اثبات كثير من الصفات ولايلتفت فيها الى هذا الخيال بل يثبتها مجردة عن خصائص المخلوق كالعلم . والقدرة . والارادة . والسمع . والبصر .

وغيرها فان كان اثبات تلك الصفات التى نفاها يستلزم المحذور الذى فر منه فكيف لم يستلزمه اثبات ماأثبته؟ وان كان اثبات ماأثبته لا يستلزم محذورا فكيف يستلزمه اثبات مانفاه وهل فى التناقض أعجب من هذا؟*

والمسلك الثانى مسلك النفى العام والتعطيل المحض هربا من التناقض والتزاما لاعظم الباطل وأمحل المحال فاذا الحق المحض والاثبات المحض الذى أثبته الله لنفسه فى كلامه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تبديل ، ومنشأ غلط المحرفين انما هو ظنهم أن مايلزم الصفة فى المحل المعين يلزمها لذاتها فينفون ذلك اللازم عن الله فيضطرون فى نفيه الى نفي الصفة ، ولا ريب أن الأمور ثلاثة أمر يلزم الصفة لذاتها من حيث هى فهذا لا يجب بل لا يجوز نفيه كما يلزم العلم والسمع والبصر من تعلقها بمعلوم ومسموع ومبصر فلا يجوز نفى هذه التعلقات عن هذه الصفات اذ لا تحقق لها بدونها وكذلك الارادة مثلا تستلزم العلم لذاتها فلا يجوز نفى لازمها عنها ، وكذلك السمع والبصر والعلم يستلزم الحياة فلا يجوز نفى لوازمها، وكذلك كون المرئى مرئيا حقيقة له لوازم لا ينفك عنها ولا سبيل الى نفى تلك اللوازم الا بنفى الرؤية ، وكذلك الفعل الاختيارى له لوازم لا بد فيه منها فمن نفى لوازمه نفى الفعل الاختيارى ولا بد ه

ومن هنا كان أهل الكلام أكثر الناس تناقضا واضطرابا فانهم ينفون الشئ ويثبتون ملزومه ويثبتون الشئ وينفون لازمه فتناقض أقوالهم وأدلتهم ويقع السالك خلفهم فى الحيرة والشك ، ولهذا يكون نهاية أمر اكثرهم الشك والحيرة حاشى من هو فى خفارة بلادته منهم او من قد خرق تلك الخيالات وقطع تلك الشبهات وحكم الفطرة والشرعة والعقل المؤيد بنور الوحى عليها فنقدها نقد الصيارف فنفى زغلها وعلم ان الصحيح منها اما أن يكون قد تولت النصوص بيانه واما ان يكون فيها غنية عنه بما هو خير منه وأقرب طريقا وأسهل تناولا لا يستفيد المؤمن البصير بما جاء

به الرسول العارف به من المتكلمين سوى مناقضة بعضهم بعضا ومعارضته وإبداء بعضهم عوار بعض ومحاربة بعضهم بعضا فيتولى بعضهم محاربة بعض ويسلم ماجاء به الرسول، فاذا رأى المؤمن العالم الناصح لله ولرسوله أحدهم قد تعدى الى ماجاء به الرسول يناقضه ويعارضه فليعلم انهم لا طريق لهم الى ذلك أبدا ولا يقع ردهم الا على آراء أمثالهم وأشباههم، وأما ماجاء به الرسول فمحفوظ محروس مصون من تطرق المعارضة والمناقضة اليه فان وجدت شيئا من ذلك فى كلامهم فبدار بدار الى ابداء فضائحهم وكشف تلبيسهم ومحالهم وتناقضهم وتبين كذبهم على العقل والوحى فانهم لا يردون شيئا مما جاء به الرسول الا بزخرف من القول يغتر به ضعيف العقل والايمان فاكشفه ولا تهنه تجده كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، ولولا ان كل مسائل القوم وشبههم التى خالفوا فيها النصوص بهذه المثابة لذكرنا من أمثلة ذلك ماتقر به عيون أهل الايمان السائرين الى الله على طريق الرسول وأصحابه، وان وفق الله سبحانه جردنا لذلك كتابا مفردا، وقد كفانا شيخ الاسلام ابن تيمية هذا المقصد فى عامة كتبه لاسيما كتابه الذى وسمه ببيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح فمزق فيه شملهم كل ممزق وكشف أسرارهم وهتك أستارهم فجزاه الله عن الاسلام واهله من أفضل الجزاء *

واعلم انه لا ترد شبهة صحيحة قط على ماجاء به الرسول بل الشبهة التى يوردها أهل البدع والضلال على أهل السنة لا تخلو من قسمين، اما أن يكون القول الذى أوردت عليه ليس من أقوال الرسول بل يكون نسبته اليه غلطا وهذا لا يكون متفقا عليه بين أهل السنة أبدا بل يكون قد قاله بعضهم وغلط فيه فان العصمة انما هى لمجموع الامة لا لطائفة معينة منها، وأما أن يكون القول الذى أوردت عليه قولا صحيحا لكن لا ترد تلك الشبهة

عليه وحينئذ فلابد له من احد أمرين إما ان تكون لازمة واما الا تكون لازمة فان كانت لازمة لما جاء بها الرسول فهى حق لاشبهة اذ لازم الحق حق ولا ينبغى الفرار منها كا يفعل الضعفاء من المنتسبين الى السنة بل كل مالزم من الحق فهو حق يتعين القول به كائنا ماكان وهل تسلط أهل البدع والضلال على المنتسبين للسنة الا بهذه الطريق الزموهم بلوازم تلزم الحق فلم يلتزموها ودفعوها وأثبتوا ملزوماتها فتسلطوا عليهم بما أنكروه لا بما أثبتوه فلو أثبتوا لوازم الحق ولم يفروا منها لم يجد أعداؤهم اليهم سبيلا وان لم تكن لازمة لهم فالزامهم اياها باطل ، وعلى التقدين فلا طريق لهم الى رد أقوالهم .

وحينئذ فلهم جوابان مركب مجمل ومفرد مفصل ، أما الأول فيقولون لهم : هذه اللوازم التى تلزمونا بها اما أن تكون لازمة فى نفس الأمر واما أن لا تكون لازمة فان كانت لازمة فهى حق اذ قد ثبت أن ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو الحق الصريح ولازم الحق حق وان لم تكن لازمة فهى مندفعة ولا يجوز الزامها ولا التزامها ، وأما الجواب المفصل فيفردون كل الزام بجواب ولا يردونه مطلقا بل ينظرون الى ألفاظ. ذلك الالزام ومعانيه فان كان لفظها موافقا لما جاء به الرسول يتضمن اثبات ما أثبته ونفي ما نفاه فلا يكون المعنى الا حقا فيقبلون ذلك الالزام ، وان كان مخالفا لما جاء به الرسول ﷺ متضمنا لنفى ما أثبته أو اثبات ما نفاه كان باطلا لفظا ومعنى فيقابلونه بالرد ، وان كان لفظا مجملا محتملا لحق وباطل لم يقبلوه مطلقا ولم يردوه مطلقا حتى يستفسروا قائله ماذا أراد به فان أراد معنى صحيحا مطابقا لما جاء به الرسول ﷺ قبلوه ولم يطلقوا اللفظ المحتمل اطلاقا وان أراد معنى باطلا ردوه ولم يطلقوا نفى اللفظ المحتمل أيضا ، فهذه قاعدتهم التى بها يعتصمون وعليها يعولون ، وبسط هذه الكلمات تستدعى

أسفارا لاسفر اواحدا ومن لاضياء له لاينتفع بها ولا بغيرها فلنقتصر عليها ه

ولنعد الى المقصود فنقول وبالله التوفيق. فرح الرب سبحانه هذا الفرح العظيم بتوبة عبده اذا تاب اليه هو من ملزومات محبته ولوازمها أعنى كونه محبا لعباده المؤمنين ، محبوبا لهم . وإنما خلق خلقه لعبادته المتضمنة لكمال محبته والخضوع له . ولهذا خلق الجنة والنار. ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب وهذا هو الحق الذى خلق به السموات والأرض وأنزل به الكتاب قال تعالى: (١٥ :٨٦ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)، وقال تعالى : (١٠ : ٣ - ٥ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ - الى قوله - هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) وقوله : (٣ : ١ - ٣ الم اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق والاول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضا فبالحق كان الخلق والامر وعنه صدر الخلق والامر وقال (٥١ : ٥٦ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هى عبادته التى أصلها كمال محبته وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد ، يحب أن يحمد ، ويثنى عليه ، ويذكر بأوصافه العلى ، وأسمائه الحسنى . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح «لا احد أحب اليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى

على نفسه (١) » وفى المسند من حديث الاسود بن سريع أنه قال : «يارسول الله ، انى حمدت ربى بمحامد فقال : ان ربك يحب الحمد» فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثنى على نفسه . ويحمد نفسه، ويقدس نفسه، ويحب من يحبه ويحمده ويثنى عليه . بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم فلا أحد أحب اليه ممن يحبه ويحمده ويثنى عليه . ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الاشياء اليه . لانه ينقص هذه المحبة . ويجعلها بينه وبين من أشرك به ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به لان الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة ، والتسوية فيما بينه وبين غيره ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التى ينقص بها من عينه ، وتسقط بها مرتبته عنده اذا كان من المخلوقين فكيف يحتمل رب العالمين ان يشرك بينه وبين غيره فى المحبة . والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضى به ولا يغفر هذا الذنب لمحبه ابدا وعساه ان يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات فى حقه . ومتى علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب : ولم يقربه اليه . هذا مقتضى الطبيعة والفطرة . أفلا يستحى العبد ان يسوى بين اله ومعبوده . وبين غيره فى هذه العبودية والمحبة ؟ قال تعالى :(٢: ١٦٥ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) فأخبر سبحانه أن من أحب شيئا دون الله كما يحب الله فقد اتخذه ندا . وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم

---

(١) رواه الطبرانى عن الاسود بن سريع . بلفظ «ليس أحد أحب اليه المدح من الله ، ولا أحد أكثر معاذير من الله » كذا فى الجامع الصغير

(٢٦ : ٩٧ - ٩٨ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ) فهذه تسوية فى المحبة والتأليه لا فى الذات والأفعال والصفات .

والمقصود : أنه سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك ؛ وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك وهذا هو محض الحق الذى به قامت السموات والارض وكان الخلق والامر فاذا قام به العبد فقد قام بالامر الذى خلق له فرضى عنه صانعه وبارئه ، وأحبه اذ كان يحب ويرضى فاذا صدف عن ذلك وأعرض عنه . وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته . لانه خرج عما خلق له وصار الى ضد الحال التى هو لها . فاستوجب منه غضبه بدلا من رضاه . وعقوبته بدلا من رحمته فكأنه استدعى من رحمته أن يعامله من نفسه بخلاف مايحب . فانه سبحانه عفو يحب العفو ، محسن يحب الاحسان ، جواد يحب الجود . سبقت رحمته غضبه . فاذا أبق منه العبد وخامر عليه (١) ذاهبا الى عدوه فقد استدعى منه أن يجعل غ به غالبا على رحمته . وعقوبته على احسانه . وهو سبحانه يحب من نفسه الاحسان والبر والانعام فقد استدعى من ربه فعل ماغيره أحب اليه منه . وهو بمنزلة عبد السوء الذى يحمل أستاذه من المخلوقين . المحسن اليه ، الذى طبيعته الاحسان والكرم ، على خلاف مقتضى طبيعته وسجيته . فأستاذه يحب لطبعه الاحسان . وهو باساءته ولؤمه يكلفه ضد طباعه . ويحمله على خلاف سجيته فاذا راجع هذا العبد مايحب سيده ،

---

(١) خامر عليه . اى تغير عن حاله مع الله . وانقلب الى عدوه .

ورجع اليه وأقبل عليه ورجع عن عدوه فقد صار الى الحال التى تقتضى محبة سيده له . وانعامه عليه . واحسانه اليه . فيفرح به ولا بد أعظم فرح وهذا الفرح هو دليل غاية الكمال والغنى والمجد *

فليتدبر اللبيب وجود هذا الفرح ولوازمه وملزوماته يجد فى طيه من المعارف الالهية مالا يتسع له الا القلوب المهيأة لهذا الشأن المخلوقة له وهذا فرح محسن بر . لطيف جواد غنى حميد . لا فرح محتاج الى حصول متكمل به . مستقبل له من غيره فهو عين الكمال لازم للكمال ملزوم له *

والطف من هذا الوجه ان الله سبحانه خلق عباده المؤمنين . وخلق كل شيء لاجلهم كما قال تعالى :(٣١ : ٢٠ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق فقال:(١٧ : ٧٠ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [وقال](١) لصالحيهم وصفوتهم (٣ : ٣٣ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) وقال لموسى (٢٠ : ٤١ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) واتخذ منهم الخليلين والخلة أعلى درجات المحبة *

وقد جاء فى بعض الآثار يقول تعالى : « ابن آدم خلقتك لنفسى . وخلقت كل شيء لك . فبحقى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له »

---

(١) زدنا (وقال) لان السياق يقتضيه. ولا بد أنه سقط من الاصل ما هو فى معناه

وفى أثر آخر يقول تعالى: «ابن آدم: خلقتك لنفسى. فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم اطلبنى تجدنى فان وجدتنى وجدت كل شىء وان فتك فاتك كل شىء وانا احب اليك من كل شىء».

فالله سبحانه خلق عباده له ولهذا اشترى منهم أنفسهم وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم، فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ ليسلموا اليه النفوس التى خلقها له، وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له، مصطفاة عنده، مرضية لديه، وقدر السلعة تعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها، هذا اذا جهل قدرها فى نفسها فاذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها، وعرف الثمن المبذول فيها علم شأنها ومرتبتها فى الوجود، فالسلعة أنت، والله المشترى، والثمن جنته، والنظر الى وجهه، وسماع كلامه فى دار الأمن والسلام، والله لا يصطفى لنفسه الا أعز الأشياء وأشرفها وأعظمها قيمة، واذا كان قد اختار العبد لنفسه، وارتضاه لمعرفته ومحبته، وبنى له دارا فى جواره وقربه، وجعل ملائكته خدمه، يسعون فى مصالحه فى يقظته ومنامه وحياته وموته، ثم انه العبد أبق عن سيده ومالكه، معرضا عن رضاه ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه وصالح عدوه ووالاه من دونه، وصار من جنده، مؤثرا لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه فقد باع نفسه التى اشتراها منه إلهه ومالكه. وجعل ثمنها جنته والنظر الى وجهه من عدوه وأبغض خلقه اليه واستبدل غضبه برضاه، ولعنته برحمته ومحبته، فأى مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه.

قال تعالى (١٨: ٥٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ

لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) *

فتأملَ ماتحتَ هذه المعاتبة ومافى طى هذا الخطاب من سوء هذا العبد وماتعرض له من المقت والخزى والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه الى العود الى وليه ومولاه الحق الذى هو أولى به فاذا عاداليه وتاب اليه فهو بمثابة من أسرله العدو وحبوا له ، واستولواعليه وحالوا بينه وبينه فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء الى محبه اختيارا وطوعا حتى توسد عتبة بابه فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسدا عتبة بابه واضعا خده وذقنه عليها فكيف يكون فرحه به ؟ ولله المثل الأعلى *

ويكفى فى هذا المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر ماقى طيه ومافى ضمنه وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل بل كلام معصوم فى منطقه وعلمه وقصده وعمله كل كلمة منه فى موضعها ومنزلتها ومقرها لايتعدى بها عنه ولا يقصر بها *

والذى يزيد هذا المعنى تقريرا ان محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له سبحانه فانه لولا محبة الله له لما جعل محبته فى قلبه فانه ألهمه حبه وآثره به فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها فانه من تقرب إليه شبرا تقرب اليه ذراعا ومن تقرب اليه ذراعا تقرب اليه باعا ومن أتاه مشيا أتاه هرولة(١) وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذى يحب فوق محبة العبد له. واذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذى فرمن محبه وآثر غيره عليه فاذا عاوده وأقبل اليه وتخلى عن غيره فكيف لايفرح به محبة أعظم

---

(١) روى البخارى عن انس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال. قال الله تعالى: « اذا تقرب الى عبدى شبرا تقربت منه ذراعا واذا تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا . واذا اتانى يمشى اتيته هرولة »

فرح وأكمله والشاهد أقوى شاهداً بهذا والفطرة والعقل، فلولم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الامر العظيم لكان فى الفطرة والعقل ما يشهد به فاذا انضافت الشرعة المنزلة الى العقل المنور فذلك الذى لاغاية له بعده وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *

﴿ فصل ﴾ ومتى أراد العبد شاهد هذا من نفسه فلينظر الى الفرحة التى يجدها بعد التوبة النصوح، والسرور واللذة التى تحصل له، والجزاء من جنس العمل. فلما تاب الى الله ففرح الله بتوبته أعقبه فرحا عظيما

وههنا دقيقة قل من يتفطن لها إلا فقيه فى هذا الشأن. وهى أن كل تائب لابد له فى أول توبته من عصرة وضغطة فى قلبه من هم أوغم أوضيق أوحزن ولولم يكن الا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره فاكثر الخلق رجعوا من التوبة ونكسوا على رؤسهم لاجل هذه المحنة، والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة فكلما كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم ولذلك أسباب عديدة *

منها ان هذه العصرة والقبض دليل على حياة قلبه، وقوة استعداده ولو كان قلبه ميتا واستعداده ضعيفا لم يحصل له ذلك *

وأيضا فان الشيطان لص الايمان واللص انما يقصد المكان المعمور وأما المكان الخراب الذى لا يرجو أن يظفر منه بشئ فلا يقصده فاذا قويت المعارضات الشيطانية والعصرة دل على أن فى قلبه من الخير ما يشتد حرص الشيطان على نزعه منه *

وأيضا فان قوة المعارض والمضاد تدل على قوة معارضه وضده. ومثل هذا إما أن يكون راسا فى الخير أوراسا فى الشر فان النفوس الأبية القوية إن كانت خيرة رأست فى الخير: وإن كانت شريرة رأست فى الشر *

وأيضا فان بحسب موافقته لهذا العارض وصبره عليه يثمر له ذلك من اليقين والثبات والعزم ما يوجب زيادة انشراحه وطمأنينته .

وأيضا فانه كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه، هذه سنة الله فى الخلق . فانظر الى الجنة وعظمها. والى الموانع والقواطع التى حالت دونها حتى أوجبت ان ذهب من كل ألف رجل واحد اليها وانظر الى محبة الله والانقطاع اليه والانابة اليه، والتبتل اليه وحده ، والانس به واتخاذه وليا ووكيلا وكافيا وحسيبا هل يكتسب العبد شيئا أشرف منه؟، وأنظر الى القواطع والموانع الحائلة دونه، حتى قد تعلق كل قوم بما تعلقوا به دونه. والطالبون له منهم الواقف مع عمله. والواقف مع علمه ، والواقف مع حاله ، والواقف مع ذوقه وجمعيته وحظه من ربه والمطلوب منهم وراء ذلك كله .

والمقصود ان هذا الامر الحاصل بالتوبة لما كان من أجل الامور وأعظمها نصبت عليه المعارضات والمحن ، ليتميز الصادق من الكاذب وتقع الفتنة. ويحصل الابتلاء ويتميز من يصلح ممن لا يصلح قال تعالى (٢٩ .١-٢ الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)وقال (٦٧: ٢ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ولكن إذا صبر على هذه العصرة قليلا أفضت به الى رياض الانس وجنات الانشراح وان لم يصبر لها انقلب على وجهه والله الموفق لا اله غيره ولا رب سواه .

والمقصود أن هذا الفرح من الله بتوبة عبده مع أنه لم يأت نظيره فى غيرها من الطاعات دليل على عظم قدر التوبة وفضلها عند الله وأن

التعبد له بها من أشرف التعبدات وهذا يدل على أن صاحبها يعود أكمل مما كان قبلها، فهذا بعض ما احتج به لهذا القول *

وأما الطائفة التي قالت: لا يعود الى مثل ما كان بل لا بد أن ينقص حاله. فاحتجوا بان الجناية توجب الوحشة وزوال المحبة ونقص العبودية بلاريب . فليس العبد الموفر أوقاته على طاعة سيده كالعبد المفرط في حقوقه، وهذا مما لا يمكن حجده ومكابرته . فاذا تاب الى ربه ورجع اليه أثرت توبته ترك مؤاخذته بالذنب والعفو عنه. وأما مقام القرب والمحبة فهيهات أن يعود *

قالوا . ولان هذا في زمن اشتغاله بالمعصية قدفاته فيه السير الى الله. فلو كان واقفا في موضعه لفاته التقدم. فكيف وهو في زمن المعصية كان سيره الى وراء وراء . فاذا تاب واستقبل سيره فانه يحتاج الى سير جديد وقطع مسافة حتى يصل الى الموضع الذي تأخر منه *

قالوا: ونحن لاننكر انه قد يأتي بطاعات وأعمال تبلغه الى منزلته . وهذا مما لايكون . فانه بالتوبة قد وجه وجهه الى الطريق. فلا يصل الى مكانه الذي رجع منه إلا بسير مستأنف يوصله اليه. ونحن لا ننكر أن العبد بعد التوبة يعمل اعمالا عظيمة لم يكن ليعملها قبل الذنب توجب له التقدم *

قالوا: وأيضا فلو رجع الى حاله التي كان عليها ، أو الى أرفع منها لكان بمنزلة المداوم على الطاعة أو أحسن حالا منه . فكيف يكون هذا؛ وأين مسير صاحب الطاعة في زمن اشتغال هذا بالمعصية؟، وكيف يلتقي رجلان أحدهما سائر نحو المشرق والآخر نحو المغرب . فاذا رجع أحدهما الى طريق الآخر والآخر مجد على سيره فانه لا يزال سابقه مالم يعرض له فتور لو توان هذا مما لا يمكن حجده ودفعه *

قالوا: وأيضا فرض القلب بالذنوب على مثال مرض الجسم بالاسقام.

والتوبة بمنزلة شرب الدواء . والمريض اذا شرب الدواء وصح فانه لا تعود اليه قوته قبل المرض . وان عادت فبعد حين *

قالوا : وأيضا فهذا فى زمن معالجة التوبة ملبوك فى نفسه ، مشغول بمداواتها ومعالجتها . وفى زمن الذنب مشغول بشهوتها . والسالم من ذلك مشغول بربه قد قرب منه فى سيره فكيف يلحقه هذا *

فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة لقولها *

وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الاسلام ابن تيمية . فسمعته يحكى هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة ، فاما سألته وإما سئل عن الصواب منها فقال : الصواب ان من التائبين من يعود الى مثل حاله . ومنهم من يعود الى أكمل منها . ومنهم من يعود الى انقص مما كان فان كان بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأشد حذرا واعظم تشميرا ، وأعظم ذلا وخشية وإنابة عاد الى أرفع مما كان . وإن كان قبل الخطيئة أكمل فى هذه الامور ولم يعد بعد التوبة اليها عاد الى انقص مما كان عليه . وان كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع الى مثل منزلته . هذا معنى كلامه *

﴿قلت﴾ وههنا مسألة هذا الموضوع أخص المواضع ببيانها . وهى ان التائب إذا تاب الى الله توبة نصوحا فهل تمحى تلك السيئات ، ويذهب لا له ولا عليه اواذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديما وحديثا *

فقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة لكن يجعل مكان السيئة التوبة . والحسنة مع التوبة *

قال ابن عطية : يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة فيكون ذلك سببا لرحمة الله إياهم . قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وابن زيد ، والحسن *

ورد على من قال : هو فى يوم القيامة قال : وقد ورد حديث فى كتاب

مسلم من طريق أبى ذر يقتضى ان الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات . وذكره الترمذى والطبرى وهذا تأويل سعيد بن المسيب فى هذه الآية قال ابن عطية : وهو معنى كرم العفو . هذا ءاخر كلامه *

﴿قلت﴾ سيأتى إن شاء الله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه *]

قال المهدوى : وروى معنى هذا القول عن سلمان الفارسى ، وسعيد ابن جبير . وغيرهما *

وقال الثعلبى : قال ابن عباس ، وابن جريج ، والضحاك ، وابن زيد: يبدل الله سيئاتهم حسنات يبدلهم الله بقبيح أعمالهم فى الشرك محاسن الأعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك إيمانا . وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا *

وقال ءاخرون : يعنى يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى حال إسلامهم حسنات يوم القيامة *

وأصل القولين ان هذا التبديل هل هو فى الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال : انه فى الدنيا قال : هو تبديل الأعمال القبيحة، والارادات الفاسدة باضدادها وهى حسنات وهذا تبديل حقيقة ، والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة لا تنقلب حسنة بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها . فاما أن تنقلب حسنة فلا فانها لم تكن طاعة وانما كانت بغيضة مكروهة للرب فكيف تنقلب محبوبة مرضية؟ *

قالوا: وأيضا فالذى دل عليه القرءان انما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب. كقوله تعالى :(٣ :١٩٣ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا) وقوله تعالى : (٤٢ : ٢٥ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ) وقوله تعالى:

(٣٩: ٥٣ انَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)والقرآن مملوء من ذلك. وفى الصحيح من حديث قتادة عن صفوان بن محرز قال قال رجل لابن عمر : « كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ قال : سمعته يقول : يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول: هل تعرف ؟ فيقول: رب أعرف قال : فانى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤس الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل » فهذا الحديث المتفق عليه ، الذى تضمن العناية بهذا العبد إنما فيه ستر ذنوبه عليه فى الدنيا ، ومغفرتها له يوم القيامة ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها، وقد قال الله فى حق الصادقين : (٣٩ : ٣٥ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) فهؤلاء خيار الخلق . وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيآت أعمالهم ، ويجزيهم بأحسن ما يعملون وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها وأما السيآت أن تلغى ويبطل أثرها .

قالوا : وأيضا فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات فى حق التائب لكان أحسن حالا من الذى لم يرتكب منها شيئا وأكثر حسنات منه. لأنه إذا أساء شاركه فى حسناته التى فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له .

قالوا: وأيضا فكما أن العبد إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها فانها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها ، بل يبطل أثرها ، ويكون لا له ولا عليه ،

وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها فانها لاتنقلب حسنات *

(فان قلتم) وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته لم ننازعكم فى هذا وليس هذا معنى الحسنة فان الحسنة تقتضى ثوابا وجوديا *

واحتجت الطائفة الأخرى التى قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بان قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون فى السيئة المحققة وهى التى قد فعلت ووقعت فاذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة *

قالوا: ولهذا قال تعالى: (سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) فاضاف السيئات اليهم لكونهم باشروها واكتسبوها ونكر الحسنات ولم يضفها اليهم . لانها من غير صنعهم وكسبهم . بل هي مجرد فضل الله وكرمه *

قالوا: وأيضا فالتبديل فى الآية إنما هو فعل الله لافعلهم . فانه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات ولو كان المراد ماذكرتم لاضاف التبديل اليهم فانهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات والأعمال إنما تضاف الى فاعلها وكاسبها . كما قال الله تعالى (٢ : ٥٩ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) وأما ما كان من غير الفاعل فانه يجعله من تبديله هو . كما قال الله تعالى : (٣٤ : ١٦ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ) فلما اخبر سبحانه أنه هو الذى يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شىء فعله هو سبحانه بسيئاتهم ، لاأنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم . وإن كان سببه منهم . وهو التوبة والايمان والعمل الصالح *

قالوا: ويدل عليه ماروا مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن

المعرور بن سويد عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «انى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة . وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم . لايستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ان تعرض عليه فيقال له: فان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول: رب . قد عملت أشياء لاأراها هنا . فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه» وقال الامام احمد: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن ابى ذر قال: قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه قال: فتعرض عليه، ويخبأ عنه كبارها . فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وهو مقر لاينكر . وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . قال: فيقول: إن لى ذنوبا ما أراها . فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه» .

قالوا: وايضا فروى ابو حفص المستملى عن محمد بن عبد العزيز بن ابى رزمة حدثنا الفضل بن موسى القطيعى عن ابى العنبس عن ابيه عن ابى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من

السَّيِّئَاتِ قِيلَ : مَنْ هُمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ بَدَّلَ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ *

قالوا : وهؤلاء هم الابدال فى الحقيقة فانهم إنما سموا ابدالا لانهم بدلوا اعمالهم السيئة بالاعمال الحسنة فبدل الله سيئاتهم التى عملوها حسنات *

قالوا . وايضا فالجزاء من جنس العمل . فكما بدلوا هم اعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقا *

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث ابى ذر على صحة قولكم وهو صريح فى ان هذا الذى قد بدلت سيئاته حسنات قد عذب عليها فى النار حتى كان آخر اهلها خروجا منها ؟ فهذا قد عوقب على سيئاته فزال اثرها بالعقوبة ، فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهذا حكم غير ما نحن فيه فان الكلام فى التائب من السيئات لا فيمن مات مصرا عليها غير تائب فاين احدهما من الآخر ؟ *

واما حديث الامام احمد فهو الحديث بعينه اسنادا ومتنا الا انه مختصر *

واما حديث ابى هريرة فلا يثبت مثله ومن ابو العنبس ومن ابوه حتى يقبل منهما تفردهما بمثل هذا الامر الجليل ؟ وكيف يصح مثل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ مع شدة حرصه على التنفير من السيئات ، وتقبيح اهلها وذمهم وعيبهم ، والاخبار بأنها تنقص الحسنات وتضادها؟ فكيف يصح عنه ﷺ انه يقول : « ليتمنين اقوام انهم اكثروا منها » ؟ ثم كيف يتمنى المرء اكثاره منها ، مع سوء عاقبتها ، وسوء مغبتها ؟ وانما يتمنى الاكثار من الطاعات ؟ » *

وفى الترمذى مرفوعا ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ ، فهذا فيه تمنى البلاء

يوم القيامة لاجل مزيد ثواب أهله ، وهو تمنى الحسنات . واما تمنى الحسنات فهذا لاريب فيه . واما تمنى السيئات فكيف يتمنى العبد انه اكثر من السيئات ؟ هذا الايكون ابدا وانما يتمنى المسيء ان لولم يكن اساء واما تمنيه انه ازداد من اساءته فكلا *

قالوا : واما ماذكرتم من ان التبديل هو اثبات الحسنة مكان السيئة فحق . وكذلك نقول : ان الحسنة المفعولة صارت فى مكان السيئة التى لولا الحسنة لحلت محلها *

قالوا : وأما احتجاجكم باضافة السيئات اليهم . وذلك يقتضى أن تكون هى السيئات الواقعة . وتنكير الحسنات، وهو يقتضى أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها مقارنا لكسبهم اياها بفضله ؟

قالوا : وأما قولكم : إن التبديل مضاف الى الله لااليهم . وذلك يقتضى أنه هو الذى بدلها من الصحف لأنهم هم الذين بدلوا الأعمال باضدادها . فهذا لادليل لكم فيه فان الله خالق أفعال العباد ، فهو المبدل للسيئات حسنات خلقا وتكوينا . وهم المبدلون لها فعلا وكسبا *

قالوا : واما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل . فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم بدلها الله كذلك فى صحف الأعمال . فهذا حق وبه نقول : وأنه بدلت السيئات التى كانت مهيأة ومعدة أن تحل فى الصحف بحسنات حلت موضعها *

فهذا منتهى اقدام الطائفتين ، ومحط نظر الفريقين . واليك أيها المنصف الحكم بينهما . فقد أدلى كل منهما بحجته . وأقام بينته . والحق لايعدوهما ولايتجاوزهما فأرشد الله من أعان على هدى فنال به درجة الداعين الى الله القائمين ببيان حججه ودينه ، أو عذر طالبا منفردا فى طريق

مطلبه قد انقطع رجاؤه من رفيق فى الطريق ، فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره ، وأن لايقطع عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر اليه فقد رضى بالدون وحصل على صفقة المغبون ، ومن شمر اليه ورام أن لايعارضه معارض ، ولا يتصدى له مانع فقد منى نفسه المحال . وإن صبر على لأوائها وشدتها فهو والله الفوز المبين والحظ الجزيل . وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب *

فالصواب ان شاء الله فى هذه المسألة : ان يقال : لاريب أن الذنب نفسه لاينقلب حسنة . والحسنة انما هى أمر وجودى يقتضى ثوابا . ولهذا كان تارك المنهيات انما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهى . وذلك الكف والحبس أمر وجودى وهو متعلق الثواب . وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلا ولم يحدث به نفسه فهذا كيف يثاب على تركه ، ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثابا على ترك ذنوب العالم التى لاتخطر بباله . وذلك أضعاف حسناته بما لايحصى . فان الترك مستصحب معه . والمتروك لاينحصر ولا ينضبط فهل يثاب على ذلك كله؟ وهذا مما لايتوهم . واذا كانت الحسنة لا بد أن تكون امرا وجوديا فالتائب من الذنوب التى عملها قد قارن كل ذنب منها ندما عليه ، وكف نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب ، وقد محت التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم ، وهو حسنة قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض المفسرين : يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة فاذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبته منها حسنة حلت مكانها . فهذا معنى التبديل ، لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة *

وقال بعض المفسرين فى هذه الآية : يعطيهم بالندم على كل سيئة أساؤها حسنة .

وعلى هذا فقد زال بحمد الله الاشكال . واتضح الصواب . وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ماخرجت عن موجب العلم والحجة .

وأما حديث أبى ذر ، وان كان التبديل فيه فى حق المصر الذى عذب على سيئاته . فهو يدل بطريق الاولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته فان الذنوب التى عذب عليها المصر لما زال أثرها بالعقوبة بقيت كان لم تكن ، فاعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة . لان ماحصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها مع العقوبة لايقتضى زوال أثرها وتبديلها حسنات . فان الندم لم يكن فى وقت ينفعه . فلما عوقب عليها وزال أثرها بدلها الله له حسنات فزوال أثرها بالتوبة النصوح أعظم من زوال أثرها بالعقوبة . فاذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة حسنات فلأن تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات أولى وأحرى ، وتأثير التوبة فى هذا المحو والتبديل أقوى من تاثير العقوبة . لأن التوبة فعل اختيارى أتى به العبد طوعا ومحبة لله . وفرقا منه . وأما العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التى تصيبه بغير اختياره ، بل بفعل الله . ولاريب أن تأثير الافعال الاختيارية التى يحبها الله ويرضاها فى محو الذنوب أعظم من تأثير المصائب التى تناله بغير اختياره .

ولنرجع الآن الى المقصود . وهو ماذكره أبو العباس بن الصائف فى علل المقامات . فقد ذكرنا كلامه فى علة مقام الارادة ، وذكرنا أن الكلام على ذلك من وجوه هذا آخر الوجه الثانى منها .

﴿الوجه الثالث﴾ أن يقال : قوله : الزهد تعظيم للدنيا واحتباس عن الانتفاع بها الى آخر الفصل .

ان أراد به أن زهده دليل على تعظيم الدنيا وأن لها فى قلبه من القدر والمنزلة مايكره لاجله نفسه على تركها . أو مستلزم لذلك . فان الزهد لا يدل على هذا التعظيم . ولا يستلزمه . وإن كان من عوارض غلبات الطبع التى تذم مساكنتها وانجذاب القلب بها ، بل زهده فيها دليل على خروج عظمها من قلبه ومبالاته بها وترك الاحتفال بشأنها . فكيف يكون هذا نقصا بوجه ؟ بل النقص فى الزهد يكون من أحد وجوه ثلاثة :

اما أن يزهد فيما ينفعه منها . ويكون قوة له على سيره ، ومعونة له على سفره ، فهذا نقص . فان حقيقة الزهد : هى أن تزهد فيما لا ينفعك . والورع أن تتجنب ما قد يضرك . فهذا الفرق بين الامرين *

﴿ الثانى ﴾ أن يكون زهده مشوبا اما بنوع عجز أو ملالة وسآمة ، وتأذيه بها وبأهلها ، وتعب قلبه بشغله بها ونحو هذا من المزهدات فيها . كما قيل لبعضهم : ماالذى أوجب زهدك فى الدنيا؟ قال : قلة وفائها وكثرة جفائها ، وخسة شركائها فهذا زهد ناقص ، فلو صفت للزاهد من تلك العوارض لم يزهد فيها ، بخلاف من كان زهده فيها لامتلاء قلبه من الآخرة ، ورغبته فى الله وقربه فهذا لا نقص فى زهده ولا علة من جهة كونه زهدا .

﴿ الثالث ﴾ أن يشهد زهده ويلحظه ولا يفنى عنه بما زهد لأجله ، فهذا نقص أيضا ، فالزهد كله أن تزهد فى رؤية زهدك وتغيب عنه برؤية الفضل ومطالعة المنة ، وأن لاتقف عنده فتنقطع ، بل أعرض عنه جادا فى سيرك ، غير ملتفت اليه مستصغرا لحاله بالنسبة الى مطلوبك مع ان هذه العلة مطردة فى جميع المقامات على مافيها . كما سننبه عليه ان شاء الله فان ربط هذا الشأن بالنصوص النبوية والعقل الصريح والفطرة الكاملة من

أم الامور فلا يحسن بالناصح لنفسه آن يقنع فيه بمجرد تقليد اهله فما اكثر غلطهم فيه وتحكيمهم مجرد الذوق ، وجعل حكم ذلك الذوق كليا عاما فهذا ونحوه من مثارات الغلط .

﴿ الوجه الرابع ﴾ ان الزهد على اربعة اقسام :

﴿ احدها ﴾ فرض على كل مسلم وهو الزهد فى الحرام ، وهذا متى اخل به أنعقد سبب العقاب فلا بد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب اخر يضاده .

﴿ الثانى ﴾ زهد مستحب وهو على درجات فى الاستحباب بحسب المزهود فيه ، وهو الزهد فى المكروه ، وفضول المباحات والتفنن فى الشهوات المباحة .

﴿ الثالث ﴾ زهد الداخلين فى هذا الشأن ، وهم المشمرون فى السير الى الله وهو نوعان :

أحدهما الزهد فى الدنيا جملة وليس المراد تخليها من اليد . ولا اخراجها وقعوده صفرا منها . وانما المراد إخراجها من قلبه بالكلية . فلا يلتفت اليها . ولا يدعها تساكن قلبه . وان كانت فى يده . فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك وانما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . وهذا كحال الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهده المثل . مع أن خزائن الأموال تحت يده بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح ، ولا يزيده ذلك إلا زهدا فيها . ومن هذا الأثر المشهور . وقد روى مرفوعا وموقوفا « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا اضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » والذى يصحح هذا الزهد

ثلاثة أشياء، أحدها علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر وانها كما قال الله تعالى فيها :(٥٧ : ٢٠ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) وقال الله تعالى (١٠ : ٢٤ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)وقال تعالى.(١٨ : ٤٥ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) وسماها سبحانه متاع الغرور . ونهى عن الاغترار بها وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين ، وحذرنا مثل مصارعهم ، وذم من رضى بها واطمأن اليها، وقال النبي ﷺ :«مالى وللدنيا انما انا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها (١)» وفى المسند عنه ﷺ حديث معناه : ان الله جعل طعام ابن ادم ومايخرج منه مثلا للدنيا فانه وان قزحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير فما اغتر بها ولا سكن اليها الا ذو همة دنية ، وعقل حقير ، وقدر خسيس *

الثانى : علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجل خطرا وهى دار

---

(١) رواه الامام. أحمد. والترمذى. وابن ماجه والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضى الله عنه وقوله قال فى ظل شجرة اى نام*

البقاء وان نسبتها اليها كما قال النبي ﷺ « ماالدنيا فى الآخرة الا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع » فالزاهد فيها بمنزلة رجل فى يده درهم زغل قيل له: اطرحه فلك عوضه مائة الف دينار مثلا فالقاه من يده رجاء ذلك العوض فالزاهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زهـــد فيها ٭

الثالث معرفته ان زهده فيها لايمنعه شيئا كتب له منها وان حرصه عليها لايجلب له مالم يقض له منها . فمتى تيقن ذلك وصار له علم يقين هان عليه الزهد فيها فانه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم ان مضمونه منها سيأتيه بقى حرصه وتعبه وكده ضائعا والعاقل لايرضى لنفسه بذلك ٭

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها وتثبت قدمه فى مقامه والله الموفق لمن يشاء ٭

﴿ النوع الثانى ﴾ الزهد فى نفسك وهو أصعب الاقسام وأشقها ، وأكثر الزاهدين انما وصلوا اليه . ولم يلجوه فان الزاهد يسهل عليه الزهد فى الحرام لسوء مغبته . وقبح ثمرته وحماية لدينه ، وصيانة لايمانه ، وايثارا للذة والنعيم على العذاب ، وأنفة من مشاركة الفساق والفجرة ، وحمية من ان يستأسر لعدوه ، ويسهل عليه الزهد فى المكروهات وفضول المباحات علمه بما يفوته بايثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم . ويسهل عليه زهده فى الدنيا معرفته بما وراءها وما يطلبه من العوض التام والمطلب الاعلى وأما الزهد فى النفس فهو ذبحها بغير سكين وهو نوعان :

﴿ أحدهما ﴾ وسيلة وبداية وهو أن تميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيء فلا تغضب لها ولا ترضى لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها قد سبلت عرضها ليوم فقرها وفاقتها . فهى أهون عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم

لها أو تجيبها إذا دعتك أو تكرمها اذا عصتك أو تغضب لها اذا ذمت . بل هى عندك أخس مما قيل فيها أو ترفهها عما فيه حظك وفلاحك وان كان صعبا عليها ، وهذا وان كان ذبحا لها واماتة عن طباعها وأخلاقها فهو عين حياتها وصحتها ، ولا حياة لها بدون هذا البتة ، وهذه العقبة هى آخر عقبة يشرف منها على منازل المقربين ، وينحدر منها الى وادى البقاء ويشرب من عين الحياة ، ويخلص روحه من سجون المحن والبلاء ، وأسر الشهوات وتتعلق بربها ومعبودها ومولاها الحق . فيا قرة عينها به ويا نعيمها وسرورها بقربه . ويا بهجتها بالخلاص من عدوها ومولاها ومالك أمرها ومتولى مصالحها . وهذا الزهـــد هو أول نقدة من مهر الحب ، فيا مفلس تأخر *

﴿ والنوع الثانى ﴾ غاية وكمال وهو أن يبذلها للمحبوب جملة بحيث لا يستبقى منها شيئا . بل يزهد فيها زهد المحب فى قدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبة محبوبه به . فهل يجد من قلبه رغبة فى امساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه ؟ فهكذا زهد المحب الصادق فى نفسه قد خرج عنها وسلمها لربه فهو يبذلها له دائما بتعرض منه لقبولها ، وجميع مراتب الزهد المتقدمة مباد ووسائل لهذه المرتبة ولكن لا يصح الا بتلك المراتب ، فمن رام الوصول الى هذه المرتبة بدون ماقبلها فتمنٍ متمن كمن رام الصعود الى أعلى المنارة بلا سلم *

قال بعض السلف : انما حرموا الوصول بتضييع الأصول *

فمن ضيع الاصول حرم الوصول ، واذا عرف هذا فكيف يدعى أنه الزهد من منازل العوام وانه نقص فى طريق الخاصة ؟ وهل الكمال الا فى الزهد ؟ وما النقص الا فى نقصانه والله الموفق للصواب *

﴿ فصل ﴾ المثال الرابع : التوكل قال أبو العباس : هو للعوام أيضا

لأنه وكل أمرك الى مولاك والتجاؤك الى علمه ومعرفته لتدبير أمرك وكفاية همك، وهذا فى طريق الخواص عمى عن الكفاية به ورجوع الى الأسباب لأنك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل فصار بدلا عن تلك الأسباب فأنت معلق بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال ، وحقيقة التوكل عند القوم التوكل فى تخليص القلب من علة التوكل وهو أن يعلم أن الله لم يترك أمرا مهملا بل فرغ من الأشياء وقدرها وإن اختلف منها شيء فى المعقول أو تشوش فى المحسوس أو اضطرب فى المعهود فهو المدبر له وشأنه سوق المقادير الى المواقيت والمتوكل من أراح نفسه من كل النظر فى مطالعة السبب سكونا الى ماسبق من القسمة مع استواء الحالين عنده وهو أن يعلم أن الطلب لايجمع والتوكل لايمنع ومتى طالع بتوكله عرضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا ، فاذا خلص من رق هذه الاسباب ولم يلاحظ فى توكله سوى خالص حق الله كفاه الله كل مهم *

ثم ذكر حكاية عن موسى «أنه فى رعايته نام عن غنمه ، فاستيقظ فوجد الذئب واضعا عصاه على عاتقه يرعاها فعجب من ذلك فأوحى الله اليه ياموسى كن لى كما أريد أكن لك كما تريد »

فيقال : الكلام على هذا من وجوه *

أحدها : أن جعله التوكل من منازل العوام باطل كما تقدم . بل الخاصة أحوج اليه من العامة . وتوكل الخواص أعظم من توكل العوام . والتوكل مصاحب للصادق من أول قدم يضعه فى الطريق الى نهايته وكلما ازداد قربه وقوى سيره ازداد توكله . فالتوكل مركب السائر الذى لايتأتى له السير الا به ومتى نزل عنه انقطع لوقته وهو من لوازم الايمان ومقتضياته قال الله تعالى : (٥ : ٢٦ - وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فجعل

التوكل شرطا فى الايمان . فدل على انتفاء الايمان عند انتفاء التوكل . وفى الآية الاخرى (١٠ : ٨٤ - وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) فجعل دليل صحة الاسلام التوكل وقال تعالى : (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) فذكر اسم الايمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الايمان للتوكل . وان قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الايمان وضعفه وكلما قوى ايمان العبد كان توكله أقوى : واذا ضعف الايمان ضعف التوكل . واذا كان التوكل ضعيفا فهو دليل على ضعف الايمان ولا بد والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، والتوكل والايمان ، وبين التوكل والتقوى . وبين التوكل والاسلام ، وبين التوكل والهداية *

فاما التوكل والعبادة فقد جمع بينهما فى سبعة مواضع من كتابه ، أحدها فى سورة أم القرءان فقال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) الثانى قوله حكاية عن شعيب : أنه قال : (١١ : ٨٨ - وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) الثالث قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا ٦٠ : ٤ (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) الرابع قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (٧٣ : ٨ ، ٩ - وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) الخامس قوله : (١١ : ١٢٣ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) السادس قوله (٢٢ : ٧٨ - فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) السابع قوله : (١٣ : ٣٢ - قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) فهذه السبعة مواضع جمعت الاصلين . التوكل وهو الوسيلة . والانابة وهى الغاية فان العبد لابد له من غاية مطلوبة ووسيلة موصلة الى تلك الغاية . فاشرف غاياته التى لاغاية له أجل منها عبادة ربه ، والانابة اليه واعظم وسائله التى لا وسيلة له غيرها البتة . التوكل على الله والاستعانة به . ولاسبيل له الى هذه الغاية الا بهذه الوسيلة . فهذه اشرف الغايات . وتلك اشرف الوسائل *

وأما الجمع بين الايمان والتوكل . ففى مثل قوله تعالى : (٦٧ : ٢٩ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) ونظيره قوله : (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقوله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) *

وأما الجمع بين التوكل والاسلام فى قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) *

وأما الجمع بين التقوى والتوكل فى مثل قوله تعالى : (٣٣ : ١ - ٣ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) الى قوله تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) وقوله (٦٥ : ٢، ٣ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) *

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففى مثل قول الرسل لقومهم :

(وَمَالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) وقال الله تعالى لنبيه ﷺ :(٢٧:٧٩ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) فامر سبحانه بالتوكل عليه ، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له ، مستدع لثبوته وتحققه وهو قوله تعالى : (إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) فان كون العبد على الحق يقتضى تحقيق مقام التوكل على الله ، والاكتفاء به ، والايواء إلى ركنه الشديد . فان الله هو الحق ، وهو ولى الحق وناصره ومؤيده . وكافى من قام به . فما لصاحب الحق أن لايتوكل عليه ؟ وكيف يخاف وهو على الحق ؟ كما قالت الرسل لقومهم : (١٤ : ١٢ وَمَالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدا . وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان . فصاحب الحق لعلمه بالحق ، ولثقته بأن الله ولى الحق وناصره مضطر إلى توكله على الله ، لايجد بدا من توكله *

فان التوكل يجمع أصلين : علم القلب وعمله . أما علمه : فيقينه بكفاية وكيله ، وكمال قيامه بما وكله اليه ، وان غيره لايقوم مقامه فى ذلك . وأما عمله : فسكونه الى وكيله . وطمأنينته اليه ، وتفويضه وتسليمه أمره اليه ، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه فبهذين الأصلين يتحقق التوكل . وهما جماعه وان كان التوكل دخل فى عمل القلب من علمه . كما قال الامام أحمد : التوكل عمل القلب ولكن لابد فيه من العلم وهو اما شرط فيه . وإما جزء من ماهيته *

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بان الله وليه وناصره وسكونه اليه فماله أن لايتوكل على ربه ؟ واذا

كان على الباطل علما وعملا أو أحدهما لم يكن مطمئنا واثقا بربه فانه لاضمان له عليه ، ولا عهد له عنده . فان الله لايتولى الباطل ولا ينصره . ولا ينسب اليه بوجه فهو منقطع النسب اليه بالكلية فانه سبحانه هو الموفق ، وقوله الحق ، ودينه الحق ، ووعده حق ، ولقاؤه حق ، وفعله كله حق . ليس فى أفعاله شيء باطل ، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل . كما أقواله كذلك ، فلما كان الباطل لايتعلق به ؛ بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك، ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم . وكان منقطعا عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله *

فتدبر هذا السر العظيم فى اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر ولو لم يكن فى هذه الرسالة الا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة ان تودع فى خزانة القلب ، لشدة الحاجة اليها . والله المستعان وعليه التكلان *

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الايمان والاحسان ؛ ولجميع أعمال الاسلام ، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس فكما لايقوم الرأس الا على البدن ، فكذلك لايقوم الايمان ومقاماته وأعماله الا على ساق التوكل . والله أعلم *

﴿ الوجه الثانى ﴾ ان قوله فى التوكل : انه فى طريق الخواص عمى عن الكفاية ، ورجوع الى الاسباب الى ءاخر كلامه مضمونه أن التوكل لايتم الا برفض الأسباب ، والاعراض عنها جملة . والتوكل من أقوى الأسباب وأعظمها فى حصول المطلوب فكأنه قد رفض سببا وتعلق بسبب . وقد ناقض فى أمره ولهذا قال : «فصار بدلا عن تلك الأسباب وكأنك تعلقت بما رفضته فهذه هى النكتة التى لأجلها صار التوكل عنده من منازل العوام . وهذه هى غير مسألة الجمع بين التوكل

والسبب ؛ بل هذه مسألة تعليل نفس التوكل *

فيقال : قولك : انه عمى عن الكفاية ليس كذلك بل هو نظر الى نفس الكفاية وملاحظة لها . ولا ريب أن الكفاية من الله لاتنال إلا بأسبابها من عبوديته ، وسببها المقتضى لها هو التوكل . كما قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أى كافيه فجعل التوكل سببا للكفاية فربط الكفاية بالتوكل ، كربط سائر الأسباب بمسبباتها فكيف يقال : ان التوكل عمى عن الكفاية ؟ وهل التوكل الا محض العبودية التى جزاؤها الكفاية ؟ وهى لاتحصل بدونه بل العلة ههنا شهود حصولها بفعلك وتوكلك ، غير ناظر الى مسبب الأسباب الذى أجرى عليك هذا السبب ليوصلك به الى الكفاية . فأول الامر وآخره منـــه فهو المنعم بالسبب والمسبب جميعا . ولكن لايوجب نظر العبد الى المسبب المنعم بالسبب قطع نظره عن السبب والقيام به . بل الواجب القيام بالأمرين معا *

﴿ الوجه الثالث ﴾ أن قوله : انه رجوع الى الأسباب ان أراد به أنه رجوع الى سبب ينقص العبودية ويضعف التوكل فليس كذلك . وظاهر أن الامر ليس كذلك ، وان أراد به أنه رجوع الى سبب نصبه الله مقتضيا للكفاية منه ، ورتب عليه جزاء لايحصل بدونه فهذا حق . ولكن القيام بهذا السبب محض الكمال . ونفس العبودية . وهو كجعل الاسلام والايمان والاحسان أسبابا مقتضية للفلاح والسعادة . بل كجعل سائر أعمال القلوب والجوارح أسبابا مقتضية لما رتب عليها من الجزاء وهل الكمال الا القيام بهذه الأسباب ؟ فالأسباب التى تكون مباشرتها نقصا هى الأسباب التى تضعف التوكل . وأما أن يكون التوكل نفسه ناقصا لكون التحقق به تحققا بالسبب فقلب للحقائق *

﴿ الوجه الرابع ﴾ ان قوله : لانك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل ان أراد به رفض الأسباب جملة . فهذا كما انه ممتنع عقلا وحسا فهو محرم شرعا ودينا . فان رفض الأسباب بالكلية انسلاخ من العقل والدين وان اراد به رفض الوقوف معها والوثوق بها وانه يقوم بها قيام ناظر الى سببها فهذا حق ولكن النقص لايكون فى السبب ولا فى القيام به وانما يكون فى الاعراض عن المسبب تعالى كما تقدم، فمنع الأسباب ان تكون اسبابا قدح فى العقل والشرع ، واثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح فى التوحيد والتوكل . والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر الى مسببها وتعلق القيام به جمع بين الامر والتوحيد ، وبين الشرع والقدر . وهو الكمال والله اعلم *

﴿ الوجه الخامس ﴾ قوله : فصار التوكل بدلا عن تلك الاسباب هذا حق فان التوكل من اعظم الأسباب ، ولكنه بدل عنها ، كما تكون الطاعة بدلا عن المعصية ، والتوحيد بدلا عن الشرك فهو بدل واجب مأمور به مطلوب من العبد ، والمذموم أن يجعل العبد الأسباب بدلا عن التوكل . لاأن يجعل التوكل بدلا عن الأسباب *

﴿ الوجه السادس ﴾ قوله : فكأنك تعلقت بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال ، ليس كذلك فان المرفوض هو التعلق بغير الله والالتفات إلى سواه فهذا هو الذى رفضه، وأما الذى تعلق به فهو التوكل على الله والالجأ اليه ، والتفويض اليه والاستعانة به فقد رفض المخلوق وتعلق بالخالق فكيف يقال : انه تعلق بما رفضه ؟ *

﴿ الوجه السابع ﴾ ان قوله : من حيث معتقدك الانفصال يشير به الى أن التوكل نوع تفرقة وانفصال يشهد فيه مع الله غيره . وهذا مناف للفناء فى التوحيد وأن لايشهد مع الله غيره اصلا ، وهذا قطب

وهى السير الذى يشير اليه القوم ، والعلم الذى يشمرون اليه ، ولاجله يجعلون كل مادونه من المقامات معلولا ، ولا بد من فصل القول فيه بعون الله وتأييده فانه نهاية أقدامهم وغاية مرماهم *

فنقول وبالله التوفيق : الفناء الذى يشار اليه على ألسنة السالكين ثلاثة أقسام . فناء عن وجود السوى ، وفناء عن شهود السوى ، وفناء عن عبادة السوى وارادته ، وليس هنا قسم رابع *

فأما القسم الأول : فهو فنـاء القائلين بوحدة الوجود . فهو فناء باطل فى نفسه ، مستلزم جحد الصانع ، وانكار ربوبيته ، وخلقه وشرعه ، وهو غاية الالحاد والزندقة . وهذا هو الذى يشير اليه علماء الاتحادية ، ويسمونه التحقيق ، وغاية أحدهم فيه أن لايشهد ربا وعبدا ، وخالقا ومخلوقا وآمرا ومأمورا ، وطاعة ومعصية . بل الأمر كله واحد فيكون السالك عندهم فى بدايته يشهد طاعة ومعصية . ثم يرتفع عن هذا الفرق بكشف عندهم الى ان يشهد الأفعال كلها طاعة لله . لامعصية فيها . وهو شهود الحكم والقدر . فيشهدها طاعة لموافقتها الحكم والمشيئة ، وهذا ناقص عندهم ايضا اذ هو متضمن للفرق ، ثم يرتفع عندهم عن هذا الشهود الى ان لايشهد لاطاعة ولا معصية أذ الطاعة والمعصية انما تكون من غير لغير . وما ثم غير . فاذا تحقق بشهود ذلك ، وفنى فيه . فقد فنى عن وجود السوى فهذا هو غاية التحقيق عنـــدهم . من لم يصل اليه فهو محجوب . ومن أشعارهم فى هذا قول قائلهم :

وماانت غير الكون بل انت عينه ويفهم هذا السر من هو ذائق

وقول الآخر :

ماالأمر الانسق واحد مافيه من مدح ولا ذم
وانما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

وقول الآخر :

وما الموج إلا البحر لا شيء غيره   وإن فرقته كثرة المتعدد

والقسم الثانى من أقسام الفناء : هو الذى يشير اليه المتأخرون من أرباب السلوك وهو الفناء عن شهود السوى ، مع تفريقهم بين الرب والعبد وبين الطاعة والمعصية وجعلهم وجود الخالق غير وجود المخلوق ثم هم مختلفون فى هذا الفناء على قولين .

أحدهما أنه الغاية المطلوبة من السلوك وما دونه بالنسبة اليه ناقص ومن هنا يجعلون المقامات والمنازل معلولة .

والقول الثانى : انه من لوازم الطريق لابد منه للسالك ولكن البقاء أكمل منه . وهؤلاء يجعلونه ناقصا ولكن لابدمنه ، وهذه طريقة كثير من المتقدمين ، وهؤلاء يقولون : إن الكمال شهود العبودية ، مع شهود المعبود فلا يغيب بعبادته عن معبوده ، ولا بمعبوده عن عبادته . ولكن لقوة الوارد وضعف المحل وغلبة استيلاء الوارد على القلب حتى يملكه من جميع جهاته يقع الفناء .

والتحقيق أن هذا الفناء ليس بغاية . ولا هو من لوازم الطريق ، بل هو عارض من عوارض الطريق ، يعرض لبعض السالكين دون جميعهم وسببه أمور ثلاثة .

أحدها : قصده وإرادته ، والعمل عليه فانه إذا علم أنه الغاية المطلوبة شمر سائراً اليه ، عاملا عليه فاذا أشرف عليه وقف معه ونزل بواديه . وطاب مساكنته .

فهؤلاء إنما يحصل لهم الفناء لان سيرهم كان على طلب حظهم ومرادهم من الله وهو الفناء لم يكن سيرهم على تحصيل مراد الله منهم ، وهو القيام بعبوديته ، والتحقق بها والسائر على طلب تحصيل مراد الله منه لا يكاد

الفناء يحل بساحته، ولا يعتريه *

السبب الثاني قوة الوارد بحيث يغمره ويستولى عليه فلا يبقى فيه متسع لغيره أصلا *

السبب الثالث ضعف المحل عن احتمال ما يرد عليه

فمن هذه الاسباب الثلاثة يعرض الفناء

ولما رأى الصادق فى طريقه، السالك الى ربه أن أكثر أصحاب الفرق محجوبون عن هذا المقام، مشتتون فى أودية الفرق وشهد وانقصهم ورأوا ماهم فيه من الفناء أكمل ظنوا انه لا كمال وراء ذلك، وأنه الغاية المطلوبة. فمن هنا جعلوه غاية ولكن أكمل من ذلك واعلى وأجل هو القسم الثالث وهو الفناء عن عبادة السوى وارادته ومحبته، وخشيته، ورجائه والتوكل عليه، والسكون اليه فيفنى بعبادة ربه، ومحبته وخشيته، ورجائه، والتوكل عليه وبالسكون اليه عن عبادة غيره وعن محبتة ورجائه والتوكل عليه مع شهود الغير ومعاينته فهذا أكمل من فنائه عن عبودية الغير ومحبته. مع عدم شهوده له وغيبته عنه، فاذا شهد الغير فى مرتبته أوجب شهوده له زيادة فى محبته معبوده وتعظيما له، وهروبا إليه، وضنا به. فان نظر المحب الى مبادى محبوبه ومضاده يوجب زيادة حبه له. وفى هذا المعنى قال القائل:

واذا نظرت الى أميرى زادنى حبا له نظرى الى الأمراء

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه. «اللهم لك أسلمت. وبك آمنت وعليك توكلت. واليك انبت. وبك خاصمت. واليك حاكمت (١)» وفى سجوده «اللهم لك سجدت. وبك ءامنت» وكذلك (٢)

---

(١) رواه مسلم عن ابن عباس (٢) رواه مسلم وابو داود والنسائى عن على رضى الله عنه *

فى ركوعه «اللهم لك ركعت . وبك آمنت (٢)» فهذا دعاء من قد جمع بين شهود عبوديته وشهود معبوده . ولم يغب بأحدهما عن الآخر . وهل هذا الا كمال العبودية ؟ أن يشهد مايأتى به من العبودية موجها لها الى المعبود الحق ، محضرا لها بين يديه . متقربا بها اليه فأما الغيبة عنها بالكلية بحيث تبقى الحركات كأنها طبيعية غيرواقعةبالارادة فهذا - وان كان أكمل من حال الغائب بشهود عبوديته عن معبوده - فحال الجامع بين شهود العبودية والمعبود أكمل منهما ه

وإذا عرفت هذه القاعدة ظهر أن تعليله التوكل بما ذكر تعليل باطل

﴿ الوجه الثامن ﴾ أن التوكل على الله نوعان :

أحدهما توكل عليه فى تحصيل حظ العبد من الرزق والعافية وغيرها

والثانى : توكل عليه فى تحصيل مرضاته ه

فأما النوع الاول فغايته المطلوبة وان لم تكن عبادة لأنها محض حظ العبد فالتوكل على الله فى حصوله عبادة . فهو منشأ لمصلحة دينه ودنياه

﴿ وأما النوع الثانى ﴾ فغايته عبادة . وهو فى نفسه عبادة . فلا علة فيه بوجه . فانه استعانة بالله على مايرضيه . فصاحبه متحقق بإياك نعبد وإياك نستعين . فتركه ترك لشطر الايمان . والعلة انما هى فى ضعف هذا التوكل . فهب أن التوكل فى حصول الحظ معلول . فيلزم من هذا أن يكون التوكل فى حصول مراد الرب سبحانه ومرضاته معلولا ه

﴿ الوجه التاسع ﴾ قوله : وحقيقة التوكل عند القوم التوكل فى تخليص القلوب من علة التوكل ه

فيقال : إذا كان هذا التوكل عندك ليس بمعلول . ولا هو عمى عن الكفاية . ولا رجوع الى الأسباب بعد رفضها . بطل تعليل التوكل بما عللته به . وان كانت هذه العلة بعينها موجودة فى هذا التوكل . بطل أن

يكون علة فلزم بطلان كونه معلولا على التقديرين . وظهر أن العلة في التوكل لاتخرج عن أحد شيئين اما أن يكون متعلقه حظا من حظوظك واما وقوفك معه وركونك اليه فقط . فاذا خلص التوكل من هذا وهذا فلا علة تلحقه ولا نقيصة تدركه .

﴿ الوجه العاشر ﴾ أن علة التوكل عنده هي ترك التوكل . كما فسره ،فكيف يتوكل في ترك التوكل؟ وهل هذا الاجمع بين متضادين؟

﴿ الوجه الحادى عشر ﴾ قوله . وهو أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يترك أمرا مهملا ، بل فرغ من الأشياء وقدرها ، وان اختلف منها شيء في العقول او تشوش في المحسوس ، او اضطرب في المعهود فهو المدبر له وشأنه سوق المقادير الى المواقيت . والمتوكل من اراح نفسه من كد النظر في مطالعة السبب : سكونا الى ما سبق من القسمة . مع استواء الحالين عنده الىءاخر كلامه .

فيقال.هو سبحانه فرغ من الاشياء وقدرها بأسبابها المفضية اليها فكما ان المسببات من قدره الذى فرغ منه : فاسبابها ايضا من قدره الذى فرغ منه فتقديره المقادير بأسبابها لاينافى القيام بتلك الاسباب بل يتوقف حصولها عليها . وقد سئل النبي ﷺ فقيل له .« ارايت ادوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها . هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : هى من قدر الله »(١) وسئل ﷺ « اعلم اهل الجنة والنار؟فقال :نعم . قالوا ففيم العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » (٢) فامرهم

---

(١) رواه أحمد . والترمذى . وابن ماجه عن أبي خزامة ـ بكسر الخاء ـ بن يعمر السعدى . وقال الترمذى : حسن . وليس لابى خزامة إلا هذا الحديث كما فى التقريب لابن حجر (٢) رواه الطبرانى عن ابن عباس . وعمران بن حصين .

بالاعمال واخبرهم ان الله يسر كل عبد لما خلق له فجعل عمله سببا لنيل ما خلق له من الثواب والعقاب . فلابد من اثبات السبب والمسبب جميعا *

﴿ الوجه الثانى عشر ﴾ قوله : المتوكل من اراح نفسه من كد النظر فى مطالعة السبب سكونا الى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده فهذا الكلام ان اخذ على اطلاقه فهو باطل قطعا فان السكون الى ما سبق من القسمة وترك السبب فى اعمال البر عين العجز ، وتعطيل الامر والشرع . ولا يجوز شرعا ولا عقلا التسوية بين الحالين *

وأما السكون الى ماسبق من القسمة فى أسباب المعيشة فهو حق ؛ ولكن الكمال أن يكون ساكنا الى ماسبق مع قيامه وهذه حال الكمل من الصحابة ومن بعدهم *

فالكمال هو تنزيل الأسباب منازلها علما وعملا ، لا الاعراض عنها وعدما ، ولا الانتهاء اليها والوقوف عندها .

﴿ الوجه الثالث عشر ﴾ قوله : مع استواء الحالين عنده ، وهو أن يعلم أن الطلب لايجمع والتوكل لا يمنع يشير به الى استواء الحالين فى مباشرة السبب وتركه نظرا الى ماسبق. وهذا ليس بمأمور ولا معذور فانه لايستوى الحالتان شرعا ولا قـــدرا وكيف يستوى مالم يسوه الله شرعا ولا قدرا ؟ *

﴿ الوجه الرابع عشر ﴾ قوله : الطلب لا يجمع والتوكل لا يمنع فقد بين أن التوكل لا ينافى الطلب بل حقيقة التوكل وكماله مقارنته للطلب ومصاحبته للسبب ، وأما توكل مجرد عن الطلب والسبب فعجز وأمان . فتوكل الحراث انما هو بعد شق الأرض وبذرها ، وحينئذ يصح منه التوكل فى طلوع الزرع . وأما توكله من غير حرث ولا بذر فعجز وبطالة *

﴿ الوجه الخامس عشر ﴾ قوله : ومتى طالع بتوكله عرضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا . فاذا خلص من رق هذه الأسباب ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله كفاه كل مهم ﴿فيقال﴾ التوكل يكون فى أحد شيئين : إما فى حصول حظ العبد ورزقه ونصره وعافيته . واما فى حصول مراد ربه منه وكلاهما عبادة مأمور بها . والثانى أكمل من الأول بحسب المتوكل فيه . ولكن توكله فى الأول لايكون معلولا من حيث هو توكل . وانما تكون علته ان صرف توكله الى غيره أولى بالتوكل منه . وهذا إنما يكون نقصا إذا أضعف توكله فى الأمر ومراد الله منه . واما إن لم يضعفه بل أعطى كل مقام حقه من التوكل فهذا محض العبودية والله أعلم .

﴿ فصل ﴾ المثال الخامس الصبر : قال أبو العباس : وهو من منازل العوام أيضا لأن الصبر حبس النفس على مكروه ، وعقل اللسان عن شكوى ومكابدة الغصص فى تحمله ، وانتظار الفرج عند عاقبته ، وهذا فى طريق الخاصة تجلد ومناوأة وجراءة ومنازعة فان حاصله يرجع إلى كتمان الشكوى فى تحمل الأذى بالبلوى . وتحقيقه الخروج عن الشكوى بالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى .

وقيل : انه على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض .

فالاول : التصبر . وهو تحمل مشقة ، وتجرع غصة . والثبات على مايجرى من الحكم . وهذا هو التصبر لله وهو صبر العوام .

والثانى : الصبر . وهو نوع سهولة تخفف على المبتلى بعض الثقل ، وتسهل عليه صعوبة المراد وهو الصبر لله وهو نوع سهولة . وهو صبر المريدين .

والثالث : الاصطبار وهو التلذذ بالبلوى ، والاستبشار باختيار المولى وهذا هو الصبر على الله . وهو صبر العارفين .

والكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن يقال: الصبر نصف الدين. فان الايمان نصفان. نصف صبر. ونصف شكر قال تعالى (٣٤: ١٩) إنّ في ذلك لآيات لكل صبّار شكور)

وقال النبي ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له. إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له. وأن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. وليس ذلك إلا للمؤمن(١)» فمنازل الايمان كلها بين الصبر والشكر. والذى يوضح هذا:

﴿الوجه الثانى﴾ وهو أن العبد لا يخلو قط من أن يكون فى نعمة أو بلية فان كان فى نعمة ففرضها الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التى تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التى تحفظها فهو أحوج الى الصبر فيها من حاجة المبتلى. ومن هنا يعلم سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر. وأن كلا منهما محتاج الى الشكر. والصبر. وأنه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير، كما قد يكون شكر الفقير أكمل. فأفضلهما أعظمهما شكرا وصبرا فان فضل أحدهما فى ذلك فضل صاحبه. فالشكر مستلزم للصبر لا يتم الا به والصبر مستلزم للشكر لا يتم الا به فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر. وان كان فى بلية ففرضها الصبر والشكر أيضا أما الصبر فظاهر. وأما الشكر فللقيام بحق الله عليه فى تلك البلية. فان لله على العبد عبودية فى البلاء، كما له عليه عبودية فى النعماء. وعليه أن يقوم

---

(١) رواه مسلم عن صهيب رضى الله عنه، بلفظ «عجبا لأمر المؤمن. ان أمره كله له خير. وليس ذلك لأحد الا للمؤمن. ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له» الخ الحديث.

بعبوديته فى هذا وهذا . فعلم أنه لاانفكاك له عن الصبر، مادام سائرا الى الله ه

﴿ الوجه الثالث ﴾ أن الصبر ثلاثة أقسام : إما صبر عن المعصية فلا يرتكبها . وإما صبر على الطاعة حتى يؤديها وإما صبر على البلية فلا يشكو ربه فيها . واذا كان العبد لابد له من واحد من هذه الثلاث فالصبر لازم له أبدا لاخروج له عنه البتة ه

﴿ الوجه الرابع ﴾ أن الله سبحانه ذكر الصبر فى كتابه فى نحو تسعين موضعا فمرة أمر به، ومرة أثنى على أهله ، ومرة أمر نبيه ﷺ أن يبشر أهله ، ومرة جعله شرطا فى حصول النصر والكفاية ; ومرة أخبر أنه مع أهله ، وأثنى به على صفوته من العالمين ، وهم أنبياؤه ورسله فقال عن نبيه أيوب : (٣٨ : ٤٤ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) وقال لخاتم أنبيائه ورسله :(٤٠ : ٣٥ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وقال (١٦ : ١٢٧ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)وقال يوسف الصديق وقد قال له إخوته : (١٢: ٩٠ أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ، وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وهذا يدل على أن الصبر من أجل مقامات الايمان ، وأن أخص الناس بالله وأولاهم به أشدهم قياما وتحققا به ، وأن الخاصة أحوج اليه من العامة ه

﴿ الوجه الخامس ﴾ أن الصبر سبب فى حصول كل كمال . فأكمل الخلق أصبرهم . ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره. فان كمال العبد بالعزيمة والثبات فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص. ومن كانت له عزيمة ولكن لاثبات له عليها فهو ناقص. فاذا انضم الثبات الى العزيمة أثمر كل مقام شريف

وحال كامل ؛ ولهذا فى دعاء النبي ﷺ الذى رواه الامام أحمد وابن حبان فى صحيحه « اللهم انى اسألك الثبات فى الامر والعزيمة على الرشد (١) » ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لاتقوم الاعلى ساق الصبر فلو علم العبد الكنز الذى تحت هذه الأحرف الثلاثة أعنى اسم «الصبر» لما تخلف عنه . قال النبي ﷺ : «ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر (٢) » وقال عمر بن الخطاب حين غشى عليه: «أدركناه بالصبر» وفى مثل هذا قال القائل :

نزه فؤادك عن سوانا والقنا فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

فالصبر طلسم على كنز السعادة من حله ظفر بالكنز

(الوجـــه السادس) قوله : الصبر حبس النفس على مكروه ، وعقل اللسان عن الشكوى ، ومكابدة الغصص فى تحمله ، وانتظار الفرج عند عاقبته *

فيقال هذا احد اقسام الصبر . وهو الصبر على البلاء . واما الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك او بعضه وقد لايعرض فيه . بل يتحلى بها ويأتى بها محبة ورضى ، ومع هذا فالصبر واقع عليها فانه حبس النفس على مداومتها والقيام بها قال الله تعالى: (١٨ : ٢٨ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ) الآية، واما الصبر عن المعصية فقد يعرض فيه ذلك او بعضه وقد لايعرض فيه ، لتمكن الصابر من قهر داعيها وغلبته. وإذا كان ماذكر من الأمور الأربعة إنما يعرض فى الصبر على البلية

---

(١) رواه الترمذى ، والنسائى عن شداد بن اوس (٢) رواه البخارى ومسلم عن ابى سعيد الخدرى .

فقوله : انه فى طريق الخاصة تجلد ومناواة وجراءة ومنازعة ليس كذلك وإنما فيه التجلد فأين المناواة والجراءة والمنازعة ؟ واما لوازم الطبيعة من وجود ألم البلوى فلا ينقلب ولا يعدم فلا يصح أن يقال : إن وجود التألم والتجلد عليه ، وحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى جراءة ومنازعة ، بل هو محض العبودية والاستكانة ، وامتثال الأمر وهو من عبودية الله المفروضة على عبده فى البلاء فالقيام بها عين كمال العبد ولوازم الطبيعة لا بد منها ، ومن رام أن لا يجد البرد والحر والجوع والعطش والآلام عند تمام أسبابها وعللها فقد رام الممتنع . وهل يكون الأجر إلا على وجود تلك الآلام والمشاق ؟ والصبر عليها . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ (١) » وقيل له فى مرضه : إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا قال : أَجَلْ إِنَّ لِى أَجْرَ رَجُلَيْنِ (٢) منكم ، يعنى فى وعكه . ولا ريب أن ذلك الوعك مؤلم له ﷺ . وأيضا فى مرض موته قال : «وارأساه (٣)» وهذا إنما هو من وجود ألم الصداع . وكان يقول فى غمرات الموت : « اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ (٤) » وهذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته ﷺ . وهل كان ذلك إلا محض العبودية وعين الكمال ؟ وهل الجراءة والمناواة والمنازعة إلا

---

(١) رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا والترمذى ، وقال : حسن صحيح عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن ابى وقاص . وابن حبان فى صحيحه من رواية العلاء بن المسيب عن أبيه عن سعد (٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود (٣) رواه البخارى عن عائشة (٤) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عائشة *

فى ترك الصبر وفى التسخط والشكوى ؟»

﴿ الوجه السابع ﴾ قوله : فان حاصله يرجع الى كتمان الشكوى فى تحامل الأذى بالبلوى والاستبشار باختيار المولى »

فيقال : الذى يمكن الخروج عنه هو الشكوى وأما أن يخرج عن ذوق البلوى فلا يجده أو يتلذذ بها فهذا غير ممكن . ولا هو فى الطبيعة . وانما الممكن أن يشاهد العبد فى تضاعيف البلاء لطف صنع الله به وحسن اختياره له ، وبره به فى حمله عنه مؤنة حمله ، وتشتغل النفس باستخراج لطائف صنع الله به وبره وحسن اختياره عن شهود حمله . فيحصل له لذة بماشهده من ذلك ، وفوق هذا مرتبة أرفع منه وهى أن يشهد أن هذا مراد محبوبه ، وانه بمرأى منه ومسمع ، وأنه هديته الى عبده ، وخلعته التى خلعها عليه ليرفل له فى أذيال التذلل والمسكنة والتضرع لعزته وجلاله فيعلم العبد أن حقيقة المحبة هى موافقة المحبوب فى محابه . فيحب مايحبه محبوبه فيحب العبد تلك الحال من حيث موافقته لمحبوبه وان كرهها من حيث الطبع البشرى فان هذه الكراهة لاتنافى محبته لها . كما يكره طبعه الدواء الكريه وهو يحبه من وجه آخر ، وهذا لاينكر فى المحبة المتعلقة بالمخلوق مع ضعفها وضعف أسبابها كما قال القائل فى ذلك :

أهوى هواه وبعدى عنه يعجبه ... فالبعد قد صار لى فى حبه أربا

وقال الآخر :

أريد وصاله ويريد هجرى ... فأترك ما أريد لما يريد

وقال الآخر :

وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا ... مامن يهون عليك ممن أكرم

وأنه لتبلغ المحبة بالعبد الى حيث يفنى بمراد محبوبه عن مراده هو منه . فاذا شهد مراد محبوبه أحبه وان كان كريها اليه . فهذا لاينكر

ولاينافى التألم بمراد المحبوب المنافى للمحب. وصبره عليه . بل يجتمع فى حقه الأمران : وتقوى هذه المحبة باستبشاره وعلمه بعاقبة تلك البلوى وافضائها الى غاية النعيم واللذة . فكلما قوى علمه بذلك وقويت محبته لمن ذكره بابتلائه ازداد تلذذه بها مع الكراهة الطبيعية التى هى من لوازم الخلقة . ولاسيما اذا علم المحب الذى أحب الأشياء اليه أن يجرى ذكره على بال محبوبه أن محبوبه قد ذكره بنوع من الامتحان فانه يفرح بذكره له وإن أساءه ماذكره به كما قال القائل :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالكا

﴿ الوجه الثامن ﴾ قوله : «وهو على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض . فالاول : التصبر ـ الى قوله : وهو صبر العوام» *

فيقال : لاريب أن التصبر مؤذن بتكلف وتحمل على كره ولكن هذا لابد منه فى الصبر . وهو سببه الذى ينال به فالتصبر من العبد والصبر ثمرته التى يفرعها الله اذا تعاطاه وتكلفه . كما قال النبى ﷺ : «ومن يتصبر يصبره الله (١)» فمنزلة التصبر من الصبر منزلة التعلم والتفهم من العلم والفهم فلا بد منه فى حصول الصبر *

﴿ الوجه التاسع ﴾ قوله : والثانى الصبر . وهو نوع سهولة يخفف على المبتلى بعض الثقل ، ويسهل عليه صعوبة المراد وهو الصبر لله ، وهو صبر المريدين *

فقد تقدم أن الصبر ثمرة التصبر وكلاهما انما يحمد اذا كان لله . وإنما يكون اذا كان بالله فما لم يكن به لا يكون . ومالم يكن له لا ينفع

---

(١) رواه البخارى، ومسلم عن أبى سعيد الخدرى، وتمامه «وما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر» *

ولا يشعر فكلاهما لا يحصل للمريد السالك مقصوده الا أن يكون بالله ولله. قال تعالى في الصبر به: (١٦: ١٢٧ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) وقال في الصبر له: (٥٢ : ٤٨ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ).

واختلف الناس اى الصبرين أعلى وأفضل؟ الصبر له أو به.

فقالت طائفة منهم صاحب منازل السائرين: (١) واضعف الصبر الصبر لله وهو صبر العامة وفوقه الصبر بالله وهو صبر العابد الذي تصبر نفسه لامر الله طلبا لمرضاته وثوابه. فهو صابر على العمل صابر عن المحرمات. واما الصبر به فهو تبرؤ من الحول والقوة واضافة ذلك الى الله وهو صبر المريد. واما الصبر على الله فصبر السالك على ما يجىء به متعلق اقداره واحكامه.

والصواب: ان الصبر لله أكمل من الصبر به فان الصبر له متعلق بالهيته ومحبته. والصبر به متعلق بربوبيته ومشيئته وما هو له اكمل مما هو به فان ما هو له هو الغاية وما هو به هو الوسيلة فالصبر به وسيلة والصبر له غاية وبينهما من التفاوت ما بين الغايات والوسائل.

وأيضا فان الصبر له متعلق بقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهاتان الكلمتان منقسمتان بين العبد وبين الله كما ثبت عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه: «إياك نعبد» هي التي لله «وإياك نستعين» هي التي للعبد وما لله أكمل مما للعبد فما تعلق بما هو له أفضل مما تعلق بما هو للعبد.

وأيضا فالصبر له مصدره المحبة. والصبر به مصدره الاستعانة. والمحبة أكمل من الاستعانة.

وأما الصبر على الله فهو الصبر على أحكامه الدينية والكونية فهو يرجع

---

(١) هو الشيخ ابو اسماعيل عبد الله بن محمد الانصاري الهروي والكتاب مطبوع.

الى الصبر على أوامره والصبر على ابتلائه. فليس فى الحقيقة قسما ثالثا. والله أعلم *

فقد تبين أن الصبر بجميع أقسامه أصل مقامات الايمان. وهو أصل الكمال للعبد الذى لا كمال له بدونه . ولا يذم منه الاقسم واحد وهو الصبر عن الله فانه صبر المعرضين المحجوبين. فالصبر عن المحبوب أقبح شئ وأسوؤه وهو الذى يسقط المحب من عين محبوبه فان المحب كلما كان أكمل محبة كان صبره عن محبوبه متعذرا *

(الوجه العاشر) قوله «الثالث الاصطبار وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى . وهذا هو الصبر على الله وهو صبر العارفين» *

فيقال: الاصطبار افتعال من الصبر كالاكتساب والاتخاذ وهو مشعر بزيادة المعنى على الصبر . كأنه صار سجية وملكة : فان هذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب قال تعالى: (٥٤: ٢٧ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ) فالاصطبار أبلغ من الصبر ، كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب. ولهذا كان فى العمل الذى يكون على صاحبه والكسب فيما له قال تعالى: (٢ : ٢٨٦ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) تنبيها على أن الثواب يحصل لها بأدنى سعى وكسب وان العقاب إنما هو باكتسابها وتصرفها وما تعانيه *

واذا علم هذا فالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار ، بل يكون مع الصبر ومع التصبر ، ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى كان بهذا التلذذ والاستبشار أولى . والله أعلم *

(قاعدة) الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة *

(أحدها) علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها ، وان الله أنما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل ، كما يحمى الوالد الشفيق ولده عما يضره ، وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها

وعيد بالعذاب *

{ السبب الثانى } الحياء من الله سبحانه فان العبد متى علم بنظره اليه ومقامه عليه وانه بمرأى منه ومسمع ، وكان حييا استحيي من ربه أن يتعرض لمساخطه *

{ السبب الثالث } مراعاة نعمه عليك ، واحسانه اليك فان الذنوب تزيل النعم ولابد. فما اذنب عبد ذنبا الا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب . فان تاب وراجع رجعت اليه او مثلها ، وان اصر لم ترجع اليه ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها قال الله تعالى : (١٣ : ١١ انَّ اللهَ لَايُغيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يغيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ) واعظم النعم الايمان ، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها وقال بعض السلف : اذنبت ذنبا فحرمت قيام الليل سنة . وقال اخر : اذنبت ذنبا فحرمت فهم القرءان .

وفى مثل هذا قيل :

اذا كنت فى نعمة فارعها فان المعاصى تزيل النعم

وبالجملة فان المعاصى نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب . عياذا بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته .

{ السبب الرابع } خوف الله وخشية عقابه . وهذا انما يثبت بتصديقه فى وعده ووعيده والايمان به وبكتابه وبرسوله وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ، ويضعف بضعفهما قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وقال بعض السلف : كفى بخشية الله علما وبالاغترار بالله جهلا .

{ السبب الخامس } محبة الله وهى من أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعاصيه . فان المحب لمن يحب مطيع ، وكلما قوى سلطان المحبة

فى القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى . وانما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها ، وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته ، وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده وفى هذا قال عمر: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» يعنى أنه لو لم يخف من الله لكان فى قلبه من محبة الله واجلاله ما يمنعه من معصيته، فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه *

وههنا لطيفة يجب التنبه لها . وهى أن المحبة المجردة لا توجب هذا الاثر ما لم تقترن باجلال المحبوب وتعظيمه . فاذا قارنها بالاجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة والا فالمحبة الخالية عنهما انما توجب نوع أنس وانبساط وتذكر واشتياق . ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها . ويفتش العبد قلبه فيرى فيه نوع محبة لله . ولكن لا يحمله على ترك معاصيه وسبب ذلك تجردها عن الاجلال والتعظيم ، فما عمر القلب شىء كالمحبة المقترنة باجلال الله وتعظيمه . وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء *

﴿ السبب السادس ﴾ شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الاسباب التى تحطها وتضع قدرها ، وتخفض منزلتها وتحقرها وتسوى بينها وبين السفلة *

﴿ السبب السابع ﴾ قوة العلم بسوء عاقبة المعصية ، وقبح أثرها ، والضرر الناشىء منها من سواد الوجه ، وظلمة القلب وضيقه وغمه ، وحزنه وألمه ، وانحصاره ، وشدة قلقه ، واضطرابه ، وتمزق شمله ، وضعفه عن مقاومة عدوه ، وتعريه من زينته بالثوب الذى جمله الله وزينه به ، والعصرة التى تناله ، والقسوة والحيرة فى أمره ، وتخلى وليه وناصره

عنه ، وترلى عدوه المبين له ، وتوارى العلم الذى كان مستعدا له عنه ونسيان ما كان حاصلا له أو ضعفه ولابد ، ومرضه الذى اذا استحكم به فهوالموت ولابد فان الذنوب تميت القلوب ، ومنها ذله بعد عزه *

ومنها أنه يصير أسيرا فى يد أعدائه بعد ان كان ملكا متصرفا يخافه أعداؤه *

ومنها أنه يضعف تأثيره فلا يبقى له نفوذ فى رعيته ولا فى الخارج فلا رعيته تطيعه إذا أمرها ، ولا ينفذ فى غيرهم *

ومنها زوال أمنه وتبدله به مخافة فأخوف الناس أشدهم اساءة ؛ ومنها زوال الانس والاستبدال به وحشة . وكلما ازداد اساءة ازداد وحشة

ومنها زوال الرضى واستبداله بالسخط *

ومنها زوال الطمأنينة بالله والسكون اليه والايواء عنده واستبدال الطرد والبعد منه *

ومنها وقوعه فى بئر الحسرات ، فلا يزال فى حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه الى نظيرها ان لم يقض منها وطرا أو الى غيرها ان قضى وطره منها وما يعجز عنه من ذلك أضعاف أضعاف مايقدر عليه وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه فيالها نارا قد عذب بها القلب فى هذه الدار قبل نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة *

ومنها فقره بعد غناه فانه كان غنيا بما معه من رأس مال الايمان وهو يتجربه ويربح الأرباح الكثيرة فاذا سلب رأس ماله أصبح فقيرا معدما فاما أن يسعى بتحصيل رأس مال ءاخر بالتوبة النصوح والجد والتشمير نقد فاته ربح كثير بما اضاعه من رأس ماله *

ومنها نقصان رزقه فان العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه ومنها ضعف بدنه *

ومنها زوال المهابة والحلاوة التي لبسها بالطاعة فتبدل بها مهانة وحقارة

ومنها حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس .

ومنها ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأعلاها . وهو الوقت الذي لاعوض منه ، ولا يعود اليه أبدا .

ومنها طمع عدوه فيه وظفره به فانه اذا رءاه منقادا مستجيبا لما يأمره اشتد طمعه فيه وحدث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير هو وليه دون مولاه الحق .

ومنها الطبع والرين على قلبه فان العبد اذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فان تاب منها صقل قلبه ، وان أذنب ذنبا ءاخر نكت فيه نكتة أخرى ولا تزال حتى تعلو قلبه . فذلك هو الران (١) قال الله تعالى (٨٣:١٤ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

ومنها أنه يحرم حلاوة الطاعة فاذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الايمان والعقل والرغبة في الآخرة فان الطاعة تثمر هذه الثمرات ولابد .

ومنها أن تمنع قلبه من ترحله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة فان القلب لايزال مشتتا مضيعا حتى يرحل من الدنيا وينزل في الاخرة فاذا نزل فيها أقبلت اليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبية زاده ليوم معاده ومالم يترحل الى الاخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لامحالة .

ومنها اعراض الله وملائكته وعباده عنه . فان العبد اذا اعرض عن

---

(١) رواه ابن جرير . والترمذي . والنسائي . وابن ماجه من طرق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ

طاعة الله واشتغل بمعاصيه اعرض الله عنه فاعرضت عنه ملائكته وعباده كما أنه اذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه اليه *

ومنها أن الذنب يستدعى ذنبا آخر ، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثا ، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعى رابعا وهلم جرا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته، قال بعض السلف : ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها *

ومنها علمه بفوات ماهو أحب اليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها فانه لايجمع الله لعبده بين لذة المحرمات فى الدنيا ولذة مافى الآخرة . كما قال تعالى . (٤٦ : ٢٠ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا) فالمؤمن لايذهب طيباته فى الدنيا . بل لابد أن يترك بعض طيباته للاخرة . واما الكافر فانه لايؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته فى الدنيا *

ومنها علمه بأن اعماله هى زاده ووسيلته الى دار اقامته . فان تزود من معصية الله اوصله ذلك الزاد الى دار العصاة والجناة وان تزود من طاعته وصل الى دار أهل طاعته وولايته *

ومنها علمه بان عمله هو وليه فى قبره وانيسه فيه وشفيعه عند ربه والمخاصم والمحاج عنه فان شاء جعله له وان شاء جعله عليه .

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد الى الله به فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها . وأعمال الفجور تهوى به وتجذبه الى الهاوية وتجره الى أسفل سافلين وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله الى حيث يستقر به قال الله تعالى : (٣٥: ١٠

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) وقال تعالى:(٧: ٤٠ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ) فلما لم تفتح أبواب السماء لاعمالهم بل أغلقت عنها لم تفتح لارواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها . وأهل الايمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لاعمالهم حتى وصلت الى الله سبحانه فتحت لارواحهم حتى وصلت اليه تعالى وقامت بين يديه فرحمها وأمر بكتابة اسمها فى عليين .

ومنها خروجه من حصن الله الذى لاضيعة على من دخله فيخرج بمعصيته منه الى حيث يصير نهبا للصوص وقطاع الطريق . فما الظن بمن خرج من حصن حصين لاتدركه فيه آفة الى خربة موحشة مأوى اللصوص وقطاع الطريق فهل يتركون معه شيئا من متاعه ؟

ومنها انه بالمعصية قد تعرض لمحق بركته ، وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من ان يحيط بها العبد علما وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علما فخير الدنيا والآخرة بحذافيره فى طاعة الله ، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره فى معصيته، وفى بعض الآثار يقول الله سبحانه وتعالى: « من ذا الذى أطاعنى فشقى بطاعتى؟ ومن ذا الذى عصانى فسعد بمعصيتى ؟»

﴿ السبب الثامن ﴾ قصر الأمل وعلمه بسرعة انتقاله ، وانه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها أو كراكب قال فى ظل شجرة ثم سار وتركها . فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك مايثقله حمله ويضره ولاينفعه، حريص على الانتقال بخير مابحضرته فليس للعبد انفع من قصر الأمل . ولا أضر من التسويف وطول الأمل .

﴿ السبب التاسع ﴾ مجانبة الفضول فى مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه

واجتماعه بالناس فان قوة الداعي الى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات فانها تطلب لها مصرفا . فيضيق عليها المباح فتتعداه الى الحرام . ومن أعظم الأشياء ضررا على العبد بطالته وفراغه فان النفس لاتقعد فارغة . بل ان لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد ٭

﴿ السبب العاشر ﴾ وهو الجامع لهذه الأسباب كلها : ثبات شجرة الايمان في القلب ، فصبر العبد عن المعاصي انما هو بحسب قوة ايمانه فكلما كان ايمانه أقوى كان صبره أتم . واذا ضعف الايمان ضعف الصبر . فان من باشر قلبه الايمان بقيام الله عليه ، ورؤيته له ، وتحريمه لما حرم عليه ، وبغضه له ، ومقته لفاعله ، وباشر قلبه الايمان بالثواب والعقاب والجنة والنار ، امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم . ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الايمان الراسخ الثابت فقد غلط ، فاذا قوى سراج الايمان في القلب ، وأضاءت جهاته كلها به ، وأشرق نوره في أرجائه . سرى ذلك النور الى الأعضاء ، وانبعث اليها فاسرعت الاجابة لداعي الايمان ، وانقادت له طائعة مذللة غير متثاقلة ولا كارهة بل تفرح بدعوته حين يدعوها ، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن اليه الى محل كرامته . فهو كل وقت يترقب داعيه ، ويتأهب لموافاته . والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ٭

﴿ فصل ﴾ والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة .

ومن أقوى أسبابها الايمان والمحبة . فكلما قوى داعي الايمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه ٭

وههنا مسألة تكلم فيها الناس . وهي أي الصبرين أفضل : صبر العبد عن المعصية ، أم صبره على الطاعة ؟ ٭

فطائفة رجحت الأول . وقالت : الصبر عن المعصية من وظائف الصديقين . كما قال بعض السلف : أعمال البر يفعلها البر والفاجر . ولا يقوى على ترك المعاصى الا صديق . قالوا : ولان داعى المعصية أشد من داعى ترك الطاعة . فان داعى المعصية الى أمر وجودى تشتهيه النفس وتلتذ به . والداعى الى ترك الطاعة الكسل والبطالة والمهانة . ولاريب أن داعى المعصية أقوى .

قالوا : ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعى النفس والهوى والشيطان وأسباب الدنيا وقرناء الرجل ، وطلب التشبه والمحاكاة ، وميل الطبع . وكل واحد من هذه الدواعى يجذب العبد الى المعصية ويطلب أثره . فكيف اذا اجتمعت وتظاهرت على القلب ؟ فأى صبر أقوى من صبر عن اجابتها ؟ ولولا أن الله يصبره لما تأتى منه الصبر .

وهذا القول كما ترى حجته فى غاية الظهور .

ورجحت طائفة الصبر على الطاعة بناء منها على أن فعل المأمور أفضل من ترك المنهيات واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها . فاذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل . وفصل النزاع فى ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية . فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة . وصبر العبد على الجهاد مثلا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر . وصبره عن كبائر الاثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح وصوم يوم تطوعا ونحوه . فهذا فصل النزاع فى المسألة والله أعلم .

﴿ فصل ﴾ والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة

أحدها : شهود جزائها وثوابها

الثانى : شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها

الثالث : شهود القدر السابق الجارى بها ، وأنها مقدرة فى أم الكتاب قبل أن تخلق . فلابد منها . فجزعه لايزيده الابلاء .

الرابع : شهوده حق الله عليه فى تلك البلوى ، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة . أو الصبر والرضا على أحد القولين فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه فى تلك البلوى فلابد له منه والا تضاعفت عليه

الخامس : شهود ترتبها عليه بذنبه . كما قال الله تعالى . (٤٢ : ٣٤ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) فهذا عام فى كل مصيبة دقيقة وجليلة ، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذى هو أعظم الأسباب فى دفع تلك المصيبة . قال على بن أبى طالب: « مانزل بلاء الا بذنب ، ولا رفع بلاء الا بتوبة » .

السادس : أن يعلم ان الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها ، وأن العبودية تقتضى رضاه بما رضى له به سيده ومولاه فان لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه . فلينزل الى مقام الصبر عليها فان نزل عنه نزل الى مقام الظلم وتعدى الحق .

السابع . أن يعلم ان هذه المصيبة هى دواء نافع ساقه اليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به فليصبر على تجرعه ولا يتقياه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلا .

الثامن . ان يعلم ان فى عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم مالا تحصل بدونه فاذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر الى عاقبته وحسن تأثيره ، قال الله تعالى : (وَعَسَى أَنْ

تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وقال الله تعالى: (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) وفى مثل هذا قال القائل :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

﴿ التاسع ﴾ أن يعلم أن المصيبة ماجاءت لتهلكه وتقتله . وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا ؟ فان ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الاكرام ، وألبسه ملابس الفضل ، وجعل أولياءه وحزبه خدماله وعونا له وان انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه ، وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة . وهو لا يشعر فى الحال بتضاعفها وزيادتها . ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة فى حقه صارت مصائب كما يعلم الصابر أن المصيبة فى حقه صارت نعما عديدة . ومابين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة . وتشجيع القلب فى تلك الساعة . والمصيبة لابد أن تقلع عن هذا وهذا . ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات ، وعن الآخر بالحرمان والخذلان . لأن ذلك تقدير العزيز العليم . وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم .

﴿ العاشر ﴾ أن يعلم أن الله يربى عبده على السراء والضراء . والنعمة والبلاء . فيستخرج منه عبوديته فى جميع الأحوال . فان العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال . وأما عبد السراء والعافية الذى يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه . فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته . فلاريب أن الايمان الذى يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الايمان النافع وقت الحاجة

وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين . وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية . فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه . فاما أن يخرج تبرا أحمر . واما أن يخرج زغلا محضا . واما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية فلا يزال به البلاء ، حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ، ويبقى ذهبا خالصا . فلو علم العبد أن نعمة الله عليه فى البلاء ليست بدون نعمة الله عليه فى العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . وكيف لايشكر من قيض له مايستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرا خالصا يصلح لمجاورته والنظر اليه فى داره ؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء فان قويت أثمرت الرضا والشكر . فنسأل الله أن يسترنا بعافيته ، ولا يفضحنا ببلائه بمنه وكرمه *

(فصل) المثال السادس الحزن . قال أبو العباس . وهو من منازل العوام ، وهو انخلاع عن السرور ، وملازمة الكآبة لتأسف عن فائت أو توجع لممتنع . وانما كان من منازل العوام لأن فيه نسيان المنة والبقاء فى رق الطبع وهو فى مسالك الخواص حجاب لأن معرفة الله جلا نورها كل ظلمة . وكشف سرورها كل غمة . فبذلك فليفرحوا . وقيل : أوحى الله الى داود : « ياداود بى فافرح ، وبذكرى فتلذذ . وبمعرفتى فافتخر . فعما قليل أفرغ الدار من الفاسقين . وأنزل نقمتى على الظالمين» *

اعلم أن الحزن من عوارض الطريق ليس من مقامات الايمان ولا من منازل السائرين ولهذا لم يأمر الله به فى موضع قط . ولا أثنى عليه . ولا رتب عليه جزاء ولا ثوابا . بل نهى عنه فى غير موضع . كقوله تعالى : (٣ : ١٣٩ - وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

وقال تعالى: (١٦: ١٢٧ - وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) وقال تعالى: (٥: ٢٦ - فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) وقال: (٩: ٤٠ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فالحزن هو بلية من البلايا التى نسأل الله دفعها وكشفها ولهذا يقول أهل الجنة: (٣٥: ٣٤ - الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) فحمدوه على أن أذهب عنهم تلك البلية. ونجاهم منها. وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ. وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ (١) وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ » فاستعاذ ﷺ من ثمانية اشياء كل شيئين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان. وهما الألم الوارد على القلب فان كان على مامضى فهو الحزن. وان كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضى اثر الحزن وان كان مصدره خوف الآتى اثر الهم، والعجز والكسل قرينان فان تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه ان كان من عدم القدرة فهو عجز وان كان من عدم الارادة فهو كسل. والجبن والبخل قرينان. فان الاحسان يفرح القلب ويشرح الصدر. ويجلب النعم. ويدفع النقم. وتركه يوجب الضيم والضيق. ويمنع وصول النعم اليه فالجبن ترك الاحسان بالبدن. والبخل ترك الاحسان بالمال وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان فان القهر والغلبة الحاصلة للعبد إما منه وإما من

---

(١) ضلع الدين - بفتح اوله وثانيه - ثقله وغلبته، وفى رواية «من غلبة الدين وقهر الرجال».

غيره وإن شئت قلت: اما بحق واما بباطل من غيره *

والمقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه . وذلك لان الحزن يضعف القلب ، ويوهن العزم ، ويضر الارادة ولاشيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن . قال تعالى: (٥٨ : ١٠ - إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا) فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره ، كالمرض: والالم ونحوهما. وإما أن يكون عبادة مأمورا بتحصيلها وطلبها فلا فرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات ، وما يثاب عليه من البليات .

ولكن يحمد فى الحزن سببه ومصدره ولازمه لاذاته، فان المؤمن إما أن يحزن على تفريطه وتقصيره فى خدمة ربه وعبوديته ، وإما أن يحزن على تورطه فى مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته . وهذا يدل على صحة الايمان فى قلبه وعلى حياته ، حيث شغل قلبه بمثل هذا الالم فحزن عليه . ولو كان قلبه ميتا لم يحس بذلك ولم يحزن ولم يتألم * فما لجرح بميت إيلام *

وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الالم أقوى . ولكن الحزن لا يجدى عليه ، فانه يضعفه كما تقدم. بل الذى ينفعه أن يستقبل السير ويجد ويشمر ويبذل جهده، وهذا نظير من انقطع عن رفقته فى السفر ، فجلس فى الطريق حزينا كئيبا ، يشهد انقطاعه و يحدث نفسه باللحاق بالقوم . فكلما فتر وحزن حدث نفسه باللحاق برفقته ، ووعدها إن صبرت أن تلحق بهم ، ويزول عنها وحشة الانقطاع . فهكذا السالك إلى منازل الابرار ، وديار المقربين. وأخص من هذا الحزن حزنه على قطع الوقت بالتفرقة المضعفة للقلب عن تمام سيره وجده فى سلوكه . فان التفرقة من أعظم البلاء على السالك . ولاسيما فى ابتداء أمره فالاول حزن على التفريط فى الاعمال .

وهذا حزن على نقص حاله مع الله وتفرقة قلبه . وكيف صار وقته ظرفا لتفرقة حاله ، واشتغال قلبه بغير معبوده ؟ وأخص من هذا الحزن : حزنه على جزء من أجزاء قلبه كيف هو خال من محبة الله ؟ وعلى جزء من أجزاء بدنه ، كيف هو متصرف فى غير محاب الله ؟ فهذا حزن الخاصة ويدخل فى هذا حزنهم على كل معارض يشغلهم عما هم بصدده من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج . فهذه المراتب من الحزن لا بد منها فى الطريق . ولكن الكيس لا يدعها تملكه وتقعده ، بل يجعل عوض فكرته فيها فكرته فيما يدفعها به . فان المكروه إذا ورد على النفس فان كانت صغيرة اشتغلت بفكرها فيه وفى حصوله عن الفكرة فى الاسباب التى يدفعها به ، فأورثها الحزن وان كانت نفسا كبيرة شريفة لم تفكر فيه ، بل تصرف فكرها الى ما ينفعها فان علمت منه مخرجا فكرت فى طريق ذلك المخرج وأسبابه . وان علمت أنه لا مخرج منه ، فكرت فى عبودية الله فيه . وكان ذلك عوضا لها من الحزن فعلى كل حال لا فائدة لها فى الحزن أصلا والله أعلم *

وقال بعض العارفين : ليست الخاصة من الحزن فى شيء *

وقوله : معرفة الله جلا نورها كل ظلمة ، وكشف سرورها كل غمة كلام فى غاية الحسن فان من عرف الله أحبه ولا بد ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات ، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والاحزان، وعمر قلبه بالسرور والافراح ، وأقبلت اليه وفود التهانى والبشائر من كل جانب فانه لا حزن مع الله أبدا ولهذا قال حكاية عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه أبى بكر : (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فدل انه لا حزن مع الله ، وان من كان الله معه فماله وللحزن . وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله فمن حصل الله له فعلى أى شيء يحزن ؟ ومن فاته الله فبأى شيء يفرح ؟ قال تعالى:

(١٠: ٥٨ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه . فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به : من حبيب ، أو حياة ، أو مال ، أو نعمة ، او ملك يفرح المؤمن بربه اعظم من هذا كله . ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة فيظهر سرورها فى قلبه ونضرتها فى وجهه فيصير له حال من حال اهل الجنة حيث لقاهم الله نضرة وسرورا فلمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون فهذا هو العلم الذى شمر اليه اولو الهمم والعزائم واستبق اليه اصحاب الخصائص والمكارم .

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

{ فصل } والمثال السابع : الخوف .

قال ابو العباس : هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن ، والتيقظ لنداء الوعيد ، والحذر من سطوة العقاب وهو من منازل العوام ايضا وليس فى منازل الخواص خوف لانه لا امان للغافل . إنما يعبد مولاه على وحشة من نظره ، ونفرة من الانس به عند ذكره (٤٢ : ٢٢ - تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ) واما الخواص اهل الاختصاص ، فانهم جعلوا الوعيد منه وعداً ، والعذاب فيه عذبا . لانهم شاهدوا المبتلى فى البلاء ، والمعذب فى العذاب ، فاستعذبوا ما وجدوا فى جنب ما شاهدوا فى ذلك . قال قائلهم :

سقمى فى الحب عافيتى ووجودى فى الهوى عدمى
وعذاب ترتضون به فى فمى احلى من النعم

ومن كان مستغرقا فى المشاهدة حل فى بساط الانس . فلا يبقى للخوف

بساحته الم لان المشاهدة توجب الانس ، والخوف يوجب القبض ؛ ثم ذكر حكاية المضروب الذى ضرب مائة سوط فلم يتألم لاجل نظر محبوبه اليه ، ثم ضرب سوطا فصاح لماتوارى عنه محبوبه ، قال : وقد قيل فى قوله تعالى: (وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) دليل خطابه أن المؤمنين لهم عذاب ولكن ليس بشديد وإنما كان عذاب الكافرين شديداً لانهم لايشاهدون المعذب لهم والعذاب على شهود المعذب عذب والثواب على الغفلة من المعطى صعب فالخوف اذاًمن منازل العوام .

والكلام على ماذكره من وجوه .

احدها : ان الخوف احد اركان الايمان . والاحسان الثلاثة التى عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهى الخوف، والرجاء ، والمحبة وقد ذكره سبحانه في قوله (١٧ : ٥٦ ، ٥٧ - قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) فجمع بين المقامات الثلاثة فان ابتغاء الوسيلة اليه هو التقرب اليه بحبه وفعل مايحبه . ثم قال: (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) فذكر الحب والخوف والرجاء . والمعنى إن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والانبياء والصالحين يتقربون الى ربهم ويخافونه ويرجونه فهم عبيده كما انكم عبيده فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟ وقد أمر سبحانه بالخوف منه فى قوله (٣: ١٧٥ - فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فجعل الخوف منه شرطا فى " تحقق الايمان ، وان كان الشرط داخلا فى الصيغة على الايمان فهو المشروط فى المعنى والخوف

شرط فى حصوله وتحققه وذلك لأن الايمان سبب الخوف الحاصل عليه وحصول المسبب شرط فى تحقق السبب كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الايمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه وانتفاء الخوف عند انتفاء الايمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته. فتدبره، والمعنى إن كنتم مؤمنين فخافونى. والجزاء محذوف مدلول عليه بالاول عند سيبويه وأصحابه، أوهو المتقدم نفسه. وهو جزاء وان تقدم كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضى للخوف وهو الايمان وكل منهما مستلزم للآخر. لكن الاستلزام مختلف وكل منهما منتف عند انتفاء الآخر لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقـــدم *

والمقصود: أن الخوف من لوازم الايمان وموجباته فلا يختلف عنه، وقال تعالى: (٥ : ٤٤ - فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) وقد اثنى سبحانه على اقرب عباده اليه بالخوف منه. فقال عن انبيائه بعد ان اثنى عليهم ومدحهم: (٢١: ٩٠ انهم كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً) فالرغب: الرجاء والرغبـــة. والرهب: الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين قد امنهم من عذابه: (١٦: ٥٠ - يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) وفى الصحيح عن النبى ﷺ انه قال: «انى اعلمكم بالله واشدكم له خشية» وفى لفظ «اخر «انى اخوفكم لله واعلمكم بما اتقى» وكان ﷺ يصلى ولصدره ازيز كازيز المرجل من البكاء وقد قال تعالى: (٣٥ : ٢٨ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فكلما كان العبد بالله أعلم كان له اخوف. قال ابن مسعود: «وكفى بخشية الله علما» ونقصان

الخوف من الله انما هو لنقصان معرفة العبد به ، فاعرف الناس اخشاهم لله ومن عرف الله اشتد حياؤه منه، وخوفه له، وحبه له ، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفا وحبا فالخوف من أجل منازل الطريق وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة . وهم اليه احوج ، وهو بهم اليق . ولهم الزم. فان العبد اما ان يكون مستقيما او مائلا عن الاستقامة فان كان مائلا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله ؛ ولا يصح الايمان الا بهذا الخوف ، وهو ينشأ من ثلاثة امور *

احدها . معرفته بالجناية وقبحها

والثانى . تصديق الوعيد وان الله رتب على المعصية عقوبتها

والثالث . انه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها اذا ارتكب الذنب *

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف ، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه ، فان الحامل على الذنب اما ان يكون عدم علمه بقبحه ، واما عدم علمه بسوء عاقبته ، واما ان يجتمع له الامران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة . وهو الغالب من ذنوب اهل الايمان فاذ علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته ، وخاف ان لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه . هذا قبل الذنب . فاذا عمله كان خوفه اشد *

وبالجملة فمن استقر فى قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها ، وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق باتيانه بالتوبة النصوح هاج من قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو *

وأما ان كان مستقيما مع الله فخوفه يكون مع جريان الانفاس لعلمه بأن الله مقلب القلوب ، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع

الرحمن عز وجل . فان شاء أن يقيمه أقامه ، وان شاء أن يزيغه أزاغه كما ثبت عن النبي ﷺ وكانت أكثر يمينه «لا ومقلب القلوب . لا ومقلب القلوب » وقال بعض السلف : القلب أشد تقلبا من القدر اذا استجمعت غليانا ، وقال بعضهم : مثل القلب فى سرعة تقلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة ، تقلبها الرياح ظهرا لبطن . ويكفى فى هذا قوله تعالى :(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) فاى قرار لمن هذه حاله ؟ ومن أحق بالخوف منه ؟ بل خوفه لازم له فى كل حال وان توارى عنه بغلبة حالة أخرى عليه . فالخوف حشو قلبه . لكن توارى عنه بغلبة غيره فوجود الشىء غير العلم به فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد . وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله . وانه الفعال لما يريد . وانه المحرك للقلب المصرف له المقلب له كيف يشاء لا اله الا هو .

﴿ الوجه الثانى ﴾ قوله : ليس فى منازل الخواص خوف قد تبين فساده . وان الخاصة أشد خوفا من العامة .

﴿ الوجه الثالث ﴾ قوله : العاقل يعبد ربه على وحشة من نظره ونفرة من الأنس به عند ذكره (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ) الآية فهذا انما هو وحشة ونفار ، وهو غير الخوف فان الوحشة انما تنشأ من عدم الخوف . وأما الخوف فانه يوجب هروبا الى الله وجمعية عليه ، وسكونا اليه فهى مخافة مقرونة بحلاوة ، وطمانينة وسكينة ومحبة . بخلاف خوف المسىء الهارب من الله . فانه خوف مقرون بوحشة ونفرة.فخوف الهارب اليه سبحانه محشو بالحلاوة والسكينة والأنس لا وحشة معه . وإنما يجد الوحشة من نفسه . فله نظران نظر الى نفسه وجنايته . فيوجب له وحشة ونظر

الى ربه وقدرته عليه وعزه وجلاله فيوجب له خوفا مقرونا بانس وحلاوة وطمأنينة *

﴿ الوجه الرابع ﴾ ان استشهاده بقوله : (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ) ليس استشهادا صحيحا فان هذا وصف لحالهم فى الآخرة عند معاينة العذاب أو عند الموت . فهذا اشفاق مقرون بالاستيحاش لانه قد علم أنه صائراليه كمن قدم الى العقوبة ورأى اسبابها فهو مشفق منها اذا رآها لعامه بأنها صائر اليها فليست الآية من الخوف المأمور به فى شىء *

﴿ الوجه الخامس ﴾ أن الخوف يتعلق بالافعال . واما الحب فانه يتعلق بالذات والصفات . ولهذا يزول الخوف فى الجنة واما الحب فيزداد، ولما كان الحب يتعلق بالذات كان من اسمائه سبحانه «الودود» قال البخارى فى صحيحه :«الحبيب »واما الخوف فانه متعلقه افعال الرب . ولايخرج عن كون سببه جناية العبد ، وان كانت جنايته من قدرالله ولهذا قال على بن ابى طالب :« لايرجون عبد الا ربه ؛ ولايخافن عبد الاذنبه» فمتعلق الخوف ذنب العبد وعاقبته ، وهى مفعولات للرب فليس الخوف عائدا الى نفس الذات *

والفرق بينه وبين الحب : أن الحب سببه الكمال ، وذاته تعالى لها الكمال المطلق . وهومتعلق الحب التام . وأما الخوف فسببه توقع المكروه وهذا انما يكون فى الأفعال والمفعولات . وبهذا يعلم بطلان قول من زعم أنه سبحانه يخاف لالعلة ولا لسبب ، بل كما يخاف السيل الذى لايدرى العبد من أين يأتيه . وهذا بناه من هؤلاء على نفى محبته سبحانه وحكمته . وأنه ليس الامحض المشيئة ، والارادة التى ترجح مثلا على مثل بلامرجح

ولا يراعى فيها حكمة ولا مصلحة . وهؤلاء عندهم الخوف يتعلق بنفس الذات من غير نظر الى فعل العبد ، وأنه سبب المخافة اذ ليس عندهم سبب ولا حكمة ، بل ارادة محضة يفعل بها مايشاء من تنعيم وتعذيب . وعند هؤلاء فالخوف لازم للعبد فى كل حال ، أحسن أم أساء . وليس لافعاله تأثير فى الخوف . وهذا من قلة نصيبهم من المعرفة بالله وكماله وحكمته . وأين هذا من قول أمير المؤمنين على: لا يرجون عبد الاربه ولا يخافن الا ذنبه ؟، فجعل الرجاء متعلقا بالرب سبحانه وتعالى . لأن رحمته من لوازم ذاته ، وهى سبقت غضبه . وأما الخوف فتعلق بالذنب . فهو سبب المخافة ، حتى لو قدر عدم الذنب بالكلية لم تكن مخافة .

﴿فان قيل﴾ : فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التى هى أسباب المخافة ، وشدة خوف النبى ﷺ مع علمه بان الله قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وأنه أقرب الخلق الى الله ؟

﴿قيل﴾ : عن هذا أربعة أجوبة

الجواب الأول : ان هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده . وكلما كان العبد أقرب الى الله كان خوفه منه أشد ، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره ، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها مالا يجب على غيره . ونظير هذا فى الشاهد : أن الماثل بين يدى أحد الملوك المشاهد له أشد خوفا منه من البعيد عنه ، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه ، وأنه يطالب من حقوق الخدمة وادائها بما لا يطالب به غيره فهو أحق بالخوف من البعيد . ومن تصور هذا حق تصوره فهم قوله ﷺ: « انى أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » وفهم قوله ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره من حديث زيد بن ثابت عن النبى ﷺ

أنه قال: «إنَّ اللهَ تَعَالَى لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ» وليس المراد به لو عذبهم لتصرف فى ملكه والمتصرف فى ملكه غير ظالم. كما يظنه كثير من الناس. فان هذا يتضمن مدحا والحديث انما سيق للمدح بغير استحقاق فان حقه سبحانه عليهم أضعاف أضعاف ماأتوا. ولهذا قال بعده: «وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ» يعنى أن رحمته لهم ليست على قدر أعمالهم، اذ أعمالهم لاتستقل باقتضاء الرحمة، وحقوق عبوديته وشكره التى يستحقها عليهم لم يقوموا بها. فلو عذبهم والحالة هذه لكان تعذيبا لحقه. وهو غير ظالم لهم فيه. ولا سيما فان أعمالهم لا توازى القليل من نعمه عليهم. فتبقى نعمه الكثيرة لامقابل لها من شكرهم فاذا عذبهم على ترك شكرهم وأداء حقه الذى ينبغى له سبحانه عذبهم ولم يكن ظالما لهم *

﴿فان قيل﴾: فهم اذا فعلوا مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ماعداه مما ينبغى له مقدورا لهم. فكيف يحسن العذاب عليه *

﴿قيل﴾: الجواب من وجهين

أحدهما: أن المقدور للعبد لايأتى به كله، بل لابد من فتور واعراض وغفلة وتوان. وأيضا ففى نفس قيامه بالعبودية لايوفيها حقها الواجب لها من كمال المراقبة، والاجلال والتعظيم، والنصيحة التامة لله فيها. بحيث يبذل مقدوره كله فى تحسينها وتكميلها ظاهرا وباطنا. فالتقصير لازم فى حال الترك وفى حال الفعل. ولهذا سال الصديق النبى ﷺ

دعاء يدعو به فى صلاته فقال له : « قُل اللَّهُمَّ انى ظَلَمتُ نَفسى ظُلْماً كَثيراً وَلَا يَغفِرُ الذُّنُوبَ الاَّ أنتَ فَاغفِرْ لى مَغْفِرَةً مِنْ عِنْــدكَ وَارْحَمْنى انَّكَ أنتَ الغَفورُ الرَّحيمُ (١) » فاخبر عن ظلمه لنفسه مؤكدا له بان المقتضية ثبوت الخبر وتحققه . ثم اكده بالمصدر النافى للتجوز والاستعارة ثم وصفه بالكثرة المقتضية لتعدده وتكثره . ثم قال « فاغفرلى مغفرة من عندك » اى لاينالها عملى ولا سعيى ، بل عملى يقصر عنها ، وانما هى من فضلك واحسانك لابكسبي ولا باستغفارى وتوبتى . ثم قال «وارحمنى» أى ليس معولى الا على مجرد رحمتك فان رحمتنى والا فالهلاك لازم لى.

فليتدبر اللبيب هذا الدعاء ومافيه من المعارف والعبودية . وفى ضمنه : أنه لو عذبتنى لعدلت فى ولم تظلمنى . وانى لا انجو الا برحمتك ومغفرتك.

ومن هذا قوله ﷺ : «لَنْ يُنجِيَ أحَداً منكُم عَمَلُهُ . قَالُوا : وَلَا أَنتَ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا الَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِىَ اللهُ بِرَحْمَةٍ منهُ وَفَضْلٍ» (٢) فاذا كان عمل العبد لا يستقل بالنجاة فلو لم ينجه الله فلم يكن قد بخسه شيئا من حقه ولا ظلمه . فانه ليس معه مايقتضى نجاته ، وعمله ليس وافيا بشكر القليل من نعمه . فهل يكون ظالما له لو عذبه ؟ وهل تكون رحمته له جزاء لعمله . ويكون العمل ثمنا لها مع تقصيره فيه وعدم توفيته ماينبغى له من بذل النصيحة فيه ، وكمال العبودية من الحياء والمراقبة ، والمحبة والخشوع ، وحضور القلب بين يدى الله فى العمل له ؟

ومن علم هذا علم السر فى كون اعمال الطاعات تختم بالاستغفار ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص (٢) رواه البخارى ومسلم عن ابى هريرة .

ففى صحيح مسلم عن ثوبان قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا. وقال: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» قال تعالى: (٥١ : ١٧ - ١٨ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) فاخبر عن استغفارهم عقيب صلاة الليل. قال الحسن: «مدوا الصلاة الى السحر فلما كان السحر جلسوا يستغفرون الله» وأمر الله تعالى عباده بالاستغفار عقيب الافاضة فى الحج فقال: (٢ . ١٩٩ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)»

وشرع رسول الله ﷺ للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوحيد والاستغفار فيقول: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِى مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ» (١) فهذا ونحوه مما يبين حقيقة الأمر. وان كل أحد محتاج الى مغفرة الله ورحمته وانه لاسبيل الى النجاة بدون مغفرته ورحمته أصلا *

﴿الجواب الثانى﴾ انه لوفرض أن العبد يأتى بمقدوره كله من الطاعة ظاهرا وباطنا فالذى ينبغى لربه فوق ذلك وأضعاف أضعافه. فاذا عجز العبد عنه لم يستحق مايترتب عليه من الجزاء. والذى اتى به لايقابل أقل النعم. فاذا حرم جزاء العمل الذى ينبغى للرب من عبده كان ذلك تعذيبا له. ولم يكن الرب ظالما له فى هذا الحرمان. ولو كان عاجزا عن أسبابه فانه لم يمنعه حقا يستحقه عليه فيكون ظالما بمنعه. فاذا أعطاه الثواب كان بمجرد صدقة منه وفضل تصدق بها عليه لاينالها عمله، بل هى خير من عمله

---

(١) رواه مسلم. وابو داود. والترمذى. والنسائى. وابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وأفضل وأكثر، ليست معاوضة عليه والله أعلم .

(الجواب الثالث) عن السؤال الأول : ان العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب ، وأنه يحول بين المرء وقلبه ، وأنه تعالى كل يوم هو في شأن يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ؛ وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء ؛ فما يؤمنه أن يقلب الله قلبه ويحول بينه وبينه ويزيغه بعد اقامته. وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم : (٣ : ٨ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) فلو لاخوف الازاغة لما سألوه أن لايزيغ قلوبهم . وكان من دعاء النبي ﷺ « اللهم مُصرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » (١) «وَمُثَبِّتَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ » (٢) وفي الترمذي عنه ﷺ أنه كان يدعو « أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ انْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الحَيُّ الذي لَا تَمُوتُ » وكان من دعائه « اللَّهُمَّ انِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » (٣) فاستعاذ بصفة الرضا من صفة الغضب ، وبفعل العافية من فعل العقوبة ، واستعاذ به منه باعتبارين . وكان استعاذته منه جمعا لما فصله في الجملتين قبله . فان الاستعاذة به منه ترجع الى معنى الكلام قبلها مع تضمنها فائدة شريفة . وهي كمال التوحيد ، وأن الذي يستعيذ به العائذ ويهرب منه انما

---

(١) رواه مسلم . وأحمد . والنسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٢) رواه أحمد . والترمذي عن أنس بن مالك . ورواه النسائي عن جابر (٣) رواه مسلم . وأبو داود . والترمذي والنسائي عن عائشة رضي الله عنها *

هو فعل الله ومشيئته وقدره ، فهو وحده المنفرد بالحكم . فاذا أراد بعبده سوءاً لم يعذه منه الا هو . فهو الذى يريد به مايسوءه وهو الذى يريد دفعه عنه . فصار سبحانه مستعاذا به منـــه باعتبار الارادتين (٦ : ١٧ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) فهو الذى يمس بالضر، وهو الذى يكشفه ، لَا إِلَهَ إِلا هوَ . فالمهرَب منه اليه . والفرار منه اليه ، والملجأ منه اليه ، كما أن الاستعاذة منه فانه لارب غيره ولا مدبر للعبد سواه . فهو الذى يحركه ويقلبه ، ويصرفه كيف يشاء *

(الجواب الرابع) انالله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق افعال العبد الظاهرة والباطنة . فهو الذى يجعل الايمان والهدى فى القلب ، ويجعل فيه التوبة والانابة والاقبال والمحبة والتفويض وأضدادها . والعبد فى كل لحظة مفتقر الى هداية يجعلها الله فى قلبه، وحركات يحركه بها فى طاعته . وهذا الى الله سبحانه وتعالى فهو خلقه وقدره ، وكان من دعاء النبى ﷺ «اللّهمَّ آت نَفْسي تَقْوَاها ، وَزَكِّهَا أَنتَ خيرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمولاَهَا »(١) وعلم حصين بن المنذر أن يقول : «اللّهمَّ أَلْهِمْني رُشْدِي وَقِني شَرَّ نَفْسي » وعامة أدعيته ﷺ متضمنة لطلب توفيق ربه وتزكيته له واستعماله فى محابه فمن هداه وصلاحه وأسباب نجاته بيد غيره ، وهو المالك له ولحاله المتصرف فيه بما يشاء ليس من أمره شيء من أحق بالخوف منه ؟ وهبه أنه قد خلق له فى الحال الهداية ؛ فهل هو على يقين وعلم أن الله سبحانه وتعالى يخلقها له فى المستقبل ويلهمه رشده أبدا *

---

(١) رواه أحمد عن عائشة ورواه مسلم عن زيد بن أرقم

فعلم أن خوف المقربين عند ربهم أعظم من خوف غيرهم والله المستعان *
ومن ههنا كان خوف السابقين من فوات الايمان كما قال بعض السلف: أنتم تخافون الذنب، وأنا أخاف الكفر، وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: « نشدتك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ؟ - يعني في المنافقين - فيقول: لا ولا أزكي بعدك أحداً » (رواه البخاري) يعني لا أفتح على هذا الباب في سؤال الناس لي، وليس مراده انه لم يخلص من النفاق غيرك *

﴿ الوجه السادس ﴾ قوله: واما الخواص فانهم جعلوا الوعيد منه وعداً، والعذاب فيه عذباً لانهم شاهدوا المبتلي والمعذب، فاستعذبوا ماوجدوا في جنب ماشاهدوا الى آخر كلامه *

فيقال: هذا الكلام ونحوه من رعونات النفس، ومن الشطحات التي يجب انكارها فمن ذا الذي جعل وعيد الله وعداً، وعقابه ثواباً، وعذابه عذباً؟ وهل هذا الا انكار لوعيده وعذابه في الحقيقة؟ وأي عذاب أشد من عذابه؟ نعوذ بالله منه، قال تعالى: (وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) وقال: (٨٩ : ٢٥ ، ٢٦ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) وهذا أظهر في كل ملة من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه. وإنما ينسب هذا المذهب إلى الملاحدة من القائلين بوحدة الوجود. كما قال قائلهم:

ولم يبق إلا صادق الوعد وحده ... فما لوعيد الحق غير تعاين
وان دخلوا دار الشقاء فانهم ... على لذة فيها نعيم مباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صائن
نعيم جنان الخلد والامر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين

فهذا القائل خط على تلك النقطة التي نقطها أبو العباس. ولعل الكلامين من مشكاة واحدة. وهذا مباين للمعلوم بالاضطرار من دين الرسل.

وماأخبرت به عن الله وأخبر به على لسان رسوله ﷺ .

﴿ فان قيل ﴾ ليس مراده ماذكرتم وفهمتم من كلامه ، وانما مراده أنه سبحانه اذا ابتلى عبده فى الدنيا فهو لكمال محبته له يتلذذ بتلك البلوى ويعدها نعمة . وليس مراده عذاب الآخرة .

﴿ قيل ﴾ قوله عن الخواص : انهم جعلوا الوعيد منه وعدا . ينفى ما ذكرتم من التأويل . فان ابتلاء الدنيا غير الوعيد . وأيضا فانه فى مقام الخوف . ونفيه عن الخاصة محتجا عليه بانهم يرون العذاب عذبا والوعيد وعدا فمالهم وللخوف ؟ هذا مقصوده من سياق كلامه واحتجاجه عليه بهذا الهذيان الذى يسخر منه العقلاء بل نحن لا ننكر أن العبد اذا تمكن حب الله فى قلبه حتى ملك جميع أجزائه فانه قد يتلذذ بالبلوى أحيانا . وليس ذلك دائما ولا أكثريا ، ولكنه يعرض عند هيجان الحب وغلبة الشوق . فيقهر شهود الالم ثم يراجع طبيعته فيذوق الالم . ولكن أين هذا من جعل الوعيد وعدا ، والعذاب عذبا ؟ وان أحسن الظن بصاحب هذا الكلام ظن به أنه ورد عليه وارد من الحب يخيل فى نفسه ان محبوبه اذا تواعده كان ذلك منه وعدا . وان عذبه كان عذابه عنده عذبا لموافقته مراد محبوبه . وهذا خيال فاسد ، وتقدير فى النفس . والا فالحقيقة الخارجية تكذب هذا الخيال الباطل . بل لو صب عليه أدنى شىء من عذابه لصاح واستغاث وطلب العفو والعافية .

وحكمة الله تقتضى تعجيز هذه النفوس الجاهلة الرعنة الحمقة بادنى شىء يكون من الالم والوجع ، حتى يتبين لها دعاويها الكاذبة ، وشطحها الباطل .

وهذا سيد المحبين وسيد ولد آدم استعاذته بالله من عذابه وبلائه ، وسؤاله عافيته ومعافاته معلومة فى أدعيته ، وتضرعه الى ربه ، وابتهاله اليه فى ذلك وهى أكثر وأشهر من أن تذكر ههنا انما فى سيد المحبين أسوة وقدوة ، ولكن قد ابتلى كثير من أهل الارادة بالشطح ، كما ابتلى كثير من أهل

الـكلام بالشك. والمعافى من عافاه الله من هذا وهذا. فنسأل الله عافيته ومعافاته.

﴿الوجه السابع﴾ قوله: ان عذاب الكافرين إنما كان شديداً لانهم لا يشاهدون المعذب لهم. والمؤمنون يشاهدونه فلم يكن عذابهم شديدا وليس كذلك فان عذاب الـكافرين شديد فى نفسه لغلظ جرمهم؛ وهو الـكفر وهو دائم لا انقطاع له. وأما المؤمنون الذين يعذبون بذنوبهم فعذابهم أضعف من عذاب الـكافرين، لأن عذابهم على الذنوب. وهى دون الـكفر. وهو منقطع. والآية لم يرد بها اثبات عذاب المؤمنين دون عذاب الـكافرين وانما سيقت لبيان عذاب الـكافرين حسب فمفهومها نفى العذاب عن المؤمنين، لا اثبات عذاب غير شديد. والله أعلم.

﴿الوجه الثامن﴾ قوله: وللخواص الهيبة. وهى أقصى درجة يشار اليها فى غاية الخوف. والخوف يزول بالامن وينتهى به خوف الشخص على نفسه من العقاب. فاذا أمن العقاب زال الخوف. والهيبة لا تزول أبدا لانها مستحقة للرب بوصف التعظيم والاجلال. وذلك الوصف مستحق على الدوام. وهذه المعارضة والهيبة تعارض المـكاشف أوقات المناجاة. وتصدم المشاهد أحيان المشاهدة وتعصم العائن بصدمة العزة ومنه قال قائلهم:

أشتاقه فاذا بدا أطرقت من اجلاله
لا خيفة بل هيبة وصيانة لجمـــاله
وأصد عنه تجلدا وأروم طيف خياله

فيقال: من العجائب ان المعنى الذى أمر الله به فى كتابه، وأثنى به على خاصة عباده وأقربهم اليه، وهم أنبياؤه. ورسله. وملائكته، يجعل ناقصا من منازل العوام، ويعمد الى معنى لم يذكره الله ولا رسوله، ولا علق به على المدح والثناء فى موضع واحد، فيجعل هو الـكمال، وهو للخواص من العباد. فاين فى القرآن والسنة ذكر الهيبة والامر بها ووصف خاصته بها؟!

ونحن لا ننكر أن الهيبة من لوازم الايمان وموجباته ، ولكن المنكر أن يكون الوصف الذى وصف به أنبياءه وملائكته ناقصا والوصف الذى لم يذكره هو الكامل التام . وهذا المعنى المعبر عنه بالهيبة حق . ولكن لم تجيء العبارة عنه فى القرآن والسنة بلفظ الهيبة . وانما جاءت بلفظ الاجلال كقول النبى ﷺ : « إنَّ من إجْلاَلِ الله إجْلاَلَ ذى الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ وحَامِلِ القُرْءانِ غَيْرِ الغَالِى فيه وَالجَافِى عَنْهُ ، وَالإمَامِ العَادِلِ (١) » فالاجلال، هو التعظيم . وكذلك الهيبة ، يوضح هذا *

﴿ الوجه التاسع ﴾ وهو أن الهيبة والاجلال يجوز تعلقها بالمخلوق. كما قال النبى ﷺ « ان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم ـ الحديث » وقال ابن عباس عن عمر: هبته وكان مهيبا، وأما الخشية والمخافة فلا تصلح الا لله وحده قال تعالى :(٥ : ٤٤ ـ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَونِ) وقال: (٣ : ١٧٥ ـ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقال:(٩ : ١٨ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ الَّا اللهَ فَعَسَى أولَئِكَ أنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) فالخوف عبودية القلب . فلا تصلح الا لله ، كالذل والمحبة ، والانابة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب . وكيف يجعل المهابة المشتركة أفضل منه وأعلى ؟ *

وتأمل قوله تعالى (٢٤ : ٥٢ ـ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ) كيف جعل الطاعة لله ولرسوله ، والخشية

---

(١) رواه ابو داود عن أبى موسى الاشعرى *

والتقوى له وحده، وقال تعالى: (٤٨ : ٩ـ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) كيف جعل التوقير والتعزير للرسول وحده ؟ والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والاجلال . هذا حقيقته فعلم ان الخوف من أجل مقامات الخواص ، وانهم اليه أحرج وبه أقوم من غيرهم *

﴿الوجه العاشر﴾ قوله: الخوف يزول بالامن والهيبة لا تزول أبدا إلى ءاخره *

فيقال : هذا حق . فان الخوف إنما يكون قبل دخول الجنة . فاذا دخلوها زال عنهم الخوف الذى كان يصحبهم فى الدنيا وفى عرصات القيامة . وبدلوا به أمنا لانهم قد أمنوا العذاب فزايلهم الخوف منه . ولكن لايدل هذا على أنه كان مقاما ناقصا فى الدنيا . كما أن الجهاد من أشرف المقامات . وقد زال عنهم فى الآخرة ، وكذلك الايمان بالغيب أجل المقامات على الاطلاق . وقدزال فى الآخرة وصار الامر شهادة، وكذلك الصلاة . والحج . والأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر . وبذل النفس لله ، وهى من أشرف الاعمال . وكلها تزول فى الجنة . وهذا لايدل على نقصانها . فان الجنة ليست دار سعى وعمل انما هى دار نعيم وثواب *

﴿الوجه الحادى عشر﴾ أن الخوف انما زال فى الجنة لأن تعلقه انما هو بالأفعال لا بالذات . كما تقدم ، وقد أمنهم ما كانوا يخافون منه . فقد أمنوا أن لايفعلوا مايخافون منه وأن يفعل بهم ربهم مايخيفهم . ولكن كان الخوف فى الدنيا أنفع لهم . فبه وصلوا الى الأمن التام. فان الله سبحانه وتعالى لا يجمع على عبده مخافتين اثنتين ، فمن خافه فى الدنيا أمنه يوم القيامة . ومن أمنه فى الدنيا ولم يخفه أخافه فى الآخرة . وناهيك

شرفا وفضلا بمقام ثمرته الأمن الدائم المطلق *

﴿ الوجه الثانى عشر ﴾ أن الاجلال والمهابة والتعظيم انما لم تزل لأنها متعلقة بنفس الذات ، وهى موجودة فى دار النعيم . وأما الخوف فانه انما زال لأنه وسيلة الى توفية العبودية والقيام بالأمر . والوسيلة تزول عند حصول الغاية . ولكن زوال الوسيلة عند حصول الغاية لايدل على أنها ناقصة . واذا كانت تلك الغاية لا كمال للعبد بدونها فالوسيلة اليها كذلك *

﴿ الوجه الثالث عشر ﴾ قوله : « وهذه المعارضة والهيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة وتصون المشاهد أحيان المشاهدة وتقصم المعانى بصدمة العزة » *

﴿ فيقال ﴾ لاريب أن الحب والأنس المجرد عن التعظيم والاجلال يبسط النفس ، ويحملها على بعض الدعاوى والرعونات والأمانى الباطلة وإساءة الأدب ، والجناية على حق المحبة . فاذا قارن المحبة مهابة المحبوب وإجلاله وتعظيمه وشهود عز جلاله وعظيم سلطانه انكسرت نفسه له ، وذلت لعظمته ، واستكانت لعزته ، وتصاغرت لجلاله ، وصفت من رعونات النفس وحماقاتها ودعاويها الباطلة ، وأمانيها الكاذبة . ولهذا فى الحديث « يقول الله عز وجل : أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِى ؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِى ظِلِّى يَوْمَ لَاظِلَّ الَّا ظِلِّى » فقال « وأَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِى » فهو حب بجلاله وتعظيمه ومهابته ليس حبا لمجرد جماله . فانه سبحانه الجليل الجميل . والحب الناشىء عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع الموجب لكونهم فى ظل عرشه يوم القيامة . فشهود الجلال وحده يوجب خوفا وخشية وانكسارا ، وشهود الجمال وحده يوجب حبا بانبساط وادلال ورعونة . وشهود

الوصفين مما يوجب حبا مقرونا بتعظيم واجلال ومهابة . وهذا هو غاية كمال العبد . والله أعلم *

وإنشاده هذه الأبيات الثلاثة فى هذا المقام فى غاية القبح . فان هذا المحب ينفى خوفه من محبوبه ويعرض عنه إظهارا للتجلد إما على محبوبه وذلك قبيح فى حكم المحبة فان التذلل للمحبوب وتملقه واستعطافه والانكسار له أولى بالمحب من تجلده وتعززه كما قيل :

اخضع وذل لمن تحب فليس فى　　شرع الهوى أنف يشال ويعقد

ثم أخبر أنه يروم طيف خياله . فهو طالب لحظه من محبوبه لا لمراد محبوبه منه . فهذا محب لنفسه ، وقد جعل طيف محبوبه وسيلة إلى حصول مراده فاحبه حب الوسائل ، بخلاف من قد أحب محبوبه لذات المحبوب ففنى عن مراده هو منه بمراد محبوبه . فصار مراده مراد محبوبه ، فحصل الاتحاد فى المراد لا فى الارادة ولا فى المريد ، هذا إن كان صبره عنه تجلدا عليه ، وان كان تجلدا على الرقيب خوفا منه ، فهو ضعيف المحبة لأن فيه بقية ليست مع محبوبه ، بل مع رقيبه فهلا ملأ الحب قلبه فلم يبق فيه بقية يلاحظ بها الرقيب والعاذل ؟ كما قيل :

لا كان من لسواك فيه بقية　　يجد السبيل بها اليه العذل

وبالجملة فهذه أبيات ناقصة المعنى لا يصلح الاستشهاد بها والله أعلم *

﴿ فصل ﴾ والمقصود الكلام على علل المقامات ؛ وبيان ما فيها من خطأ وصواب ، ولما كان أبو العباس بن العريف قد تعرض لذلك فى كتابه محاسن المجالس ذكرنا كلامه فيه وماله وما عليه *

ثم ذكر بعد هذا فصلا فى المحبة وفصلا فى الشوق ، فنذكر كلامه فى ذلك وما يفتح الله به تتميما للفائدة ورجاء للمنفعة ، وأن يمن الله العزيز الوهاب بفضله ورحمته ويرقى عبده من العلم الى الحال ، ومن الوصف الى

الانصاف . إنه قريب مجيب *

قال أبو العباس : وأما المحبة فقد أشار أهل التحقيق في العبارة عنها وكل نطق بحسب ذوقه ، وانفسح بمقدار شوقه ، *

﴿ قلت ﴾ : الشيء اذا كان من الأمور الوجدانية الذوقية التي انما تعلم بآثارها وعلاماتها ، وكان مما يقع فيه التفاوت بالشدة والضعف ، وكان له لوازم وآثاروعلامات متعددة ، اختلفت العبارات عنه: بحسب اختلاف هذه الأشياء ، وهذا شأن المحبة . فانها ليست بحقيقة معانيها ترى بالأبصار ، فيشترك الواصفون لها في الصفة . وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت . كما بين العلاقة التي هي تعلق القلب بالمحبوب ، والخلة التي هي أعلى مراتب الحب ، وبينهما درجات متفاوتة تفاوتا لا ينحصر . ولها آثار توجبها وعلامات تدل عليها . فكل ادرك بعض علاماتها فعبر بحسب ماأدركه . وهي وراء ذلك كله . ليس اسمها كسماها . ولا لفظها مبين لمعناها . وكذلك اسم المصيبة والبلية والشدة والألم إنما تدل أسماؤها عليها نوع دلالة : لاتكشف حقيقتها ولا تعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها . وفرق بين الذوق والوجود وبين التصور والعلم . فالحدود والرسوم التي قيلت في المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها ، بل هي اشارات وعلامات وتنبيهات *

﴿ فصل ﴾ قال : وهي على الاجمال قبل أن تنتهي إلى التفصيل وجود تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه *

فيقال : هذا التعظيم المانع من الانقياد لغير المحبوب هو أثر من آثار المحبة ، وموجب من موجباتها لا أنه نفس المحبة . فان المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيما لمحبوبه تمنعه من انقياده الى غيره. وليس مجرد التعظيم هو المانع له من الانقياد إلى غيره بل التعظيم المقارن

للحب هو الذى يمنع من الانقياد الى غير المحبوب . فان التعظيم إذا كان مجردا عن الحب لم يمنع انقياد القلب الى غير المعظم . وكذلك إذا كان الحب خاليا عن التعظيم لم يمنع المحب أن ينقاد إلى غير محبوبه . فاذا اقترن الحب بالتعظيم وامتلأ القلب بهما امتنع انقياده إلى غير المحبوب، والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع :

أحدها محبة طبيعية مشتركة . كمحبة الجائع للطعام . والظمآن للماء وغير ذلك . وهذه لا تستلزم التعظيم .

(والنوع الثانى) محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم .

(والنوع الثالث) محبة أنس وألف . وهى محبة المشتركين فى صناعة أو علم . أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضا وكمحبة الاخوة بعضهم بعضا .

فهذه الأنواع الثلاثة هى المحبة التى تصلح للخلق بعضهم من بعض ووجودها فيهم لا يكون شركا فى محبة الله سبحانه . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل . وكان أحب الشراب اليه الحلو البارد . وكان أحب اللحم اليه الذراع . وكان يحب نساءه . وكانت عائشة رضى الله عنها احبهن اليه . وكان يحب أصحابه . وأحبهم اليه الصديق .

وأما المحبة الخاصة التى لا تصلح الا لله وحده ومتى أحب العبد بها غيره كان شركا لا يغفره الله . فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم . وكمال الطاعة وايثاره على غيره فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلا . وهى التى سوى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها كما قال تعالى:

(٢ : ١٦٥ - وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله) واصح القولين : ان المعنى يحبونهم كما يحبون الله . وسووا بين الله و بين اندادهم فى الحب . ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أشد حبا لله) فان الذين ءامنوا اخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره ، واما المشركون فلم يخلصوه لله *

والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة ، وهى اول دعوة الرسل ، وءاخر كلام العبد المؤمن الذى اذا مات عليه دخل الجنة اعترافه واقراره بهذه المحبة وافراد الرب بها ، فهو اول مايدخل به فى الاسلام، وءاخر مايخرج به من الدنيا الى الله ، وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها وجميع المقامات وسائل اليها ، واسباب لتحصيلها وتكميلها ، وتحصينها من الشوائب والعلل ، فهى قطب رحى السعادة ، وروح الايمان، وساق شجرة الاسلام ، ولأجلها انزل الله الكتاب والحديد ، فالكتاب هاد اليها ، ودال عليها ، ومفصل لها والحديد لمن خرج عنها واشرك فيها مع الله غيره ولأجلها خلقت الجنة والنار فالجنة دار اهلها الذين اخلصوها لله وحده فاخلصهم لها والنار دار من آشرك فيها مع الله غيره وسوى بينه و بين الله فيها كما اخبر تعالى عن اهلها انهم يقولون فى النار لآلهتهم: (٢٦: ٩٧ - ٩٨ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وهذه التسوية لم تكن منهم فى الافعال والصفات بحيث اعتقدوا انها مساوية لله سبحانه فى افعاله وصفاته وانما كانت تسوية منهم بين الله و بينها فى المحبة والعبودية مع اقرارهم بالفرق بين الله و بينها ، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة ان لا اله الا الله فحقيق لمن نصح نفسه واحب سعادتها ونجاتها ان يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا وحالا وتكون اهم الأشياء عنده ، واجل

علومه واعماله فان الشأن كله فيها، والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها، قال تعالى: (١٥ : ٩٣ - فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) قال غير واحد من السلف: هو عن قول «لا اله الا الله» وهذا حق فان السؤال كله عنها؛ وعن احكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها فلا يسأل احد قط الا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها، قال ابو العالية: كلمتان يسأل عنهما الاولون والاخرون، ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا اجبتم المرسلين؟*

فالسؤال عماذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها والسؤال عماذا اجابوا المرسلين؟ سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية اليها، هل سلكوها واجابوا الرسل لما دعوهم اليها؟ فعاد الامر كله اليها، وامر هذا شانه حقيق بان تنثنى عليه الخناصر ويعض عليها بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ باطراف الأنامل ولا يطلب على فضلة بل يجعل هو المطلب الأعظم وماسواه انما يطلب على الفضلة والله الموفق لا اله غيره ولا رب سواه*

﴿ فصل ﴾ قال: وقيل المحبة ايثار المحبوب على غيره وهذا الحد ايضا من جنس ماقبله فان ايثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها فاذا استقرت المحبة فى القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره وهذا الايثار علامة ثبوتها وصحتها فاذا آثر غير المحبوب عليه لم يكن محباله، وان زعم أنه محب فانما هو محب لنفسه ولحظه ممن يحبه فاذا رأى حظا آخر هو أحب اليه من حظه الذى يريده من محبوبه آثر ذلك الحظ المحبوب اليه. فهذا موضع يغلط فيه الناس كثيرا إذ أكثرهم إنما هو يحب لحظه ومراده فاذا علم أنه عند غيره أحب ذلك الغير حب الوسائل لا حبا له لذاته، ويظهر هذا عند حالتين*

إحداهما: أنه يرى حظا له آخر عند غيره فيؤثر ذلك الحظ ويترك محبوبه*

الثانية : أنه اذا نال ذلك الحظ من محبوبه فترت محبته وسكن قلبه وترحل قاطن المحبة من قلبه كما قيل : من ودك لأمر ولى عند انقضائه ؛ فهذه محبة مشوبة بالعلل . بل المحبة الخالصة أن يحب المحبوب لكماله وأنه أهل أن يحب لذاته وصفاته . وأن الذى يوجب هذه المحبة فناء العبد عن ارادته لمراد محبوبه . فيكون عاملا على مراد محبوبه منه لا على مراده هو من محبوبه . فهذه هي المحبة الخالصة من دون العلل وشوائب النفس وهى التى تتزايد ، وفى مثل هذا قيل :

تعصى الاله وأنت تزعم حبه هذا لعمرك فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته ان المحب لمن يحب مطيع

وههنا دقيقة ينبغى التفطن لها وهى أن ايثار المحبوب نوعان : ايثار معاوضة ومتاجرة . وايثار حب وارادة .

فالأول : يؤثر محبوبه على غيره طلبا لحظه منه . فهو يبذل مايؤثره ليعاوضه بخير منه .

﴿ والثانى ﴾ يؤثره اجابة لداعى محبته ، فان المحبة الصادقة تدعوه دائما الى ايثار محبوبه فايثاره هو أجل حظوظه فحظه فى نفس الايثار لا فى العوض المطلوب بالايثار ، وهذا لا يفهمه الا النفس اللطيفة الوارعة المشرقة وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا وما هو بعشها فلتدرج . والدين كله والمعاملة فى الايثار . فانه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك حتى ان من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر اذ لو لم يكن محتاجا اليه لكان بذله سخاء وكرما . وهذا انما يصح فى ايثار المخلوق والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه سبحانه . فانه الغنى الحميد . وفى الدعاء المرفوع « اللَّهمَّ زِدْنَا وَلَا تَنقُصْنَا وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا

وأكرمنا ولا تهنا وءاثرنا ولا تؤثر علينا وارضنا وارض عنا » وقيل: من ءاثر الله على غيره ءاثره الله على غيره *

والفرق بين الايثار والأثرة أن الايثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك ، والاثرة اختصاصك به على الغير ، وفى الحديث «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا واثرة علينا » *

فاذا عرف هذا فالايثار اما أن يتعلق بالخلق ، واما أن يتعلق بالخالق وان تعلق بالخلق فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتا ولا يفسد عليك حالا . ولا يهضم لك دنيا ، ولا يسد عليك طريقا ، ولا يمنع لك واردا . فان كان فى ايثارهم شيء من ذلك فايثار نفسك عليهم أولى، فان الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحدا كائنا من كان . وهذا فى غاية الصعوبة على السالك . والأول أسهل منه . فان الايثار المحمود الذى أثنى الله على فاعله : الايثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب . قال الله تعالى : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فاخبر أن ايثارهم انما هو بالشيء الذى اذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين ، وهذا انما هو فضول الدنيا لا الاوقات المصروفة فى الطاعات . فان الفلاح كل الفلاح فى الشح بها . فمن لم يكن شحيحا بوقته تركه الناس على الأرض عيانا مفلسا . فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله *

ومما يدل على هذا أنه سبحانه امر بالمسابقة فى أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة اليها . وهذا ضد الايثار بها . قال الله تعالى : (٣ : ١٣٣ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) وقال

تعالى : (٢ : ١٤٨ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) وقال تعالى : (٨٣ : ٢٦ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) وقال النبي ﷺ : «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ لَكَانَتْ (١) قُرْعَةً» والقرعة انما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الايثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلا للايثار، بل محلا للتنافس والمسابقة، ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الايثار بالقربات *

والسر فيه - والله أعلم - ان الايثار انما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه . فلا يسع المؤثر والمؤثر . بل لا يسع الا أحدهما . وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم وان قدر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع ، بحيث اذا فعله واحد فات على غيره . فان في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله . كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث . فاذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله *

وأيضا فانه اذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه اما مساو له وإما أزيد ، واما دونه . فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة ارادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه . فجمع له الأمرين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *

---

(١) رواه أحمد . والبخاري . ومسلم . والنسائي عن أبي هريرة بلفظ « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الاول ثم لم يجدوا الا أن يستهموا عليه لاستهموا » والاستهام الاقتراع بالسهام

وأيضا فان المقصود رغبة العبد فى التقرب الى الله وابتغاء الوسيلة اليه ، والمنافسة فى محابه ؛ والايثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه وتركه له ، وعدم المنافسة فيه . وهذا بخلاف مايحتاج اليه العبدمن طعامه وشرابه ولباسه اذا كان أخوه محتاجا اليه . فاذا اختص به أحدهما مات الآخر. فندب الله عبده اذا وجد من نفسه قوة وصبرا على الايثار به مالم يخرم عليه دينا . أو يجلب له مفسدة . أو يقطع عليه طريقا عزم على سلوكه الى ربه ، أو شوش عليه قلبه ، بحيث يجعله متعلقا بالخلق . فمفسدة ايثار هذا أرجح من مصلحته . فاذا ترجحت مصلحة الايثار بحيث تتضمن انقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة . وليس للمؤثر نظيرها تعين عليه الايثار فان كان به نظيرها لم يتعين عليه الايثار ، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والاحسان فانه من آثر حياة غيره على حياته وضرورته على ضرورته، فقد استولى على أمد الكرم والسخاء ، وجاوز أقصاه وضرب فيه بأوفر الحظ . وفى هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها *

(فان قيل): فالذى يسهل على النفس هذا الايثار، فان النفس مجبولة على الاثرة لاعلى الايثار ؟.

(قيل) يسهله أمور . أحـــدها رغبة العبد فى مكارم الأخلاق ومعاليها . فان من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الايثار ، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته ، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته لاتبديل لخلق الله *

والأخلاق ثلاثة : خلق الايثار ، وهو خلق الفضل . وخلق القسمة والتسوية ، وهو خلق العدل .وخلق الاستئثار والاستبداد ، وهو خلق الظلم . فصاحب الايثار محبوب مطاع مهيب ، وصاحب العدل لاسبيل

للنفوس الى أذاه والتسلط عليه ، ولكنها لا تنقاد اليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس الى أذاه والتسليط عليه أسرع من السيل فى حدوره . وهل أزال الممالك وقلعها الا الاستئثار . فان النفوس لاصبر لها عليه ولهذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمور وان استأثروا عليهم لما فى طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار

الثانى : النفرة من أخلاق اللئام ومقت الشح وكراهته له

الثالث : تعظيم الحقوق التى جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض فهو يرعاها حق رعايتها ؛ ويخاف من تضييعها ، ويعلم أنه ان لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده . فان ذلك عسر جداً بل لابد من مجاوزته الى الفضل ، والتقصير عنه الى الظلم . فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول فى الظلم يختار الايثار بما لا ينقصه ولا يضره ويكتسب به جميل الذكر فى الدنيا وجزيل الأجر فى الآخرة مع مايجلبه له الايثار من البركة وفيضان الخير عليه . فيعود عليه من ايثاره أفضل مما بذله . ومن جرب هذا عرفه ، ومن لم يجربه فليستقر أحوال العالم . والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى

﴿فصل﴾ والايثار المتعلق بالخالق أجل من هذا وأفضل : وهو ايثار رضاه على رضى غيره، وايثار حبه على حب غيره وايثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه وايثار الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره . وكذلك ايثار الطلب منه والسؤال وانزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره

فالأول آثر بعض العبيد على نفسه فيما هو محبوب له . وهذا آثر الله على غيره ونفسه من أعظم الاغيار . فآثر الله عليها فترك محبوبها لمحبوب الله، وعلامة هذا الايثار شيئان

أحدهما : فعل مايحب الله اذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه ،

الثاني: ترك مايكرهه اذا كانت النفس تحبه وتهواه فبهذين الامرين يصح مقام الايثار ومؤنة هذا الايثار شديدة لغلبة الاغيار وقوة داعي العادة والطبع فالمحنة فيه عظيمة ، والمؤنة فيه شديدة والنفس عنه ضعيفة ، ولا يتم فلاح العبد وسعادته الا به ؛ وانه ليسير على من يسره الله عليه فحقيق بالعبد أن يسمو اليه وان صعب المرتقى ، وأن يشمر اليه وان عظمت فيه المحنة ؛ ويحمل فيه خطرا يسيرا لملك عظيم وفوز كبير فان ثمرة هذا فى العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء من الاعمال ، ويسير منه يرقى العبد ويسيره مالا يرقى غيره اليه في المدد المتطاولة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولا تتحقق المحبة الا بهذا الايثار ه

والذي يسهله على العبد أمور

أحدها : أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة ، ليست بجافية ولا قاسية بل تنقاد معه بسهولة ه

الثاني أن يكون ايمانه راسخا ويقينه قويا فان هذا ثمرة الايمان ونتيجته

الثالث قوة صبره وثباته . فبهذه الثلاثة الامور ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه والنقص والتخلف فى النفس عن هذا يكون من أمرين ه

أحدهما : أن تكون جامدة غير سريعة الادراك ، بل بطيئة ولا تكاد ترى حقيقة الشيء الا بعد عسر . وان رأتها اقترنت به الاوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات ، فلا يتخلص له رؤيتها وعيانها ه

الثاني . أن تكون القريحة وقادة دراكة ، لكن النفس ضعيفة مهينة اذا أبصرت الحق والرشد ضعفت عن ايثاره ، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض ؛ كلما ساقه خطوة وقف خطوة أو كسوق الطفل الصغير الذى تعلقت نفسه بشهواته ومألوفاته فهو يسوقه الى رشده . وهو ملتفت الى لهوه ولعبه

لاينساق معه الا كرها *

فاذا رزق العبد قريحة وقادة ، وطبيعة منقادة اذا زجرها انزجرت. واذا قادها أنقادت بسهولة وسرعة ولين ، وارتدى مع ذلك بعلم نافع - وايمان راسخ أقبلت اليه وفود السعادة من كل جانب *

ولما كانت هذه القرائح والطبائع ثابتة للصحابة رضي الله عنهم . وكملها الله لهم بنور الاسلام وقوة اليقين ومباشرة الايمان لقلوبهم . كانوا أفضل العالمين بعد الانبياء والمرسلين وكان من بعدهم لو انفق مثل جبل أحد ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه . ومن تصور هذا الموضع حق تصوره علم من أين يلزمه النقص والتأخر . ومن اين يتقدم ويتأخر ، ويترقى في درجات السعادة وبالله التوفيق والله أعلم *

﴿ فصل ﴾ قال : وقيل : المحبة موافقة المحبوب فيما ساء وسر ونفع وضر . كما قيل :

واهنتني فأهنت نفسي صاغرا ما من يهون عليك ممن أكرم

فيقال : وهذا الحد أيضا من جنس ما قبله ، فان موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها . وليست نفس المحبة ، بل المحبة تستدعي الموافقة وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم . قال الله تعالى : (٣ : ٣١ قُلْ انْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) قال الحسن : قال قوم على عهد النبي ﷺ : انا نحب ربنا . فانزل الله تعالى هذه الآية : (قُلْ انْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) *

وقال الجنيد : ادعى قوم محبة الله فانزل الله آية المحبة (قُلْ انْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) *

يعنى أن متابعة الرسول هى موافقة حبيبكم فانه المبلغ عنه ما يحبه وما يكرهه .

وقال مالك فى هذه الآية : من أحب طاعة الله أحبه الله وحببه الى خلقه ، وانما كانت موافقة المحبوب دليلا على محبته لأن من أحب حبيبا فلابد أن يحب ما يحبه ، ويبغض ما يبغضه ، والا لم يكن محبا له محبة صادقة ، بل ان تخلف ذلك عنه لم يكن محبا له ، بل يكون محبا لمراده منه ، أحبه محبوبه أم كرهه ومحبوبه عنده وسيلة الى ذلك المراد . فلو حصل له حظه من غيره ترحل عوضه . فهذه المحبة المدخولة الفاسدة . واذا كانت المحبة الصحيحة تستدعى حب ما يحبه المحبوب وبغض ما يبغضه ، فلابد أن يوافقه فيه .

ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للمحبة ، وهى أن موافقة المحبوب فى مراده ليس المعنى بها مراده الخالق الكونى . فان كل الكون مراده ، وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيئته وارادته الكونية فلو كانت موافقته فى هذا المراد هى محبته لم يكن له عدو أصلا . وكانت الشياطين والكفار والمشركون عباد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه . تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وانما يظن ذلك من يظنه من أعدائه الجاحدين لمحبته ودينه ، الذين يسوون بين أوليائه وأعدائه . قال الله تعالى: (٣٨ : ٢٨ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) وقال الله تعالى : (٤٥ : ٢٠ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقال الله تعالى : (٦٨ : ٣٥ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟) وبين المطيعين والمفسدين مع أن

الكل تحت المراد الكونى والمشيئة العامة .

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول : قال لى بعض شيوخ هؤلاء : المحبة نار تحرق من القلب ماسوى مراد المحبوب ، والكون كله مراده ، فأى شيء أبغض منه؟ قال فقلت له : فاذا كان المحبوب قد ابغض بعض مافى الكون ، فابغض قوماو مقتهم ولعنهم وعاداهم ، فاحببتهم أنت وواليتهم تكون مواليا للمحبوب موافقا له، أو مخالفا له معاديا له ؟ قال : فكأنما ألقم حجرا .

ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حد بحيث اذا فعل محظورا يزعم أنه مطيع لله سبحانه وتعالى ، ويقول : أنا مطيع لارادته . وينشد فى ذلك :

أصبحت منفعلا لما يختاره منى ففعلى كله طاعات

ويقول أحدهم : ابليس وان عصى الامر لكنه أطاع الارادة . يعنى أن فعله طاعة لله من حيث موافقة ارادته ، وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدين ؛ وخروج عن الشرائع كلها . فان الطاعة انما هى موافقة الامر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه . وأما دخوله تحت القدر الكونى الذى يبغضه ويسخطه ويكفر فاعله ويعاقبه . فهى المعصية والكفر ومعاداته ومعاداة دينه . ولا ريب أن المسرفين على أنفسهم المنهمكين فى الذنوب والمعاصى المعترفين بانهم عصاة مذنبون أقرب الى الله من هؤلاء العارفين المنسلخين عن دين الانبياء كلهم ، الذين لاعقل لهم ولا دين . فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه .

وأما البيت الذى استشهد به فهو من أبيات لأبى الشيص من قصيدة يقول فيها :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم

واهنتنى فأهنت نفسى جاهدا ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم اذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا اذكرك فليلمنى اللوم

وقد ناقض فيها فى دعواه مناقضة بينة . فانه أخبر أن هواه قد صار وقفا عليها لايزول عنها . ولا يتحول بتقدم ولا تأخر . ثم أخبر أنه قد بلغ به حبها وهواها الى أن صار مرادها من نفسه غير مراده هو . فلما أرادت اهانته بالصد والهجران والبعد سعى هو فى اهانة نفسه بجهده موافقة لها فى ارادتها . فصارت اهانته لنفسه مرادة محبوبة له من حيث هى مرادة محبوبة لها . وزعم أنه لو أكرم نفسه لكان مخالفا لمحبوبته مكرما لمن اهانته . ثم نقض هذا الغرض من حيث شبهها بأعدائه الذين هم أبغض شىء اليه . ووجه هذا التشبيه انه لم يحصل منها من حظه ومراده على شىء ، بل الذى يحصل له منها مثل مايحصل له من أعدائه من اهانتهم له ، وأذاه . فصار حظه منها ومن أعدائه واحدا . فصارت شبيهة بهم فأين هذا من الموافقة التامة لها فى مرادها ، بحيث يهين نفسه لمحبتها فى اهانته ؟ ثم اخبر ان له منها حظا مرادا ، وان ذلك الحظ الذى يريده لم يحصل له . وانما حصل له منه نظير مايحصل له من اعدائه . وهذه شكاية فى الحقيقة واخبار عن محبه يبخله بالحظ ، وشكاية للحبيب بتقويته عليه ، ثم انه اخبر عن جناية اخرى وهو انه شرك بينها وبين اعدائه فى حبه لها فصار حبه منقسما بعضه له وبعضه لأعدائه ، لشبههم اياها . ثم ان فى الشعر جناية اخرى عليها وهو انه شبهها بمن جبلت القلوب على بغضه وهو العدو . واللائق تشبيه الحبيب بما هو احب الأشياء الى النفس . كالسمع والبصر والحياة والروح والعافية . كما هو عادة الشعراء والناس فى نظمهم ونثرهم ، كما هو معروف بينهم ، وهو جادة كلامهم . ثم اخبر بمحبته

لأعدائه لشبهم بها . فتضمن كلامه معادات من يحبه ومحبة من يعاديه فانها اذا اشبهت اعداءه لزم لن يحصل لها نصيب من معاداته. واذا اشبهها اعداؤه لزم ان يحصل لهم نصيب من محبته . كما صرح به فى جانبهم وترك التصريح فى جانبها . وهو مفهوم من كلامه . ثم اخبرانه يلتذ بملامة اللوام فى هواها لما يتضمن من ذكراها . وهذا يدل على قوة محبتها وسماع ذكرها . وهذا غرض صحيح مع انه مدخول أيضا . فان محبوبته قد تكره ذلك لما يتضمن من فضيحتها به وجعلها مضغة للماضغين . فيكون محبا لنفس ماتكرهه . وهذه محبة فاسدة معلولة ناقضة لدعواه موافقتها فى محابها

(فصل) قال : وقيل : المحبة القيام بين يديه وأنت قاعد ، ومفارقة المضجع وأنت راقد ، والسكوت وأنت ناطق ، ومفارقة المألوف والوطن وأنت مستوطن .

فيقال . وهذا أيضا أثر من آثار المحبة ، وموجب من موجباتها ، وحكم من أحكامها وهو صحيح . فان المحبة توجب سفر القلب نحو المحبوب دائما ، والمحبة وطنه ، وتوجب مثوله وقيامه بين يدى محبوبه وهو قاعد ، وتجافيه عن مضجعه ومفارقته إياه وهو فيه راقد ، وفراغه لمحبوبه كله وهو مشغول فى الظاهر بغيره . كما قال بعضهم :

وأديم نحو محدثى ليرى ان قد عقلت وعندكم عقلى

وقال بعض المريدين لشيخه : أيسجد القلب بين يدى الله ؟ فقال : نعم سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة . فهذه سجدة متصلة بقيامه وقعوده وذهابه ومجيئه وحركته وسكونه . وكذلك يكون جسده فى مضجعه وقلبه قد قطع المراحل مسافرا إلى حبيبه . فاذا أخذ مضجعه اجتمع عليه حبه وشوقه فيهزه المضجع إلى سكنه . كما قال تعالى فى حق المحبين : (٣٢ : ١٦ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) فلما تجافت جنوبهم

عن المضاجع جافت الجنوب عنها ، واستخدمتها وأمرتها فاطاعتها . وقال القائل :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزتنى اليك المضاجع

ويحكى أن بعض الصالحين اجتاز بمسجد ، فرأى الشيطان واقفا ببابه لايستطيع دخوله . فنظر فاذا فيه رجل نائم وآخر قائم يصلى . فقال له : أيمنعك هذا المصلى من دخوله ؟ فقال : كلا إنما يمنعنى ذلك الاسد الرابض ، ولولا مكانه لدخلت *

وبالجملة فقلب المحب دائما فى سفر لاينقضى نحو محبوبه . كلما قطع مرحلة له ومنزلة تبدت له أخرى . كما قيل : إذا قطعت علما بدا علم . فهو مسافر بين أهله ، وظاعن وهو فى داره ، وغريب وهو بين اخوانه وعشيرته يرى كل أحد عنده ولايرى نفسه عند أحد . فقوة تعلق المحب بمحبوبه توجبه له أن لايستقر قلبه دون الوصول اليه . وكلما هدأت حركاته وقلت شواغله اجتمعت عليه شؤن قلبه . فله قوى سيره إلى محبوبه ، ومحك هذا الحال يظهر فى مواطن أربعة *

أحدها : عند أخذ مضجعه وتفرغ حواسه وجوارحه من الشواغل ، واجتماع قلبه على مايحبه . فانه لاينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به *

الموطن الثانى : عند انتباهه من النوم . فأول شيء يسبق الى قلبه ذكر محبوبه . فانه اذا استيقظ وردت اليه روحه رد معها اليه ذكر محبوبه الذى كان قد غاب عنه فى النوم . ولكن كان قد خالط روحه وقلبه . فلما ردت اليه الروح أسرع من الطرف رد اليه ذكر محبوبه ، متصلا بها ، مصاحبا لها . فورد عليه قبل كل وارد ، وهجم عليه قبل كل طارق . فاذا وردت عليه الشواغل والقواطع وردت على محل ممتلىء بمحبة مايحبه . فوردت على ساحته من ظاهرها فاذا قضى وطره منها قضاه بمصاحبته لما فى قلبه من الحب . فانه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه وكذلك يسمى غراما وهو

الحب اللازم الذى لايفارق . فسمع بمحبوبه وأبصربه وبطش به ومشى به فصار محبوبه فى وجوده فى محل سمعه الذى سمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها هذا مثل محبوبه فى وجوده وهو غير متحد به ، بل هو قائم بذاته مباين له . وهذا المعنى مفهوم بين الناس لاينكره منهم الاغليظ الحجاب ، أوقليل العلم ضعيف العقل ، يجد محبوبه قد استولى على قلبه وذكره ، فيظن انه هو نفس ذاته الخارجة قد اتحدت به أوحلت فيه فينشأ من قسوة الاول وكثافته . وغلظ حجاب وقلة علم الثاني ومعرفته وضعف تمييزه ضلال الحلول والاتحاد . وضلال الانكار والتعطيل والحرمان . ويخرج من بين فرث هذا ودم هذا لبن الفطرة الأولى خالصا سائغا للشاربين *

الموطن الثالث : عند دخوله في الصلاة فانها محك الاحوال وميزان الايمان بها يوزن ايمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه . فانها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه فلا شيء أقر لعين المحب . ولا الذ لقلبه . ولا انعم لعيشه منها اذا كان محبا فانه لاشيء آثر عند المحب ولا اطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه وقد اقبل محبوبه عليه . وكان قبل ذلك معذبا بمقاساة الاغيار . ومواصلة الخلق والاشتغال بهم . فاذا قام الى الصلاة هرب من سوى الله اليه . ومأواه عنده . واطمأن بذكره وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته فلاشيء اهم اليه من الصلاة كأنه فى سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح . كما قال النبي ﷺ لبلال: «يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ» ولم يقل : ارحنا منها . كما يقول المبطلون الغافلون *

وَقال بعض السَّلف : ليس بمستكمل الايمان من لم يزل فى هم وغم حتى تحضر

الصلاة فيزول همه وغمه او كما قال ، فالصلاة قرة عيون المحبين وسرور ارواحهم ولذة قلوبهم وبهجة نفوسهم يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة فلهم فيها شأن وللنقارين شأن يشكون الى الله سوء صنيعهم بهم اذا ائتموا بهم كما يشكو الغافل المرض تطويل امامه فسبحان من فاضل بين النفوس وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم

وبالجملة فمن كان قرة عينه فى الصلاة فلا شيء احب اليه ولا انعم عنده منها ويود أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها وانما يسلى نفسه اذا فارقها بانه سيعود اليها عن قرب فهو دائما يثوب اليها ولا يقضى منها وطرا فلا يزن العبد ايمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة . فانها الميزان العادل الذى وزنه غير عائل :

الموطن الرابع : عند الشدائد والاهوال فان القلب فى هذا الموطن لا يذكر الا احب الاشياء اليه ، ولا يهرب الا الى محبوبه الاعظم عنده . ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء وهو كثير فى اشعارهم كما قال :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا   وقد نهلت منى المثقفة السمر

وقال غيره :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها   اشطان بئر فى لبان الادهم

وقد جاء فى بعض الآثار يقول تبارك وتعالى : «إنَّ عَبْدِى كُلَّ عَبْدِى الَّذِى يَذْكُرُنِى وَهُوَ مُلَاقٍ قِرْنَهُ» والسر فى هذا والله أعلم أن عند مصائب الشدائد والأهوال يشتد خوف القلب من فوات أحب الأشياء اليه ، وهى حياته التى لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه . فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه . فاذا خاف فوتها بدر الى قلبه ذكر المحبوب الذى يفوته

بفوات حياته . ولهذا والله أعلم كثيرا مايعرض للعبد عند موته لهجة بما يحبه وكثرة ذكره له وربما خرجت روحه وهو يلهج به . وذكر ابن أبي الدنيا فى كتاب المحتضرين عن زفرانه جعل يقول عند موته : لها ثلاثة أخماس الصداق . لها ربع الصداق لها كذا . ومات لامتلاء قلبه من محبة الفقه . والعلم . وأيضا فانه عند الموت تنقطع شواغله وتبطل حواسه ، فيظهر مافى القلب . ويقوى سلطانه . فيبدو مافيه من غير حاجب ولا مدافع . وكثيرا ماسمع من بعض المحتضرين عند الموت شاه مات (١) وسمع من آخر بيت شعر لم يزل يغنى به حتى مات وكان مغنيا (٢) وأخبرنى رجل عن قرابة له أنه حضره عند الموت . وكان تاجرا يبيع القماش . قال : فجعل يقول: هذه قطعة جيدة ، هذه على قدرك ، هذه مشتراها رخيص يساوى كذا وكذا حتى مات . والحكايات فى هذا كثيرة جدا . فمن كان مشغولا بالله وبذكره ومحبته فى حال حياته وجد ذلك أحوج ماهو اليه عند خروج روحه الى الله . ومن كان مشغولا بغيره فى حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت . مالم تدركه عناية من ربه . ولأجل هذا كان جديرا بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان . لأجل تلك اللحظة التى إن فاتت شقى شقاوة الأبد . فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته *

﴿فصل﴾ وقد قيل : فى المحبة حدود كثيرة غير ماذكره أبو العباس * فقيل : المحبة ميل القلب إلى محبوبه . وهذا الحد لا يعطى تصور حقيقة المحبة . فان المحبة أعرف عند القلب من الميل . وأيضا فان الميل

---

(١) وذلك لأنه كان مشغولا بلعب الشطرنج (٢) ذكر المؤلف رحمه الله فى الجواب الكافى أن رجلا مات وهو يقول :

يارب وقائلة يوما وقد تعبت   أين الطريق الى حمام منجاب

لا يدل على حقيقة المحبة. فانها أخص من مجرد ميل القلب اذ قد يميل قلب العبد الى الشيء ولا يكون محبا له لمعرفته بمضرته له. فان سمى هذا الميل محبة فهو اختلاف عبارة *

وقيل: المحبة علم المحب بجمال المحبوب ومحاسنه. وهذا حد قاصر، فان العلم بجماله ومحاسنه هو السبب الداعى الى محبته فعبر عن المحبة بسببها *

وقيل: المحبة تعلق القلب بالمحبوب *

وقيل: انصباب القلب الى المحبوب *

وقيل: سكون القلب اليه *

وقيل: اشتغال القلب بالمحبوب بحيث لايتفرغ قلبه لغيره *

وقيل: المحبة بذل المجهود فى معرفة محبوبك، وبذل المجهود فى مرضاته *

وقيل: هيجان القلب عند ذكر المحبوب *

وقيل: شجرة تنبت فى القلب تسقى بماء المراقبة، وايثار رضى المحبوب *

وقيل: المحبة حفظ الحدود، فليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده.

وقيل: المحبة ارادة لاتنقص بالجفاء ولاتزيد بالبر.

وقيل: فطام الجوارح عن استعمالها فى غير مرضاة المحبوب.

وقيل: المحبة هى السخاء بالنفس للمحبوب.

وقيل: المحبة أن لايزال عليك رقيب من المحبوب لايمكنك من الانصراف عنه أبدا. وأنشد فى ذلك:

ابت غلبات الشوق الا تقربا   اليك ويأبى العذل الا تجنبا

وما كان صدى عنك صد ملامة ولا ذاك الاعراض الا تقربا
وما كان ذاك العذل الا نصيحة ولا ذلك الاغضاء الا تهيبا
على رقيب منك حل بمهجتى اذا رمت تسهيلا على تصعبا

وقيل : المحبة سقوط كل محبة من القلب سوى محبة حبيبك .

وقيل : المحبة صدق المجاهدة فى أوامر الله ، وتجريد المتابعة لسنة رسول الله ﷺ .

وقيل: المحبة أن لا يفتر من ذكره ولا يأنس بغيره .

وقال أبو يزيد: المحبة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك .

وقيل : المحبة أن يميتك حبيبك وتحيا به .

وقال أبو عبد الله القرشى: المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شىء .

وقيل : أن تمحو من قلبك ماسوى المحبوب .

وقيل : المحبة نسيان حظك من محبوبك وفقرك بكلك اليه .

وقال النصراباذى : المحبة مجانبة السلو على كل حال .

وقال الحرث بن أسد: المحبة ميلك الى المحبوب بكليتك ، ثم ايثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه .

وقيل: المحبة سكر لا يصحو الا بمشاهدة المحبوب .

وقيل : المحبة اقامتك بالباب على الدوام .

وقيل: المحبة حرفان حا. وباء فالحا. الخروج عن الروح . وبذلها للمحبوب، والباء الخروج عن البدن وصرفه فى طاعة المحبوب .

وقال أبو عمر الزجاجي : سألت الجنيد عن المحبة فقال: تريد الاشارة؟ قلت : لا قال : تريد الدعوى ؟ قلت: لا قال: فايش تريد ؟ قلت: عين المحبة فقال أن تحب ما يحب الله فى عباده وتكره ما يكره الله فى عباده .

وقيل: المحبة معية القلب والروح مع المحبوب معية لا تفارقه فان المرء مع من أحب .

وقد قيل فى المحبة حدود أكثر من هذا وكل هذا تعن . ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة . ولا أقرب الى الفهم من لفظها . وأما ذكر الحدود والتعريفات فانما يكون عند حصول الاشكال والاستعجام على الفهم فاذا زال الاشكال وعدم الاستعجام فلا حاجة الى ذكر الحدود والتعريفات . كما قال بعض العارفين: ان كل لفظ يعبر به عن الشيء فلا بد أن يكون ألطف وأرق منه . والمحبة ألطف وأرق من كل مايعبر به عنها .

﴿ فصل ﴾ قال أبو العباس : وقال قوم : ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها . فان الغيرة من أوصاف المحبة . والغيرة تأبى الا التستر والاختفاء وكل من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها فليس له منها ذوق . وانما حركه وجدان الرائحة ولو ذاق منها شيئا لغاب عن الشرح والوصف فان المحبة لا تظهر على المحب بلفظه وانما تظهر عليه بشمائله ونحوله . ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب لموضع اقتداح الأسرار من القلوب كما قيل :

تشير فأدرى ماتقول بطرفها وأطرق طرفى عند ذاك فتعلم
تكلم منا فى الوجوه عيوننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

قلت: كل معنى فله صيغة تعبر به عنه ولا سيما اذا كانت من المعانى المعروفة للخاص والعام ، ولكن العبارة قد تكون كاشفة للمعنى مطابقة

له كلفظ الدراهم والخبز والماء واللبن ونحوها وهى أكبر الألفاظ وقد يكون المعنى فوق مايشير اليه اللفظ. ويعبر عنه وهو أجل من أن يدل لفظه على كمال ماهيته . وهذا كأسماء الرب سبحانه وأسماء كتابه وكذلك اسم الحب فانه لا يكشف اسمه مسماه ، بل مسماه فوق لفظه وكذلك اسم الشوق والعشق والموت والبلاء ونحوها . وقد يكون المعنى دون اللفظ بكثير . واللفظ أجل منه وأعظم . وهذا كلفظ الجوهر الفرد ، الذى هو عبارة عن أقل شيء وأصغره وأدقه وأحقره فليس معناه على قدر لفظه *

وإذا عرف هذا فقولهم : ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها المراد به أن لفظها لا يفهم حقيقة معناها ، ومعناها فوق مايفهم من لفظها *

وقوله : الغيرة من أوصاف المحبة ، وهى تأبى الا التستر والاختفاء هذا كلام فى حكم المحبة ومقتضاها ، لا فى حقيقتها ومعناها . والمحبون متباينون فى هذا الحكم ، فنهم من يجعل الغيرة من لوازم المحبة ، وعلامة ثبوتها وتمكنها ويجعل نداء المرء عليها ، وبسط لسانه بالاخبار بها دليلا على أنه دعى فيها ، وأن مامعه منها رائحتها لا حقيقتها . وحقيقتها تأبى إلا التستر والكتمان . وهذه طريقة الملامين . كما قيل :

لاتنكرى جحدى هواك فانما ذاك الجحود عليه ستر مسبل

ولهذا قيل : المحبة كتمان الارادة ، واظهار الموافقة . وهذه الطائفة رأت ان كمال المحبة بكتمانها لأسباب عديدة :

أحدها : أن الحب كلما كان مكتوما كان أشد وأعظم سريانا وسكونا فى أجزاء القلب كلها كما قيل : الحب أقتله أكتمه . فاذا أفشاه المحب وأظهره وباح به ونادى عليه ضعف أثره ، وصار عرضة للزوال *

الثانى : أن الحب كنز من الكنوز . بل هو أعظم الكنوز المودعة فى سر العبد وقلبه ، فلا طريق للصوص عليه . فاذا باح به ونادى عليه فقد

دل قطاع الطريق واللصوص على موضع كنزه ، وعرضهم لسلبه منه ، فان النفوس غيارة مغيرة تغار على المحبوب أن يشاركها في حبه أحد . فاذا غارت عليه اغارت على القلوب التى فيها حبه فانتزعت منه . وهذه الآفة قد ابتلى بها كثير من السالكين الذين هم فى الحقيقة قطاع الطريق على السالكين إلى الله وسولت لهم أنفسهم أن هذه غيرة منهم على محبوبهم أن يحب مثل هذه النفوس المتلوثة بالدنيا ، وغرتهم أنفسهم ، ومنتهم انهم يغارون على الله ، ويحولون بين تلك النفوس وبين المحبة ، فغاروا واغاروا ونهبوا واستلبوا، وهذه الطريقة عند المحبين المخلصين اولياء الله الداعين إلى الله عداوة لله فى الحقيقة ، ومعاونة للشيطان ، وقعود على طريق الله المستقيم . الذى خلق عباده لاجله ، وامرهم به فالحذر من هؤلاء القطاع اللصوص حمل اهل المحبة على المبالغة فى كتمانها ، وإظهار التحلى منها بأسباب يلامون عليها ظاهراً وقلوبهم مغمورة بالمحبة مأهولة بها . وهذا الذى ظنوه غيرة . هو من تلبيس الشيطان وخدعه لهم ومكره بهم وإنما هو حسد حملهم على ان يردوه وصالوا به ، وسموه غيرة . وانما غيرة المحبين لله ان يغار احدهم لمحارم الله إذا انتهكت ، فيغار لله . لا على الله كما قال النبى ﷺ « إنَّ اللّهَ يَغَارُ ؛ وَإنَّ المُؤْمِنَ يَغَارُ ، وَغَيْرَةُ اللّهِ أنْ يَأتِىَ العَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ »(١) فغيرة المحب هى الموافقة لغيرة محبوبه. وهى أن يغار مما يغار منه المحبوب واذا كان المحبوب ممن يحبه ، وهذا يغار ممن يحبه الله فهو فى الحقيقة ساع فى خلاف مراد محبوبه فى اعدام مايحبه محبوبه فأين هذا من الغيرة المحبوبة لله ؟ وانما هذه غيرة من أخيه

---

(١) رواه احمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .

المسلم كيف خصه الله بعطائه وألبسه ثوب نعمائه ؟ فهى غيرة منه لا غيرة على الله فان الله لا يغار عليه بل يغار له ٭

وسنفرد ان شاء الله للغيرة فصلا نذكر فيه اقسامها وحقيقتها ٭

﴿ الثالث ﴾ ان المحبة التامة تستدعى شغل القلب بالمحبوب ، وعدم تفرغه للشرح والوصف . فلو صدقت محبته لاستغرق فيها عن شرح حاله ووصفه فهذه طريقة هؤلاء ، ومنهم من يجعل تهتكه وبوحه بها وإعلامه لها من تمامها وقوتها ومن علامات قهرها له ، وانها غلبت على سره حتى لم يطق صبره كتمانها كما قال النورى : المحبة هتك الاستار ، وكشف الاسرار . فهذا حال النورى واضرابه . وعند هؤلاء : التكتم ضعف فى المحبة وجور فيها ، وحقيقتها أن تخليها ومقتضاها من ظهور اثارها على الجوارح والبدن فان أثرت حركة لم يسكنها ، وان أثرت دمعة لم يمسكها وان أثرت تنفسا لم يكظمه . وان اثرت بذلا وايثارا لم يمسكه . وكمال المحبة عندهم أن تنادى عليه أعضاؤه وألفاظه والحاظه وحركاته وسكناته بالحب نداء لا يملك انكاره ، وقال على بن عبيد : وكتب يحيى بن معاذ الى أبي يزيد سكرت من كثرة ماشربت من كأس محبته فكتب اليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والارض ما روى بعد ولسانه خارج وهو يقول : هل من مزيد ٭

فلم ير هذان العارفان التكتم بها واخفاءها وجحدها وهما هما ٭

وكان الاستاذ ابو على الدقاق ينشد كثيرا :

لى سكرتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من بينهم وحدى

وجاء رجل الى عبد الله بن المنازل فقال : رأيت فى المنام كأنك تموت إلى سنة فقال عبد الله لقد اجلتنى الى اجل بعيد اعيش الى سنة ؟ لقد كان لى انس بيبت سمعته من ابي على :

يامن شكى شوقه من طول فرقته اصبر لعلك تلقى من تحب غدا (١)

وقال الشبلي : المحب إذا سكت هلك والعارف ان لم يسكت هلك *

والتحقيق : أن هذا هو حال المتمكن في حبه ، الذي تزول الجبال الراسيات وقلبه على الود لا يلوى ولا يتغير . والاول حال المريد المبتدىء الذي قد علقت نار المحبة في قلبه ، ولم يتمكن استعمالها . فهو يخاف عليها عواصف الرياح أن تطفيها ، فهو يخبوها و يكتمها و يسترها من الرياح جهده فاذا اشتعلت و تمكن وقودها في القلب لم تزدها كثرة الرياح الا وقودا واشتعالا . فهذا يختلف باختلاف الناس ؛ وتفاوتهم في قوة المحبة وضعفها *

والمقصود : أن من بسط لسانه بالعبارة عنها ؛ والكشف عن سرها وأحكامها لن يؤمن أن يكون من أهل العلم بالمحبة لا من المتصفين بها حالا فكم بين العلم بالشيء والاتصاف به ذوقا وحالا ؟ فعلم المحبة شيء ووجودها في القلب شيء ، وكثير من المحبين الذين امتلأت قلوبهم محبة لو سئل عن حدها وأحكامها وحقيقتها لم يطق أن يعبر عنها ، ولا يتهيأ له أن يصفها ويصف احكامها . وأكثر المتكلمين فيها إنما تكلموا فيها بلسان العلم لا بلسان الحال . وهذا والله أعلم هو معنى قول بعض المشايخ أعظم الناس حجابا عن الله أكثرهم اليه إشارة فانه إنما حظه منه الاشارة اليه لا علوق القلب عليه ، كالفقير الذي دأبه وصف الاغنياء وأموالهم ، ووصف الدنيا وممالكها وهو خلو من ذلك . ولا ريب أن وجود الحب في القلب وترك الكلام عليها خير من كثرة

---

(١) الذي في رسالة القشيري في باب الشوق : جاء احمد بن حامد الاسود إلى عبد الله بن منازل وقال : رأيت في المنام انك تموت إلى سنة . فلو استعددت للخروج . فقال عبد الله بن منازل : اجلتنا إلى أمد بعيد . أأعيش انا الى سنة؟ لقد كان لي أنس بهذا البيت الذي سمعته من هذا الثقفي يعني ابا علي الخ *

الكلام فى هذه المسألة وخلو القلب منها . وخير من الرجلين من امتلأ قلبه منها حالا وذوقا ، وفاضت على لسانه ارشادا وتعليما ونصيحة للامة . فهذا حال الكمل من الناس . والله المسؤل من فضله وكرمه *

قوله : والمحبة لاتظهر على المحب بلفظه وإنما تظهر عليه بشمائله ونحوله هذا حق فان دلالة الحال على المحبة أعظم من دلالة القال عليها ، بل الدلالة عليها فى الحقيقة هو شاهد الحال ، لاصريح المقال . ففرق بين من يقول لك بلسانه . إنى أحبك ولا شاهد عليه من حاله ، وبين ماهو ساكت لايتكلم وأنت ترى شواهد أحواله كلها ناطقة بحبه لك *

قال جعفر : قال الجنيد : دفع السرى إلى رقعة وقال : هذه خير لك من سبعمائة قصة وكذا . فاذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى   فمالى أرى الاعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا   وتذبل حتى لاتجيب المناديا
وتنحل حتى لايبقى لك الهوى   سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

وبالجملة فشاهد الحب الذى لايكذب هو شاهد الحال . وأما شاهد المقال فصادق وكاذب *

قوله : ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب لموضع امتزاج الاسرار من القلوب ، يعنى أن حقيقة المحبة وسرها لايفهمه من المحب الامحبوبه . وذلك لشدة الاتصال الذى بينه وبين محبوبه فى الباطن ، فروحه أقرب شىء اليه ، وأما الغير وإن علم انه محب بظهور أثر المحبة عليه وقيام شاهدها . لكن لايدرك تلك اللطيفة والحقيقة التى يدركها المحبوب من محبه ، لموضع اتصال شربه ، وقرب مابين الزوجين ولاسيما إذا كانت المحبة من الطرفين فهناك العجب والمناجاة والملاطفة والاشارة والعتاب والشكوى ، وهما ساكنان لايدرى جليسهما بشأنهما *

﴿فصل فى محبة العوام﴾

قال : وأما محبة العوام فهى محبة تنبت من مطالعة المنـــة ، وتثبت باتباع السنة وتنمو على الاجابة للفاية ، وهى محبة تقطع الوسواس؛ وتلذذ الخدمة ، وتسلى عن المصائب ، وهى فى طريق العوام عمدة الايمان.

فيقال : لاريب أن المحبة درجات متفاوتة ، بعضها أكمل من بعض . وكل درجة خاصة بالنسبة الى ماتحتها عامة بالنسبة الى مافوقها فليس انقسامها الى خاص وعام انقساما حقيقيا متميزا بالنسبة بفصل يميز أحد النوعين عن الآخر . وانما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها وتنقسم بذلك الى قسمين.

أحدهما . محبة تنشأ من الاحسان ، ومطالعة الآلاء والنعم ، فان القلوب جبلت على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها ولا أحد أعظم احسانا من الله سبحانه . فان احسانه على عبده فى كل نفس ولحظة ، وهو يتقلب فى احسانه فى جميع أحواله ولا سبيل له الى ضبط أجناس هذا الاحسان ؛ فضلا عن أنواعه أو عن افراده ، ويكفى أن من بعض أنواعه نعمة النفس التى لاتكاد تخطر ببال العبد ، وله عليه فى كل يوم وليلة فيه اربعة وعشرون الف نعمة . فانه يتنفس فى اليوم والليلة اربعة وعشرين الف نفس . وكل نفس نعمة منه سبحانه فاذا كان ادنى نعمة عليه فى كل يوم اربعة وعشرون الف نعمة فما الظن بما فوق ذلك واعظم منه؟ (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) هذا الى مايصرف عنه من المضرات وانواع الاذى التى تقصده . ولعلها توازن النعم فى الكثرة . والعبد لاشعور له بأكثرها اصلا والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار . كما قال تعالى : (٢١ : ٤٢ - قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه اذا اراد بكم

سوأ . ويكون يكلؤكم مضمنا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه او كانت من البدلية . اى من يكلؤكم بدل الرحمن ؛ اى هو الذى يكلؤكم وحده لا كالىء لكم غيره ، ونظيرمن هذه قوله (٤٣ : ٦٠ - وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) على احد القولين ، اى عوضكم وبدلكم ، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

وجارية لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

أى لم تأكل الفستق بدل البقول وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده ، لا حافظ لهم غيره . هذا مع غناه التام عنهم ، وفقرهم التام اليه سبحانه وتعالى فانه غنى عن خلقه من كل وجه وهم فقراء محتاجون اليه من كل وجه ، وفى بعض الآثار يقول تعالى : « وَأَنَا الْجَوَادُ ، وَمَنْ أَعْظَمُ مِنِّى جُوداً وَكَرَماً أَبِيتُ أَكْلَأُ عِبَادِى فِى مَضَاجِعِهِمْ وَهُمْ يُبَارِزُونِى بِالْعَظَائِمِ » وفى الترمذى أن النبى ﷺ « لما رأى السحاب قال : هَـذِهِ رَوَايَا الْأَرْضِ ، يَسُوقُهَا اللهُ الَى قَوْمٍ لَا يَذْكُرُونَهُ ، وَلَا يَعْبُدُونَهُ » وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ ، إِنَّهُمْ لَيَجْعَلُونَ لَهُ الْوَلَدَ ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ » وفى بعض الآثار « يقول الله : ابْنَ آدَمَ ، خَيْرِى إِلَيْكَ نَازِلٌ ، وَشَرُّكَ الَىَّ صَاعِدٌ . كَمْ أَتَحَبَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ ، وَأَنَا غَنِىٌّ عَنْكَ وَكَمْ تَتَبَغَّضُ الَىَّ بِالْمَعَاصِى وَأَنْتَ فَقِيرٌ الَىَّ . وَلَا يَزَالُ الْمَلَكُ الْكَرِيمُ يَعْرُجُ

الَيَّ مِنْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ » ولولم يكن من تحببه الى عباده وإحسانه اليهم وبره بهم إلا أنه خلق لهم مافى السموات والأرض ومافى الدنيا والآخرة ؛ ثم أهلهم وكرمهم ، وأرسل اليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وشرع لهم شرائعه ، وأذن لهم فى مناجاته كل وقت أرادوا ، وكتب لهم بكل حسنة يعملونها عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة وكتب لهم بالسيئة واحدة فان تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة . وإذا بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له . ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لايشرك به شيئا لأتاه بقرابها مغفرة ، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب . فوفقهم لفعلها . ثم قبلها منهم . وشرع لهم الحج الذى يهدم ماقبله . فوفقهم لفعله ، وكفر عنهم سيئاتهم به . وكذلك ماشرعه لهم من الطاعات والقربات . هو الذى أمرهم بها ، وخلقها لهم وأعطاهم اياها ، ورتب عليها جزاءها . فمنه السبب ؛ ومنه الجزاء . ومنه التوفيق . ومنه العطاء أولا وآخرا . وهم محل إحسانه فقط ، ليس منهم شىء إنما الفضل كله والنعمة كلها والاحسان كله منه أولا وآخرا . أعطى عبده ماله ، وقال : تقرب بهذا الى أقبله منك . فالعبد له . والمال له . والثواب منه . فهو المعطى أولا وآخرا . فكيف لايحب من هذا شأنه؟ وكيف لايستحى العبد أن يصرف شيئا من محبته إلى غيره ؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه ؟ ومن أولى بالكرم والجود والاحسان منه ؟ فسبحانه وبحمده لا إله الا هو العزيز الحكيم ، ويفرح سبحانه وتعالى بتوبة أحدهم اذا تاب اليه أعظم فرح وأكمله ؛ ويكفر عنه ذنوبه ، ويوجب له محبته بالتوبة ، وهو الذى ألهمه اياها ووفقه لها ، وأعانه هو عليها ، وملأ سبحانه وتعالى سمواته من ملائكته ، واستعملهم فى

الاستغفار لأهل الأرض ، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين ، والاستغفار لذنوبهم ، ووقايتهم عذاب الجحيم ، والشفاعة اليه باذنه أن يدخلهم جناته ٭

فانظر الى هذه العناية .وهذا الاحسان . وهذا التحنن والعطف والتحبب الى العباد واللطف التام بهم . ومع هذا كله بعدأن أرسل اليهم رسله . وأنزل عليهم كتبه وتعرف اليهم بأسمائه وصفاته وءالائه . ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم .ويستعرض حوائجهم بنفسه ، ويدعوهم الى سؤاله . فيدعو مسيئهم إلى التوبة . ومريضهم الى أن يسأله أن يشفيه وفقيرهم الى أن يسأله غناه .وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة . ويدعوهم الى التوبة . وقد حاربوه . وعذبوا أولياءه وأحرقوهم بالنار . قال تعالى: (٨٥ : ١٠ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) وقال بعض السلف: انظروا الى كرمه . كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار . ثم هو يدعوهم إلى التوبة ٭

فهذا الباب يدخل منه كل أحد الى محبته سبحانه وتعالى ؛ فان نعمته على عباده مشهودة لهم . يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات .وقد روى في بعض الأحاديث مرفوعا « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ (١) » فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والاحسان ورؤية النعم والآلاء . وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها . بل كلما ازداد فيها نظرا ازداد

---

(١) رواه الترمذى .والحاكم عن ابن عباس ٭

فيها اعتبارا وعجزا عن ضبط القليل منها . فيستدل بما عرفه على مالم يعرفه والله سبحانه وتعالى دعا عباده اليه من هذا الباب . حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر . وهو باب الأسماء والصفات الذى انما يدخل منه اليه خواص عباده وأوليائه . وهو باب المحبين حقا الذى لا يدخل منه غيرهم . ولا يشبع من معرفته أحد منهم . بل كلما بدا له عنه علم ازداد شوقا ومحبة وظمأ . فاذا انضم داعي الاحسان والانعام الى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه الا أردى القلوب وأخبثها . واشدها نقصا وابعدها من كل خير . فان الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل فى أوصافه واخلاقه . واذا كانت هذه فطرة الله التى فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم انه لا احد اعظم إحسانا منه سبحانه وتعالى ولا شيء اكمل منه ولا اجمل، فكل كمال وجمال فى المخلوق من آثار صنعه سبحانه وتعالى . وهو الذى لا يحد كماله . ولا يوصف جلاله وجماله . ولا يحصى احد من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته . وعظيم احسانه . وبديع افعاله . بل هو كما اثنى على نفسه، واذا كان الكمال محبوبا لذاته ونفسه وجب ان يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته . إذ لا شيء اكمل منه . وكل اسم من اسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبة خاصة . فان اسماءه كلها حسنى . وهى مشتقة من صفاته وافعاله دالة عليها . فهو المحبوب المحمود على كل مافعل . وعلى كل ماامر اذ ليس فى افعاله عبث ولا فى اوامره سفه . بل افعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة . وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه . وكلامه كله صدق وعدل ، وجزاؤه كله فضل وعدل . فانه ان اعطى فبفضله ورحمته ونعمته ، وان منع او عاقب فبعدله وحكمته .

ماللعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع

ان عذبوا فبعدله او نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

(فصل) ولا يتصور نشر هذا المقام حق تصوره فضلا عن ان يوفاه حقه فاعرف خلقه به واحبهم له ﷺ يقول : « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » ولو شهد بقلبه صفة واحدة من اوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة الامن آثار صفات كماله ؟ فانهم لم يروه فى هذه الدار وانما وصل اليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه فاستدلوا بما علموه على ماغاب عنهم فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه وتعالى لكان لهم فى حبه شأن آخر وانما تفاوت منازلهم ومراتبهم فى محبته على حسب تفاوت مراتبهم فى معرفته والعلم به . فاعرفهم بالله اشدهم حبا له، ولهذا كانت رسله اعظم الناس حبا له . والخليلان من بينهم اعظمهم حبا واعرف الأمة اشدهم له حبا . ولهذا كان المنكرون لحبه من اجهل الخلق به فانهم منكرون لحقيقة الهيته ، ولخلة الخليلين ، ولفطرة الله التى فطر الله عباده عليها ولو رجعوا الى قلوبهم لوجدوا حبه فيها . ووجدوا معتقدهم نفى محبتهم يكذب فطرهم وانما بعثت الرسل بتكميل هذه الفطرة واعادة ماافسد منها الى الحالة الأولى التى فطرت عليها وانما دعوا الى القيام بحقوقها ومراعاتها لئلا تفسد وتنتقل عما خلقت له . وهل الأوامر والنواهى الاخدم وتوابع ومكملات ومصلحات لهذه الفطرة ؟ وهل خلق الله سبحانه وتعالى خلقه الا لعبادته التى هى غاية محبته والذل له ؟ وهل هيىء الانسان الا لها ؟ كما قيل :

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وهل فى الوجود محبة حق غير باطلة إلا محبته سبحانه ؟ فان كل محبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة يبطلان متعلقها . وأما محبته سبحانه فهو الحق

الذى لا يزول ولا يبطل . كما لا يزول متعلقها ولا يفنى . وكل ماسوى الله باطل ومحبة الباطل باطل . فسبحان الله ! كيف ينكر المحبة الحق التى لا محبة أحق منها ويعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية ؟ وهل تعلقت المحبة بوجود محدث لا لكمال فى وجوده بالنسبة إلى غيره ؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثار صنع الله الذى أتقن كل شىء ؟ وهل الكمال كله إلا له ؟ فكل من أحب شيئا لكمال مايدعوه الى محبته فهو دليل وعبرة على محبة الله ، وأنه أولى بكمال الحب من كل شىء . ولكن إذا كانت النفوس صغارا كانت محبوباتها على قدرها . وأما النفوس الكبار الشريفة . فانها تبذل حبها لأجل الاشياء وأشرفها .

والمقصود أن العبد إذا اعتبر كل كمال فى الوجود وجده من آثار كماله سبحانه فهو دال على كمال مبدعه ، كما أن كل علم فى الوجود فمن آثار علمه . وكل قدرة فمن آثار قدرته . ونسبة الكمالات الموجودة فى العالم العلوى والسفلى الى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم الى علمه سبحانه وقدرته وقوته وحياته فاذن لانسبة أصلا بين كمالات العلم وكمال الله سبحانه فيجب أن لا يكون بين محبته ومحبة غيره من الموجودات له ، بل يكون حب العبد له أعظم من حبه لكل شىء بما لانسبة بينهما . ولهذا قال تعالى : (٢ : ١٦٥ - وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) فالمؤمنون أشد حبا لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب . هذا مقتضى عقد الايمان الذى لايتم الا به . وليست هذه المسألة من المسائل التى للعبد عنها غنى . أو منها بد ، كدقائق العلم والمسائل التى يختص بها بعض الناس دون بعض . بل هذه تفرض مسألة على العبد ، وهى أصل عقد الايمان الذى لايدخل فيه الداخل الابها . ولا فلاح للعبد ولا نجاة

له من عذاب الله الا بها ، فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها ومن لم يتحقق بها علما وحالا وعملا لم يتحقق بشهادة أن لا اله الا الله . فانها سرها وحقيقتها ومعناها وان أبى ذلك الجاحدون وقصر عن علمه الجاهلون . فان الاله هو المحبوب المعبود الذى تأله القلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه وتنيب اليه فى شدائدها . وتدعوه فى مهماتها ، وتتوكل عليه فى مصالحها وتلجأ اليه وتطمئن بذكره ، وتسكن الى حبه ، وليس ذلك الا الله وحده ، ولهذا كانت أصدق الكلام وكان أهلها أهل الله وحزبه والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته *

فهذه المسألة قطب رحى الدين الذى عليه مداره . واذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق . واذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه . وأعماله . وأحواله . وأقواله ، ولا حول ولا قوة الا بالله *

فلنرجع الى شرح كلامه فقوله : وأما محبة العوام فهى محبة تنبت من مطالعة المنة ، يعنى أن لهذه المحبة منشأ وثبوتا ونموا . فمنشؤها الاحسان ورؤية فضل الله ومنته على عبده وثبوتها باتباع أوامره التى شرعها على لسان رسوله ﷺ ونموها وزيادتها يكون باجابة العبد لدواعى فقره وفاقته إلى ربه . فكلما دعاه فقره وفاقته إلى ربه أجاب هذا الداعى وهو فقير بالذات فلا يزال فقره يدعوه اليه . فاذا دام استجابته له بدوام الداعى لم تزل المحبة تنمو وتتزايد فكلما أخطر الرب فى قلبه خواطر الفقر والفاقة بادر قلبه بالاجابة والانكسار بين يديه ذلا وفاقة وحبا وخضوعا وانما كانت هذه محبة العوام عنده لأن منشأها من الأفعال لا من الصفات والجمال ولو قطع الاحسان عن هذه القلوب لتغيرت وذهبت محبتها أو ضعفت فان باعثها انما هو الاحسان :ومن ودك لأمر ولى عند انقضائه فهو برؤية الاحسان مشغول ، وبتوالى النعم عليه محمول *

قوله : وهى محبة تقطع الوسواس وتلذذ الخدمة وتسلى على المصائب وهى فى طريق العوام عمدة الايمان . انما كانت هذه المحبة قاطعة للوسواس لاحضار المحب قلبه بين يدى محبوبه . والوسواس انما ينشأ من الغيبة والبعد . وأما الحاضر المشاهد فماله وللوسواس ؟ فالموسوس يجاهد نفسه وقلبه ليحضر بين يدى معبوده والمحب لم يغب قلبه عن محبوبه فيجاهده على احضاره فالوسواس والمحبة متنافيان ٭

ومن وجه اخر أن المحب قد انقطعت عن قلبه وساوس الأطماع لامتلاء قلبه من محبة حبيبه ، فلا يتوارد على قلبه جواذب الأطماع والأمانى لاشتغاله بما هو فيه ٭

وأيضا فان الوسواس والأمانى انما تنشأ من حاجته وفاقته الى ما تعلق طمعه به . وهذا عبد قد جنى من الاحسان ، وأعطى من النعم ما سد حاجته وأغنى فاقته . فلم يبق له طمع ولا وسواس بل بقى حبه للمنعم عليه . وشكره له ، وذكره اياه فى محل وساوسه وخواطره ، لمطالعة نعم الله عليه وشهوده منها مالم يشهد غيره ٭

وقوله : وتلذذ الخدمة هو صحيح فان المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه فى طاعته . وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل فليزن العبد ايمانه ومحبته لله بهذا الميزان . ولينظر هل هو ملتذ بخدمة محبوبه أومتكره لها ، يأتى بها على السآمة والملل والكراهة ؟ فهذا محك ايمان العبد ومحبته لله ، قال بعض السلف : انى أدخل فى الصلاة فاحمل هم خروجى منها ، ويضيق صدرى اذا فرغت انى خارج منها . ولهذا قال النبى ﷺ . «جعلت قرة عينى فى الصلاة(١)» ومن كانت قرة عينه فى شىء فانه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه فان قرة عين العبد نعيمه وطيب حياته به ،

---

(١) رواه احمد والنسائى والحاكم ، والبيهقى عن انس بن مالك ٭

وقال بعض السلف : انى لأفرح بالليل حين يقبل لما يلتذ به عيشى وتقر به عينى من مناجاة من أحب . وخلوتى بخدمته . والتذلل بين يديه، وأغتم للفجر اذا طلع ، لما اشتغل به بالنهار عن ذلك فلا شىء ألذ للمحب من خدمة محبوبه وطاعته . وقال بعضهم : تعذبت بالصلاة عشرين سنة ثم تنعمت بها عشرين سنة وهذه اللذة والتنعم بالخدمة انما تحصل بالمصابرة على التكره والتعب أولا . فاذا صبر عليه وصدق فى صبره أفضى به الى هذه اللذة. قال أبو يزيد ، سقت نفسى الى الله وهى تبكى . فما زلت أسوقها حتى انساقت اليه وهى تضحك، ولا يزال السالك عرضة الآفات والفتور والانتكاس حتى يصل الى هذه الحالة . فحينئذ يصير نعيمه فى سيره ولذته فى اجتهاده ، وعذابه فى فتوره ووقوفه، فترى أشد الأشياء عليه ضياع شىء من وقته ووقوفه عن سيره . ولا سبيل الى هذا الا بالحب المزعج *

وقوله : وسلا عن المصائب صحيح فان المحب يتسلى بمحبوبه عن كل مصيبة يصاب بها دونه فاذا سلم له محبوبه لم يبال بما فاته فلا يجزع على ما ناله فانه يرى فى محبوبه عوضا عن كل شىء . ولا يرى فى شى غيره عوضا منه أصلا فكل مصيبة عنده هينة اذا أبقت عليه محبوبه . ولهذا لما خرجت تلك المرأة الأنصارية يوم أحد تنظر ما فعل برسول الله ﷺ مرت بابيها وأخيها مقتولين فلم تقف عندهما وجاوزتهما تقول : ما فعل رسول الله ﷺ فقيل لها : ها هو ذا حى فلما نظرت اليه قالت : ما أبالى اذا سلمت هلك من هلك (١) ، ولو لم يكن فى المحبة من الفوائد الا هذه الفائدة وحدها لكفى

---

(١) قال ابن اسحق ـ فى سياق غزوة احد ـ عن سعد بن ابى وقاص قال : «مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار ؛ وقد أصيب زوجها واخوها وابوها مع رسول الله ﷺ باحد فلما نعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ ؟

بها شرفا فان المصائب لازمة للعبد لامحيد له عنها ولايمكن دفعها بمثل المحبة . وهكذا مصائب الموت ومابعدها انما تسهل وتهون بالمحبة وكذلك مصائب القيامة وأعظم المصائب مصيبة النار ، ولا يدفعها الا محبة الله وحده ومتابعة رسوله ﷺ . فالمحبة أصل كل خير فى الدنيا والآخرة كما قال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة فان النبى ﷺ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ (١) » فهم مع الله .

وقوله : وهى فى طريق العوام عمدة الايمان كلام قاصر فانها عمود الايمان وعمدته وساقه الذى لايقوم الا عليه . فلا ايمان بدونها البتة . وانما مراده هذه المحبة الخاصة التى تنشأ من رؤية النعم هى عمدة ايمان العوام . واما الخواص فعمدة ايمانهم محبة تنشأ من معرفة الكمال ومطالعة الأسماء والصفات والله أعلم .

قال أبو العباس : وأما محبة الخواص وهى محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الاشارة ولا تنتهى بالنعوت ولا تعرف الا بالحيرة والسكوت . وقال بعضهم :

يقول وقد ألبست وجدا وحيرة   وقد ضمنا بعد التفرق محضر
ألست الذى كنا نحدث أنه   ولوع بذكراها فأين التذكر
فرد عليها الوجد افنيت ذكره   فلم يبق الا زفرة وتحسر

فيقال : ههنا مرتبتان من المحبة مختلف فى أيتهما اكمل من الأخرى .

احداهما : هذه المرتبة التى أشار اليها المصنف ، وهى الدرجة الثالثة

قالوا : خيرا يا ام فلان . هو بحمد الله كما تحبين قالت: اورنيه حتى انظر اليه قال : فأشير لها اليه حتى اذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل» اى قليل وصغير (١) رواه احمد والبخارى ومسلم عن ابن مسعود وعن انس .

التى ذكرها شيخ الاسلام فى منازله . فقال : والدرجة الثالثة محبة خاطفة تقطع العبارة ، وتدق الاشارة ؛ ولا تنتهى بالنعوت . وهذه المحبة قطب هذا الشأن، ومادونها مجال تنادى عليها الالسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول

والمرتبة الثانية عند صاحب المنازل ومن تبعه دون هذه المرتبة . وهى المحبة التى تنشأ من مطالعة الصفات فقال فى منازله :والدرجة الثانية محبة تبعث على إيثار الحق على غيره ، ويلهج اللسان بذكره ، ويعلق القلب بشهوده وهى محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر فى الآيات، والارتياض بالمقامات *

وإنما جعل هؤلاء هذه المحبة أنقص من المحبة الثالثة بناء على أصولهم، فان الفناء هو غاية السالك التى لاغاية له وراءها فهذه المحبة لما أفنت المحب واستغرقت روحه ، بحيث غيبته عن شهوده ، وفنى فيها المحب ، وانمحت رسومه بالكلية ولم يبق هناك الا محبوبه وحده فكأنه هو المحب لنفسه بنفسه إذ فنى من لم يكن وبقى من لم يزل، ولما ضاق نطاق النطق بهم عن التعبير عنها عدلوا إلى التعبير عنها بكونها قاطعة للعبارة ، مدققة للاشارة يعنى تدق عنها الاشارة ولان الاشارة تتناول محبا ومحبوبا، وفى هذه المحبة قد فنى المحب فانقطع تعلق الاشارة به إذ الاشارة لاتتعلق بمعدوم . وسر هذا المقام عندهم هو الفناء فى الحب بحيث لايشاهد له رسما ولا محبة ولا سببا، ولهذا كانت الدرجتان اللتان قبله عنده معلولتين لانهما مصحوبتان بالبقاء . وشهود الاسباب بخلاف الثالثة ولهذا قال : ولا تنتهى بالنعوت يعنى أن النعت لا يصل اليها ولا يدركها. وهذا بناء على قاعدته فى كل باب من أبواب كتابه ، يجعل الدرجة العالية التى تتضمن الفناء أكمل مما قبلها *

والصواب أن الدرجة الثانية أكمل من هذه وأتم وهى درجة الكمل من المحبين، ولهذا كان امامهم ﷺ وسيدهم وأعظمهم حبا فى الذروة العليا من المحبة وهو مراع لجريان الامور ولجريان الامة ؛ مثل سماعه بكاء الصبى

فى الصلاة فيخففها لاجله ومثل التفاته فى صلاته إلى الشعب الذى بعث منه العين يتعرف له أمر العدو وهذا وهو فى أعلى درجة المحبة ، ولهذا رأى ما رأى فى ليلة الاسراء وهو ثابت الجأش ، حاضر القلب ، لم يفن عن تلقى خطاب ربه وأوامره ، ومراجعته فى أمر الصلاة مرارا . ولا ريب أن هذا الحال أكمل من حال موسى الكليم . فان موسى خر صعقا . وهو فى مقامه فى الارض لما تجلى ربه للجبل والنبى ﷺ قطع تلك المسافات وخرق تلك الحجب ورأى ما رأى ، وما زاغ بصره وما طغى ، ولا اضطرب فؤاده ولا صعق ﷺ. ولا ريب ان الوراثة المحمدية اكمل من الوراثة الموسوية .

وتأمل شأن النسوة اللاتى رأين يوسف كيف ادهشهن حسنه، وتعلق قلوبهن به . وأفناهن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن . وامرأة العزيز أكمل حبا منهن له وأشد ولم يعرض لها ذلك مع أن حبها أقوى وأتم لان حبها كان مع البقاء وحبهن كان مع الفناء فالنسوة غيبهن حسنه وحبه عن أنفسهن ، فبلغن من تقطيع أيديهن ما بلغن وامرأة العزيز لم يغيبها حبه لها عن نفسها بل كانت حاضرة القلب متمكنة فى حبها فحالها حال الاقوياء من المحبين ، وحال النسوة حال أصحاب الفناء .

ومما يدل على ان حال البقاء فى الحب أكمل من حال الفناء ان الفناء انما يعرض لضعف النفس عن وارد المحبة ، فيمتلىء به ويضعف عن حمله فيفنيها ويغيبها عن تمييزها وشهودها فيورثها الحيرة والسكوت ، وأما حال البقاء فيدل على ثبات النفس وتمكنها وأنها حملت من الحب ما لم يطق حمله صاحب الفناء . فتصرفت فى حبها ولم يتصرف فيها ؛ والكمال من اذا ورد عليه الحال تصرف هو فيه ولا يدع حاله يتصرف فيه .

وأيضا فان البقاء متضمن لشهود كمال المحبوب ولشهود ذل عبوديته ومحبته ، ولشهود مراضيه وأوامره ، والتمييز بين ما يحبه ويكرهه ، والتمييز

بين المحبوب اليه والاحب والعزم على ايثار الاحب اليه فكيف يكون الفانى عن شهود هذا التغييب الحب له أكمل وأقوى، وأى عبودية للمحبوب فى فناء المحب فى محبته ؟ وهل العبودية كل العبودية إلا فى البقاء والصحو، وكمال التمييز وشهود عزة محبوبه وذله، وهو فى حبه واستكانته فيه، واجتماع إرادته كلها فى تنفيذ مراد محبوبه، فهذا وأمثاله مما يدل على أن الدرجة الثانية التى أشار اليها أكمل من الثالثة وأتم، وهكذا فى جميع أبواب الكتاب والله أعلم *

وكأنى بك تقول لايقبل فى هذا الا كلام من قطع هذه المفاوز حالا وذوقا. وأما الكلام فيها بلسان العلم المجرد فغير مقبول والمحبون أصحاب الحال والذوق فى المحبة لهم شأن وراء الأدلة والحجج.

فاعلم أولا أن كل حال وذوق ووجد وشهود لايشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل فهو من عيش النفس وحظوظها فلو قدر أن المتكلم إنما تكلم بلسان العلم المجرد فلا ريب أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حال يخالف العلم والعلم يخالفه. وليس من الانصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين فى تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم فكانت فتنة فى الأرض وفساد كبير، وكم قد ضل وأضل محكم الحال على العلم بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال اليه فما زكاه شاهد العلم فهو المقبول وما جرحه شاهد العلم فهو المردود وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق، يوصون بذلك ويخبرون أن كل ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل *

ويقال ثانياً: ليس من شرط قبول العلم بالشىء من العالم به أن يكون ذاقه. أفتراك لاتقبل معرفة الآلام والأوجاع وأدويتها الا ممن قد مرض بها وتداوى بها ؟ أفيقول هذا عاقل ؟ *

ويقال ثالثا : أتريد بالذوق أن يكون القائل قد بلغ الغاية القصوى في هذه المرتبة فلا يقبل الا من هذا شأنه . أوتريد أنه لابد أن يكون له أذواق أهله من حيث يحمله فان أردت الأول لزمك أن لا يقبل أحد من أحد اذ مامن ذوق الاوفوقه أكمل منه وان أردت الثاني فمن أين لك نفيه عن صاحب العلم ؟ ولكن لاعراضك عن العلم وأهله صرت تظن أن أهل العلم لهم العلم والكلام والوصف وللمعرضين عنه الذوق والحال والاتصاف، والظن يخطىء تارة ويصيب والله أعلم *

﴿فصل﴾ قال أبو العباس : فعند القوم كل ما هو من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته وانما عين الحقيقة عندهم انما يكون قائما باقامته له ، محبا بمحبته له ، ناظرا بنظره لامن غير أن يبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم ، أوتتعلق بنظر ، أو تنعت بنعت ، أوتوصف بوصف . أوتنسب الى وقت ، صم بكم عمى لدينا محضرون *

فيقال : هذا هو مقام الفناء الذي يشير اليه كثير من المتأخرين ، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات ، وكل مادونه فمرقاة اليه وعلة عليه . ولهذا كانت المحبة عندهم آخر منازل الطريق وأول اودية الفناء والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحق . وهي آخر منزل يلتقي فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة وما دونها اعراض الأعراض . فجعلوا المحبة منزلا من المنازل ليست غاية ، وجعلوها أول الأودية التي سلك فيها أصحاب الفناء . فهي أول أوديتهم والعقبة التي ينحدرون منها الى منازل الفناء والمحو فليست هي الغاية عندهم وأصحابها عندهم مقدمة العامة وساقة أصحاب الفناء عندهم مقدمون عليهم سابقون لهم . فانهم ساقة الخاصة وهؤلاء مقدمة العامة ، فهذا كله بناء على أن الفناء هو الغاية التي لا غاية للعبد وراءها ولا كمال له يطلبه فوقها . وقد تبين ما في ذلك وما هو الصواب بحمد الله

فقوله : كل ماهو من العبد فهو علة يليق بعجز العبد وفاقته .

يقال له : اذ كان اثامته العبودية التى يحبها الله كسبا ومباشرة فهو قائم بها شاهد لمقيمه فيها ، مطالع لمنته وفضله فأى علة هنا سوى وقوفه مع شهودها منه وغيبته عن شهود إقامة الله وتحريكه اياه ، وتوفيقه له ؟ فالعلة هي بهذا الشهود وهذه الغيبة المنافية لكمال الافتقار والفاقة إلى الله، واما شهود فقره وفاقته وبمجموع حالاته وحركاته وسكناته الى وليه وباريه مستعينا به ان يقيمه فى عبودية خالصة له ، فلا علة هناك .

قوله : وانما عين الحقيقة أن يكون قائما باقامته له إلى آخر كلامه .

يقال : ان اردت انه يشهد اقامة الله له حتى قام ومحبته له حتى احبه ونظره إلى عبده حتى أقبل عبده عليه ناظراً اليه بقلبه فهذا حق فان ما من الله سبق ما من العبد فهو الذى أحب عبده أولا فأحبه العبد ، وأقام العبد فى طاعته فقام باقامته . ونظر اليه فأقبل العبد عليه ، وتاب عليه أولا فتاب اليه العبد، وإن أردت أنه لا يشهد فعله البتة بل يفنى عنه جملة ويشهد أن الله وحده هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه وان هذه الأسباب والرسوم تصير عدما فى شهوده وإن لم يفن ويعدم فى الخارج - وهذا هو مراد القوم فدعوى أن هـــذا هو الكمال الذى لا كمال فوقه ولا غاية وراءه دعوى مجردة لا يستدل عليها مدعيها بأكثر من الذوق والوجد، وقد تقدم أن هذا ليس بغاية وانما غايته أن يكون من عوارض الطريق وأن شهود الأشياء فى مراتبها ومنازلها التى أنزلها سبحانه اياها أكمل وأتم ويكفى فى بعض هذا الاحتجاج عليه بصفات الكفار فان الله ذمهم بأنهم صم بكم عمى . فهذه صفات نقص وذم لا صفات كمال ومدحة وهل الكمال الا فى حضور السمع والبصر والعقل وكمال التمييز ، وتنزيل الخلق والأمر منازلهما والتفريق بين ما فرق الله بينه؟ فالأمر كله فرقان وتمييز .

وتبيين فكلما كان تمييز العبد وفرقانه أتم كان حاله أكمل وسيره أصح وطريقه اقوم واقرب . والحمد لله رب العالمين *

(فصل) قال ابو العباس : واما الشوق فهوهبوب القلب الى غائب واعواز الصبر عن فقده ، وارتياح السر الى طلبه . وهو من مقامات العوام واما الخواص فهوعندهم محلة عظيمة لأن الشوق انمايكون الى غائب ومذهب هذه الطائفة انما قام على المشاهدة والطريق عندهم أن يكون العبد غائبا والحق ظاهرا . ولهذا المعنى لم ينطق بالشوق كتاب ولاسنة صحيحة الالأن الشوق مخبر عن بعد ،ومشير الى غائب وهو يطلع الى ادراك (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) وقيل :

ولا معنى لشكوى الشوق يوما إلى من لا يزول عن العيان

اختلف الناس فى الشوق والمحبة أيهما اعلى؟ فقالت طائفة: المحبة اعلى من الشوق ، هذا قول ابن عطاء وغيره . واحتجوا بأن الشوق غايته ان يكون اثرا من اثار المحبة ، ومتولدا عنها ، فهى اصله وهو فرعها *

قالوا : والمحبة توجب اثارا كثيرة فمن اثارها الشوق *

وقالت طائفة منهم سرى السقطى وغيره: الشوق اعلى قال الجنيد : سمعت السرى يقول: الشوق اجل مقامات العارف إذا تحقق فى الشوق لها عن كل شىء يشغله عمن يشتاق اليه *

وانما يظهر سر المسئلة بذكر فصلين

الفصل الأول فى حقيقة الشوق ، والثانى فى الفرق بينه وبين المحبة ويتبع ذلك خمس مسائل *

احداها هل يجوز اطلاقه على الله كما يطلق عليه أنه يحب عباده املا *

الثانية هل يجوز اطلاقه على العبد فيقال يشتاق الى الله كما يقال يحبه *

الثالثة انه هل يقوى بالوصول والقرب ام يضعف بهما فأى الشوقين

اعلا شوق القريب الدانى، أم شوق البعيد الطالب ؟ه

الرابعة ما الفرق بينه وبين الاشتياق فهل هما بمعنى واحد ام بينهما فرق؟ ه

الخامسة فى بيان مراتبه واقسامها ومنازل اهله فيه ه

﴿الفصل الأول﴾ فى حقيقة الشوق ه

هو سفر القلب فى طلب محبوبه، بحيث لايقر قراره حتى يظفر به ويحصل له. وقيل: هو لهيب ينشأ بين أثناء الحشا، سببه الفرقة. فاذا وقع اللقاء أطفأ ذلك اللهيب. وقيل: الشوق هبوب القلب الى محبوب غائب. وقال ابن خفيف: الشوق ارتياح القلوب بالوجد. ومحبة اللقاء بالقرب. وقيل: الشوق تروح القلب نحو المحبوب من غير منازع. ويقال: الشوق انتظار اللقاء بعد البعاد ه

فهذه الحدود ونحوها مشتركة فى أن الشوق إنما يكون مع الغيبة من المحبوب. وأما مع حضوره ولقائه فلا شوق. وهذه حجة من جعل المحبة أعلى منه فان المحبة لا تزول باللقاء، وبهذا يتبين الكلام فى الفصل الثانى وهو الفرق بينه وبين المحبة ه

والفرق بينهما فرق مابين الشيء وأثره. فان الحامل على الشوق هو المحبة ولهذا يقال: لمحبتى له اشتقت اليه وأحببته فاشتقت إلى لقائه ولا يقال لشوقى اليه أحببته. ولا اشتقت إلى لقائه فاحببته. فالمحبة بذر فى القلب والشوق بعض ثمرات ذلك البذر. وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب والرضى عنه وشكره، وخوفه ورجاؤه، والتنعم بذكره، والسكون اليه، والانس به والوحشة بغيره وكل هذه من أحكام المحبة وثمراتها وهو حياتها فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء والكراهة. فان القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد فى الهرب منه واذا أحبه جد فى الهرب اليه وطلبه. فهو

حركة القلب فى الظفر بمحبوبه ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ويفهم منه ويعبر به عنه *

(فصل) وأما المسائل فاحداها . هل يجوز اطلاقه على الله ؟ فهذا مما لم يرد به القرآن ولا السنة بصريح لفظه *

قال صاحب منازل السائرين وغيره : وسبب ذلك أن الشوق انما يكون لغائب ومذهب هذه الطائفة انما قام على المشاهدة . ولهذا السبب عندهم لم يجيء فى حق الله ولا فى حق العبد *

وجوزت طائفة اطلاقه كما يطلق عليه سبحانه ورووا في أثر أنه يقول: «طال شوق الابرار الى لقائى ، وأنا الى لقائهم أشوق » *

قالوا . وهذا الذى يقتضيه الحقيقة وان لم يرد به لفظ صريح فالمعنى حق فان كل محب فهو مشتاق الى لقاء محبوبه *

قالوا : وأما قولكم : ان الشوق انما يكون الى غائب وهو سبحانه لا يغيب عن عبده ولا يغيب العبد عنه . فهذا حضور العلم . وأما اللقاء والقرب فامر آخر . فالشوق يقع بالاعتبار الثانى ، وهو قرب الحبيب ولقاؤه والدنو منه وهذا له أجل مضروب لا ينال قبله . قال تعالى (٢٥ : ٥ - من كان يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَانَّ أَجَلَ اللهِ لَآت) قال أبو عثمان الحيرى : هذا تعزية للمشتاقين معناه إنى اعلم انَّ اشتياقكم الى غالب . وانا اجلت للقائكم اجلا وعن قريب يكون وصولكم الى من تشتاقون اليه . *

والصواب أن يقال : اطلاقه متوقف على السمع ولم يرد به فلا ينبغى اطلاقه . وهذا كلفظ العشق أيضا . فانه لما لم يرد به سمع فانه يمتنع اطلاقه عليه سبحانه . واللفظ الذى أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا وأجل شأنا وهو لفظ المحبة . فانه سبحانه يوصف من كل

صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها فيوصف من الارادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بارادته كما قال تعالى : (٨٥ : ١٦ - فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وبارادة اليسر لا العسر . كما قال : (٢ : ١٨٥ - يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وبارادة الاحسان واتمام النعمة على عباده كقوله: (٤: ٢٧ - وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) فارادة التوبة وارادة الميل لمبتغى الشهوات . وقوله تعالى: (٥ : ٦ - مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وكذلك الكلام يصف نفسه منه باعلا أنواعه كالصدق والعدل والحق . وكذلك الفعل يصف نفسه منه باكمله وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة . وهكذا المحبة وصف نفسه منها باعلاها وأشرفها . فقال : (٥ : ٥٤ - يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) و(٢ : ٢٢٢ - يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) و (٢ : ١٩٥ - يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) و(٣ : ١٤٦ - يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة . والميل . والصبابة ، والعشق . والغرام ونحوها . فان مسمى المحبة أشرف وأكمل من هذه المسميات فجاء في حقه اطلاقه دونها . وهذه المسميات لا تنفك عن لوازم ومعان تنزه تعالى عن الاتصاف بها . وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى اكمل معنى ولفظا مما لم يطلقه . فالعليم الخبير اكمل من الفقيه والعارف ، والكريم الجواد اكمل من السخى . والخالق البارىء المصور اكمل من الصانع الفاعل ؛ ولهذا لم تجىء هذه فى اسمائه الحسنى ،

والرحيم والرءوف اكمل من الشفيق ، فعليك بمراعاة ما اطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها وعدم اطلاق مالم يطلقه على نفسه مالم يكن مطابقا لمعنى اسمائه وصفاته وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ . ولاسيما اذا كان مجملا او منقسما الى مايمدح به وغيره فانه لايجوز اطلاقه الا مقيدا وهذا كلفظ الفاعل والصانع . فانه لا يطلق عليه فى اسمائه الحسنى الااطلاقا مقيدا اطلقه على نفسه كقوله تعالى: (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ . و يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ) وقوله (صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) فان اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى الى مايمدح عليه ويذم . ولهذا المعنى والله اعلم لم يجىء فى الأسماء الحسنى : المريد . كما جاء فيها : السميع البصير ولا المتكلم . ولا الآمر الناهى لانقسام مسمى هذه الأسماء ، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف انواعها . ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش فى اشتقاقه له سبحانه من كل فعل اخبر به عن نفسه اسما مطلقا فادخله فى اسمائه الحسنى . فاشتق له اسم الماكر ، والخادع ، والفاتن والمضل ، والكاتب ونحوها من قوله: (٨: ٣٠ وَيَمْكُرُ اللهُ) ومن قوله (وَهُوَ خَادِعُهُمْ) ومن قوله (٢٠ : ١٣١ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) ومن قوله (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) وقوله تعالى (٥٨ : ٢١ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ) وهذا خطأ من وجوه *

أحدها : أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الاسماء فاطلاقها عليه لا يجوز *

الثانى أنه سبحانه أخبر عن نفسه بافعال مختصة مقيدة ، فلا يجوز أن ينسب اليه مسمى الاسم عند الاطلاق *

الثالث : أن مسمى هذه الاسماء منقسم إلى مايمدح عليه المسمى به ، وإلى مايذم . فيحسن فى موضع ويقبح فى موضع فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل *

الرابع : ان هذه ليست من الاسماء الحسنى التى يسمى بها سبحانه . فلا يجوز أن يسمى بها فان أسماء الرب سبحانه كلها حسنى . كما قال تعالى: (٧ : ١٧٩ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) وهى التى يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد ويمجد بها دون غيرها .

﴿ الخامس ﴾ ان هذا القائل لو سمى بهذه الاسماء ، وقيل له هذه مدحتك وثناء عليك ، فأنت الماكر الفاتن المخادع . المضل . الملاعن . الفاعل . الصانع ونحوها لما كان يرضى باطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة ولله المثل الأعلى سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون به علوا كبيرا .

﴿ السادس ﴾ ان هذا القائل يلزمه ان يجعل من اسمائه اللاعن والجائى والآتى والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر واضعاف اضعاف ذلك فيشتق له اسما من كل فعل اخبر به عن نفسه والا تناقض تناقضا بينا ولا احد من العقلاء طرد ذلك فعلم بطلان قوله والحمد لله رب العالمين .

﴿ فصل ﴾ واما المسألة الثانية وهى هل يطلق على العبد انه يشتاق إلى الله وإلى لقائه؟ فهذا غير ممتنع ، فقد روى الامام أحمد فى مسنده والنسائى وغيرهما من حديث حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبيه قال : صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها فقلت : خففت يا أبا اليقظان فقال : وما على من ذلك ولقد دعوت الله بدعوات سمعتها من رسول الله ﷺ فلما قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدعوات فقال : اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ

خيرا لى اللهم انى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين »

فهذا فيه اثبات لذة النظر إلى وجهه الكريم وشوق أحبابه إلى لقائه فان حقيقة الشوق اليه هو الشوق إلى لقائه ، قال أبو القاسم القشيرى : سمعت الاستاذ أبا على يقول فى قوله ﷺ « أسألك الشوق إلى لقائك » قال . كان الشوق مائة جزء فتسعة وتسعون له وجزء متفرق فى الناس فاراد أن يكون ذلك الجزء له أيضا فقال: أن يكون بشطيه من الشوق من غيره (١) »

قال وسمعته يقول فى قول موسى (وعجلت اليك رب لترضى) . قال . معناه شوقا اليك فستره بلفظ الرضا وهذا أكثر مشايخ الطريق يطلقونه ولا يمتنعون منه ، وقيل : ان شعيبا بكى حتى عمى بصره فاوحى الله اليه ان كان هذا لاجل الجنة فقد أبحتها لك وان كان لاجل النار فقد أجرتك منها فقال . لا بل شوقا اليك »

قال بعض العارفين : من اشتاق الى الله اشتاق اليه كل شىء ، وقال بعضهم قلوب العاشقين منورة بنور الله فاذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والارض فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون الى أشهدكم انى اليهم أشوق ، واذا كان الشوق هو سفر القلب فى طلب محبوبه

---

(١) بياض فى الاصل ، وفى الرسالة القشيرية « فاراد ان يكون ذلك الجزء له ايضا فغار ان يكون شظية من الشوق لغيره » اه وفى الاصل تحريف

ونزوعه اليه فهو من أشرف مقامات العبيد وأجلها وأعلاها، ومن أنكر شوق العبد الى ربه فقد أنكر محبته له لان المحبة تستلزم الشوق فالمحب دائما مشتاق الى لقاء محبوبه لا يهدأ قلبه ولا يقر قراره الا بالوصول اليه. فاما قوله: أن الشوق عند الخواص علة عظيمة لأن الشوق انما يكون الى غائب ومذهب هذه الطائفة انما قام على المشاهدة فيقال: المشاهدة نوعان مشاهدة عرفان ومشاهدة عيان وبينهما من التفاوت ما بين اليقين. والعيان، ولا ريب ان مشاهدة العرفان متفاوتة بحسب تفاوت الناس بالمعرفة ورسوخهم فيها وليس للمعرفة نهاية تنتهي اليها بحيث اذا وصل اليها العارف سكن قلبه عن الطلب بل كلما وصل منها الى معلم ومنزلة اشتد شوقه إلى ماوراءه وكلما ازداد معرفة ازداد شوقا فشوق العارف اعظم الشوق فلا يزال في مزيد من الشوق مادام في مزيد من المعرفة فكيف يكون الشوق عنده علة عظيمة هذا من المحال البين بل من عرف الله اشتاق اليه واذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوق العارف لا نهاية له هذا مع الشوق الناشيء عن طلب اللقاء والرؤية. والمعرفة العيانية فاذا كان القلب حاضرا عند ربه وهو غير غائب عنه لم يوجب له هذا ان لا يكون مشتاقا الى لقائه ورؤيته بل هذا يكون اتم لشوقه واعظم.

فظهر ان قوله: ان الشوق علة عظيمة في طريق الخواص كلام باطل على كل تقدير وان الشوق بالحقيقة انما هو شوق الخواص العارفين بالله والعبد اذا كان له مع الله حال أو مقام وكشف له عما هو أفضل منه وأجل اشتاق اليه بالضرورة ولم يكن شوقه علة له ونقصا في حاله بل زيادة وكمالا ويكون ترك الشوق هو العلة وقد تقدم أن لا غاية للمعرفة تنتهي اليها فيبطل الشوق بنهايتها بل لا يزال العارف في مزيد من معرفته وشوقه والله المستعان.

﴿ فصل ﴾ وأما المسألة الثالثة وهي هل يزول الشوق باللقاء أم يقوى ؟

فقالت طائفة . الشوق يزول باللقاء لانه طلب فاذا حصل المطلوب زال الطلب لأن تحصيل الحاصل محال ولامعنى للشوق الى شيء حاصل وانما يكون الشوق الى شيء مراد الحصول محبوب الادراك ، وقالت طائفة اخرى : ليس كذلك بل الشوق يزيد بالوصل واللقاء ويتضاعف بالدنو ولهذا قال القائل .

وأعظم مايكون الشوق يوما اذا دنت الديار من الديار

ولهذا قال بعضهم: شوق اهل القرب اتم من شوق المحجوبين ، واحتجت هذه الطائفة بان الشوق من آثار الحب ولوازمه فكما أن الحب لايزول باللقاء فهكذا الشوق الذى لايفارقه قالوا : ولهذا لايزول الرضى والحمد والاجلال والمهابة التى هى من آثار المحبة باللقاء فهكذا الشوق يتضاعف ولا يزول والقولان حق ، وفصل الخطاب فى المسئله ان المحب إذا اشتاق إلى لقاء محبوبه فاذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذى كان متعلقا بلقائه وخلفه شوق آخر أعظم منه وأبلغ إلى مايزيد قربه والحظوة عنده ، وأما إذا قدر أنه لقيه ثم احتجب عنه ازداد شوقه إلى لقاء آخر ولايزال يحصل له الشوق كلما احتجب عنه فهذا لاينقطع شوقه أبدا فهو إذا رءاه بل شوقه برؤيته وإذا زال عنه الطرف عاوده الشوق كما قيل .

مايرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود اليه الطرف مشتاقا

واما الشأن فى دوام الشوق حال الوصول واللقاء ، فاعلم أن الشوق نوعان : شوق الى اللقاء فهذا يزول باللقاء . وشوق فى حال اللقاء وهو تعلق الروح بالمحبوب تعلقا لاينقطع أبدا فلاتزال الروح مشتاقة الى مزيد هذا التعلق وقوته اشتياقا لايهدأ ، وقد أفصح بعض المحبين للمخلوق عن هذا المعنى بقوله :

أعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تدانى

والثم فاها كى تزول صبابتى فيشتد ما ألقى من الهيمان

فالشوق فى حال الوصل والقرب الى مزيد النعيم واللذة لا ينقطع، والشوق فى حال السير الى اللقاء ينقطع ونستغفر الله من الكلام فيما لسنا بأهل له :

فالخوف أولى بالمسى ء اذا تأله والحزن
والحب يجمل بالتقا ء وبالنقاء من الدرن
لكن اذا مالم يجب كم المسىء اذن فمن
وإذا تخون فعلنا فعل المحبة مؤتمن
أيحب شىء غيركم وحياتكم كلاولن
أيحب من تأتى محب ته بأنواع المحن
والسعد فيها ذابح والقلب فيها ممتحن
دون الذى فى حبه نيل السعادة والمنن
ومحل بدر كمالها سعد السعود هو الوطن
والقلب حين يحل فى تلك المنازل والدمن
يمسى ويصبح من رضا ه ومن مناه فى وطن
أيحبهم قلب ويخ شى أن يضام فلا إذن

﴿ فصل ﴾ واما المسالة الرابعة وهى الفرق بين الشوق . والاشتياق فقال أبو عبد الرحمن السلمى : سمعت النصراباذى يقول : للخلق كلهم مقام الشوق وليس لهم مقام الاشتياق ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار ، وهذا يدل على أن الاشتياق عنده غير الشوق ولا ريب أن الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقا كما أن الشوق مصدر تشوق تشوقا والشوق فى الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقا مثل

شاقه شوقا إذا دعاه الى الاشتياق فالاشتياق مطاوع شاقه يقال : شاقنى فاشتقت اليه ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق وغلب عليه حتى لايفهم عند الاطلاق الا الاشتياق القائم بالمشوق والمشوق هو الصب المشتاق والشائق هو الذى قام به وادعى الشوق : فههنا ألفاظ الشوق . والاشتياق .والتشوق.والشائق . والمشوق . والشيقفهذه ستة الفاظ *

أحدها : الشوق وهو فى الأصل مصدر الفعل المتعدى شاقه يشوقه ثم صار اسم مصدر الاشتياق *

اللفظالثانى : الاشتياق وهو مصدر اشتاق اشتياقا والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر *

اللفظ الثالث : التشوق وهو مصدر تشوق إذا اشتاق مرة بعد مرة كما يقال : تجرع وتعلم وتفهم؛ وهذا البناء مشعر بالتكلف وتناول الشيء على مهله *

اللفظ الرابع : الشائق وهو الداعى للشوق الى الاشتياق *

اللفظ الخامس : المشوق وهو المشتاق الذى قد حصل له الشوق *

اللفظ السادس : الشيق وهو فيعل بمنزلة هين ولين وهو المشتاق ، فهذه فروق مابين هذه الألفاظ ، وأما كونالاشتياقأبلغ من الشوق فهذا قد يقال فيه : انه الأصل وهو أكثر حروفا من الشوق وهو يدل على المصدر والفاعل ؛ وأما الشوق ففرع عليه لأنه اسم مصدروأقل حروفا وهو انما يدل على المصدر المجرد، فهذه ثلاث فروق منها والله أعلم *

﴿ فصل ﴾ وأما المسألة الخامسة وهى فى مراتب الشوق ومنازله فقال صاحب منازل السائرين : هو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : شوق العابد الى الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل *

والدرجة الثانية : شوق الى الله سبحانه وتعالى زرعه الحب الذى ينبت على حافات المنن تعلق قلبه بصفاته المقدسة واشتاق الى معاينة لطائف كرمه وءايات بره وعلامة فضله (١)، وهذا شوق تغشاه المبار وتخالجه المسار ويقارنه (٢) الاصطبار .

والدرجة الثالثة . نار أضرمها صفو المحبة فنغصت العيش وسلبته السلو، ولم ينهنهها معزى (٣) دون اللقاء .

قلت : الدرجة الأولى هى شوق إلى فضل الله وثوابه. والثانية شوق الى لقائه ورؤيته . والثالثة شوق اليه لا لعلة ولا لسبب ولا ملاحظ فيه غير ذاته ، فالأول حظ المشتاق من أفعاله وانعامه ، والثانى حظه من لقائه ورؤيته، والثالث قد فنيت فيه الحظوظ واضمحلت فيه الأقسام .

وقوله فى الدرجة الأولى : ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل هذه ثلاثة فوائد ذكرها في هذا الشوق. أمن الخائف. وفرح الحزين. والظفر بالامل، فهذه المقاصد لما كانت حاصلة بدخول الجنة كانت مصورة للنفس أشد الشوق الى حصول هذه المطالب وهى الفوز والفرح ، وجماع ذلك أمران :

أحدهما : النجاة من كل مكروه .

والثانى . الظفر بكل محبوب فهذان هما المشوقان الى الجنة .

وقوله فى الثانية: شوق الى الله سبحانه وتعالى زرعه الحب قد تقدم ان الشوق ثمرة الحب ، وقوله : الذى ينبت على حافات المنن أى أنشأه الفكر فى منن الله وأياديه وانعامه المتواترة ، وفيه اشارة الى أن هـــذا الحب الذى هو نابت على الحافات والجوانب بعده حب أكمل منه وهو الحب

(١) فى المنازل « واعلام فضله » (٢) فى المنازل « ويقاومه »
(٣) فى المنازل « مقر »

الناشيء من شهود كمال الاسماء والصفات وذلك ليس من نبات الحافات ولكن من الحب الأول يدخـــل فى هذا كما تقدم، ولهذا قال: تعلق قلبه بصفاته المقدسة .

وقوله : واشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وءايات بره وعلامة فضله يشير به إلى ما يكرم الله به عبده من أنواع كراماته التي يستدل بها على أنه مقبول عند ربه ملاحظ بعنايته وانه قد استخدمه وكتبه فى ديوان أوليائه وخواصه ولا ريب أن العبد متى شاهد تلك العلامات والآيات قوى قلبه وفرح بفضل ربه وعلم أنه قد أهل فطاب له السير ودام اشتياقه وزالت عنه العلل وما لم ينعم عليه بشيء من ذلك لم يزل كئيبا حزينا خائفا أن يكون ممن لا يصلح لذلك الجناب ولم يصل لتلك المنزلة . وقوله: وهذا شوق تغشاه المبارُّ جمع مبرة وهى البر اى ان هذا الشوق مشحون بالبر مغشى به ، وهو اما بر القلب وهو كثرة خيره فهذا القلب أكثر القلوب خيرا فيفعل بالبر تقربا الى من هو مشتاق اليه فهو يجيش بانواع البر، وهذه من فوائد المحبة أن قلب صاحبها ينبع منه عيون الخير وتنفجر منه ينابيع البر، يريد به أن مبار الله ونعمه تغشاه على الدوام ، وقوله : وتخالجه المسار مخالطة السرور فى غضون أشواقه فانها أشواق لا وحشة معها ولا ألم بل هى محشوة بالمسرات، وقوله : ويقارنه الاصطبار اى صاحبه له قوة على اصطباره على مرضاة حبيبه لشوقه اليه وانما يضعف الصبر لضعف المحبة والمحب من اصبر الخلق كما قيل :

نفس المحب على الآلام صابرة · لعل مسقمها يوما يداويها

وقوله فى الدرجة الثالثة: انها نار اضرمها صفو المحبة، يعنى ان هذا الشوق يتوقد من خالص المحبة التى لا يشوبها علة فهو اشد انواع الشوق ولهذا نغصت العيش اى كدرته ونغصت المشتاق فيه لأنه لا يصل الى

محبوبه ما دام فيه فهو يترقب مفارقته ، وقوله : وسلبت السلو يعنى ان صاحبه لم يبق له مطمع فى سلوه ابدا ، وهذا اعظم ما يكون من الحب والشوق ان المحب ايس من السلو وينقطع طمعه منه كما ايس من الأمور الممتنعة كرجوع ايام الشباب عليه وعوده طفلا ونحو ذلك ، وقوله : ولم ينهنهها مغزى دون اللقاء اى إن هذه النار لا يبردها ولا يفتر حرها مقصود ولا مطلب ولا مراد دون لقاء محبوبه فليس له سبيل الى تبريدها وتسكينها إلا بلقاء محبوبه .

﴿ فصل ﴾ قال ابو العباس : فهذه كلها علل انف الخواص منها واسباب انقطعوا عنها فلم يبق لهم مع الحق ارادة ولا فى عطائه تشوق الى استزادة فهو منتهى زادهم وغاية رغبتهم فيعتقدون ان مادونه قاطع عنه (قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ) وإنما زهدهم جمع الهمة عن تعريفات الكون لأن الحق عافاهم بنور الكشف عن التعلق بالأحوال (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) قلت : يشير بذلك الى المحو ومقام الفناء الذى هو غاية الغايات عنده ، وقد تقدم الكلام عليه وان مقام الصحو والبقاء افضل منه واتم عبودية ، وينبغى ان يعرف ان مراعاة مقام الفناء الذى جعلوه غاية مال بكثير من طالبيه الى ترك القيام بالأعمال جملة وراوا انها علل قاطعة عنه واشتد نكير الشيوخ والأئمة عليهم حتى قال : شيخ الطائفة الجنيد : ان الذى يزنى ويسرق خير من هؤلاء ، وهم نوعان نوع جردوا الفناء فى شهود الحكم وهو الحكم القدرى ورأوا انه نهاية التوحيد فا[illegible]ل بهم استغراقهم فيه الى اطراح الأسباب حتى قال قائلهم : العارف لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا لاستبصاره بسر

الله فى القدر *

والنوع الثانى: أصحاب تجريد الفناء والارادة جردوا الفناء والارادة تجريدا آل بهم الى ترك الأسباب جملة ، والطائفتان منحرفتان ضالتان خارجتان عن العلم والدين ولهذا قال لهم شيخ القوم الجنيـــد : عليكم بالفرق الثانى، يعنى أن الفرق فرقان فرق بالطبع والهوى وهو الفرق الذى شهدوه وفروا منه الى معنى الجمع ولـكن بعد الجمع فرق ثان وهو الفرق بالأمر والمحبة لا بالشهوة والطبع وهو دين الرسل فان دينهم مبناه على الفرق الأمرى الشرعى بين محبوب الرب ومأموره وبين مسخوطه ومنهيه فمن لم يشهد هـذا الفرق ولم يكن من أهله لم يكن من أتباع الرسل فان الـكمال شهود الجمع فى هذا الفرق فيشهد انفراد الله وحده بالخلق والأمر ويشهد الفرق بين ما يحبه ويؤثره ويقدمه وبين ما يبغضه فيتركه ويتجنبه فيصير له هذا الفرق فى محل فرقه الطبعى الحسى بين ما يلائمه وينافره *

ومن المعلوم أن صاحب الجمع لابد أن يفرق بطبعه وحسه وان ادعى عدم التفريق طبعا فانه كاذب مفتر، واذا كان لابد من الفرق فالفرق الشرعى الايمانى الذى بعث الله به رسله أولى به من الفرق الطبعى الحيوانى الذى شاركه فيه سائر البهائم وأبطل من هذا الجمع الجمع فى الوجود وهو ان يرى الوجود كله واحدا لافرق فيه اصلا وانمـــا التفريق بالمادة والوهم فقط كما يقوله زنادقة القائلين بوحدة الوجود الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود احدهما وجود الآخر بل ليس عندهم فرق بين احدهما والآخر اذ ما ثم غير فهذا جمع فى الوجود وجمع أولئك جمع فى الشهود (فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ) فكانوا اصحاب الجمع فى الفرق ففرقوا بين ما فرق الله سنة باذنه وجمعوا

الأشياء كلها فى خلقه وامره وجمعوا اراداتهم ومحبتهم وشهودهم فيه فكانوا اصحاب جمع فى فرق وفرق فى جمع ، فهؤلاء خواص الخلق فنسأل الله العظيم من فضله وكرمه ان يجعلنا منهم فهؤلاء هم الذين لم يبق لهم مع الحق ارادة بل صارت ارادتهم تابعة لارادته فحصل الاتحاد فى المراد فقط لا فى الارادة ولا فى المريد ، فاصحاب الوحدة ظنوا الاتحاد فى المريد واصحاب الحلول توهموا الاتحاد فى الارادة (فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ) فعلموا ان المراد واحد فالاتحاد وقع فى المراد فقط لا فى الارادة ولا فى المريد .

وقوله : « فيعتقدون ان مادونه قاطع عنه » إنما يكون مادونه قاطعا عنه إذا وقف العبد معه وتعلقت ارادته به وانصرف طلبه اليه وأما إذا جعله وسيلة الى الله وطريقا يصل بها اليه لم يكن قاطعا ولا حجابا بل يكون حاجبا موصلا اليه ، وقوله تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) المراد بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته فان المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : من يشهد لك على ما تقول ؟ فانزل الله سبحانه ءايات شهادته له وشهادة ملائكته وشهادة علماء أهل الكتاب به فقال تعالى (١٣ : ٤٣ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) أى ومن عنده علم الكتاب يشهد لى وشهادته مقبولة لانها شهادة بعلم قال الله تعالى : (٤ : ١٦٥ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) وقال تعالى (٦ : ١٩ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ

الله شَهِيدٌ بيني وبينكم) فاخبر سبحانه فى هذه المواضع بشهادته لرسوله وكفى بشهادته اثباتاالصدقه وكفى به شهيدا.﴿فان قيل﴾: وماشهادته لرسوله؟ ﴿قيل﴾: هى ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة واعظمها وأدلها على ثبوت المشهود به فهذا وجه ،ووجه ءاخر انه صدقه بقوله وأقام الادلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه فاذا أخبر عنه انه شهد له قولا لزم ضرورة صدقه فى ذلك الخبر وصحت الشهادة له به قطعا، فهذا معنى الآية وكان أجنبيا عما استدل به المصنف .

ونظير هذا استشهادهم بقوله تعالى :(٦: ٩١ وعُلِّمْتُم مالَمْ تَعلَمُوا انتم ولاءاباؤكُم قُل اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم) حتى رتب على ذلك بعضهم ان الذكر بالاسم المفرد وهو الله الله أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله . سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ، وهذا فاسد مبنى على فاسد فان الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلا ولامفيد شيئا ولاهو كلام أصلا ولا يدل على مدح ولا تعظيم ولايتعلق به ايمان ولاثواب ولايدخل به الذاكر فى عقد الاسلام جملة فلو قال الكافر :الله الله من أول عمره الى ءاخره فلم يصر بذلك مسلما فضلا من أن يكون من جملة الذكر أو يكون أفضل الأذكار ، وبالغ بعضهم فى ذلك حتى قال . الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر، فالذكر بقوله . هو هو أفضل من الذكر بقولهم : الله الله ، وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية بأهلها الى أنواع من الضلالات فهذا فساد هذا البناء الهائر، وأما فساد المبنى عليه فانهم ظنوا ان قوله تعالى. (قُل اللهُ) أى قل هذا الاسم فقل الله الله، وهذا من عدم فهم القوم لكتاب

الله فان اسم الله هنا جواب لقوله: (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً) الى أن قال: (قُلِ اللهُ) أى قل: الله أنزله فان السؤل معاد فى الجواب فيتضمنه فيحذف اختصارا كما يقول: من خلق السموات والارض؟ فيقال. الله أى الله خلقهما فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه، فهذا معنى الآية الذى لا تحتمل غيره ٭

قوله : وانما زهدهم جمع الهمة عن تعريفات الكون لأن الحق حاقهم بنور الكشف عن التعلق بالاحوال، فيقال . الكشف الذى أوجب لهم هذا الجمع وقطع هذا التعلق هو الكشف الايمانى القرآنى فهو فى الحقيقة الكشف النافع الجاذب لصاحبه الى سلوك منازل الابرار والوصول الى مقامات القرب ولاسيما اذا قارنه الكشف عن عيوب النفس وعلى الاعمال فناهيك به من كشف، والكرامة المرتبة عليه هى لزوم الاستقامة ودوام العبودية فهذا أفضل كشف يعطاه العبد وهذه أفضل كرامة يكرم بها الولى رزقنا الله من فضله وبره ٭

وأما استشهاده بقوله تعالى . (إنا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبياءه ورسله من اختصاصهم بالآخرة وفيها قولان . أحدهما ان المعنى نزعنا من قلوبهم حب الدنيا . وذكرها . وايثارها والعمل لها ٭

﴿ والقول الثانى ﴾ انا أخلصناهم بأفضل مافى الدار الآخرة . واختصصناهم به عن العالمين ، قوله : وتوكلهم ورضاهم بتدبير الحق وتخلصهم من تدبيرهم وفراغ همهم من احتيالها فى اصلاح شؤونها بوقوفهم على فراغ المدبر منها ومرها على علمه بمصالحهم فيها ونفوسهم مطمئنة بذلك (ياأيتها النفس المطمئنة) الآية قد تقدم الكلام على التوكل

وبيان الله من مقامات العارفين وانه لاانفكاك للمؤمن منه وذكر العلة فيه ما هي . وقوله : وتوكلهم ورضاهم تدبير الحق الرضا بالتدبير ثمرة التوكل وموجبه لاأنه نفس التوكل فى المقدور يكشفه أمران التوكل قبل وقوعه . والرضا به بعد وقوعه ، ومن هنا قال بعضهم : حقيقة التوكل الرضا لأنه لما كان ثمرته وموجبه استدل به عليه استدلالا بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة ولهذا قال فى الحديث الذى رواه الامام أحمد . والنسائى . وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال فى دعائه : «اللهم انى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت» الحديث وقد تقدم ، فقال : وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأما التوكل فانما يكون قبله ، وقوله : وتخليصهم من تدبيرهم هذا مقام كثيرا مايشير اليه السالكون وهو ترك التدبير ، وينبغى أن لا يؤخذ على اطلاقه بل لا بد فيه من التفصيل فيقال : العبد دائر بين مأمور يفعله ومحظور يتركه وقد يجرى عليه بلا ارادة منه ولا كسب فوظيفته فى المأمور كمال التدبير والجد والتشمير وان يدبر الحيلة فى تنفيذه بكل ما يمكنه فترك التدبير هنا تعطيل للامر . بل يدبر فعله ناظرا الى تدبير الحق له وان تدبيره انما يتم بتدبير الله له فلا يكون هنا قدريا مجوسيا ناظرا الى فعله جاحدا لتدبير الله وتقديره ومعونته ولا قدريا مجبرا ولا واقفا مع القدر جاحدا لفعله وتدبيره ومحل أمر الله ونهيه فان فعله الاختيارى هو محل الامر والنهى فمن جحد فعل نفسه فقد عطل الامر والنهى وجحد محلهما ، ووظيفته فى المحظور الفناء عن ارادته وفعله فاذ عارضته أسباب الفعل فالواجب عليه الجد فى الهرب

والتشمير فى الكف والمد وهذا تدبير للنهى ، وأما القدر الذى يصيبه بغير ارادته فهذا الذى يحسن فيه اسقاط التدبير جملة وصبره ورضاه بما قسم له من محبوب ومكروه فعلى هذا التفصيل ينبغى أن يوضع اسقاط التدبير، وجماع ذلك أنك تسقط التدبير فى حظك وتكون قائما بالتدبير فى حق ربك ، وهكذا ينبغى أن تفرغ الهمة من اجالتها فى اصلاح شأنك فان اصلاح شأنك بحصول حظوظك يحصل فيه فراغ الهمة وترك التدبير ، وأما اصلاح شأنك باداء حق الله فالواجب شغل الهمة واجالتها فى القيام به .

وقوله : بوقوفهم على فراغ المدبر منه ومرها على علمه بمصالحهم فيها فلا ريب أن الله سبحانه وتعالى قضى القضية وفرغ من تدبير أمور الخلائق ولكن قدرها بأسبابها المفضية اليها فلا يكون وقوف العبد على فراغه سبحانه وتعالى من أقضيته فى خلقه وتدبيره مانعا له من قيامه بالأسباب التى جعلها طرقا لحصول ما قضاه منها وكذلك يباشر العبد الأسباب التى بها حفظ حياته من الطعام والشراب واللباس والمسكن ولا يكون وقوفه مع فراغ المدبر منها مانعاله من تعاطيها ، وكذلك يباشر الأسباب الموجبة لبقاء النوع من النكاح والتسرى ولا يكون وقوفه مع فراغ الله من خلقه مانعا له، وهكذا جميع مصالح الدنيا والآخرة ، وإن كانت مفروغا منها قضاء وقدرا فهى منوطة باسبابها التى يتوقف حصولها عليها شرعا وخلقا .

وأما استدلاله بقوله تعالى : (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ) فالنفس المطمئنة هى التى اطمأنت إلى ربها وسكنت الى حبه واطمأنت بذكره وأيقنت بوعده ورضيت بقضائه وهى ضد النفس الامارة بالسوء فلم تكن طمأنينتها بمجرد اسقاط تدبيرها بل بالقيام بحقه والطمأنينة

يحبه ويذكره *

﴿ فصل ﴾ قال : وصبرهم صونهم قلوبهم عن خاطر السوء ان الله قضى قضاء عاريا عن الموافقة خارجا عن الخيرة قال الله تعالى : (وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا) قد تقدم الكلام فى الصبر وأقسامه وبيان مرتبته من الايمان وماذكره فى تفسيره ههنا غير مطابق لمعناه وهو تفسير بعيد جدا فان الصبر من أعمال القلوب وهو حبس النفس وكفها عن السخط ، وأما صون القلب عن اعتقاد مالا يليق بالله فلا يقال له صبر بل هذا من لوازم الايمان وهو كاعتقاد انه سبحانه وتعالى حكيم رحيم عليم سميع بصير إلى غير ذلك من صفات كماله فلا يقال : الصبر صون القلب عن اعتقاد أضدادها هذا بعيد جدا وتكلف زائد لتغير الصبر وهل فهم أحد قط هذا المعنى من قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا) وقوله تعالى : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) وقوله تعالى : (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) وقوله تعالى : (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) وسائر نصوص الصبر، ومن العجب جعل الصبر الذى هو نصف الايمان من منازل العوام وتفسيره بهذا التفسير نعم يجب على كل مسلم أن ينزه الله سبحانه وتعالى عن أن يقضى قضاء ينافى حكمته، وعدله وفضله وبره واحسانه بل كل أقضيته لاتخرج عن الحكمة والرحمة والعدل . والمصلحة، وإن كان كثير من المتكلمين ينازع هذا الأصل ويقول . الذى ينزه الله عنه من الأقضية هو المستحيل الممتنع ، وأما الممكن فلا يقبح منه شيء، وهؤلاء لا يمكن صون القلب عن خواطر السوء المتعلقة بما يقضيه الله عندهم الا صونها عن خواطر

الممتنعات والمستحيلات فقط ، وبالجملة هذا مقام ءاخر غير مقام الصبر بل هذا باب من أبواب المعرفة والعلم ، ولـكل مقام مقال *

وأما استشهاده بقوله تعالى : (وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا) فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء وليس من الابتلاء الذى هو الامتحان بالمكروه بل من أبلاه بلاء حسنا إذا أنعم عليه يقال. ابلاك الله ولا ابتلاك فابلاه بالخير وابتلاه بالمكاره غالبا ٭ فى الحديث « انى مبتليك ومبتل بك » *.

﴿ فصل ﴾ قال : وحزنهم يأسهم عن أنفسهم الامارة بالسوء (ان الانسان لربه لكنود) وقد تقدم أيضا الكلام على ماذكره فى الحزن ، وأما تفسيره إياه انه يأسهم عن أنفسهم الامارة بالسوء فليس بالبين فان الحزن هو الأسف على فوت محبوب أو حصول مكروه وان تعلق ذلك بالماضى كان حزنا وان تعلق بالمستقبل كان خوفا وهما؛وأما اليأس عن النفس الأمارة بالسوء فليس بحزن ، ويمكن أن يكون مراده أن حزنهم ينشأ عن النفس الامارة بالسوء لاعن المطمئنة فان المطمئنة لاتحزن وانما تحزن الأمارة لفوات محبوبها وليس هذا ٭ قال فان النفس المطمئنة تحزن على تقصيرها فى أداء الحق وعلى تضييعها الوقت وايثارها غير الله عليه فى الأحيان وهذا الحزن لابد منه إذ التقصير والتضييع لازم ، وأما استشهاده بقوله تعالى : (انَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) على ذلك فوجهه ان الكنود هو الكفور وهو الذى يذكر المصائب وينسى النعم ولاريب أن الحزن ينشأ عن هذين ولاريب أن الحزن الناشىء عن الكنود حزن ناشىء عن النفس الأمارة بالسوء ، وأما الحزن على تقصيره وتضييع وقته فليس من هذا ، وقد تقدم ذلك وذكر أقسام الحزن ومتعلقاته والله أعلم .

﴿ فصل ﴾ قال : وخوفهم هيبة الجلال لاخوف العذاب فان خوفهم مناضلة عن النفس وظن بها وهيبة الجلال تعظيم الحق ونسيان النفس (يخافون ربهم من فوقهم) وقال فى حق العوام :(يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) وقد تقدم أيضا الكلام على ماذكره فى الحديث وعلته ، وقوله : وهيبة الجلال لاخوف العذاب ، تقدم بيان بطلانه وان الله سبحانه أثنى على خاصة أوليائه من الملائكة والانبياء وغيرهم ممن عبدهم المشركون بانهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه . فكيف يقال . ان خوف العذاب نقص ومناضلة عن النفس هذا من الترهات والزعومات ، ودعاوى الانفس ، وقوله : ان الخوف مناضلة عن النفس فسبحان الله هل يقال لمن خاف الله وخاف عقوبته : انه مناضل ربه ولو كان مناضلة فهو مناضلة العدو والهوى والشهوة ، وهذه المناضلة من أعظم أنواع العبودية فان من خاف شيئا ناضل عنه فهو مناضلة عن العذاب وأسبابه وماثم الامناضلة والقاء باليد إلى التهلكة ولولا هذه المناضلة لحصل الاستسلام للعقوبة ، والمناضلة المحذورة المناضلة عن محبوبات الرب وأوامره وليس الضن بالنفس عن عذاب الله نقص بل الكمال والفوز والنعيم فى ضن العبد بنفسه عن أن يسلمها لعذاب الله ومن لم يضن بنفسه فليس فيه خير ألبتة ، والضن بالنفس إنما يذم إذا ضن بها عن بذلها فى محبوب الرب وأوامره وأما إذا ضن بها عن عذابه فهل يكون هذا علة وهل العلة كلها الافى عدم هذه المناضلة والضن ؟، قوله : وهيبة الجلالة تعظيم الحق ونسيان النفس قد تقدم الكلام فى الهيبة . والتعظيم وانهما غير الخوف والخشية ولا تستلزم هذه الهيبة أيضا نسيان النفس ولايكون شعور العبد بنفسه فى هذا المقام نقصا ولاعلة كما تقدم بل هو أكمل لاستلزامه البقاء الذى هو أقوى وأكمل

من الفناء، وأما قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِنْ فَوْقِهِمْ) فهو حجة عليه كما تقدم، ولا يصح تفسير الخوف هنا بالهيبة لوجهين ، أحدهما أنه خروج عن حقيقة اللفظ ووضعه الأصلي بلا موجب ، الثاني ان هذا وصف للملائكة وقد وصفهم سبحانه بخوفه وخشيته فالخوف فى هذه الآية والخشية فى قوله تعالى: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) فوصفهم بالخشية والاشفاق ووصفهم بخوف العذاب فى قوله تعالى: (يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) وهم خواص خلقه فاياك ورعونات النفس وحماقاتها وجهالاتها ولا تكن ممن لا يقدر الله حق قدره وقد قال النبي ﷺ: « ان الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » فاذا علم المقرب العارف ان الله لو عذبه لم يظلمه فمن أحق بالخوف منه ، قوله : وقال فى حق العوام (يخافون يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) هذا من الشطحات القبيحة الباطلة فان هذا صفة خواص عباده وعارفيهم وهم الذين قال فيهم: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) فهؤلاء خواص الخلق وهم أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم باحسان أفلا يستحي من جعل هذا الوصف للعوام؟ ولا ريب أن هذا مصدره اما جهل مفرط واما تقليد لقائل لا يدرى لازم قوله هذا ان أحسن الظن بقائله وأن كان مصدره غير ذلك فادهى وأمر ، ولولا ان هذه الكلمات ونحوها مهاو ومعاطب فى الطريق لكان الاعراض عنها إلى ماهو أهم منها

أولى والله المستعان .

﴿ فصل ﴾ قال : « ورجاؤهم ظمؤهم إلى الشراب الذى هم فيه غرق وبه سكرى الم ترالى ربك كيف مد الظل » وهذا ايضا من ذلك النمط، ورجاء الأنبياء والرسل فن دونهم انما هو طمعهم فى رحمته ومغفرته، وانظر الى دعوى هؤلاء والى قول امام الحنفاء خلفاء الرحمن : (والذى أطمع ان يغفرلى خطيئتى يوم الدين) كيف علق رجاءه وطمعه بمغفرة الله له قال تعالى عن خاصة خلقه وأعلمهم به انهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ومن العجب استدلاله بقوله تعالى (الم تر الى ربك كيف مد الظل) فالهذه الآية ومالرجاء ولاسيما ماذكره المصنف فى تفسيره رجاء القوم والاستشهاد بهذا من جنس الالغاز ، ومعنى الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه وعجائب مخلوقاته الدالة عليه ، والمعنى انظر كيف بسط ربك الظل والظل ماقبل الزوال والفيىء بعده فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس فانه يكون مديدا أطول مايكون وجعل الشمس دليلا عليه فانها هى التى تظهره وتبينه ثم كلما ارتفعت الشمس شيأ انقبض من الظل جزء فلا يزال ينقص يسيرا حتى ينتهى الى غايته فاذا أخذت الشمس فى الجانب الغربى انبسط بعد انقباضه شيئا فشيئا حتى يصير كهيئته عند طلوعها، ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل فى قصره فاذا أخذ فى الزيادة بعد تناهى قصره فقد تحقق الزوال ولو شاء الله لجعله ساكنا دائما على حالة واحدة فلا يتحرك بالزيادة والنقصان ، فالظل أحد الادلة الدالة على الخالق سبحانه وأما دلالة هذه الاية على الرجاء فيحتاج الى اشارة وتكلف غير مقصود بها وءايات الرجاء فى القرءان أكثر وأظهر وأصرح فى المقصود ظاهرة واستنباطا فالظاهرة كقوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ) وقوله تعالى

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ) وقوله (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ) والمستنبطة كآيات البشارة كلها كقوله (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) *

﴿ فصل ﴾ قال : وشكرهم وسرورهم بوجودهم واستبشارهم بلقائه (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) وهذا أيضا من النمط المتقدم وشكر القوم هو عملهم بطاعة الله واستعانتهم بنعمه على محابه قال تعالى : (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) وقال النبى ﷺ لما قيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» (١) فسمى الأعمال شكرا وأخبر أن شكره قيامه بها ومحافظته عليها ، فحقيقة الشكر هو الثناء على النعم ومحبته والعمل بطاعته كما قال :

أفادتكم النعماء عندى ثلاثة … يدى ولسانى والضمير المحجبا

فاليد للطاعة واللسان للثناء والضمير للحب والتعظيم وأما السرور به وإن كان من أجل المقامات فان العبد إنما يسر بمن هو أحب الأشياء إليه وعلى قدر حبه له يكون سروره وهذا السرور ثمرة الشكر لا أنه نفس الشكر فكذلك الاستبشار والفرح بلقائه إنما هو ثمرة الشكر وموجبه وهو كالرضا من التوكل وكالشوق من المحبة وكالأنس من الذكر وكالخشية من العلم وكالطمأنينة من اليقين فانها ثمرات لها وآثار وموجبات فعلى قدر شكره لله بالأعمال الظاهرة والباطنة وتصحيح العبودية يكون

(١) رواه البخارى وغيره عن عائشة رضى الله عنها .

سروره واستبشاره بلقائه، وأما قوله سبحانه وتعالى : (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) فهذا إنمـــا قاله للشاكرين الذين يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون ثم وصفهم بعد ذلك بقيامهم بأعمال الشكر فقال : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ) فهؤلاء المستبشرون ببيعهم جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

﴿فصل﴾ قال. ومحبتهم فناؤهم فى محبة الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال وقد تقدم الكلام على هذا بما فيه كفاية وبينا أن البقاء فى المحبة أفضل وأكمل من الفناء فيها من وجوه متعددة وأن الفناء انما هو لضعف المحب عما حل ، وأما الأقوياء فهم مع شدة محبتهم فى مقام البقاء والتمييز . وأما استدلاله بقوله تعالى : (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) فالآية إنما سيقت فى الكلام على من يعبد غير الله ويشرك به ؛ قال تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض والباطل البحت ، وأما من عبد الله بأمره وكان فى مقام التمييز بين محابه ومساخطه مفرقا بينهما يحب هذا ويبغض هذا ناظرا بقلبه الى ربه عاكفا بهمته عليه منفذا لأوامره فهو مع الحق المحض والله أعلم .

﴿ فصل ﴾ قال : وشوقهم هزمهم من رسمهم وسماتهم استعجالا للوصول الى غاية المنا (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) قد تقدم الكلام فى الشوق مستوفى ، وليس الهرب من الغير والضد هو الشوق بل هنا مهروب منه ومهروب اليه فالشوق هو سفر القلب نحو المحبوب وهذا لايتم الا بالهرب من ضده فليس الشوق هو نفس الهرب من الرسوم والسمات .

﴿ فصل ﴾ قال . والارادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشكر والمحبة والشوق من منازل أهل الشرع السائرين الى عين الحقيقة فاذا شاهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال الشاهدين حتى يفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل ﴿ قلت ﴾ الحقائق التى اشار اليها على لسان أهل السلوك ثلاثة حقيقة، إيمانية نبوية وهى حقيقة العبودية التى هى كمال الحب وكمال الذل وسير أهل الاستقامة إنما هو الى هذه الحقيقة ومنازل السير التى ينزلون فيها هى منازل الايمان الموصلة اليها والمنحرفون لايرضون بهذه الحقيقة ولايقفون معها ويرونها منزلة من منازل العامة .

﴿ الحقيقة الثانية ﴾ حقيقة كونية قدرية يشاهدون فيها انفراد الرب سبحانه بالتكوين والايجاد وحده وان العالم كالميت يقلبه ويصرفه كيف يشاء وهم يعظمون هذا المشهد ويرون الفناء فيه غاية مابعدها شىء وهذا من أغلاطهم فى المعرفة والسلوك، فان هذا المشهد لايدخل صاحبه فى الايمان فضلا عن أن يكون أفضل مشاهد أولياء الله المقربين فان عباد الاصنام شهدوا هذا المشهد ولم ينفعهم وحده قال تعالى: (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ

السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم. سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) وهذا كثير فى القرءان فالفناء فى هذا المشهد لايدخل العبد فى دائرة الاسلام فكيف يجعل هو الحقيقة التى ينتهى اليها سير السالكين ويجعل حقيقة الايمان ودعوة الرسل منزلة من المنازل العامة وهل هذا الاغاية الانحراف والبعد عن الصراط المستقيم وقلب للحقائق ، وكم قد هلك فى هذه الحقيقة من أمم لايحصيهم الا الله وكم عطل لاجلها الواقفون معها من الشرائع وخربوا من المنازل ومانجا من معاطبها الا من شملته العناية الربانية ونفذ تبصر من هذه الحقيقة الى الحقيقة الايمانية النبوية حقيقة رسل الله وأنبيائه وأتباعهم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء *

والحقيقة الثالثة حقيقة اتحادية بل وحدية لايفرق فيها بين الرب والعبد ولا بين القديم والمحدث ولا بين صانع ومصنوع بل الأمر كله واحد والأمر المخلوق هو عين الأمر الخالق ، وهذه الحقيقة التى يشير الى عينها طائفة الاتحادية ويعدون من لم يكن من أهلها محجوبا ، وهذه حقيقة كفرية اتحادية وهى مع ذلك خيال فاسد ، وعقل منكوس وذوق من عين مفتتنة وكفر أهلها أعظم من كفر كل أمة فانهم جحدوا الصانع حقا وان أثبتوه جعلوا وجوده وجود كل موجود ، والذين أثبتوا الصانع وعدلوا به غيره وسووا بينه وبين غيره فى العبادة مقالتهم خير من مقالة هؤلاء الذين جعلوه وجود كل موجود وعين كل شيء تعالى الله عما يقول

الكاذبون المفترون علوا كبيرا ، فعليك بالفرق بين السائرين الى هـــذه الحقيقة والسائرين الى عين الحقيقة الكونية الحكمية والسائرين الى عين الحقيقة المحمدية الابراهيمية الحنيفية التى هى حقيقة جميع الأنبياء والمرسلين وفيها تفاوتت مراتب السالكين ومنازلهم من القرب من رب العالمين .

قال شيخ هذه الحقيقة [ابراهيم عليه السلام] لما تحقق فناء تلك الرسوم وأفولها: (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وهذا التوجه يتضمن محبته دون غيره وعبادته وطاعته دون غيره فهذه هى الحقية حقا وماسواها باطل حقيقة قال تعالى لاكرم خلقه عليه . (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) فامره تعالى ان يقتدى بابيه ابراهيم فى هذه الحقيقة ، وكان ﷺ يعلم اصحابه اذا اصبحوا واذا امسوا ان يقولوا اصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة ابينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين (١). فنسأل الله العظيم ان يهب لنا هذه الحقيقة ويثبتنا عليها ويعيذنا مما سواها انه قريب مجيب بمنه وكرمه والله اعلم .

﴿ فصل فى مراتب المكلفين فى الدار الآخرة وطبقاتهم فيها ﴾
وهم ثمان عشرة طبقة

﴿الطبقة الأولى﴾ وهى العليا على الاطلاق مرتبة الرسالة فاكرم الخلق على الله وأخصهم بالزلفى لديه رسله وهم المصطفون من عباده الذين سلم

---

(١) رواه الامام احمد والطبرانى فى الكبير عن عبد الرحمن بن أبزى قال الهيثمى: رجالهما رجال الصحيح . وأخرجه ابن السنى بسند صححه النووى. والحنيف الثابت على طريق الاسلام القويم الذى لا يميل الى الغلو ولا إلى التفريط

عليهم فى العالمين كما قال تعالى : (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى : (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ) وقال تعالى . (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ - سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ) وقال تعالى (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) وكلمة السلام هنا تحتمل أن تكون داخلة فى حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية وهى الحمد لله ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا ، وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ويكون محلها النصب محكية بالقول ، ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب ، وعلى هذا فلا محل لها من الاعراب ، وهذا التقدير أرجح وعليه يكون السلام من الله عليهم وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه وتعالى على رسله ﷺ ، وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم ، ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما ؟ فلا يحسن أن يقال : قم وذهب زيد ولا أخرج وقعد عمرو ، أو يجاب عن هذا بان جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه ، وهذا نظير قوله تعالى : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) فقوله تعالى : (وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ) ليس معطوفا على القول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة الكبرى على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى : (قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) وقوله تعالى :

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) *

والمقصود انه على هذا القول يكون الله سبحانه وتعالى قد سلم على المصطفين من عباده والرسل افضلهم وقد أخبر سبحانه وتعالى انه اخلصهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، ويكفى فى فضلهم وشرفهم ان الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه وجعلهم امناء على رسالته وواسطة بينه وبين عباده وخصهم بأنواع كراماته فنهم من اتخذه خليلا . ومنهم من كلمه تكليما . ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ولم يجعل لعباده وصولا اليه الا من طريقهم ولا دخولا الى جنته الا خلفهم ولم يكرم أحدا منهم بكرامة الا على ايديهم ، فهم اقرب الخلق اليه وسيلة وارفعهم عنده درجة واحبهم اليه واكرمهم عليه *

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة انما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع وبهم حصلت محابه تعالى فى الارض ، وأعلاهم منزلة أولوا العزم منهم المذكورون فى قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها الى خاتمهم وأفضلهم *

﴿ الطبقة الثانية ﴾ من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم على بعض *

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ الذين لم يرسلوا الى أممهم وانما كانت لهم النبوة دون الرسالة فاختصوا عن الامـــة بايحاء الله اليهم وارساله ملائكته اليهم واختصت الرسل عنهم بارسالهم الى الامة يدعونهم الى الله بشريعته وأمره واشتركوا فى الوحى ونزول الملائكة عليهم *

﴿ الطبقة الرابعة ﴾ ورثة الرسل . وخلفاؤهم فى أممهم وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة للخلق الى الله على طريقهم ومنهاجهم ، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهى مرتبة الصديقية ، ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالانبياء فقال تعالى:(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون فى العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته فهم خلفاؤه . وأولياؤه . وحزبه . وخاصته . وحملة دينه وهم المضمون لهم أنهم لايزالون على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، وقال الله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

﴿ وقيل ﴾ : أن الوقف على قوله تعالى : (هُمُ الصِّدِّيقُونَ) ثم يبتدىء (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام جملتين أخبر فى احداهما عن المؤمنين بالله ورسله انهم هم الصديقون والايمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه ، وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليه فى الآيتين هنا . وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء فى كلام النبى ﷺ فى قوله . « اثبت أحد فانما عليك نبى وصديق وشهيد » ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لأفضل الخلق بعد الأنبياء . والمرسلين أبو بكر الصديق ولو كان بعد النبوة درجة افضل من

الصديقية لكانت نعتا له رضى الله عنه ، وقيل : أن الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين بانهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم ، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة وهو قوله تعالى :(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وهم المؤمنون فوصفهم بانهم صديقون فى الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة ويكون الشهداء وصفا لجملة المؤمنين الصديقين ، وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ويكون قوله:(والشهداء) مبتدأ خبره مابعده لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً فى سبيل الله، ويرجحه أيضا أنه لو كان الشهداء داخلا فى جملة الخبر لكان قوله تعالى:(لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) داخلا أيضا فى جملة الخبر عنهم ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء ، أحدها أنهم هم الصديقون ، والثانى انهم هم الشهداء ، والثالث أن لهم أجرهم ونورهم وذلك يتضمن عطف الخبر الثانى على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداعن العطف وهذا كما تقول: زيد كريم وعالم له مال ، والأحسن فى هذا تناسب الأخبار بان تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً فتقول . زيد كريم عالم له مال أو كريم وعالم وله مال فتأمله *

ويرجحه أيضا أن الكلام يصير جملا مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء وهم الصديقون . والشهداء . والصالحون وهم المذكورون فى الآية وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضا حسنا ، فهؤلاء ثلاثة أصناف ثم ذكر الرسل فى قوله تعالى .(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة فى سورة النساء ، فهؤلاء هم السعداء،

ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان كفار ومنافقون فقال تعالى . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) وذكر المنافقون فى قوله تعالى . (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)

فهؤلاء أصناف العالم كلهم وترك سبحانه وتعالى ذكر المخلط صاحب الشائبتين على طريق القرءان فى ذكر السعداء . والأشقياء دون المخاطين غالبا لسر اقتضته حكمته فليحذر صاحب التخليط فانه لاضمان له على الله ولا هو من أهل وعده المطاق ولا ييأس من روح الله فانه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب ولكنه بين الجنة والنار واقف بين الوعد والوعيد كل منهما يدعوه الى موجبه لأنه أتى بسببه، وهذا هو الذى لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ولكن غلطوا فى تخليده فى النار ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين ووكلوه الى المشيئة وقالوا بانه يخرج من النار بتوحيده وايمانه لاصابوا ولكن منزلة بين منزلتين وصاحبهما مخلد فى النار مما لا يقتضيه عقل ولا سمع بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم والله أعلم *

وأيضا فصاحب الشائبتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والوعيد فان الله سبحانه وتعالى رتب على كل عمل جزاء فى الخير والشر فاذا أتى العبد بهما كان فيه سبب الجزاءين والله لايضيع مثقال ذرة فان كان عمل الشر مما يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير وان لم يسقطه كالمعصية ترتب فى حقه الاثران مالم يسقط أحدهما بسبب من الاسباب التى نذكرها إن شاء الله فيما بعد *

والمقصود أن درجة الصديقية . والربانية ، ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هى أفضل درجات الأمة ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل

من علم بتعليمهم وارشادهم أو علم غيره شيئا من ذلك كان لهم مثل أجره مادام ذلك جاريا فى الأمة على آباد الدهور ، وقدصح عن النبى ﷺ أنه قال لعلى بن أبى طالب: « والله لان يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم (١) » وصح عنه ﷺ أنه قال : « من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لاينقص من أجورهم شيئا (٢) » وصح عنه ﷺ أيضا أنه قال « إذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية . أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له (٣) » وصح عنه ﷺ أنه قال . « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » (٤) وفى السنن عنه ﷺ أنه قال « ان العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى النملة فى جحرها » وعنه ﷺ أنه قال . « ان الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير » وعنه ﷺ أنه قال « ان العلماء ورثة الأنبياء وان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وانما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر » وعنه ﷺ « العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ولا خير فى سائر الناس بعد »

---

(١) رواه أبو داود عن سهل بن سعد الساعدى ، والنعم - بفتح النون والعين المهملة - الابل وخص حمرها لأنها كرامها (٢) هو قطعة من حديث طويل رواه مسلم . والنسائى . وابن ماجه . والترمذى باختصار (٣) رواه البخارى فى الادب المفرد . ومسلم فى صحيحه ، وورد فى أحاديث أخر زيادة على الثلاثة وتتبعها بعضهم فبلغت احد عشر ونظمها فى قوله .

اذا مات ابن آدم ليس يجرى عليه من فعال غير عشر
علوم بثها ودعاء نجل وغرس النخل والصدقات تجرى
وراثة مصحف ورباط ثغر وحفر البئر أو اجراء نهر
وبيت الغريب بناه يأوى اليه أو بناه محل ذكر
وتعليم لقرآن كريم فخذها من أحاديث بحصر

(٤) رواه ابو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود

وعنه ﷺ أنه قال . «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها» .

والأحاديث في هذا كثيرة وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد ، فيالها من مرتبة ما أعلاها ومنقبة ما أجلها وأسناها أن يكون المرء في حياته مشغولا ببعض أشغاله أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالا متفرقة وصحف حسناته متزايدة يملى فيها الحسنات كل وقت وأعمال الخير مهداة اليه من حيث لا يحتسب تلك والله المكارم والغنائم وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وعليه يحسد الحاسدون وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وحقيق بمرتبة هذا شأنها ان تنفق نفائس الأنفاس عليها ويسبق السابقون اليها وتوفر عليها الأوقات وتتوجه نحوها الطلبات . فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه .

وأصحاب هذه المرتبة يدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء ؛ وهؤلاء هم العدول حقا بتعديل رسول الله ﷺ لهم اذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضا . «يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه طريق الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» وما أحسن ما قال فيهم الامام أحمد في خطبة كتابه في الرد على الجهمية : الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ومن ضال جاهل قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب .

(الطبقة الخامسة) أئمة العدل وولاته الذين تؤمن بهم السبل ويستقيم بهم العالم ويستنصر بهم الضعيف ويذل بهم الظالم ويأمن بهم الخائف ويقام بهم الحدود ويدفع بهم الفساد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقام بهم حكم الكتاب والسنة وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة فيكونون عليها والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس وقد بلغ منهم العرق مبلغه وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيل أحدهم اما الى الجنة واما الى النار قال النبى ﷺ: «المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» وعنه ﷺ «ان أحب الخلق الى الله وأقربهم منزلة يوم القيامة امام عادل وان ابغض الخلق الى الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة امام جائر» أو كما قال وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله كما كان الناس فى ظل عدلهم فى الدنيا كانوا فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة ظلا بظله جزاء وفاقا، ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم إلا أن أهل السموات والأرض والطير فى الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم وولاة الظلم يلعنهم من بين السموات والارض حتى الدواب والطير كما أن معلم الناس الخير يصلى عليه الله وملائكته وكاتم العلم والهدى الذى أنزله الله وحامل أهله على كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون، فيالها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها أن يكون الوالى والامام على فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات فى صحائفه فهى متزايدة مادام يعمل بعدله ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره، فاين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم قد حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار

ويكفى فى فضله وشرفه أنه يكف عن الله دعوة المظلوم كما فى الآثار أيها الملك المسلط المغرور انى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لتكف عنى دعوة المظلوم انى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض فانى لاأحجبها ولو كانت من كافر فاين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه ؟

﴿ الطبقة السادسة ﴾ المجاهدون فى سبيل الله وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم منصة الاسلام ويحمى بهم حوزة الدين وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا قد بذلوا أنفسهم فى محبة الله ونصر دينه واعلاء كلمته . ودفع أعدائه . وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم فى أعمالهم التى يعملونها وان باتوا فى ديارهم ولهم مثل اجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فانهم كانوا هم السبب فيه ، والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام فى الاجر والوزر ، ولهذا كان الداعى الى الهدى ، والداعى الى الضلال لكل منهما بتسبيه مثل أجر من تبعه . وقد تظاهرت ءايات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب فى الجهاد والحض عليه ومدح أهله والاخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات ويكفى فى ذلك قوله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) فتشوقت النفوس الى هذه التجارة الرابحة التى الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال : (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال . (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يعنى ان الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة فكأنها قالت فالناف الجهاد

من الحظ فقال (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) ومع المغفرة (يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) فكأنها قالت : هــذا فى الآخرة فما لنا فى الدنيــا ؟ فقال : (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) فلله ما أحلى هذه الالفاظ وما ألصقها بالقلوب وما أعظمها جذبا لها وتسييرا الى ربها وما ألطف موقعها من قلب كل محب وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين يباشره معانيها فنسأل الله من فضله انه جواد كريم .

ومن هذا قوله تعالى (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

فاخبر سبحانه وتعالى انه لا يستوى عنده عمار المسجد الحرام وهم عماره بالاعتكاف . والطواف . والصلاة هذه هى عمارة مساجده المذكورة فى القرآن واهل سقاية الحاج لا يستوون هم وأهل الجهاد فى سبيل الله ؛ وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وانهم هم الفائزون . وإنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله تعالى :

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) فهؤلاء هم عمار المساجد، ومع هذا فاهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم، وقال تعالى. (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا) فنفى سبحانه وتعالى التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات *

وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات ان كانوا هم والقاعدون الذين فضل عليهم أولى الضرر المجاهدون بدرجات هم غير أولى الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا، وعلى هذا فاوجه استثناء أولى الضرر من القاعدين وهم لا يستوون والمجاهدون أصلا فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحداً فهذا وجه الاشكال *

ونحن نذكر مايزيل الاشكال بحمد الله، فاختلف القراء فى اعراب (غير) فقرىء رفعا ونصبا وهما فى السبعة وقرىء بالجر فى غير السبعة وهى قراءة أبى حيوة فاما قراءة النصب فعلى الاستثناء لأن غيرا يعرب فى الاستثناء اعراب الاسم الواقع بعد الا وهو النصب هذا هو الصحيح *

وقالت طائفة : إعرابها نصب على الحال أى لا يستوى القاعدون غير مضرورين أى لا يستوون فى حال صحتهم هم والمجاهدون . والاستثناء أصح فان غير لا تـكاد تقع حالا فى كلامهم الا مضافة إلى نكرة كقوله تعالى . (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ) وقوله عز وجل: (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ) وقوله ﷺ . « مَرْحَبًا بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى » فان أضيفت الى معرفة كانت تابعة لما قبلها كقوله تعالى . (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) ولو قلت . مرحبا بالوفد غير الخزايا ولا الندامى لجررت غيرا، هذا هو المعروف من كلامهم، والكلام فى عدم تعرف غير بالاضافة وحسن وقوعها إذ ذاك حالا له مقام آخر ، وأما الرفع فعلى النعت للقاعدين هذا هو الصحيح، وقال أبو اسحاق . وغيره : هو خبر مبتدأ محذوف تقديره الذين هم غير أولى الضرر ، والذى حمله على هذا ظنه ان غيراً لا يقبل التعريف بالاضافة فلا تجرى صفة للمعرفة وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها سوى أن غيرا توغلت فى الابهام فلا تتعرف بما يضاف اليه، وجواب هذا انها اذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها ابهام لتعينها ما تضاف اليه ، وأما قراءة الجر ففيها وجهان أيضا .

أحدهما . وهو الصحيح أنه نعت للمؤمنين .

والثانى ـ وهو قول المبرد . انه بدل منه بناء على انه نكرة فلا ينعت به المعرفة ، وعلى الأقوال كلها فهو مفهم معنى الاستثناء وأن نفى التسوية غير مسلط على ما أضيف اليه غيره، وقوله (وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)هو مبين لمعنى نفى المساواة قالوا : والمعنى فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة لامتيازه عنه بالجهاد بنفسه وماله ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الفريقين كليهما موعود بالحسنى فقال (وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى) اى المجاهد والقاعد المضرور لاشتراكهم فى الايمان قالوا: وفى هذا دليل على تفضيل الغنى المنفق على الفقير لأن الله أخبر ان المجاهد بماله ونفسه افضل من القاعد وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، واما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله : (ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم قلت لَاأَجِدُ مَاأَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ) فاين مقام من حكم له بالتفضيل الى مقام من نفى عنه الحرج ، قالوا : فهذاحكم القاعد من أولى الضرر . والمجاهد ، واما القاعد من غير أولى الضرر فقال تعالى:(وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ اجراً عظيماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) وقوله:(درجات) قيل هو نصب على البدل من قوله : (أجرا عظيما) ، وقيل : تأكيد له وان كان بغير لفظه لانه هو فى المعنى قال قتادة : كان يقال : الاسلام درجة والهجرة فى الاسلام درجة والجهاد فى الهجرة درجة والقتل فى الجهاد درجة ، وقال ابن زيد: الدرجات التى فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع وهى التى ذكرها الله تعالى فى براءة اذ يقول تعالى:(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَايَطَأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَايَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا الاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ انَّ اللهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)فهذه خمس ثم قال : (وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا الاَّ كُتِبَ لَهُمْ)

به عمل صالح فهاتان اثنتان . وقيل : الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة، والصحيح أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُخْبِرُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » .

قالوا : وجعل سبحانه وتعالى التفضيل الأول بدرجة فقط وجعله ههنا بدرجات ومغفرة ورحمة ، وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولى الضرر فهذا تقرير هذا القول وايضاحه .

ولكن بقي أن يقال : إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا لزم أن لا يستوى مجاهد وقاعد مطلقا فلا يبقى في تقييد القاعدين بكونهم من غير اولى الضرر فائدة فانه لا يستوى المجاهدون والقاعدون من أولى الضرر أيضا .

وأيضا فان القاعدين المذكورين في الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر ، لا القاعدون الذين هم اولو الضرر . فانهم لم يذكر حكمهم في الآية ، بل استثناهم وبين أن التفضيل على غيرهم، فاللام « في القاعدين » للعهد ، والمعهود : هم غير أولى الضرر ولا المضرورون .

وايضا فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل اجر المجاهد كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا (١) » وقال ﷺ : « أَنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَاسِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا الَّا وَهُمْ مَعَكُمْ قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ؟ قَالَ : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » (٢)

وعلى هذا فالصواب أن يقال :الآية دلت على أن القاعدين من غير أولى الضرر عن الجهاد لايستوون هم والمجاهدون وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين بل هذا النوع منقسم الى معذور من أهل الجهاد غلبه عذره ، وأقعده عنه ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها وإنما أقعده العجز فهذا الذى تقتضيه أدلة الشرع ان له مثل أجر المجاهد ، وهذا القسم لايتناوله الحكم بنفى التسوية ، وهذا لأن قاعدة الشريعة ان العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه فى الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام كما دل عليه قول ﷺ : « إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِى النَّارِ . قَالُوا : هَذَا الْقَاتِلُ ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : انهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » (٣) وفى الترمذى ، ومسند الامام أحمد من حديث أبى كبشة

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه

(٢) رواه أحمد والبخارى . ومسلم من حديث أنس بن مالك *

(٣) رواه احمد والبخارى . ومسلم . وابوداود ،والنسائى عن ابى بكرة *

الأنماري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالاً وعلماً. فهو يتقي في ماله ربه ويصل به رحمه، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً. فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو لا يتقي في ماله ربه. ولا يصل به رحمه. ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأسوأ المنازل عند الله. وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان. فهو بنيته. وهما في الوزر سواء» فأخبر ﷺ أن وزر الفاعل والناوي الذي ليس مقدوره إلا بقوله دون فعله سواء لأنه أتى بالنية ومقدوره التام. وكذلك أجر الفاعل والناوي الذي اقترن قوله بنيته. وكذلك المقتول الذي اقترن قوله بنيته. وكذلك المقتول الذي سل السيف وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل نزل منزلة القاتل لنيته التامة التي اقترن بها مقدورها من السعي والحركة. ومثل هذا قوله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» فانه بدلالته ونيته نزل منزلة الفاعل. ومثله من دعا إلى هدى فله مثل اجور من اتبعه» ومن دعى الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل آثام من اتبعه لأجل نيته واقتران مقدورها بها من الدعوة، ومثله إذا جاء المصلي إلى المسجد ليصلي جماعة فادركهم، وقد صلوا فصلى وحده كتب له مثل اجر صلاة الجماعة بنيته وسعيه(١) كما قد جاء مصرحا به في حديث مروى» ومثل هذا من كان له ورد يصليه من الليل فنام ومن نيته ان يقوم اليه

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم من حديث أبي هريرة.

فغلبت عينه نوم كتب له اجر ورده ، وكان نومه عليه صدقة ، ومثله المريض . والمسافر اذا كان له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر كتب له مثل عمله ، وهو صحيح مقيم ،ومثله من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله سبحانه وتعالى منازل الشهداء لو مات على فراشه(١) ، ونظائر ذلك كثيرة والقسم الثانى معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزما تاما فهذا لا يستوى هو والمجاهد فى سبيل الله بل قد فضل الله المجاهدين عليه وان كان معذوراً لانه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية اصحاب القسم الأول ، وقد قال النبى ﷺ فى حديث عثمان بن مظعون : «وانَّ اللهَ قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَهُ عَلَى قَدْرِ نيته» فلما كان القسم المعذور فيه هذا التفصيل لم يجز أن يساوى بالمجاهد مطلقاً ولا ينفى عنه المساواة مطلقا ، ودلالة المفهوم لا عموم لها . فان العموم انما هو من احكام الصيغ العامة وعوارض الألفاظ. والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على ان له عموما يجب اعتباره فان ادلة المفهوم ترجع الى شيئين *

احدهما : التخصيص والآخر التعليل، اما التخصيص فهو ان تخصيص الحكم بالمذكور يقتضى نفى الحكم عما عداه والا بطلت فائدة التخصيص وهذا لا يقتضى العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم لان فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم الى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفصيل فيه فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه . اما بشرط لا تجب مراعاته فى المنطوق ، واما في وقت دون وقت بخلاف حكم المنطوق فانه ثابت ابداً ونحو ذلك من فوائد التخصيص *

واذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة فاثباته مجرد التحكم ، واما التعليل

---

١ رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف

فانهم قالوا : ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضى نفى الحكم عما عداه والا لم يكن الوصف المذكور علة وهذا ايضا لا يستلزم عموم النفى عن كل ماعداه وانما غايته اقتضاؤه نفى الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفى عنها الوصف ، واما نفى الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف ءاخر وعلة أخرى فان الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة وفى الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه ومثال هذا ما نحن فيه لأن قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ) لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقا مَن حيث الضرورة بل ان ثبتت المساواة فانها معللة بوصف ءاخر وهى النية الجازمة والعزم التام والضرر المانع من الجهاد فى ذلك الحال لا يكون مانعا من المساواة فى الأجر ، والله اعلم .

والمقصود الكلام على طبقات الناس فى الآخرة . وأما النصوص والأدلة الدالة على فضل الجهاد وأهله فأكثر من أن تذكر هنا ولعلها أن تفرد فى كتاب على هذا النمط إن شاء الله ، فهذه الدرجات الثلاث هى درجات السبق أعنى درجة العلم والعدل والجهاد وبها سبق الصحابة وأدركوا من قبلهم وفاتوا من بعدهم واستولوا على الأمد البعيد وحازوا قصبات العلى وهم كانوا السبب فى وصول الاسلام الينا وفى تعليم كل خير وهدى وسبب ينال به السعادة والنجاة وهم أعدل الأمة فيما ولوه وأعظمها جهادا فى سبيل الله والأمة فى ءاثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة فلا ينال أحد منهم مسألة علم نافع الا على أيديهم ومن طريقهم ينالها ولا يسكن بقعة من الأرض آمنا الا بسبب جهادهم وفتوحهم ولا يحكم امام ولا حكم بعدل وهدى الا كانوا هم السبب فى وصولهم اليه فهم الذين

فتحوا البلاد بالسيف والقلوب بالايمان وعمروا البلاد بالعدل والقلوب بالعلم والهدى فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة الى يوم القيامة مضافا الى أجر أعمالهم التى اختصوا بها فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء. وانما نالوا هذا بالعلم والجهاد والحكم بالعدل، وهذه مراتب السبق التى يهبها الله لمن يشاء من عباده .

﴿ الطبقة السابعة ﴾ أهل الايثار والصدقة والاحسان الى الناس بأموالهم على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم وكفايتهم فى مهماتهم وهم أحد الصنفين اللذين قال النبى ﷺ فيهم : «لَاحَسَدَ إِلَّا فى اثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِه فى الْحَقِّ» يعنى أنه لا ينبغى لأحد أن يغبط أحدا على نعمة ويتمنى مثلها الا أحد هذين وذلك لما فيهما من منافع النفع العام والاحسان المتعدى الى الخلق فهذا ينفعهم بعلمه وهذا ينفعهم بماله والخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله ولا ريب أن هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين ولا يعمر العالم إلا بهما ، قال تعالى : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وقال تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وقال تعالى : (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) وقال تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ

يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وقال تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب وهو أبلغ فى الطلب من صيغة الأمر، والمعنى هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافا مضاعفة وسمى ذلك الانفاق قرضا حسنا حثا للنفوس وبعثا لها على البذل لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود اليه ولا بد طوعت له نفسه بذله وسهل عليه اخراجه فان علم أن المستقرض ملى وفى محسن كان أبلغ فى طيب قلبه وسماحة نفسه فان علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف مابذله كان بالقرض أسمح وأسمح فان علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً اخر من غير جنس القرض فان ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فانه لايتخلف عن قرضه إلا لآفة فى نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه. ولهذا كانت الصدقة برهانا لصاحبها، وهذه الأمور كلها تحت هذه الالفاظ التى تضمنتها الاية فانه سماه قرضا وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة ولكن قرض احسان الى المقرض واستدعاء لمعاملته وليعرف مقدار الربح فهو الذى أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به ثم اخبر عما يرجع اليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الاجر الكريم، وحيث جاء هذا القرض فى القرءان قيده بكونه حسنا وذلك يجمع امورا ثلاثة : أحدها أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه . الثانى : أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

الثالث : أن لا يمن به ولا يؤذى . فالاول : يتعلق بالمال . والثانى يتعلق بالمنفق بينه وبين الله ، والثالث : بينه وبين الآخذ ، وقال تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الاضعاف التى يضاعفها للمقرض، ومثله سبحانه بهذا المثل احضارا لصورة التضعيف فى الاذهان بهذه الحبة التى غيبت فى الارض فانبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة حتى كأن القلب ينظر الى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين الى هذه السنابل التى من الحبة الواحدة فينضاف الشاهد العيانى الى الشاهد الايمانى القرءانى فيقوى ايمان المنفق وتسخو نفسه بالانفاق، وتأمل كيف جمع السنبلة فى هذه الآية على سنابل وهى من جموع الكثرة اذ المقام مقام تكثير وتضعيف وجمعها على سنبلات فى قوله تعالى: (وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) فجاء بها على جمع القلة لان السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير. وقوله تعالى: (وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ) قيل: المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق بل يختص برحمته من يشاء وذلك لتفاوت أحوال الانفاق فى نفسه لصفات المنفق وأحواله وفى شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع، وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمائة بل يجاوز فى المضاعفة هذا المقدار الى أضعاف كثيرة *

واختلف فى تقدير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون فى سبيل الله كمثل حبة، وقيل: مثل الذين ينفقون فى سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به، فههنا أربعة أمور منفق ونفقة وباذر وبذر فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه فذكر من شق الممثل المنفق إذ المقصود ذكر حاله وشأنه وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها، وذكر من شق الممثل به البذر

اذ هو المحل الذى حصلت فيه المضاعفة وترك ذكر الباذر لأن القرض لا يتعلق بذكره، فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والايجاز المتضمن لغاية البيان.

وهذا كثير فى أمثال القرآن بل عامتها ترد على هذا النمط، ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما الواسع العليم فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه فان المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضى حصولها لكل منفق فانه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها فان كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه. ثم قال تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) هذا بيان للقرض الحسن ماهو؟ وهو أن يكون فى سبيله أى فى مرضاته والطريق الموصلة اليه ومن انفعها سبيل الجهاد سبيل الله خاص وعام والخاص جزء من السبيل العام وان لا يتبع صدقته بمن ولا اذى، فالمن نوعان احدهما من بقلبه من غير ان يصرح له بلسانه وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه فى عطائه المال وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه فلله المنة عليه من كل وجه فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟ والنوع الثانى ان يمن عليه بلسانه فيعتدى على من احسن اليه باحسانه ويريه انه اصطنعه وانه اوجب عليه حقا وطوقه منة وعنقه فيقول: اما اعطيتك كذا وكذا ويعدد اياديه عنده. قال سفيان: يقول اعطيتك فما شكرت وقال عبد الرحمن ابن زياد: كان ابى يقول: اذا اعطيت رجلا شيئا ورايت ان سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه، وكانوا يقولون: اذا اصطنعتم صنيعة فانسوها

وإذا اسدى اليكم صنيعة فلا تنسوها،وفى ذلك قيل :

وإن امرأ اهدى الى صنيعة   وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل : صفوان من منح سائله ومن ، ومن منع نائله وضن،وحظر الله على عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لأن من العباد تكدير وتعيير ، ومن الله سبحانه وتعالى افضال وتذكير .

وايضا فانه هو المنعم فى نفس الأمر ، والعباد وسائط فهو المنعم على عبده فى الحقيقة ، وأيضا فالامتنان استعباد . وكسر . واذلال لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل إلا لله .

وأيضا فالمنة أن يشهد المعطى أنه هو رب الفضل ، والانعام ، وانه ولى النعمة ، ومسديها ، وليس ذلك فى الحقيقة إلا لله ، وأيضا فالمان بعطائه يشهد نفسه مترفعا على الآخذ مستعليا عليه غنيا عنه عزيزاً ، ويشهد ذل الآخذ وحاجته اليه وفاقته ولا ينبغى ذلك للعبد ، وأيضا فان المعطى قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ماأعطى فبقى عوض ماأعطى عند الله . فأى حق بقى له قبل الآخذ؟ فاذا امتن عليه فقد ظلمه ظلما بينا، وادعى أن حقه فى قبله .

ومن هنا والله أعلم بطلت صدقته بالمن فانه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله وعوض تلك الصدقة عنده فلم يرض به، ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمن عليه بما أعطاه بطل معاوضته مع الله ومعاملته له ، فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ودلالته على ربوبيته ، والهيته وحده ، وانه يبطل عمل من نازعه فى شىء من ربوبيته ، والهيته لا إله غيره، ولا رب سواه .

ونبه بقوله .(ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى) على أن المن والاذى ولو تراخى عن الصدَقة وطال زمنه ضر بصاحبه ، ولم يحصل له مقصود الانفاق ، ولو أتى بالواو ، وقال : ولا يتبعون ماأنفقوا منا ولا أذى.

لاوهمت تقييد ذلك بالحال ، واذا كان المن ، والأذى المتراخى مبطلا لأثر الانفاق مانعا من الثواب . فالمقارن أولى ، وأحرى ، وتأمل كيف جرد الخبرهنا عن الفاء فقال:(لهم أجرهم عند ربهم) وقرنه بالفاء فى قوله تعالى : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فان الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء وانه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أوالصفة ، فلما كان هنا يقتضى بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء فان المعنى ان الذى ينفق ماله لله ، ولا يمن ولا يؤذى هو الذى يستحق الأجر المذكور لاالذى ينفق لغير الله ، ويمن ويؤذى بنفقته فليس المقام مقام شرط وجزاء . بل مقام بيان للمستحق دون غيره

وفى الآية الأخرى ذكر الانفاق بالليل والنهار سراً . وعلانية . فذكر عموم الأوقات ، وعموم الأحوال فاتى بالفاء فى الخبر ليدل على أن الانفاق فى أى وقت وجد من ليل أو نهار وعلى أى حالة وجد من سر وعلانية . فانه سبب للجزاء على كل حال فليبادر اليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر الى النهار ولا نفقة النهار الى الليل ،ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ، ولا بنفقة السر وقت العلانية فان نفقته فى أى وقت وعلى أى حال وجدت سبب لاجره وثوابه فتدبر هذه الأسرار فى القرءان فلعلك لاتظفر بها تمر بك فى التفاسير والمنة والفضل لله وحده لاشريك له ثم قال تعالى: (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) فاخبر ان القول المعروف وهو الذى تعرفه القلوب ولا تنكره . والمغفرة وهى العفو عمن أساء اليك

خير من الصدقة بالأذى . فالقول المعروف احسان . وصدقة بالقول والمغفرة احسان بترك المؤاخذة والمقابلة فهما نوعان من أنواع الاحسان ، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها . ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة . ويدخل فى المغفرة مغفرته للسائل اذا وجد منه بعض الجفوة والأذى لك بسبب رده فيكون عفوه عنه خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه . هذا على المشهور من القولين فى الآية ، والقول الثانى : أن المغفرة من الله أى مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى ، وفيها قول ثالث أى مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى . وأوضح الأقوال هو الأول ويليه الثانى والثالث ضعيف جداً لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسؤل لا للسائل الآخذ . والمعنى ان قول المعروف له . والتجاوز والعفو خير لك من أن تصدق عليه وتؤذيه ، ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال : (وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) وفيه معنيان ،

أحدهما : ان الله غنى عنكم لن يناله شىء من صدقاتكم وانما الحظ الأوفر لكم فى الصدقة فنفعها عائد عليكم لا اليه سبحانه وتعالى فكيف يمن بنفقته ويؤذى مع غنى الله التام عنها وعن كل ماسواه ومع هذا فهو حليم إذ لم يعاجل المان بالعقوبة . وفى ضمن هذا الوعيد والتحذير ،

والمعنى الثانى : أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم ، والتجاوز ، والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة فكيف يؤذى أحدكم بمنه ، وأذاه مع قلة مايعطى ونزارته وفقره ، ثم قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) فضمنت هذه الآية الاخبار بان المن والأذى يحبط الصدقة ، وهذا دليل على ان الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) وقد تقدم الكلام على هذه المسألة فى أول هذه الرسالة فلاحاجة الى اعادته وقد يقال :إن المن والاذى المقارن للصدقة هو الذى يبطلها دون مايلحقها بعدها إلا أنه ليس فى اللفظ مايدل على هذا التقييد والسياق يدل على ابطالها به مطلقا، وقد يقال: تمثيله بالمرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المن والاذى المبطل هو المقارن كالرياء وعدم الايمان فان الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله ، ويجاب عن هذا بجوابين . أحدهما أن التشبيه وقع فى الحال التى يحبط بها العمل وهى حال المرائى والمان المؤذى فى أن كل واحد منهما يحبط العمل *

(الثانى) أن الرياء لا يكون إلا مقارنا للعمل لأنه فعال من الرؤيا التى صاحبه يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخيا وهذا بخلاف المن والأذى فانه يكون مقارنا ومتراخيا وتراخيه أكثر من مقارنته *

وقوله : «كالذى ينفق» اما أن يكون المعنى كابطال الذى ينفق فيكون قد شبه الابطال بالابطال أو المعنى لاتكونوا كالذى ينفق ماله رئاء الناس فيكون تشبيها للمنفق بالمنفق *

وقوله : (فمثله)أى مثل هذا المنفق الذى قد بطل ثواب نفقته كمثل صفوان وهو الحجر الأملس وفيه قولان . أحدهما أنه واحد والثانى :

جمع صفوة (عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ) وهو المطر الشديد فتركه صلدا أوهو الأملس الذى لاشىء عليه من نبات ولاغيره . وهذا من أبلغ الامثال وأحسنها فانه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائى الذى لم يصدر انفاقه عن ايمان بالله واليوم الآخر بالحجر ، لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به وتضمن تشبيه ماعلق به من أثر الصدقة بالغبار الذى علق بذلك الحجر والوابل الذى أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذى أبطل صدقته وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذى على الحجر فيتركه صلدا فلا يقدر المنفق على شىء من ثوابه لبطلانه وزواله . وفيه معنى اخر : وهو أن المنفق لغير الله هو فى الظاهر عامل عملا يرتب عليه الأجر ويزكو له كما تزكو الحبة التى اذا بذرت فى التراب الطيب أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ولكن وراء هذا الانفاق مانع يمنع من نموه وزكائه كما أن تحت التراب حجرا يمنع من نبات مايبذر من الحب فيه . فلا ينبت ولا يخرج شيئا *

ثم قال :(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) هذا مثل الذى مصدر نفقته عن الاخلاص والصدق . فان ابتغاء مرضاته سبحانه هو الاخلاص . والتثبيت من النفس هو الصدق فى البذل فان المنفق يعترضه عند انفاقه آفتان ان نجا منهما كان مثله ماذكره فى هذه الآية ، احداهما طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضا من اغراضه الدنيوية . وهذا حال أكثر المنفقين، والآفة الثانية ضعف نفسه وتقاعسها وترددها . هل يفعل أم لا؟ فالافة الاولى تزول بابتغاء مرضات الله والآفة الثانية تزول بالتثبيت فان تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والاقدام بها على البذل . وهذا هو صدقها وطلب مرضات الله

ارادة وجهه وحده وهذا إخلاصها فاذا كان مصدر الانفاق عن ذلك كان مثله كجنة ـ وهي البستان الكثير الاشجار ـ فهو يجتن بها أى مستتر ليس قاعا فارغا . والجنة بربوة وهو المكان المرتفع لأنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض . لانها اذا ارتفعت كانت بمدرجة الاهوية والرياح وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها. فكانت أنضج ثمرا وأطيبه وأحسنه وأكثره فان الثمار تزداد طيبا وزكاء بالرياح والشمس بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال، وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها الا من قلة الماء والشراب فقال تعالى : (أَصَابَهَا وَابِلٌ) وهو المطر الشديد العظيم القدر فادت ثمرتها وأعطت بركتها فاخرجت ثمرتها ضعفي مايثمر غيرها أو ضعفي ماكانت تثمر بسبب ذلك الوابل فهذا حال السابقين المقربين (فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) فهو دون الوابل . فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها تكتفي في اخراج بركتها بالطل ، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة ، وهم درجات عند الله فأصحاب الوابل أعلاهم درجة ، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وأصحاب الطل مقتصدوهم . فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالاضعاف فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضات الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة .

واختلف في الضعفين. فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائداً عليه ، وضعفه مثله وقيل : ضعفه مثلاه وضعفاه ثلاثة أمثاله ، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله كلما زاد ضعفا زاد مثلا ، والذى حمل هذا القائل على ذلك فراره

من استواء دلالة المفرد والتثنية . فانه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه فاذا زاد الى المثل صار مثلين ، وهما الضعف . فلو قيل : لما ضعفان لم يكن فرق بين المفرد والمثنى . فالضعفان عنده مثلان مضافان الى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه ثلاثة أمثال مضافة إلى الأصل . وهكذا أبداً، والصواب أن الضعفين هما المثلان فقط الأصل ومثله . وعليه يدل قوله تعالى: (فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ)أى مثلين وقوله تعالى:(٣٣ : ٣٠ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) أى مثلين . ولهـــذا قال فى الحسنات: (٣٣ : ٣١ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) وأما ماتوهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهم منشؤه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل ، وليس كذلك بل المثل له اعتباران أن اعتبر وحده فهو ضعف وان اعتبر مع نظيره فهما ضعفان والله أعلم *

واختلف فى رافع قوله :(فطل) فقيل:هو مبتدأ خبره محذوف أى وطله يكفيها، وقيل: خبر مبتدؤه محذوف فالذى يرويها ويصيبها طل، والضمير فى (أصابها) اما أن يرجع الى الجنة أو الى الربوة وهما متلازمان، ثم قال تعالى : (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) قال الحسن : هذا مثل قل والله من يعقله من الناس شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان الى جنته وان احدكم والله أفقر ما يكون الى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا *

وفى صحيح البخارى عن عبيد بن عمير قال وقال عمر يوما لأصحاب النبى ﷺ فيم هم يرون هذه الآية نزلت (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ) الآية؟ قالوا. الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء ياأمير المؤمنين. فقال عمر. قل يا ابن أخى ولا تحقر بنفسك قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل. قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لعمل قال: عمر لرجل عمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله فقوله تعالى: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ) أخرجه مخرج الاستفهام الانكارى وهو أبلغ من النفى والنهى والطف موقعا كما ترى غيرك يفعل فعلا قبيحا فتقول: لايفعل هذا عاقل يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة، وقال تعالى. (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ) بلفظ الواحد لتضمنه معنى الانكار العام كما تقول أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ فى الانكار من أن يقول أيودون، وقوله: (أيود) أبلغ فى الانكار من لو قيل أيريد لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد ارادتها، وقوله تعالى. (أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعا فان منهما القوت. والغذاء. والدواء. والشراب. والفاكهة. والحلو. والحامض، ويؤكلان رطبا، ويابسا، ومنافعهما كثيرة جدا.

وقد اختلف فى الأنفع والأفضل منهما فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججا لقولها فذكرناها فى غير هذا الموضع. (١)

---

(١) فى كتاب مفتاح دار السعادة وقد طبع حديثا.

وفصل الخطاب أن هذا يختلف باختلاف البلاد فان الله سبحانه وتعالى أجرى العادة بان سلطان أحدهما لايحل حيث يحل سلطان الآخر فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل لايكون العنب بها طائلا ولا كثيراً لأنه انما يخرج فى الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة فينمو فيها فيكثر ؛ وأما النخــل فنموه وكثرته فى الأرض الحارة السبخة وهى لاتناسب العنب فالنخل فى أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها والعنب فى أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها والله أعلم .

والمقصود أن هذين النوعين هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان ، ومع هذا فالأنهار تجرى تحت هذه الجنة وذلك أكمل لها وأعظم فى قدرها ، ومع ذلك فلم يعدم شيئاً من أنواع الثمار المشتهاة بل فيها من كل الثمرات ولكن معظمها ، ومقصودها النخيل . والأعناب فلا تنافى بين كونها من نخيل وأعناب و (فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) .

ونظير هذا قوله تعالى . (١٨ . ٣٢ ، ٣٣ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) الى قوله تعالى . (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) وقد قيل . ان الثمار هنا وفى آية البقرة المراد بها المنافع والأموال ، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لاغيرها . لقوله هنا :(وَلَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) ثم قال تعالى.(فَأَصَابَهَا) أى الجنة (إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) وفى الكهف (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) وماذلك

الا ثمار الجنة ثم قال تعالى.(وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) هذا اشارة الى شدة حاجته الى جنته ، وتعلق قلبه بها من وجوه .

أحدها . انه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها .

الثانى . ان ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه .

الثالث . أن له ذرية فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته

الرابع . أنهم ضعفاء فهم كل عليه لاينفعونه بقوتهم وتصرفهم .

الخامس . أن نفقتهم عليه ، لضعفهم وعجزهم وهذا نهاية مايكون من تعلق القلب بهذه الجنة ، لخطرها فى نفسها ، وشدة حاجته وذريته اليها ، فاذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته اعصار ، وهو الريح التى تستدير فى الأرض ثم ترتفع فى طبقات الجو كالعمود ، وفيها نار مرت بتلك الجنة فاحرقتها وصيرتها رماداً فصدق والله الحسن ـ هذا مثل قل من يعقله من الناس ـ ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل ، وحدا القلوب الى التفكر فيه لشدة حاجتها اليه فقال تعالى .(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) فلو فكر العاقل فى هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه فهكذا العبد اذا عمل بطاعة الله ثم اتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصى الله كانت كالأعصار ذى النار المحرق للجنة التى غرسها بطاعته وعمله الصالح، ولولا ان هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده من ذكر مجرد الطبقات لم نذكرها ولكنها من اهم المهم، والله المستعان الموفق لمرضاته .

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغى لماسولت له نفسه والله احراق أعماله الصالحة واضاعتها ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية ولهذا استحق اسم الجهل فكل من

عصى الله فهو جاهل ، فان قيل : الواو في قوله تعالى : (وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) واو الحال أم واو العطف وإذا كانت للعطف فعلام عطفت ما بعدها؟ قلت: فيه وجهان أحدهما أنه واو الحال اختاره الزمخشري، والمعنى أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا في حال كبره وضعف ذريته، والثاني أن تكون للعطف على المعنى فان فعل التمني، وهو قوله:(أيود أحدكم)لطلب الماضي كثيرا فكان المعنى أيود لو كانت جنة من نخيل وأعناب وأصابه الكبر فجرى عليها ماذكر ، وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي الذي لم يصدر انفاقه عن الايمان بالصفوان الذي عليه التراب فانه لم ينبت شيئا أصلا بل ذهب بذره ضائعا لعدم إيمانه واخلاصه ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصا بنيته لله ثم عرض له ماأبطل ثوابه بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها ثم سلط عليها الاعصار الناري فاحرقها فان هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترقه والاول لم يحصل له شيء يدركه الحريق فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة، ثم قال: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ) أضاف سبحانه الكسب اليهم وان كان هو الخالق لافعالهم لأنه فعلهم القائم بهم وأسند الاخراج اليه لأنه ليس فعلا لهم ولاهو مقدورا لهم فأضاف مقدورهم اليهم وأضاف مفعوله الذي لاقدرة لهم عليه اليه ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية، وخص سبحانه هذين النوعين وهما الخارج من الارض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي اما بحسب الواقع فانهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك فان المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب والانصار كانوا أصحاب حرث وزرع فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم

إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، واما لانهما أصول الاموال وماعداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ فان الكسب يدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والامتعة وسائر ماتتعلق به التجارة والخارج من الارض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الاموال وأغلبها على أهل الارض فكان ذكرهما أهم، ثم قال: (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) فنهى سبحانه عن قصد اخراج الردىء كما هو عادة أكثر النفوس تمسك الجيد لها وتخرج الردىء للفقير، ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه مايشبه العذر لمن فعل ذلك لاعن قصد وتيمم بل عن اتفاق اذا كان هو الحاضر اذ ذاك أو كان ماله من جنسه فان هذا لم يتيمم الخبيث بل تيمم اخراج بعض مامن الله عليه وموقع قوله: (منه تُنْفِقُونَ) موقع الحال أى لا تقصدوه منفقين منه * ثم قال: (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) أى لو كنتم أنتم المستحقين له وبذل لكم لم تأخذوه فى حقوقكم الا بان تتسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه ويقال للبائع: اغمض أى لا تستقصى كأنك لا تبصر وحقيقته من اغماض الجفن فكأن الرائى لكراهته له لا يملأ عينه منه بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضا، ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيم رجال يرضون بالاغماض

وفيه معنيان احدهما كيف تبذلون لله وتهدون له مالا ترضون ببذله لكم ولا يرضى احدكم من صاحبه ان يهديه له والله احق من يخير له خيار الأشياء وانفسها؛ والثانى كيف تجعلون له ما تكرهون لانفسكم وهو سبحانه طيب لا يقبل الا طيبا؟ ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما فقال: (وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) فغناه وحمده يأبى قبوله الردىء فان قابل الردىء الخبيث اما ان يقبله لحاجته اليه واما ان نفسه لاتأباه لعدم كمالها وشرفها ، واما الغنى عنه الشريف القدر الكامل الاوصاف فانه لايقبله، ثم قال تعالى : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) هذه الاية تتضمن الحض على الانفاق والحث عليه بابلغ الالفاظ واحسن المعانى فانها اشتملت على بيان الداعى الى البخل والداعى الى البذل والانفاق وبيان مايدعوه اليه داعى البخل ومايدعو اليه داعى الانفاق وبيان مايدعو به داعى الامرين فاخبر سبحانه ان الذى يدعوهم الى البخل والشح هو الشيطان واخبر ان دعوته هى بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر ان انفقوا اموالهم وهذا هو الداعى الغالب على الخلق فانه يهم بالصدقة والبذل فيجد فى قلبه داعيا يقول له : متى اخرجت هذا دعتك الحاجة اليه ، وافتقرت اليه بعد اخراجه، وامساكه خير لك ، حتى لاتبقى مثل الفقير . فغناك خير لك من غناه . فاذا صور له هذه الصورة امره بالفحشاء وهى البخل الذى هو من اقبح الفواحش . وهذا اجماع من المفسرين ان الفحشاء هنا البخل . فهذا وعده وهذا امره . وهو الكاذب فى وعده ، الغار الفاجر فى امره . فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون . فانه يدلى من يدعوه بغروره . ثم يورده شر الموارد . كما قال :

دلاهم بغرور ثم اوردهم ان الخبيث لمن والاه غرار

هذا وان وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه ولا محبة فى بقائه غنيا بل لاشىء أحب اليه من فقره وحاجته وانما وعده له بالفقر وأمره اياه بالبخل ليسىء ظنه بربه ويترك ما يحبه من الانفاق لوجهه فيستوجب منه الحرمان . وأما الله سبحانه فانه يعد عبده مغفرة

منه لذنوبه وفضلا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه اما فى الدنيا أوفى الدنيا والآخرة. فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان فلينظر البخيل والمنفق أى الوعدين هو أوثق وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء ويخذل من يشاء وهو الواسع العليم، وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين فانه واسع العطاء عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله فيعطى هذا بفضله ويمنع هذا بعدله وهو بكل شىء عليم، فتأمل هذه الآيات ولا تستطل بسط الكلام فيها فان لها شأنا لا يعقله الا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)ه

وتأمل ختم هذه السورة التى هى سنام القرآن باحكام الأموال وأقسام الأغنياء وأحوالهم وكيف قسمهم الى ثلاثة أقسام محسن وهم المتصدقون فذكر جزاءهم ومضاعفته ومالهم فى قرض أموالهم للملىء الوفى ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكمالها من المن والاذى وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها ابتداء من الرياء ثم أمرهم أن يتقربوا اليه باطيبها ولا يتيمموا أردأها وخبيثها ثم حذرهم من الاستجابة لداعى البخل والفحش وأخبر أن استجابتهم لدعوته وثقتهم بوعده أولى بهم وأخبر أن هذا من حكمته التى يؤتيها من يشاء من عباده وان من أوتيها فقد أوتى خيرا كثيرا أوتى ماهو خير وأفضل من الدنيا كلها لانه سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال تعالى: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ) وقال تعالى: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته خير من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد بل لا يعقله الا من له لب وعقل زكى فقال تعالى: (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) ثم أخبر أن كل

ما انفقوه من نفقة او تقربوا به اليه من نذر فانه يعلمه فلا يضيع لديه بل يعلم ما كان لوجهه ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له فانه ظالم لنفسه وماله من نصير، ثم اخبر سبحانه عن احوال المتصدقين لوجهه فى صدقاتهم وانه يثيبهم عليها ان ابدوها اوكتموها بعد ان تكون خالصة لوجهه فقال : (إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) اى فنعم شيء هي وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية فَلَا يتوهم مبديها بطلان اثره وثوابه فيمنعه ذلك من اخراجها وينتظر بها الاخفاء فتفوت او يعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه او بينه وبين اخراجها فلا يؤخر صدقته العلانية بعد حضور وقتها الى وقت السر ، وهذه كانت حال الصحابة ثم قال : (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فاخبر ان اعطاءها الفقير فى خفية خير المنفق من اظهارها واعلانها ، وتأمل تقييده تعالى الاخفاء بايتاء الفقراء خاصة ولم يقل : وان تخفوها فهو خير لكم فان من الصدقة ما لم يمكن اخفاؤها كتجهيز جيش وبناء قنطرة واجراء نهر اوغير ذلك، واما ايتاؤها الفقراء ففى اخفائها من الفوائد الستر عليه وعدم تخجيله بين الناس واقامته مقام الفضيحة وان يرى الناس ان يده هى اليد السفلى وانه لاشيء له فيزهدون فى معاملته ومعاوضته وهذا قدر زائد من الاحسان اليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الاخلاص وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس وكان اخفاؤها للفقير خيرا من اظهارها بين الناس ،ومن هذا مدح النبى صلى الله عليه وسلم صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر انه احد السبعة الذين هم فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة . ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق ، واخبر انه يكفر عنه بذلك الانفاق من سيئاته . ولا يخفى عليه سبحانه اعمالكم ولانياتكم . فانه بما تعملون خبير ه

ثم اخبر ان هذا الانفاق إنما نفعه لانفسهم يعود عليهم احوج ماكانوا اليه ، فكيف يبخل احدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائداليها . وان نفقة المؤمنين انما تكون ابتغاء وجهه خالصا . لانها صادرة عن ايمانهم وان نفقتهم ترجع اليهم وافية كاملة . ولا يظلم منها مثقال ذرة *

وصدر هذا الكلام بان الله هو الهادى الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته وانه ليس على رسوله هداهم . بل عليه إبلاغهم . وهو سبحانه الذى يوفق من يشاء لمرضاته *

ثم ذكر المصرف الذى توضع فيه الصدقة فقال تعالى: (لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبِيل الله لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فى الْأَرْض يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا) فوصفهم بست صفات . إحداها : الفقر ، الثانية : حبسهم أنفسهم فى سبيله تعالى وجهاد أعدائه ، ونصر دينه ، وأصل الحصر المنع ، فنعوا أنفسهم من تصرفها فى أشغال الدنيا ، وقصروها على بذلها لله وفى سبيله . الثالثة : عجزهم عن الأسفار للتكسب ؛ والضرب فى الأرض هو السفر. قال تعالى: (٧٣ : ٢٠ عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فى الْأَرْض يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْل الله) وقال تعالى (٤ : ١٠١ وَإذَا ضَرَبْتُمْ فى الْأَرْض فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ) الرابعة . شدة تعففهم . وهو حسن صبرهم ، واظهارهم الغنى . يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم . الخامسة . أنهم يعرفون بسيماهم . وهى العلامة الدالة على حالتهم التى وصفهم الله بها . وهذا لا ينافى

حسبان الجاهل أنهم أغنياء لأن الجاهل له ظاهر الأمر ، والعارف هو المتوسم المتفرس الذى يعرف الناس بسيماهم . فالمتوسمون خواص المؤمنين كما قال تعالى (١٥ : ٧٥ انَّ فى ذَلكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) السادسة . تركهم مسألة الناس ، فلا يسألونهم . والالحافُ : هو الالحاح ، والنفى متسلط عليهما معا ، أى لا يسألون ولا يلحفون . فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه الحاف . وهذا كقوله « على لاحب لا يهتدى لمناره » أى ليس فيه منار فيهتدى به : وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال هو سؤال الالحاف . فاما السؤال بقدر الضرورة من غير الحاف فالافضل تركه ولا يحرم .

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر ، وزيه . من غير حقيقته وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها ، ومن يعرفهم أعز . والله يختص بتوفيقه من يشاء فهؤلاء هم المحسنون فى أموالهم .

القسم الثانى : الظالمون وهم ضد هؤلاء . وهم الذين يذبحون المحتاج المضطر . فاذا دعته الحاجة اليهم لم ينفسوا كربته الا بزيادة على ما يبذلونه له وهم أهل الربا . فذكرهم تعالى بعد هذا فقال : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا انْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فصدر الآية بالامر بتقواه المضادة للربا وأمر بترك ما بقى من الربا بعد نزول الآية وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم ولولا ذلك لردوا ما قبضوه به قبل التحريم وعلق هذا الامتثال على وجود الايمان منهم . والمعلق على شرط منتف عند انتفائه . ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شىء وأشده . وهى محاربة المرابى لله ورسوله فقال تعالى : (فَانْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) ففى ضمن هذا الوعيد

أن المرابى محارب لله ورسوله ، قد اذنه الله بحربه . ولم يجىء هذا الوعيد فى كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعى فى الأرض بالفساد لأن كل واحد منهما مفسد فى الأرض قاطع الطريق على الناس هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم . وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم الا بتحميله كربات أشد منها فاخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله . وءاذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله .

ثم قال: (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ) يعنى ان تركتم الربا وتبتم الى الله منه ، وقد عاقدتم عليه فانما لكم رؤس اموالكم لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ . ولا تنقصون منها فيظلمكم من اخذها . فان كان هذا القابض معسرا فالواجب انظاره الى ميسرة . وان تصدقتم عليه وأبرأتموه فهو افضل لكم وخير لكم . فان ابت نفوسكم وشحت بالعدل الواجب او الفضل المندوب فذكروها يوما ترجعون فيه الى الله وتلقون ربكم فيوفيكم جزاء اعمالكم احوج ما انتم اليه ، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابى .

ثم ذكر العادل فى ءاية التداين فقال تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ) الاية .ولولا ان هذه الاية تستدعى سفرا وحدها لذكرت بعض تفسيرها . والغرض انما هو التنبيه والاشارة ، وقد ذكر ايضا العادل ، وهو ءاخذ راس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان . ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التى هى من كنز تحت عرشه . والشيطان يفر من البيت الذى تقرا فيه ، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الاسلام واصول الايمان ، ومقامات الاحسان مايستدعى بيانه كتابا مفردا .

والمقصود ذكر طبقات الخلائق فى الدار الآخرة .

ولنعد الى المقصود فان هذا من سعى القلم ولعله أهم مما نحن بصدده، فهذه الطبقات الأربعة من طبقات الأمة هم أهل الاحسان والنفع المتعدى وهم العلماء ، وأئمة العدل ، وأهل الجهاد ، وأهل الصدقة وبذل الأموال فى مرضاة الله . فهؤلاء ملوك الآخرة ، وصحائف حسناتهم متزايدة ، تمل فيها الحسنات وهم فى بطون الأرض ، مادامت آثارهم فى الدنيا . فيالها من نعمة ما أجلها . وكرامة ما أعظمها ، يختص الله بها من يشاء من عباده *

(الطبقة الثامنة) : من فتح الله له بابا من أبواب الخير القاصر على نفسه كالصلاة ، والحج ، والعمرة ، وقراءة القرآن ، والصوم ، والاعتكاف ، والذكر ؛ ونحوها مضافا الى أداء فرائض الله عليه . فهو جاهد فى تكثير حسناته ، واملاء صحيفته . وإذا عمل خطيئة تاب الى الله منها فهذا على خير عظيم . وله ثواب أمثاله من أعمال الآخرة . ولكن ليس له إلا عمله . فاذا مات طويت صحيفته . فهذه طبقة أهل الربح والحظوة أيضا عند الله *

(الطبقة التاسعة) : طبقة أهل النجاة ، وهى طبقة من يؤدى فرائض الله ويترك محارم الله ، مقتصراً على ذلك لايزيد عليه ولاينقص منه فلا يتعدى إلى ماحرم الله عليه ولا يزيد على مافرض عليه . هذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ لمن أخبره بشرائع الاسلام فقال: « والله لاأزيد على هذا ولا أنقص منه » فقال : أفلح إن صدق (١)» وأصحابه

---

(١) رواه البخارى . ومسلم . وأبو داود . والترمذى . والنسائى ومالك فى الموطأ عن طلحة بن عبيد الله « ان اعرابيا جاء الى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال : يارسول الله أخبرنى ما فرض الله على من الصلاة ؟ » الحديث *

هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم ، إذا أدوا فرائضه ، واجتنبوا كبائر مانهاهم عنه . قال تعالى : (٤ : ٣١ ان تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً) وصح عنه ﷺ أنه قال : « الصلوات الخمس ورمضان الى رمضان والجمعة الى الجمعة مكفرات لما بينهن مالم تغش كبيرة (١) » فان غشى أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحا لم يخرجوا من طبقتهم . فكانوا بمنزلة من لاذنب له . فتكفير الصغائر يقع بشيئين . احدهما : الحسنات الماحية . والثانى : اجتناب الكبائر . وقد نص عليها سبحانه وتعالى فى كتابه فقال تعالى : (١١ : ١١٤ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ انَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) وقال تعالى : (انْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) (٢) .

﴿ الطبقة العاشرة ﴾ طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم ، وغشوا كبائر مانهى الله عنه ، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت ، فماتوا على توبة صحيحة . فهؤلاء ناجون من عذاب الله ، اما قطعا عند قوم ، وإما رجاء وظنا عند آخرين . وهم موكولون الى المشيئة . ولكن نصوص القرءان والسنة تدل على نجاتهم ، وقبول توبتهم ، وهو وعد وعدهم الله اياه . والله لايخلف الميعاد .

﴿فان قيل﴾ فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتى قبلها ؟ فان الله اذا كفر عنهم سيئاتهم ، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم ، أو أرجح .

---

(١) رواه أحمد . ومسلم عن أبى هريرة (٢) كان الأولى بدل هذه الآية (٥٣ : ٣٢ والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم)

(قيل) قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية . فعليك بما ورد فيه هناك . وكيف يستوى عند الله من أنفق عمره فى طاعته ، ولم يغش كبيرة ومن لم يدع كبيرة إلا ارتكبها ، وفرط فى أوامره ، ثم تاب ؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته ، ويكون لا له ولا عليه . وأما أن يكون هو ومن قبله سواء أو أرجح منه فكلا *

(الطبقة الحادية عشرة) . طبقة أقوام خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . فعملوا حسنات وكبائر ، ولقوا الله مصرين عليها ، غير تائبين منها . لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم . فاذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات فهؤلاء أيضا ناجون فائزون . قال تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) قال حذيفة ، وعبد الله ابن مسعود ، وغيرهما من الصحابة يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف . فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة . ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار . ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الاعراف » وهذه الموازنة تكون بعد القصاص ، واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته . فاذا بقى شيء منها وزن هو وسيئاته *

ولكن هنا مسئلة وهى . إذا وزنت السيئات بالحسنات فرجحت الحسنات ، هل يلغى المرجوح جملة . ويصير الاثر للراجح . فيثاب على حسناته كلها ، أو يسقط من الحسنات ماقابلها من السيئات المرجوحة . ويبقى التأثير للرجحان . فيثاب عليه وحده ؟ فيه قولان . هذا عند من يقول بالموازنة والحكمة وأما من ينفى ذلك فلا عبرة عنده بهذا . وانما هو موكول الى محض المشيئة *

وعلى القول الأول فيذهب أثر السيئات جملة بالحسنات الراجحة.

وعلى القول الثانى. يكون تأثيرها فى نقصان ثوابه لافى حصول العقاب له.

ويترجح هذا القول الثانى بأن السيئات لولم تحبط ماقبلها من الحسنات وكان العمل والتأثير للحسنات كلها لم يكن فرق بين وجودها وعدمها، ولكان لافرق بين المحسن الذى محض عمله حسنات. وبين من خلط عملا صالحا وءاخر سيئاً.

وقد يجاب عن هذا بأنها اثرت فى نقصان ثوابه ولابد. فانه لو اشتغل فى زمن ايقاعها بالحسنات لكان ارفع لدرجته واعظم لثوابه. واذا كان كذلك فقد ترجح القول الأول بأن الحسنات لما غلبت السيئات ضعف تأثير المغلوب المرجوح. وصار الحكم للغالب دونه. لاستهلاكه فى جنبه كما يستهلك يسير النجاسة فى الماء الكثير والماء اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث. والله اعلم.

﴿ الطبقة الثانية عشرة ﴾ قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم. فتقابل اثراهما فتقاوما. فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار. وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة. فهؤلاء هم اهل الاعراف (١) لم يفضل

---

(١) ذكر المفسرون فى أصحاب الاعراف أقوالا كثيرة. أصحها وأوفقها لسياق القرءان. انهم الشهداء. الذين يستشهدهم الله على عباده من الأنبياء والفقهاء والصالحين. قال تعالى فى سورة الحديد: (والذين ءامنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) وقال تعالى فى سورة النحل. (ويوم نبعث من كل امة شهيدا ثم لايؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون) وقال تعالى فى سورة النساء. (فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين

لاحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب . وقد وصف الله سبحانه وتعالى اهل هذه الطبقة فى سورة الاعراف . بعد ان ذكر دخول اهل النار وتلاعنهم فيها . ومخاطبة اتباعهم لرؤسائهم . وردهم عليهم . ثم مناداة اهل الجنة اهل النار .

كفروا وعصوا الرسول لوتسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا) وقال تعالى فى سورة الزمر . (ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون) وقال تعالى فى سورة النحل :(ويوم نبعث فى كل امة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء)

وهذا المعنى فى القرءان كثير جدا . وهذه الآيات انما تدل على أن أصحاب الجنة لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون فى دخولها لما سبق لهم من البشارات . وان أصحاب الأعراف يبشرون أهل الجنة . فيقولون لهم: (سلام عليكم) وانهم يبشرون أهل النار بدخولها بقولهم . (ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) وانهم يقولون لهم . (ماأغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون اهؤلاء -يعنون اهل الجنة - الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمة) ثم يقولون لأهل الجنة (ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا انتم تحزنون) وهل يقول هذا القول من لم يعرف حاله ولا يزال خائفا من دخول النار ؟ الحق أنها غلطة من الشيخ ابن القيم رحمه الله تبع فيها من سبقه من الذين قالوا: ان أصحاب الاعراف من تساوت حسناتهم وسيئاتهم . والاعراف المكان العالى الذى يشرف على أهل الجنة وأهل النار . وهل يرتفع على ذلك المكان العالى الا من كانت درجته أعلى من درجات أهل الجنه . وهم الأنبياء والصديقون ؟ ومادة التعرف انما تكون للمتوسمين الذين لهم من النور ما يتعرفون به ويتوسمون . وهم الذين اثنى الله عليهم كثيراً وخصهم دون خلقه بهذه المنزلة ه

فقال تعالى :(٧ : ٤٦ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فقوله تعالى : (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ) أى بين أهل الجنة والنار حجاب قيل : هو السور الذى يضرب بينهم له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، باطنه الذى يلى المؤمنين فيه الرحمة ، وظاهره الذى يلى الكفار من جهتهم العذاب ، والاعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع . وهو سور عال بين الجنة والنار عليه أهل الاعراف . قال حذيفة . وعبدالله ابن عباس : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار . فوقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم مايشاء ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته •

قال عبد الله بن المبارك : أخبرنا ابو بكر الهذلى قال : كان سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال : «يحاسب الله الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار» ثم قرأ قوله تعالى:(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) ثم قال : « إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح» قال : «ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فاذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم واذا صرفوا أبصارهم الى أصحاب النار قالوا : (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فاما أصحاب

الحسنات فانهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم . ويعطى كل عبد يومئذ نورا . فاذا أتوا على الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة . فلما رأى أهل الجنة مالقى المنافقون قالوا : (رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا) وأما أصحاب الأعراف فان النور لم ينزع من أيديهم فيقول الله : (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) (١) فكان الطمع للنور الذى فى أيديهم . ثم أدخلوا الجنة وكانوا ءاخر أهل الجنة دخولا» يريد ءاخر اهل الجنة دخولا ممن لم يدخل النار *

وقيل : هم قوم خرجوا فى الغزو بغير إذن ءابائهم ، فقتلوا فاعتقوا من النار لقتلهم فى سبيل الله ، وحبسوا عن الجنة لمعصية ءابائهم . وهذا من جنس القول الأول *

وقيل : هم قوم رضى عنهم احد الأبوين دون الآخر ؛ يحبسون على الأعراف حتى يقضى الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة . وهى من جنس ماقبله فلا تناقض بينهما *

وقيل : هم اصحاب الفترة (٢) وأطفال المشركين *

---

(١) هذا انما هو من مقالة اصحاب الأعراف لأهل الجنة لا من قول لأصحاب الأعراف . ولم يثبت عن رسول الله ﷺ فى اصحاب الاعراف شىء . والروايات عن الصحابة مضطربة ومختلفة . والقرءان واضح . فلا حاجة إلى التقيد بقول عن غير رسول الله ﷺ خصوصا إذا كان يخالف ظاهر القرءان وسياقه (٢) نصوص القرءان والسنة صريحة فى ان حجة الله لم تبطل فى وقت من الاوقات (وان من امة إلا خلا فيها نذير) وان تلك الفترة المزعومة ماهى الا خيال ووهم من القائلين بها . وهى مع ذلك رد على الله واثبات انه يترك خلقه فى وقت من الأوقات سدى وهملا . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا *

وقيل : هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف ، فيطلعون على اهل النار واهل الجنة جميعا *

وقيل ، هم الملائكة لامن بنى ءادم ، والثابت عن الصحابة هو القول الأول وقد رويت فيه ءاثار كثيرة مرفوعة لاتكاد تثبت اسانيدها . وءاثار الصحابة فى ذلك المعتمدة *

وقد اختلف فى تفسير الصحابى هل له حكم المرفوع او الموقوف ، على قولين الأول اختيار ابى عبد الله الحاكم . والثانى هو الصواب . ولانقول على رسول الله ﷺ مالم نعلم أنه قاله *

وقوله تعالى:(وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ) صريح فى انهم من بنى ءادم ليسوا من الملائكة . وقوله تعالى : (يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ) يعنى يعرفون الفريقين بسيماهم (وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) اى نادى اهل الأعراف اهل الجنة بالسلام . وقوله تعالى:(لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) الضميران فى الجملتين لاصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة بعدوهم يطمعون فى دخولها . قال ابو العالية : ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم ، وقال الحسن : الذى جعل الطمع فى قلوبهم يوصلهم الى مايطمعون *

وفى هذا رد على قول من قال : انهم افاضل المؤمنين علوا على الأعراف يطالعون احوال الفريقين فعاد الصواب الى تفسير الصحابة وهم اعلم الامة بكتاب الله ومراده منه *

ثم قال تعالى :(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) هذا دليل على انه بمكان مرتفع بين الجنة والنار فاذا اشرفوا على اهل الجنة نادوهم بالسلام وطمعوا فى الدخول اليها .

وإذا أشرفوا على النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم ثم قال تعالى: (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ) يعنى من الكفار الذين فى النار فقالوا لهم: (مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) يعنى ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم . وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم وهذا إما نفى وإما استفهام وتوبيخ . وهو ابلغ وافخم . ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم فى الدنيا ويزعمون ان الله لا يختصهم دونهم بفضله كما لم يختصهم دونهم فى الدنيا فيقول لهم اهل الأعراف: (أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ) أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة. فهاهم فى الجنة يتمتعون ويتنعمون وفى رياضها يحبرون ثم يقال: لأهل الأعراف (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) .

وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة، وأقسموا أن الله لا ينالهم برحمة، لما رأوا من تخلفهم عن الجنة . وأنهم يصيرون الى النار . فتقول لهم الملائكة حينئذ: (أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) والقولان قويان محتملان . والله اعلم .

فهؤلاء الطبقات هم اهل الجنة الذين لم تمسهم النار .

(الطبقة الثالثة عشر)

طبقة أهل المحنة والبلية، نعوذ بالله . وان كانت آخرتهم الى عفو وخير وهم قوم مسلمون خفت موازينهم، ورجحت سيئاتهم على حسناتهم فغلبتها

السيئات ، فهذه الطبقة التى اختلفت فيها أقاويل الناس . وكثر فيها خوضهم وتشعبت مذاهبهم ، وتشتتت اراؤهم *

فطائفة كفرتهم ، واوجبت لهم الخلود فى النار . وهذا مذهب أكثر الخوارج ، بل يكفرون من هو احسن حالا منهم . وهو مرتكب الكبيرة الذى لم يتب منها . ولو استغرقتها حسناته *

وطائفة اوجبت لهم الخلود فى النار . ولم تطلق عليهم اسم الكفر ، بل سموهم منافقين . وهذا المذهب ينسب الى البكرية أتباع بكر ابن اخت عبد الواحد *

وطائفة نزلتهم منزلة بين منزلة الكفار والمؤمنين فجعلوا اقسام الخلق ثلاثة مؤمنين ، وكفارا ، وقسما لا مؤمنين ولا كفارا . بل بينهما واوجبت لهم الخلود فى النار . وهذا هو الرأى الذى عليه اهل الاعتزال . وهو احد اصولهم الخمس التى هى قواعد مذهبهم وهى التوحيد الذى مضمونه جحد صفات الخالق ونعوت جلاله والتعطيل المحض . والعدل الذى مضمونه نفى عموم قدرة الله ، وانه لاقدرة له على أفعال الحيوانات ، بل هى خارجة عن ملكه وخلقه وقدرته . وانه يريد مالا يكون ويكون مالا يريد ، فانه لا يقدر ان يهدى ضالا ولا ان يضل مهتديا . ولا يجعل المصلى مصليا ولا الذاكر ذاكرا والطائف طائفا تعالى الله عن افكهم وشركهم علوا كبيرا ، والمنزلة بين المنزلتين التى مضمونها ايجاب القول بالنار للمسلم المبالغ فى طاعة ربه الذى افنى عمره فى عبادته وطاعته ومات مصرا على كبيرة واحدة تعالى الله عما نسبوه اليه من ذلك . وجل عن هذا الافتراء . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى مضمونه الخروج على ائمة الجور بالسيف ، وخلع اليد من طاعتهم . ومفارقة جماعة المسلمين . والأصل الخامس النبوة مع انهم لم يوفوها حقها بل هضموها غاية الهضم من وجوه كثيرة ليس هذا موضعها ، والمقصود

أن مذهبهم تخليد هذه الطبقة في النار . وان لم يسموهم كفارا . فوافقوا الخوارج في الحكم وخالفوهم في الاسم . ولهذا تسمى هذه المسألة من مسائل الاسماء والاحكام . فهذه ثلاثة فرق أوجبت لهذه الطائفة الخلود في النار *

وقالت المرجئة على اختلاف ءارائهم: لايدرى مايفعل الله بهم . فيجوز أن يعذبهم كلهم وأن يعفو عنهم كلهم ، وأن يعذب بعضهم ويعفو عن بعضهم ، غير أنهم لايخلد أحد منهم في النار . فجوزوا أن يلحق بعضهم بمن ترجحت حسناته على سيئاته . بل جوزوا أن يرفع عليه في الدرجة . فهم موكولون عندهم الى محض المشيئة لايدرى مايفعل الله بهم . بل يرجأ أمرهم الى الله وحكمه . وهذا قول كثير من المتكلمين والفقهاء والصوفية وغيرهم *

فهذه الأقوال التي يعرفها أكثر الناس . ولا يحكي أهل الكلام غيرها ، وقول الصحابة والتابعين وأئمة الحديث لا يعرفونه ولا يحكونه . وهو الذي ذكرناه عن ابن عباس . وحذيفة . وابن مسعود أن من ترجحت سيئاته بواحدة دخل النار . وهؤلاء هم القسم الذين جاءت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ . فانهم يدخلون النار . فيكونون فيها على مقدار أعمالهم . فمنهم من تأخذه النار الى كعبيه . ومنهم من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه . ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه . ويلبثون فيها على قدر أعمالهم ، ثم يخرجون منها . فينبترون على أنهار الجنة . فيفيض عليهم أهل الجنة من الماء حتى تنبت أجسادهم . ثم يدخلون الجنة . وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعة الشافعين. وهم الذين يأمر الله سيد الشفعاء مرارا أن يخرجهم من النار بما معهم من الايمان . واخبار النبي ﷺ أنهم يكونون فيها على قدر أعمالهم

مع قوله تعالى: (جَزَاءً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَهَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) وقوله تعالى: (وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وأضعاف ذلك من نصوص القرءان والسنة يدل على ماقاله أفضل الأمة وأعلمها بالله وكتابه وأحكام الدارين أصحاب محمد ، والعقل والفطرة تشهد له . وهو مقتضى حكمة العزيز الحكيم الذى بهرت حكمته العقول. فليس الأمر سيبا خارجا عن الضبط والحكمة ، بل مربوط بالأسباب والحكم مرتب عليها أ كل ترتيب جار على نظام اقتضاه السبب واستدعته الحكمة ، وأى الطريق سلكها سالك غير هذه الطريق من الطرق المتقدمة أفضت به الى ترك بعض النصوص ولا بد . فانها تتناقض فى حقه لما أصله من الأصل الذى لايلتئم عليه جمع النصوص . فلابد أن يرد بعضها ببعض أو يستشكلها . أو يتطلب لها مستنكر التأويلات ، ووجوه التحريفات . كما رد الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة . وكذبوا بها . وقالوا: لاسبيل لمن دخل النار الى الخروج منها بشفاعة ولاغيرها . ولما بهرتهم نصوص الشفاعة وصاح بهم أهل السنة وأئمة الاسلام من كل قطر وجانب ، ورموهم بسهام الرد عليهم أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط لاعلى الخروج من النار . فردوا السنة المتواترة قطعا . وصاروا مضغة فى أفواه الأمة ، وعارا فى فرقها . فان أمر الشفاعة أظهر عند الأمة من أن يقبل شكا أو نزاعا . وهو عندهم مثل الصراط والحساب ونحوهما مما يعلم اخبار الرسول ﷺ به قطعا . ولكن انما أتى القوم لأنهم فى غاية البعد عما جاء به الرسول ﷺ أجانب منه ، ليسوا من الورثة . وأما الخوارج فكذبوا الصحابة صريحا . وأما المرجئة فانهم يجوزون أن لايدخل النار

أحد من اهل التوحيد . وهذا بخلاف المعلوم المتواتر من نصوص السنة بدخول بعض اهل الكبائر النار ، ثم خروجهم منها بالشفاعة ومع هذا التواتر الذى لايمكن دفعه لايجوز أن يقال: بجواز أن لايدخل أحد منهم النار ، بل لابد من دخول بعضهم . وذلك البعض هو الذى خفت موازينه ورجحت سيئاته . كما قال الصحابة . وحكى أبو محمد بن حزم هذا إجماعا من أهل السنة . ولولا أن المقصود ذكر الطبقات لذكرنا لهذه المذاهب وما عليها ، وبينا تناقض أهلها ، وما وافقوا فيه الحق وما خالفوه بالعلم والعدل . لابالجهل والظلم فان كل طائفة منها معها حق وباطل . فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق ، ورد ماقالوه من الباطل . ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب ، ويسر عليه فيهما الاسباب وبالله المستعان *

﴿ الطبقة الرابعة عشرة ﴾ قوم لاطاعة لهم ولا معصية ولا كفر ولاإيمان . وهؤلاء أصناف منهم من لم تبلغه الدعوة بحال ولاسمع لها بخبر ، ومنهم المجنون الذى لايعقل شيئا ولايميز ، ومنهم الأصم الذى لايسمع شيئا أبدا ، ومنهم أطفال المشركين الذين ماتوا قبل أن يميزوا شيئا ، فاختلفت الامة فى حكم هذه الطبقة اختلافا كثيرا ، والمسألة التى وسعوا فيها الكلام هى مسألة أطفال المشركين *

وأما أطفال المسلمين فقال الامام أحمد : لا يختلف فيهم أحد ، يعنى أنهم فى الجنة ، وحكى ابن عبد البر عن جماعة أنهم توقفوا فيهم . وأن جميع الولدان تحت المشيئة ، قال : وذهب الى هذا القول جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث ـ منهم حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، واسحق بن راهويه قالوا : وهو شبه مارسم مالك فى موطئه فى أبواب القدر وما أورده من الأحاديث فى ذلك . وعلى ذلك أكثر أصحابه

وليس عن مالك فيه شيء منصوص. إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا الى أن أطفال المسلمين فى الجنة واطفال المشركين خاصة فى المشيئة ..

وأما اطفال المشركين فللناس فيهم ثمانية مذاهب ..

أحدها : الوقف فيهم . وترك الشهادة بأنهم فى الجنة أوفى النار . بل يوكل علمهم إلى الله تعالى . ويقال : الله أعلم ما كانوا عاملين . واحتج هؤلاء بحجج، منها ماأخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «مَامِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ . فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ . كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ مِنْ بَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ قَالُوا : يَارَسُولَ الله ، أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ صَغِيرٌ؟ قَالَ : اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » ومنها مافى الصحيحين أيضا عن ابن عباس أن النبى ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : «الله أعلم بما كانوا عاملين» وفى صحيح أبى حاتم . وابن حبان من حديث جرير بن حازم قال سمعت أبا رجاء يقول وهو على المنبر: قال رسول الله ﷺ : «لايزال أمر هذه الأمة قواما أو مقاربا مالم يتكلموا فى الولدان والقدر » قال أبو حاتم : الولدان أراد به أطفال المشركين ..

وفى استدلال هذه الفرقة على ماذهبت اليه من الوقف بهذه النصوص نظر . فان النبى ﷺ لم يجب فيهم بالوقف . وانما وكل علم ماكانوا يعملون لوعاشوا إلى الله سبحانه وتعالى . والمعنى الله أعلم بما كانوا يعملون لوعاشوا فهو سبحانه وتعالى يعلم القابل للهدى العامل به لوعاش، والقابل منهم للكفر المؤثر له لوعاش لكن لايدل هذا على أنه يجزيهم بمجرد علمه فيهم بلا عمل يعملونه وانما يدل على أنه يعلم منهم ماهم عاملون بتقدير

حياتهم . وهذا الجواب خرج عن النبي ﷺ على وجهين .

أحدهما : جواب لهم إذ سألوه عنهم ما حكمهم . فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وهو في هذا الوجه يتضمن أن الله سبحانه وتعالى يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر ، بتقدير الحياة ، وأما المجازاة على العلم فلم يتضمنها جوابه ﷺ . وفي صحيح أبي عوانة الاسفرايني عن هلال بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس « كان النبي ﷺ في بعض مغازيه فسأله رجل : مايقول في اللاهين ؟ فسكت عنه . فلما فرغ من غزوة الطائف إذا هو بصبي يبحث في الأرض . فامر مناديه فنادى : أين السائل عن اللاهين ؟ فاقبل الرجل . فنهى رسول الله ﷺ عن قتل الأطفال . وقال : الله أعلم بما كانوا عاملين » .

(والوجه الثاني) : جواب لهم حين أخبرهم أنهم من آبائهم . فقالوا : « بلا عمل ؟ » فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » كما روى أبو داود عن عائشة قالت « قلت : يارسول الله ، ذرارى المؤمنين ؟ قال : من آبائهم . قلت : يارسول الله ، بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين » ففي هذا الحديث مايدل على أن الذين يلحقون بآبائهم منهم هم الذين علم الله أنهم لو عاشوا لاختاروا الكفر وعملوا به . فهؤلاء مع آبائهم . ولا يقتضي أن كل واحد من الذرية مع أبيه في النار . فان الكلام في هذا الجنس سؤالا وجوابا . والجواب يدل على التفصيل . فان قوله ﷺ : « الله أعلم بما كانوا عاملين » يدل على أنهم متباينون في التبعية ، بحسب نياتهم في معلوم الله فيهم .

بقي أن يقال : فالحديث يدل على أنهم يلحقون بآبائهم من غير عمل . ولهذا فهمت ذلك منه عائشة ، فقالت « بلا عمل؟ » فاقرها عليه فقال : « الله اعلم بما كانوا عاملين » .

ويجاب عن هذا بأن الحديث إنما دل على أنهم يلحقون بهم بلا عمل عملوه في الدنيا . وهو الذي فهمته عائشة . ولا ينفي هذا أن يلحقوا بهم بأسباب أخر ، يمتحنهم بها في عرصات القيامة : كما سيأتي بيانه إن شاء الله فحينئذ يلحقون بآبائهم . ويكونون منهم بلا عمل عملوه في الدنيا . وعائشة انما استشكلت لحاقهم بهم بلا عمل عملوه مع الآباء . وأجابها النبي ﷺ بأن الله سبحانه وتعالى يعلم منهم ما هم عاملوه . ولم يقل لها : أنه يعذبهم بمجرد علمه فيهم . وهذا ظاهر بحمد الله لا إشكال فيه .

وأما حديث أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس ففي القلب من رفعه شيء وان أخرجه ابن حبان في صحيحه وهو يدل على ذم من تكلم فيهم بغير علم . أو ضرب النصوص بعضها ببعض فيهم . كما ذم من تكلم في القدر بمثل ذلك وأما من تكلم فيهم بعلم وحق فلا .

المذهب الثاني : انهم في النار . وهذا قول جماعة من المتكلمين وأهل التفسير ، وأحد الوجهين لأصحاب احمد ، وحكاه القاضي نصا عن أحمد ، واحتج هؤلاء بحديث عائشة المتقدم ، واحتجوا بما رواه أبو عقيل يحيي ابن المتوكل عن بهية عن عائشة « سألت رسول الله ﷺ عن اولاد المسلمين أين هم ؟ قال : في الجنة وسألته عن أولاد المشركين أين هم يوم القيامة ؟ قال : في النار . فقلت : لم يدركوا الأعمال ولم تجر عليهم الاقلام قال : ربك أعلم بما كانوا عاملين » قلت يحيى بن المتوكل لا يحتج بحديثه . فانه في غاية من الضعف .

وأما حديث عائشة المتقدم فهو من حديث عمر بن ذر . وتفرد به عن يزيد عن ابي أمية ان البراء بن عازب ارسل الى عائشة يسألها عن الأطفال فذكرت الحديث . هكذا قال مسلم بن قتيبة . وقال غيره : عن عمر بن ذر عن يزيد عن رجل عن البراء . ورواه الامام احمد في مسنده

من حديث عتبة بن ضمرة بن حبيب حدثنى عبد الله بن ابى قيس مولى غطيف انه سأل عائشة . فذكر الحديث . وعبد الله هذا ينظر فى حاله . وليس بالمشهور *

واحتجوا بما رواه عبد الله بن احمد فى مسند ابيه عن عثمان بن ابى شيبة عن محمد بن فضيل بن غزوان عن محمد بن عثمان عن زاذان عن على قال: «سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال : هما فى النار . فلما رأى الكراهية فى وجهها قال . لو رأيت مكانهما لأبغضتهما قالت . يارسول الله فولدى منك ؟ قال : ان المؤمنين واولادهم فى الجنة . وان المشركين واولادهم فى النار . ثم قرا (والذين امنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم *

وهذا معلول من وجهين . احدهما . ان محمد بن عثمان مجهول . الثانى . ان زاذان لم يدرك عليا *

وقال جماعة عن داود بن ابى هند عن الشعبى عن علقمة عن سلمة بن قيس الأشجعى، قال: اتيت انا واخى النبى ﷺ فقلنا إن امنا ماتت فى الجاهلية وكانت تقرى الضيف وتفعل وتفعل فهل نافعها ذلك شيئا ؟ قال ﷺ : لا : قلنا : فانها كانت وأدت اختا لنا فى الجاهلية لم تبلغ الحنث؟ فقال: الوائدة والموؤدة فى النار . إلا ان تدرك الوائدة الاسلام فتسلم(١)» وهذا اسناد لابأس به ، وبحديث خديجة انها سالت رسول الله ﷺ عن اولادها الذين ماتوا فى الشرك فقال : ان شئت اسمعتك تضاغيهم فى النار » *

قال شيخنا . وهذا حديث باطل موضوع .

واحتجوا ايضا بما روى البخارى فى صحيحه فى حديث احتجاج

---

(١) رواه الامام احمد . والنسائى *

الجنة والنار عن النبى ﷺ انه قال : « واما النار فينشىء الله لها خلقا يسكنهم إياها » .

قالوا : فهؤلاء ينشؤن للنار بغير عمل فلأن يدخلها من ولد فى الدنيا بين كافرين اولى .

وهـذه حجة باطلة فان هذه اللفظة وقعت غلطا من بعض الرواة وبينها البخارى فى الحـديث الآخر ، وهو الصواب فقال فى صحيحه : حدثنى عبد الله بن محمد نا عبد الرزاق نا معمر عن همام عن ابى هريرة قال النبى ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : مالى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ قال الله عز وجل للجنة : انت رحمتى ارحم بك من اشاء من عبادى . وقال تعالى للنار : انت عذابى أعذب بك من اشاء من عبادى ، ولـكل واحدة منـكما ملؤها فاما النار فلا تمتلىء حتى يضع الجبار عزوجل رجله ، فتقول : قط . قط فهناك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه احدا . واما الجنة فان الله ينشىء لها خلقا » فهذا هو الذى قاله رسول الله ﷺ بلا ريب . وهو الذى ذكره فى التفسير ، وفى باب ماجاء فى قول الله تعالى . (ان رحمت الله قريب من المحسنين) حدثناعبدالله ابن سعد حدثنا يعقوب حدثنا ابى عن صالح بن كيسان عن الأعرج عن ابى هريرة عن النبى ﷺ قال « اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة يارب مالها لايدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم . وقالت النار يعنى أوثرت بالمتكبرين فقال : الله تعالى للجنة : أنت رحمتى وقال تعالى للنار : أنت عذابى أصيب بك من أشاء ولـكل واحدة منـكما ملؤها قال : فاما الجنة فان الله تعالى لايظلم من خلقه أحدا وانه ينشىء للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول : هل من مزيد ؟ ثلاثا ، حتى يضع قدمه فيها فتمتلىء

ويرد بعضها الى بعض : فتقول . قط قط قط (١) » فهذا غير محفوظ ، وهو مما انقلب لفظه على بعض الرواة قطعاً كما انقلب على بعضهم قوله ﷺ: « ان بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن ام مكتوم فقال : ان ابن ام مكتوم يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال » وله نظائر ، وحديث الأعرج عن ابي هريرة هذا لم يحفظ كما ينبغي وسياقه يدل على ان راويه لم يقم متنه ، بخلاف حديث همام عن ابي هريرة .

واحتجوا بما رواه ابو داود عن عامر الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ: « الوائدة والموؤدة في النار » قال يحيى بن زكريا . فحدثني ابو اسحاق السبيعي ان عامراً حدثه بذلك عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ ، ويأتي الجواب عن هذا الحديث إن شاء الله . والله اعلم .

﴿ المذهب الثالث ﴾ انهم في الجنة ، وهذا قول طائفة من المفسرين والمتكلمين وغيرهم .

واحتج هؤلاء بما رواه البخاري في صحيحه عن سمرة بن جندب قال « كان رسول الله ﷺ مما يكثر ان يقول لأصحابه : هل راى احد منكم رؤيا ؟ قال : فيقص عليه ماشاء الله ان يقص ، وانه قال لنا ذات غداة : انى اتاني الليلة آتيان - فذكر الحديث - وفيه فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع ، واذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا اكاد

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد . قال الحافظ بن حجر في الفتح - ج ١٣ ص ٣٣٩ - قال أبو الحسن القابسي . المعروف في هذا الموضع ان الله ينشىء للجنة خلقا ، وأما النار فيضع فيها قدمه قال . ولا اعلم في شيء من الأحاديث انه ينشىء للنار خلقا الا هذا . اه ثم قال الحافظ ، وقد قال جماعة من الأئمة ان هذا الموضع مقلوب ، وجزم ابن القيم بأنه غلط وكذا انكر الروايه شيخنا البلقيني ، واحتج بقوله (ولا يظلم ربك احداً)

ارى رأسه طولا فى السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط - وفيه - واما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة فقال بعض المسلمين : يارسول الله واولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ واولاد المشركين » فهذا الحديث الصحيح صريح فى أنهم فى الجنة ، ورؤيا الأنبياء وحى ، وفى مستخرج البرقانى على البخارى من حديث عوف الاعرابى عن ابى رجاء العطاردى عن سمرة عن النبى ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فقال الناس يارسول الله ، واولاد المشركين؟ قال : واولاد المشركين» وقال ابو بكر بن حمدان القطيعي حدثنا بشر بن موسى حدثنا هوذة بن خليفة حدثنا عوف عن خنساء بنت معاوية قالت حدثتنى عمتى قالت :« يارسول الله من فى الجنة ؟ قال : النبى فى الجنة . والشهيد فى الجنة . والموؤدة فى الجنة»(١) وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف .

واحتجوا بقوله تعالى :(٧ - ١٧٢ - وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) وبقوله تعالى : (٩٢ - ١٥ - لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى) وبقوله تعالى :(٢ - ٢٤ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) وبقوله تعالى :(١٧ - ١٥ - وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله بالرسل فلا يعذبهم .

واحتجوا بقوله تعالى:(٢٨ - ٥٩ - وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى

---

(١) ذكره ابن كثير فى التفسير عن الامام احمد .

يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) فاذا كان سبحانه لا يهلك القرى فى الدنيا ويعذب اهلها الا بظلمهم فكيف يعذب فى الآخرة العذاب الدائم من لم يصدر منه ظلم ؟ *

ولا يقال: كما اهلكه فى الدنيا تبعا لأبويه وغيرهم ، فكذلك يدخله النار تبعا لهم . لأن مصائب الدنيا إذا وردت لا تخص الظالم وحده بل تصيب الظالم وغيره . ويبعثون على نياتهم وأعمالهم كما قال تعالى: (٨: ٢٥ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) وكالجيش الذى يخسف بهم جميعهم وفيهم المكره والمستبصر وغيره، فاما عذاب الآخرة فلا يكون إلا للظالمين خاصة ولا يتبعهم فيه من لا ذنب له أصلا . قال تعالى فى النار: (٦٧: ٢٨ - ٢٩ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا : بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) وقال لابليس : (٣٨ : ٨٥ - لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) واذا امتلأت بابليس وأتباعه فاين يستقر فيها من لم يتبعه ؟ *

قالوا : وايضا فالقرآن مملوء من الأخبار بان دخول النار إنما يكون بالأعمال كقوله تعالى (٢٧ : ٩٠ - هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وقوله تعالى: (١٨ : ٤٩ - وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (٢ : ٢٨١ - وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وقوله تعالى (٤٣ : ٧٦ - وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) إلى غير ذلك من النصوص *

قالوا : وقد أخبر النبي ﷺ أن كل مولود يولد على الفطرة وإنما يهوده وينصره أبواه فاذا مات قبل التهويد والتنصير مات على الفطرة فكيف يستحق النار؟ وفى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال «يقول الله اني خلقت عبادي حنفاء. فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وقال محمد بن إسحق عن ثور ابن يزيد عن يحيى بن جابر عن عبد الرحمن بن عائذ عن عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين، وأعطاهم المال حلالا لا حراما» فزاد مسلمين ٭

قالوا : وأيضا فان النار دار عدله والجنة دار فضله . فلهذا ينشيء للجنة من لم يعمل عملا قط . وأما النار فانه لا يعذب بها الا من عمل بعمل أهلها ٭

قالوا : وأيضا فان النار دار جزاء، فمن لم يعص الله طرفة عين كيف يجازى بالنار خالدا مخلدا أبد الآباد ؟ ٭

قالوا: وأيضا فلو عذب هؤلاء لكان تعذيبهم اما مع تكليفهم بالايمان أو بدون التكليف . والقسمان ممتنعان . أما الأول فلاستحالة تكليف من لا تمييز له ولا عقل أصلا . وأما الثاني فيمتنع أيضا بالنصوص التي ذكرناها وامثالها من أن الله لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه ٭

قالوا : وأيضا فلو كان تعذيب هؤلاء لأجل عدم الايمان المانع من العذاب لاشتركوا هم وأطفال المسلمين في ذلك، لاشتراكهم في عدم الايمان الفعلي علما وعملا. فان قلتم : أطفال المسلمين منعهم تبعهم لآبائهم من العذاب، بخلاف اطفال المشركين، قلنا: الله لا يعذب احدا بذنب غيره

قال تعالى (٦-٦٤- وَلَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) وقال تعالى (٢١-٤٧- فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وهذه حجج كما ترى قوة وكثرة ولا سبيل الى دفعها . وسيأتى إن شاء الله فصل النزاع فى هذه المسألة والقول بموجب هذه الحجج الصحيحة كلها . على أن عادتنا فى مسائل الدين كلها دقها وجلها أن نقول بموجبها . ولا نضرب بعضها ببعض ، ولا نتعصب لطائفة على طائفة . بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق ونخالفها فيما معها من خلاف الحق . لانستثنى من ذلك طائفة ولا مقالة ونرجو من الله أن نحيا على ذلك . ونموت عليه ، ونلقى الله به . ولاقوة إلا بالله *

(المذهب الرابع) أنهم فى منزلة بين المنزلتين بين الجنة والنار : فانهم ليس لهم إيمان يدخلون به الجنة ، ولا لآبائهم فوز يلحق بهم أطفالهم تكميلا لثوابهم ، وزيادة فى نعيمهم . وليس لهم من الأعمال مايستحقون به دخول النار . وهذا قول طائفة من المفسرين *

قالوا ، وهم أهل الأعراف . وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى «هم الذين ماتوا فى الفترة» *

والقائلون بهذا إن أرادوا أن هذا المنزل مستقرهم أبدا فباطل . فانه لادار للقرار إلا الجنة أو النار ، وإن أرادوا أنهم يكونون فيه مدة . ثم يصيرون إلى دار القرار . فهذا ليس بممتنع *

(المذهب الخامس) أنهم تحت مشيئة الله تعالى ، يجوز أن يعمهم بعذابه ، وأن يعمهم برحمته ، وأن يرحم بعضا ويعذب بعضا بمحض الارادة والمشيئة . ولا سبيل الى اثبات شىء من هذه الأقسام الا بخبر يجب المصير اليه ولا حكم فيهم الا بمحض المشيئة . وهذا قول الجبرية نفاة الحكمة

والتعليل . وقول كثير من مثبتي القدر وغيرهم •

(المذهب السادس) أنهم خدم أهل الجنة ومماليكهم . وهم معهم بمنزلة أرقائهم ومماليكهم في الدنيا •

واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن القارى عن أبي حازم المدني عن يزيد الرقاشي عن أنس . قال الدارقطني : ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: « سَأَلْتُ رَبِّي اللَّاهِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْبَشَرِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ ، فَأَعْطَانِيهِمْ فَهُمْ خُدَّامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ » يعني الصبيان . فهذان طريقان ، وله طريق ثالث عن فضيل ابن سليمان عن عبد الرحمن بن اسحق عن الزهري عن أنس ، قال ابن قتيبة: اللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه . وليس هو من لهوت، وهذه الطرق ضعيفة . فان يزيد الرقاشي واه ، وفضيل بن سليمان متكلم فيه . وعبد الرحمن بن اسحق ضعيف •

(المذهب السابع) أن حكمهم حكم ءابائهم في الدنيا والآخرة ، فلا يفردون عنهم بحكم في الدارين . فكما هم منهم في الدنيا فهم منهم في الآخرة . والفرق بين هذا المذهب وبين مذهب من يقول : هم في النار : أن صاحب هذا المذهب يجعلهم معهم تبعا لهم ، حتى لو أسلم الابوان بعد موت أطفالهما لم يحكم لافراطهما بالنار . وصاحب القول الآخر يقول : هم في النار لكونهم ليسوا بمسلمين ، ولم يدخلوها تبعا وهؤلاء يحتجون بحديث عائشة الذي تقدم ذكره •

واحتجوا بما في الصحيحين عن الصعب بن جثامة: قال « سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ ؟

فقال : هم منهم » ومثله من حديث الاسود بن سريع . وقد تقدم حديث أبي وائل عن ابن مسعود يرفعه « الْوَائِدَةُ وَالْمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ » وهذا يدل على انها كانت في النار تبعا لها .

قالوا : ويدل عليه قوله (٥٢ : ٢١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) فهذا يدل على أن أتباع الذرية لآبائهم ونجاتهم إنما كان إكراما لآبائهم وزيادة في ثوابهم ؟ وأن الاتباع إنما يستحق بإيمان الآباء فاذا انتفى ايمان الآباء انتفى اتباع النجاة . وبقي اتباع العذاب . ويفسره قوله ﷺ : « هم منهم » .

وأجيب عن حجج هؤلاء : اما حديث عائشة الذى فيه «انهم في النار» فقد تقدم ضعفه .

واما حديثها الآخر « هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ » فمثل حديث الصعب والاسود ابن سريع . وليس فيه تعرض للعذاب بنفي ولا اثبات . وانما فيه « انهم تبع لآبائهم في الحكم وانهم اذا اصيبوا في الجهاد والبيات لم يضمنوا بدية ولا كفارة وهذا مصرح به في حديث الصعب والاسود انه في الجهاد .

واما حديث عائشة الآخر فضعفه غير واحد . قالوا : وعبدالله بن ابي قيس مولى غطيف راويه عنها ليس بالمعروف فيقبل حديثه . وعلى تقدير ثبوته فليس فيه تصريح بان السؤال وقع عن الثواب والعقاب . والنبي ﷺ قال : « هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ » ولم يقل : هم معهم . وفرق بين الحرفين . وكونهم منهم لا يقتضي أن يكونوا معهم في احكام الآخرة ؛ بخلاف كونهم منهم فانه يقتضي ان يثبت لهم احكام الآباء في الدنيا من التوارث والحضانة والنسب

وغير ذلك من احكام الايلاد والله سبحانه يخرج الطيب من الخبيث والمؤمن من الكافر *

واما حديث ابن مسعود فليس فيه ان هذا حكم كل واحد من اطفال المشركين . وانما يدل على ان بعض اطفالهم فى النار ، وان من هذا الجنس - وهن الموؤدات - من يدخل النار ، وكونها موؤدة لايمنع من دخولها النار بسبب ءاخر ، وليس المراد أن كونها موءودة هو السبب الموجب لدخول النار ، حتى يكون اللفظ عاما فى كل موءودة وهذا ظاهر ولكن كونها موءودة لايرد عنها النار إذا استحقتها بسبب كما سيأتى بيانه بعد هذا ان شاء الله *

وأحسن من هذا أن يقال : هى فى النار مالم يوجد سبب يمنع من دخولها النار كما سنذكره ان شاء الله *

ففرق بين ان يكون جهة كونها موؤدة هى التى استحقت بها دخول النار وبين كونها غير مانعة من دخول النار بسبب ءاخر . واذا كان تعالى يسال الوائدة عن وأد ولدها بغير استحقاق ، ويعذبها على وأدها . كما قال تعالى (وَاذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ) فكيف يعذب الموؤدة بغير ذنب ؟ والله سبحانه لا يعذب من وأدها بغير ذنب *

وأما قوله تعالى (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ) فهذه الآية تدل على ان الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم فى الجنة وانهم يكونون معهم فى درجتهم . ومع هذا فلا يتوهم نزول الآباء الى درجة الذرية . فان الله لم يلتهم ، أى لم ينقصهم من أعمالهم شيئا ، بل رفع ذرياتهم الى درجاتهم، مع توفير اجور الآباء عليهم ، ولما كان الحاق الذرية بالآباء فى الدرجة انما هو بحكم التبعية لا بالأعمال ، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم فى العذاب تبعا وان لم يكن

لهم اعمال الآباء . فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى (كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) وتامل قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم (١) بِإِيمَانٍ) كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم فجعل الخبر مستحقا بأمرين : احدهما ايمان الآباء . والثانى اتباع الله ذريتهم إياهم . وذلك لا يقتضى أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له ولو اريد هذا المعنى لقيل : والذين ءامنوا تتبعهم ذرياتهم . فعطف الاتباع بالواو يقتضى ان يكون المعطوف بها قيدا وشرطا فى ثبوت الخبر ، لا حصوله لكل افراد المبتدا . وعلى هذا يخرج ماروواه مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت . اتى النبى ﷺ بصبى من الأنصار يصلى عليه : فقلت : يارسول الله ، طوبى لهذا لم يعمل شرا ، ولم يدريه . قال : أَوَغَيْرَ ذَلِكَ . يَاعَائِشَةُ ، أَنَّ اللهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً وَخَلَقَهَا لَهُمْ . وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ . وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً وَخَلَقَهَا لَهُم وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ »

فهذا الحديث يدل على انه لا يشهد لكل طفل من اطفال المؤمنين بالجنة وان اطلق على اطفال المؤمنين فى الجملة انهم فى الجنة لكن الشهادة للمعين ممتنعة . كما يشهد للمؤمنين مطلقا انهم فى الجنة . ولا يشهد لمعين بذلك الا من شهد له النبى ﷺ . فهذا وجه الحديث الذى يشكل على كثير من الناس ورده الامام احمد . وقال : لا يصح . ومن يشك ان اولاد المسلمين فى الجنة ؟ .

---

(١) قال البغوى : قرا ابو عمرو (واتبعناهم) بقطع الألف على التعظيم (ذرياتهم) بالألف وكسر التاء فيهما لقوله (الحقنا بهم) (وما التناهم) ليكون الكلام على نسق واحد .

وتاوله قوم تأويلات بعيدة .

(المذهب الثامن) انهم يمتحنون فى عرصات القيامة ، ويرسل اليهم هناك رسول والى كل من لم تبلغه الدعوة فمن أطاع الرسول ودخل الجنة ومن عصاه ادخله النار . وعلى هذا فيكون بعضهم فى الجنة وبعضهم فى النار ، وبهذا يتالف شمل الأدلة كلها ، وتتوافق الأحاديث ويكون معلوم الله الذى أحال عليه النبي ﷺ حيث يقول: « الله أعلم بما كانوا عاملين » يظهر حينئذ ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلوما خارجيا لا علما مجردا ، ويكون النبي ﷺ قد رد جوابهم إلى علم الله فيهم . والله يرد ثوابهم وعقابهم إلى معلومه منهم . فالخبر عنهم مردود إلى علمه ومصيرهم مردود إلى معلومه وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضا . فمنها ماروواه الامام أحمد فى مسنده والبزار أيضا باسناد صحيح فقال الامام أحمد: حدثنا معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الاحنف بن قيس عن الاسود بن سريع ان النبي ﷺ قال: « أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِى الْفَتْرَةِ . أَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْاسْلَامُ وَأَنَا مَا أَسْمَعُ شَيْئًا . وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْاسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِى بِالْبَعَرِ . وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْاسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ . وَأَمَّا الَّذِى فِى الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ : رَبِّ مَا أَتَانِى رَسُولٌ . فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ . فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ . فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا » قال معاذ وحدثنى أبي عَن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة بمثل هذا الحديث

وقال فى آخره: « فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها رد اليها » وهو فى مسند اسحق عن معاذ بن هشام أيضا . ورواه البزار . ولفظه عن الاسود بن سريع عن النبى ﷺ قال: « يعرض على الله تبارك وتعالى الاصم الذى لايسمع شيئا ، والاحمق ، والهرم ، ورجل مات فى الفترة . فيقول الاصم : رب جاء الاسلام وماأسمع شيئا . والاحمق يقول: رب جاء الاسلام وماأعقل شيئا . ويقول الذى مات فى الفترة : رب ماأتانى لك رسول . وذكر الهرم ومايقول قال : فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه . فيرسل اليهم ادخلوا النار . فو الذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما » قال الحافظ عبدالحق فى حديث الاسود : قدجاء هذا الحديث وهو صحيح فيما أعلم . والآخرة ليست دار تكليف ولاعمل . ولكن الله يخص من يشاء بما يشاء . ويكلف من شاء ماشاء وحيثما شاء . لايسأل عما يفعل وهم يسألون .

قلت : وسيأتى الكلام على وقوع التكليف فى الدار الآخرة وامتناعه عن قريب إن شاء الله .

ورواه على بن المدينى عن معاذ بنحوه . قال البيهقى حدثنا على بن محمد ابن بشران اخبرنا أبو جعفر الرزاز اخبرنا حنبل بن الحسين أخبرنا على بن عبد الله وقال هذا اسناد صحيح .

وأما حديث على بن زيد بن جدعان عن أبى رافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . ورواه معمر عن عبدالله بن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة قوله . وروى محمد بن المبارك الصورى ثقة، حدثنا عمرو بن واقد ضعيف حدثنا يونس بن ميسرة ثقة عن أبى ادريس الخولانى عن معاذ يرفعه « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْمَمْسُوخِ عَقْلًا ، وَبِالْهَالِكِ فِى الْفَتْرَةِ ، وَبِالْهَالِكِ صَغِيرًا . فَيَقُولُ

الممسوخ عقلاً : يارب لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد مني . ويقول الهالك في الفترة : يارب لو آتاني منك عهد ما كان من آتاه منك عهد بأسعد بعهده مني . ويقول الهالك صغيراً : يارب لو آتيتني عمراً ما كان من آتيته عمراً بأسعد مني . فيقول الرب سبحانه : لئن أمرتكم بأمر فتطيعوني؟ فيقولون : نعم وعزتك . فيقول : اذهبوا فادخلوا النار . فلو دخلوها ما ضرتهم . قال : فيخرج عليهم قوابص يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء . فيرجعون ويقولون : يا ربنا أخرجنا وعزتك نريد دخولها . فخرجت علينا قوابص من نار ظننا أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء . فيأمرهم الثانية ، فيرجعون كذلك ويقولون مثل قولهم ، فيقول الله : قبل أن تخلقوا علمت ما أنتم عاملون وعلى علمي خلقتكم وإلى علمي تصيرون ، فتأخذهم النار »

فهذا وإن كان عمرو بن واقد لا يحتج به فله أصل وشواهد والأصول تشهد له ، وفي الباب أحاديث غير هذا .

وقد رويت أحاديث الامتحان في الآخرة من حديث الاسود بن سريع وصححه عبد الحق والبيهقي من حديث أبي هريرة وأنس ومعاذ وأبي سعيد .

فأما حديث الاسود فرواه معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الاحنف ابن قيس عن الاسود بن سريع أن النبي ﷺ قال معاذ وحدثني ابي عن قتادة عن الحسن عن ابي رافع عن ابي هريرة رواه احمد واسحق عن معاذ ، ورواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي رافع عن أبي

هريرة، ورواه معمر عن ابن طاوس عن ابيه عن أبي هريرة موقوفا عليه وهذا لا يضر الحديث فانه إن سلك طريق ترجيح الزائد لزيادته فواضح، وان سلك طريق المعارضة فغايتها تحقق الوقف ومثل هذا لا يقدم عليه بالرأى اذ لا مجال له فيقبل بجزم بان هذا توقيف لا عن رأى *

وأما حديث انس فرواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن ابى سليم عن عبد الوارث عن انس عن النبى ﷺ « يُؤْتَى يومَ القيامة بأربعة : بالمولود، وبالمعتوه ، وبمن مات فى الفترة ، وبالشيخ الفانى كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب سبحانه : لعنق من جهنم ابرزى ويقول لهم : انى كنت أبعث إلى عبادى رسولا من أنفسهم وانى رسول نفسى اليكم قال ويقول لهم : ادخلوا هذه ويقول : من كتب عليه الشقاء انى يدخلها ، ومنها كنا نفر ؟ قال : وأما من كتب عليه السعادة فيمضى فيقتحم فيها فيقول الله : فأنتم لرسلى أشد تكذيبا فيدخل هؤلاء الى الجنة وهؤلاء الى النار » وهذا وان لم يعتمد عليه بمجرده لمكان ليث بن ابى سليم عن عبد الرزاق عن انس عن النبى صلى الله عليه وسلم *

وأما حديث معاذ فتقدم الكلام عليه *

وأما حديث أبى سعيد فرواه محمد بن يحيى الذهلى أخبرنا سعيد بن سليمان عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود يقول الهالك فى الفترة

لَمْ يَأْتِنِى كِتَابٌ . وَيَقُولُ الْمَعْتُوهُ ، رَبِّ لَمْ تَجْعَلْ لِى عَقْلاً أَعْقِلُ بِهِ خَيْراً وَلَا شَراً . وَيَقُولُ الْمَوْلُودُ . رَبِّ لَمْ أُدْرِكِ الْعَقْلَ . فَيُرْفَعُ لَهُمْ نَاراً فَيَقُولُ رِدُوهَا . قَالَ فَيَرِدُهَا مَنْ كَانَ فِى عِلْمِ اللهِ سَعِيداً لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلَ وَيُمْسِكُ عَنْهَا مَنْ كَانَ فِى عِلْمِ اللهِ شَقِيًّا لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلَ . فَيَقُولُ . إِيَّاىَ عَصَيْتُمْ . فَكَيْفَ لَوْ رُسُلِى أَتَتْكُمْ ، تابعه الحسن بن موسى عن فضيل . ورواه ابو نعيم عن فضيل بن مرزوق فوقفه . فهذا وان كان فيه عطية فهو ممن يعتبر بحديثه ويستشهد به ، وان لم يكن حجة *

وأما الوقف فقد تقدم نظيره من حديث أبى هريرة *

فهذه الأحاديث يشد بعضها بعضا ويشهد لها أصول الشرع وقواعده والقول بمضمونها هو مذهب السلف والسنة . نقله عنهم الأشعرى رحمه الله فى المقالات وغيرها *

﴿ فان قيل ﴾ قد أنكر ابن عبد البر هذه الأحاديث وقال : أهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب . لأن الآخرة ليست دار عمل ولا ابتلاء وكيف يكلمون دخول النار ، وليس ذلك فى وسع المخلوقين ؟ والله لا يكلف نفسا إلا وسعها *

فالجواب من وجوه *

﴿أحدها﴾ . ان أهل العلم لم يتفقوا على انكارها ، بل ولا أكثرهم وان أنكرها بعضهم . فقد صحح غيره بعضها كما تقدم *

﴿ الثانى﴾ أن أبا الحسن الأشعرى حكى هذا المذهب عن أهل السنة والحديث . فدل على أنهم ذهبوا إلى موجب هذه الأحاديث *

﴿الثالث﴾ أن إسناد حديث الأسود أجود من كثير من الأحاديث

التي يحتج بها في الأحكام ، ولهذا رواه الائمة أحمد واسحق وعلي بن المديني.

(الرابع) أنه قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة ، وقالوا: لاينقطع التكليف الا بدخول دار القرار . ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف .

(الخامس) ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة.وأبي سعيد في الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولا اليها أن الله سبحانه وتعالى يأخذ عهوده ومواثيقه أن لايسأله غير الذي يعطيه ، وأنه يخالفه ويسأله غيره فيقول الله تعالى: « مَاأَغْدَرَكَ » وهذا الغدر منه هو لمخالفته للعهد الذي عاهد ربه عليه .

(السادس) قوله:وليس ذلك في وسع المخلوقين .جوابه من وجهين

أحدها : أن ذلك ليس تكليفا بما ليس في الوسع ؛ وإنمـا هو تكليف بما فيه مشقة شديدة ، وهو كتكليف بني اسرائيل قتل أولادهم وأزواجهم وآبائهم ، حين عبدوا العجل ، وكتكليف المؤمنين إذا رأوا الدجال ومعه مثال الجنة والنار أن يقعوا في الذي يرونه ناراً

الثاني : أنهم لوأطاعوه ودخلوها لم يضرهم ، وكانت برداً وسلاما فلم يكلفوا بممتنع ولابما لم يستطع

(السابع) أنه قد ثبت أنه سبحانه وتعالى يأمرهم في القيامة بالسجود ويحول بين المنافقين وبينه ، وهـــذا تكليف بما ليس في الوسع قطعا فكيف ينكر التكليف بدخول النار في رأي العين اذا كانت سببا للنجاة؟ كما جعل قطع الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف سببا كما قال أبو سعيد الخدري « بلغني أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف» رواه مسلم ، فركوب هذا الصراط الذي هو في غاية المشقة كالنار ، ولهذا كلاهما يفضي منه الى النجاة والله أعلم

(الثامن): أن هذا استبعاد مجرد لاترد بمثله الأحاديث ، والناس لهم طريقان . فمن سلك طريق المشيئة المجردة لم يمكنه أن يستبعد هذا التكليف ، ومن سلك طريق الحكمة والتعليل لم يكن معه حجة تنفي أن يكون هذا التكليف موافقا للحكم ، بل الأدلة الصحيحة تدل على أنه مقتضى الحكمة كما ذكرناه .

(التاسع) أن في أصح هذه الأحاديث وهو حديث الأسود أنهم يعطون ربهم المواثيق ليطيعنه فيما يأمرهم به فيأمرهم ان يدخلوا نار الامتحان، فيتركوا الدخول معصية لأمره : لالعجزهم عنه . فكيف يقال . انه ليس في الوسع .

(فان قيل) فالآخرة دار جزاء ، وليست دار تكليف ، فكيف يمتحنون في غير دار التكليف؟

فالجواب : أن التكليف انما ينقطع بعد دخول دار القرار ، وأما في البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسئلة الملكين في البرزخ . وهي تكليف : وأما في عرصة القيامة فقال تعالى . (٦٨ . ٤١ - ٤٣ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ اِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) فهـذا صريح في أن الله يدعو الخلائق الى السجود يوم القيامة وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسا عقوبة لهم لانهم كلفوا به في الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لايقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم، ولهذا قال تعالى :(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ اِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) دعوا اليه في وقت حيل بينهم وبينه كما في الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه وأن

تماما قالوا . يارسول الله ، هل نرى ربنا ». فذكر الحديث بطوله، الى أن قال ـ فيقول تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيقول المؤمنون . فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا اليهم ، ولم نصاحبهم . فيقول . أنا ربكم فيقولون . نعوذ بالله منك لانشرك بالله شيئا ـ مرتين اوثلاثا ـ حتى ان بعضهم ليكاد ان ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقا واحدا كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤسهم » وذكر الحديث ، وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسئلة فمن اجاب في الدنيا طوعا واختيارا اجاب في البرزخ ، ومن امتنع من الاجابة في الدنيا منع منها في البرزخ . ولم يكن تكليفه في الحال وهو غير قادر قبيحا بل هو مقتضى الحكمة الالهية . لأنه مكلف وقت القدرة ، وأبى فاذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة *

والمقصود أن التكليف لاينقطع إلا بعددخول الجنة أو النار . وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح . وفيه التكليف في عرصة القيامة . فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة . فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول والله أعلم *

وقد حكى بعض أهل المقالات عن عامر بن أشرس أنه ذهب إلى أن الاطفال يصيرون في يوم القيامة ترابا . وقد نقل عن ابن عباس ، ومحمد

ابن الحنفية. والقاسم بن محمد. وغيرهم انهم كرهوا الكلام فى هذه المسئلة جملة (١) .

﴿ الطبقة الخامسة عشرة ﴾ طبقة الزنادقة. وهم قوم أظهروا الاسلام ومتابعة الرسل ، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله . وهؤلاء المنافقون . وهم فى الدرك الأسفل من النار . قال تعالى : (٤ : ١٤٥ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف . وهم فوقهم فى دركات النار . لان الطائفتين اشتركتا فى الكفر ومعاداة الله ورسله . وزادت المنافقون عليهم بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى فى حقهم :(هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر ، أى لاعدو الا هم . ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم . وانهم لا عدو للمسلمين سواهم . بل هذا من اثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وانه لا يتوهم بانتسابهم الى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم اياهم أنهم ليسوا باعدائهم ، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ، ونصب لهم العداوة ، وجاهرهم بها . فان ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ، وهم فى الباطن على خلاف دينهم ، أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم . لان الحرب مع

---

(١) ولنعم ماصنع هؤلاء . فان الكلام فى مثل هذه المسائل من تكلف ما ليس من عملنا ولا من شأننا . ويشير الى مذهبهم قول النبى ﷺ فى الأحاديث الصحيحة : « الله أعلم بما كانوا عاملين » وغفر الله للشيخ ابن القيم تلك الاطالة التى لاطائل تحتها .

أولئك ساعة أو أياما ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر . وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحا ومساء ، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر ، ولا يمكنهم مناجزتهم . فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر فلهذا قيل (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم ، بل على معنى انهم أحق بأن يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين .

ونظير ذلك قول النبي ﷺ : « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الطَّوَّافُ الَّذِى تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِى لاَ يَسْأَلُ النَّاسَ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ » (١) فليس هذا نفيا لاسم المسكين عن الطواف بل اخبار بأن هذا القانع الذى لا يسمونه مسكينا أحق بهذا الاسم من الطواف الذى يسمونه مسكينا ، ونظيره قوله ﷺ : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ وَلَكِنِ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ (٢) » ليس نفيا للاسم عن الصرعة ولكن اخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم .

ونظيره قوله ﷺ : « مَا تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ ؟ قَالُوا : مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ . قَالَ : الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ . وَيَأْتِى قَدْ لَطَمَ هَذَا . وَضَرَبَ هَذَا . وَأَخَذَ مَالَ هَذَا فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ . فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِىَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ ثُمَّ طُرِحَ عَلَيْهِ فَأُلْقِىَ فِى النَّارِ (٣) » ونظيره قوله ﷺ :

(١ ، ٢) رواهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة (٣) رواه مسلم

« مَاتَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ ؟قَالُوا. مَنْ لَا يُولَدُ لَهُ . قَالَ: الرَّقُوبُ مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا (١) » ومنه عندى قوله ﷺ : « الرِّبَا فِى النَّسِيئَةِ » وفى لفظ « إِنَّمَا الرِّبَا فِى النَّسِيئَةِ »(٢) هو اثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل ، وليس فيه نفى اسم الربا عن ربا الفضل . فتأمله .

والمقصود : أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء : ولهذا يستهزأ بهم فى الآخرة . وتعطى نورا يتوسطون به على الصراط ثم يطفىء الله نورهم : ويقال لهم: (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) ويضرب بينهم وبين المؤمنين (بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح ، حتى اذا ظن انه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليهم الشقوة ، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه وانما كانت هذه الطبقة فى الدرك الأسفل لغلظ كفرهم . فانهم خالطوا المسلمين وعاشروهم ، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الايمان مالم يباشره البعداء ، ووصل اليهم من معرفته

والترمذى عن أبى هريرة (١) رواه البخارى (٢) رواه مسلم عن ابن عباس عن أسامة بن زيد رضى الله عنهم ورواه البخارى عن ابن عباس عن اسامة بلفظ « لاربا الا فى النسيئة » ورواه النسائى . وابن ماجه .

وعتة مالم يصل الى المنابذين بالعداوة فاذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرا وأخبث قلوبا ، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم وان كان البعداء متصدين لحرب المسلمين، ولهذا قال تعالى فى المنافقين: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) وقال تعالى فيهم :(٢ : ١٨ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) وقال تعالى فى الكفار: (٢ : ١٧١ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) فالكافر لم يعقل والمنافق أبصر ثم عمى وعرف ثم تجاهل وأقر ثم أنكر وءامن ثم كفر ، ومن كان هكذا كان أشد كفرا وأخبث قلبا ، واعتى على الله ورسله فاستحق الدرك الأسفل ٭

وفيه معنى آخر أيضا : وهو أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين ، فيرضوا المؤمنين ليعزوهم ؛ ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضا. ومن ههنا دخل عليهم البلاء . فانهم أرادوا العزتين من الطائفتين . ولم يكن لهم غرض فى الايمان والاسلام ولا طاعة الله ورسوله ، بل كان ميلهم وصغوهم ووجهتهم إلى الكفار . فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل ، وهو ان جعل مستقرهم فى أسفل السافلين تحت الكفار . فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله والذين ءامنوا ، والاستهزاء باهل الايمان والكذب، والتلاعب بالدين وإظهار أنهم من المؤمنين ، وابطانوا قلوبهم على الكفر والشرك وعداوة الله ورسوله امر اختصوا به عن الكفار ؛ فتغلظ كفرهم به، فاستحقوا الدرك الاسفل من النار ٭

ولهذا لما ذكر تعالى اقسام الخلق فى اول سورة البقرة فقسمهم إلى مؤمن ظاهرا وباطنا، وكافر ظاهرا وباطنا، ومؤمن فى الظاهر كافر فى الباطن، وهم المنافقون . ذكر فى حق المؤمنين ثلاث آيات ؛ وفى حق الكفار آيتين . فلما انتهى

إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية ، ذمهم فيها غاية الذم ، وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم ، واخبر انهم هم السفهاء المفسدون فى الارض المخادعون المستهزؤن المغبونون فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وانهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، وانهم مرضى القلوب ، وان الله يزيدهم مرضا إلى مرضهم . فلم يدع ذما ولا عيبا الا ذمهم به . وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم ، وبغضه إياهم ، وعداوته لهم ، وانهم ابغض اعدائه اليه . فظهرت حكمته الباهرة فى تخصيص هذه الطبقة بالدرك الاسفل من النار ، نعوذ بالله من مثل حالهم . ونسأله معافاته ورحمته *

ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين فى القرءان من صفات الذم علم انهم احق بالدرك الاسفل . فانه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده . ووصف قلوبهم بالمرض ، وهو مرض الشبهات والشكوك ، ووصفهم بالافساد فى الارض ، وبالاستهزاء بدينه وبعباده ، وبالطغيان ، واشتراء الضلالة بالهدى والصمم والبكم والعمى ، والحيرة والكسل عند عبادته ، والزنا وقلة ذكره والتردد وهو التذبذب بين المؤمنين والكفار ، فلا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، والحلف باسمه تعالى كذبا وباطلا وبالكذب ، وبغاية الجبن وبعدم الفقه فى الدين وبعدم العلم ، وبالبخل وبعدم الايمان بالله وباليوم الاخر وبالريب ، وبانهم مضرة على المؤمنين ولا يحصل لهم بنصيحتهم الا الشر من الخبال والاسراع بينهم بالشر والقاء الفتنة ، وكراهتهم لظهور امر الله ، ومجىء الحق ؛ وانهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر ، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء ، وانهم يتربصون الدوائر بالمسلمين ، وبكراهتهم الانفاق فى مرضاة الله وسبيله ، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم فيلمزون المتصدقين . ويعيبون مزهدهم ، ويرمون بالرياء وإرادة الثناء فى الناس مكثرهم وإنهم عبيد الدنيا أن اعطوا منها رضوا وإن منعوا سخطوا وبأنهم يؤذون رسول

الله ﷺ ويذمونه الى ما برأه الله منه ويعيبونه بما هو من كماله وفضله وانهم يقصدون ارضاء المخلوقين ولا يطلبون ارضاء رب العالمين وانهم يسخرون من المؤمنين وانهم يفرحون اذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ ويكرهون الجهاد فى سبيل الله . وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل ، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله . وأنهم مطبوع على قلوبهم . وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه . وانهم أحلف الناس بالله قد اتخذوا أيمانهم جنة تقيهم من انكار المسلمين عليهم ، وهذا شأن المنافق أحلف الناس بالله كاذبا قد اتخذ يمينه جنة ووقاية يتقى بها انكار المسلمين عليه . ووصفهم بانهم رجس . والرجس من كل جنس أخبثه واقذره فهم أخبث بنى ءادم وأقذرهم وأرذلهم . وبانهم فاسقون . وبانهم مضرة على الايمان يقصدون التفريق بينهم . ويؤوون من حاربهم وحارب الله ورسوله . وانهم يتشبهون بهم ويضاهونهم فى أعمالهم ليتوصلوا منها الى الاضرار بهم وتفريق كلمتهم ، وهذا شأن المنافقين أبدا ، وبانهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء ، وهذا عادتهم فى كل زمان ، وارتابوا فى الدين فلم يصدقوا به ، وغرتهم الأمانى الباطلة وغرهم الشيطان وأنهم أحسن الناس أجساما تعجب الرائى اجسامهم ، والسامع منطقهم ، فاذا جاوزت اجسامهم وقولهم رأيت خشبا مسندة ، لا ايمان ولا فقه ، ولا علم ولا صدق ، بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر ، وليسوا وراء ذلك شيئا ، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها ، وزعموا أنهم لا حاجة لهم اليها ، إما لأن ماعندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة ، كحال كثير من الزنادقة . وإما احتقارا وازدراء بمن يدعوهم الى ذلك . ووصفهم سبحانه بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله

وبأنهم مجرمون وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الانفاق فى مرضاته . ونسيان ذكره. وبانهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين . وبان الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلا . وانهم حزب الشيطان . وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله وبانهم يتمنون مايعنت المؤمنين ويشق عليهم وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم . وبانهم يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم *

ومن صفاتهم التى وصفهم بها رسول الله ﷺ الكذب فى الحديث، والخيانة فى الأمانة ، والغدر عند العهد ، والفجور عند الخصام ، والخلف عند الوعد ، وتاخير الصلاة إلى ءاخر وقتها ، ونقرها عجلة واسراعا ، وترك حضورها جماعة . وان أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء *

ومن صفاتهم التى وصفهم الله بها الشح على المؤمنين بالخير . والجبن عند الخوف . فاذا ذهب الخوف وجاء الامن سلقوا المؤمنين بالسنة حداد فهم أحد الناس السنة عليهم كما قيل :

جهلا علينا وجبنا عن عدوكم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

وانهم عند المخاوف تظهر كائن صدورهم ومخبئاتها ، وأما عند الامن فيحب ستره . فاذا لحق المسلمين خوف دبت عقارب قلوبهم . وظهرت المخبئات وبدت الأسرار *

ومن صفاتهم أنهم أعذب الناس ألسنة ، وأمرهم قلوبا ، وأعظم الناس مخلفا بين أعمالهم وأقوالهم *

ومن صفاتهم أنهم لايجتمع فيهم حسن صمت وفقه فى دين أبدا *

ومن صفاتهم أن أعمالهم تكذب أقوالهم ، وباطنهم يكذب ظاهرهم ، وسرائرهم تناقض علانيتهم *

ومن صفاتهم أن المؤمن لا يثق بهم فى شيء فانهم قد أعدوا لكل أمر مخرجا منه ، بحق أو بباطل ، بصدق أو بكذب ، ولهذا سمى منافقا آخذا من نافقاء اليربوع . وهو بيت يحفره ويجعل له أسرابا مختلفة ، فكلما طلب من سرب خرج من سرب آخر ، فلا يتمكن طالبه من حصره فى سرب واحد ، قال الشاعر :

ويستخرج اليربوع من نافقائه ومن جحره ذو الشيخة اليتقضع(١)

فأنت منه كقابض على الماء ليس معك منه شيء .

ومن صفاتهم كثرة التلون ، وسرعة التقلب ، وعدم الثبات على حال واحد ، بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدى صالح أو صدق إذا انقلب إلى ضد ذلك . كأنه لم يعرف غيره . فهو أشد الناس تلونا وتقلبا وتنقلا ، جيفة بالليل قطربا (٢) بالنهار .

ومن صفاتهم أنك اذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرءان والسنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه . ودعوك إلى التحاكم الى طواغيتهم قال تعالى : (٤ : ٦٠ - ٦٣ - أَلَمْ تَرَ الَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ الَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا الَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ

---

(١) البيت لذى الخرق خليفة بن حمل الفهرى . وهو من ابيات سبعة أوردها ابو زيد فى نوادره لذى الخرق . وبسطه فى شرح شواهد الرضى لعبد القادر البغدادى . والشيخة ضبطها فى القاموس بالفتح ، وقال المرتضى حقق غير واحد انها بالكسر - رملة اءضاب بلاد اسد وحنظلة . واليتقضع الذى يتقصع . وتقصيع اليربوع : اخراجه تراب قاصعائه اى جحره و نافقائه

(٢) القطرب : الجبان والجاهل والسفيه والمصروع . ودويبة لا تستريح نهارها سعيا .

أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً) •

ومن صفاتهم ، معارضة ماجاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وءارائهم ، ثم تقديمها على ماجاء به . فهم معرضون عنه . معارضون له زاعمون أن الهدى فى ءاراء الرجال وعقولهم ،دون ماجاء به . فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين . فكيف اذا جمعوا مع ذلك معارضته وزعمهم أنه لا يستفاد منه هدى •

ومن صفاتهم : كتمان الحق ، والتلبيس على أهله ، ورميهم له بأدوائهم . فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا الى الله ورسوله بانهم اهل فتن مفسدون فى الارض . وقد علم الله ورسوله والمؤمنون بانهم اهل الفتن المفسدون فى الأرض ، واذا دعاهم ورثة الرسول الى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال واذا راوهم زاهدين فى الدنيا راغبين فى الآخرة متمسكين بطاعة الله ورسوله ﷺ رموهم بالزوكرة والتلبيس والمحال . وإذا رأوا معهم حقا ألبسوه لباس الباطل ، وأخرجوه لضعفاء العقول فى قالب شنيع لينفروهم عنه واذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق وأخرجوه فى قالبه ليقبل منهم •

وجملة أمرهم : أنهم فى المسلمين كالزغل فى النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد ، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس ، وقليل ماهم . وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس . وإنما تفسد الاديان من قبلهم . ولهذا جلا الله أمرهم فى القرءان ، وأوضح أوصافهم وبين أحوالهم ، وكرر ذكرهم . لشدة المؤنة على الامة بهم . وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم . وفرط حاجتهم إلى معرفتهم . والتحرز من مشابهتهم . والاصغاء اليهم . فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى وسلكوا بهم سبيل الردى . وعدوهم ومنوهم ولكن وعدوهم الغرور ومنوهم الويل والثبور . فكم لهم من قتيل . ولكن فى سبيل الشيطان . وسليب ولكن للباس التقوى والايمان . وأسير لايرجى له الخلاص . وفار من الله لااليه . وهيهات ولات حين مناص . صحبتهم توجب العار والشنار ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار . من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والايمان . وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان . فهو يسحب من الحرمان والشقاوة اذيالا . ويمشى على عقبيه القهقرى ادبارا منه وهو يحسب ذلك اقبالا . فهم والله قطاع الطريق حقا : فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء حذار منهم حذار ، إذهم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا . فرارا منهم أيها الغنم فرارا ، ومن البلية أنهم الاعداء حقا وليس لنا بد من مصاحبتهم : وخلطتهم أعظم الداء وليس بد من مخالطتهم . قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة اليها فبعداً للمستجيبين ونصبوا شباكهم حواليها على ماحفت به من الشهوات ، فويل للمغترين نصبوا الشباك ومدوا الأشراك . وأذن مؤذنهم ياشياه الأنعام حى على الهلاك . حى على التباب فاستبقوا يهرعون اليه فأورد وهم حياض العذاب لاالموارد العذاب . وأساموهم من الخسف والبلاء أعظم حظه . وقالوا

ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة حطة فليس بيوم حطة ، فواعجبا لمن نجا من شراكهم لامن علق . وأنى ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق . فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذى أحلهم الله من دار الهوان وأن ينزلوا فى أردأ منازل أهل العناد والكفران . وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه ان يكون من أهل هذه الطبقة ولهذا اشتد خوف سادة الامة وسابقوها على انفسهم ان يكونوا منهم فكان عمر بن الخطاب يقول: « ياحذيفة ناشدتك الله هل سماني رسول الله ﷺ مع القوم ؟ فيقول: لا ولا ازكى بعدك احدا » (١) يعنى لا افتح على هذا الباب فى تزكية الناس وليس معناه . انه لم يبرأ من النفاق غيرك وقال ابن أبى مليكة: « ادركت ثلاثين من اصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، مامنهم أحد يقول . انه على إيمان جبرائيل وميكائيل » (٢) *

﴿ الطبقة السادسة عشرة ﴾ رؤساء الكفر وأئمته ، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الايمان وعن الدخول فى دينه رغبة ورهبة فهؤلاء عذابهم مضاعف ولهم عذابان عذاب بالكفر وعذاب بصد الناس عن الدخول فى الايمان قال الله تعالى :(١٦ : ٨٨ـ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) فأحد العذابين بكفرهم والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعى الى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له ولاريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به *

وهذا النوع فى الأشقياء مقابل دعاة الهدى فى السعداء فاولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم . بحسب من اتبعهم واهتدى بهم وهؤلاء عكسهم

---

(١) رواه البخارى (٢) رواه البخارى *

ولهذا كان فرعون وقومه فى أشد العذاب. قال تعالى فى حقهم: (٤٠ : ٤٦ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وهذا تنبيه على ان فرعون نفسه فى الأشد من ذلك لأنهم انما دخلوا اشد العذاب تبعاله فانه هو الذى استخفهم فاطاعوه وغرهم فاتبعوه ولهذا يكون يوم القيامة امامهم وفرطهم فى هذا الورد. قال تعالى (١١ : ٩٨ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) *

والمقصود : أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم ، وصدهم عن سبيل الله ، وعقوبتهم من آمن بالله . فليس عذاب الرؤساء فى النار كعذاب أتباعهم . ولهذا كان فى كتاب النبي ﷺ لهرقل « فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ » (١) والصحيح فى اللفظ أنهم الاتباع . ولهذا كان عدو الله ابليس أشد أهل النار عذابا . وهو أول من يكسى حلة من النار لانه إمام كل كفر وشرك وشر . فما عصى الله الا على يديه وبسببه . ثم الأمثل فالأمثل من نوابه فى الأرض ودعاته. ولاريب أن الكفر يتفاوت فكفر أغلظ من كفر . كما أن الايمان يتفاوت ، فايمان أفضل من ايمان فكما أن المؤمنين ليسوا فى درجة واحدة بل هم درجات عند الله . فكذلك الكفار ليسوا فى طبقة واحدة ودرك واحد . بل النار دركات كما أن الجنة درجات . ولا يظلم الله من خلقه أحدا . وهو الغنى الحميد *

﴿ فصل ﴾ وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه *

﴿ أحدها ﴾ من حيث العقيدة الكافرة فى نفسها : كمن جحد رب العالمين بالكلية . وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له ، فلم يؤمن بالله

---

(١) رواه البخارى فى بدء الوحى عن ابن عباس رضى الله عنهما *

وملائكته ، ولا كتبه ولا رسله ولااليوم الآخر. ولهذا لايقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء ، ولاتؤكل ذبائحهم ، ولا تنكح نساؤهم اتفاقا . لتغلظ كفرهم . وهؤلاء هم المعطلة والدهرية . وكثير من الفلاسفة وأهل الوحدة القائلين بأنه لاوجود للرب سبحانه وتعالى غير وجود هذا العالم ٭

﴿ الجهة الثانية ﴾ تغلظه بالعناد والضلال عمدا على بصيرة . ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رءاه من ءايات صدقه ، وكفر عنادا وبغيا . كقوم ثمود ، وقوم فرعون ، واليهود الذين عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم ، وكفر أبي جهل ، وأمية بن أبي الصلت ، وأمثال هؤلاء ٭

﴿ الجهة الثالثة ﴾ السعى فى إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل اليه قدرتهم . فهؤلاء أشد الكفار عذابا بحسب تغلظ كفرهم ومنهم من يجتمع فى حقه الجهات الثلاث ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة . فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم فى الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله والمؤمنون من اذاه فى سلامة لاينالهم منه اذى . ولم يتغلظ كفره ، كتغلظ هؤلاء . بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر . وان شارك أولئك فى كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعا من الكفر . وهل يستوى فى النار عذاب أبى طالب وأبى لهب . وأبى جهل . وعقبة بن أبى معيط . وأبى بن خلف . واضرابهم ٭

والمقصود أن هذه الطبقة وهى طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم : وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « اهون اهل النار عذابا ابو طالب » ومعلوم أن كفر أبى طالب لم يكن مثل كفر أبى جهل وأمثاله ٭

(الطبقة السابعة عشرة) طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعا لهم يقولون . انا وجدنا آباءنا على أمة . وانا على أسوة بهم . ومع هذا فهم متاركون لأهل الاسلام غير محاربين لهم . كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم . الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم . من السعى فى اطفاء نور الله . وهدم دينه . واخماد كلماته . بل هم بمنزلة الدواب . وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار . وان كانوا جهالا مقلدين لروسائهم وأئمتهم . الا مايحكى عن بعض أهل البدع أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة . وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم . وانما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث فى الاسلام . وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « مَامِنْ مَوْلُود الَّا وَهُوَ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » فاخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية . ولم يعتبر في ذلك غير المربى والمنشأ على ماعليه الأبوان . وصح عنه أنه قال ﷺ « إِنَّ الْجَنَّةَ لَايَدْخُلُهَا الَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ » وهذا المقلد ليس بمسلم . وهو عاقل مكلف . والعاقل المكلف لايخرج عن الاسلام أو الكفر . وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف فى تلك الحال . وهو بمنزلة الأطفال والمجانين . وقد تقدم الكلام عليهم . والاسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له . والايمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به . فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم . وان لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين . وعدم عنادهم لايخرجهم عن كونهم كفارا . فان الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله اما

عنادا أو جهلا وتقليدا لأهل العناد . فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد . وقد أخبر الله فى القرءان فى غير موضع بعذاب المقلدين لاسلافهم من الكفار ، وأن الاتباع مع متبوعهم وانهم يتحاجون فى النار ، وأن الاتباع يقولون (٧ : ٣٨ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ . قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (٤٠ : ٤٧ ، ٤٨ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) وقال تعالى : (٣٤ : ٣١ - ٣٣ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا) فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا فى العذاب . ولم يغن عنهم تقليدهم شيئا . وأصرح من هذا قوله تعالى : (٢ : ١٦٦ ، ١٦٧ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا) وصح عن النبى ﷺ أنه قال :

«من دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل اوزار من اتبعه . لاينقص من اوزارهم شيئا » وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم انما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم ٭

نعم لابد فى هذا المقام من تفصيل به يزول الاشكال . وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه ، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان فى الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لاعذر له عند الله ، وأما العاجز عن السوال والعلم الذى لايتمكن من العلم بوجه فهم قسمان ايضا ٭

﴿ احدهما ﴾ مريد للهدى مؤثر له محب له ، غير قادر عليه ،ولا على طلبه ، لعدم من يرشده (١) فهذا حكمه حكم ارباب الفترات ، ومن لم تبلغه الدعوة ٭

﴿ الثانى ﴾ : معرض لاارادة له ، ولا يحدث نفسه بغير ماهو عليه

فالأول يقول: يارب لو اعلم لك دينا خيرا مما انا عليه لدنت به وتركت ماانا عليه ، ولكن لاأعرف سوى ماأنا عليه ولا اقدر على غيره فهو غاية جهدى ونهاية معرفتى ٭

والثانى : راض بما هو عليه لايؤثر غيره عليه ، ولاتطلب نفسه سواه ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته ، وكلاهما عاجز ، وهذا لا يجب

---

(١) وهذا طبعا لايكون فى مدينة أو بلد أو قطر فيه علم وكتب . وانما يكون فى مجاهل الأرض ، ورءوس الجبال . وان كان أهل الدين وعلماؤه مقصرين فى ابلاغ هذا وأمثاله . واليوم وقد اتصل العالم قاصيه بدانيه بطرق المواصلات الهوائية والسلكية وغير السلكية والبرية والبحرية . فقد قامت الحجج على الناس كافة . خصوصا علماء الاسلام المقصرون كل التقصير فى الدعوة إلى الله ٭

ان يلحق بالأول لما بينهما من الفرق، فالأول كمن طلب الدين فى الفترة ولم يظفر به؛ فعدل عنه بعد استفراغ الوسع فى طلبه عجزا وجهلا، والثانى كمن لم يطلبه بل مات على شركه وان كان لو طلبه لعجز عنه ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض فتأمل هذا الموضع والله يقضى بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله ولا يعذب الا من قامت عليه حجته بالرسل. فهذا مقطوع به فى جملة الخلق، وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة ام لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه بل الواجب على العبد ان يعتقد ان كل من دان بدين غير دين الاسلام فهو كافر وان الله سبحانه وتعالى لا يعذب احدا الا بعد قيام الحجة عليه بالرسول هذا فى الجملة والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه. هذا فى أحكام الثواب والعقاب وأما فى احكام الدنيا فهى جارية على ظاهر الأمر. فاطفال الكفار ومجانينهم كفار فى أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الاشكال فى المسئلة. وهو مبنى على أربعة أصول ه

﴿ أحدها ﴾ أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه كما قال تعالى: (١٧ : ١٥ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) وقال تعالى : (٤ : ١٦٥ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقال تعالى .(٦٧ : ٨-١١ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) وقال تعالى : (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال

تعالى : (٦ : ١٣٠ يَامَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) وهذا كثير فى القرءان ، يخبر أنه انما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة . وهو المذنب الذى يعترف بذنبه، وقال تعالى : (٤٣ : ٧٦ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) والظالم من عرف ماجاءبه الرسول أو تمكن من معرفته بوجه وامامن لم يعرف ماجاءبه الرسول وعجز عن ذلك . فكيف يقال : انه ظالم ؟ .

الأصل الثانى : أن العذاب يستحق بسببين . أحدهما الاعراض عن الحجة وعدم ارادتها والعمل بها وبموجبها . الثانى : العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها . فالأول كفر اعراض . والثانى كفر عناد . وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذى نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل .

الأصل الثالث : أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص . فقد تقوم حجة الله على الكفار فى زمان دون زمان . وفى بقعة وناحية دون أخرى كما أنها تقوم على شخص دون آخر . اما لعدم عقلة وتمييزه . كالصغير والمجنون . واما لعدم فهمه كالذى لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له . فهذا بمنزلة الاصم الذى لايسمع شيئا ولا يتمكن من الفهم : وهو أحدالأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة . كما تقدم فى حديث الأسود ، وأبى هريرة وغيرهما .

الأصل الرابع : أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التى

لايخل بها ، وأنها مقصودة لغايتها المحمودة ، وعواقبها الحميدة . وهذا الأصل هو أساس الكلام فى هذه الطبقات الا من عرف ما فى كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف فى هذا الباب وانتهى الى غاية مراتبهم ونهاية اقدامهم والله الموفق للسداد الهادى الى الرشاد ٭

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلا ورد الأمر الى محض المشيئة التى ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك ، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة وأدخلها كلها تحت قوله : (٢١ : ٢٣ - لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) وهو الفعال لما يريد . وصدق الله وهو أصدق القائلين : لا يسأل عما يفعل . لكمال حكمته وعلمه . ووضعه الأشياء مواضعها ، وأنه ليس فى أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق وهو الفعال لما يريد . ولكن لا يريد ان يفعل إلا ماهو خير ومصلحة ورحمة وحكمة . فلا يفعل الشر . ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته ، لكمال اسمائه وصفاته وهو الغنى الحميد العليم الحكيم ٭

﴿ فصل الطبقة الثامنة عشرة ﴾ طبقة الجن . وقد اتفق المسلمون على ان منهم المؤمن والكافر ، والبر والفاجر . قال تعالى اخبارا عنهم : (٧٢ : ١١ - وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا) قال مجاهد : يعنون مسلمين وكافرين ، وقال الحسن . والسدى : أمثالكم فنهم قدرية ومرجئة ورافضة ، وقال سعيد بن جبير : الوانا شتى ٭

وقال ابن كيسان . شيعا وفرقا ، ومعنى الكلام : اصنافا مختلفة ، ومذاهب متفرقة ٭

ثم قيل : فى اعراب الآية : ومنا دون ذلك قوم دون ذلك فحذف

الموصوف واقام صفته مقامه . كقوله: (٣٧ : ١٦٤ - وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) اى الا من له مقام معلوم . وكقوله (٥ : ٤٤ - وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ) اى فريق سماعون، وكقوله (٤ : ٤٥ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) اى فريق يحرفون . وكقوله على اظهر القولين (٢ : ٩٦ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ) اى فريق يود احدهم وقال الشاعر :

فظلوا ومنهم دمعه سابق لهم وءاخر يذرى دمعة العين بالمهل

اى ومنهم من دمعه *

وقولهم (كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا) بيان لقولهم (مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ) اى كنا ذوى طرائق . وهى المذاهب . واحدها : طريقة وهى المذهب «والقدد» جمع قدة . كقطعة وقطع . وزنا ومعنى . وهى من القد ، وهو القطع؛ وقيل : كنا فى اختلاف احوالنا مثل الطرائق المختلفة فى اختلافها وعلى هذا فالمعنى كنا طرائق قددا وليس بشىء، واضعف منه قول من قال: إن طرائق منصوب على الظرف ، اى كنا فى طريق مختلفة كقوله :

* عسل الطريق الثعلب * وهذا مما لا يحمل عليه افصح الكلام *

وقيل : المعنى كانت طرائقنا طرائق قددا ، فحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه *

وقال تعالى اخبارا عنهم (٧٢ : ١٤ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) فالمسلمون الذين ءامنوا بالله ورسوله منهم . والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق . قال ابن عباس : هم الذين جعلوا لله أندادا ، يقال: اقسط الرجل

إذا عدل، فهو مقسط. ومنه (٤٩ : ٩ - وَأَقْسِطُوا ان اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وقسط إذا جار ، فهو قاسط (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم الى ثلاث طبقات صالحين ، ودون الصالحين ، وكفار. وهذه الطبقات بازاء طبقات بني ءادم. فانها ثلاثة. أبرار. ومقتصدون وكفار، فالصالحون بازاء الابرار. ومن دونهم بازاء المقتصدين. والقاسطون بازاء الكفار . وهذا كما قسم سبحانه بني اسرائيل الى هذه الاقسام الثلاثة في قوله (٧ :١٦٨ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ) فهؤلاء الناجون منهم ، ثم ذكر الظالمين ، وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم *

ولما كان الانس أكمل من الجن وأتم عقولا أزدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شيء منها للجن ، وهم الرسل والانبياء ، والمقربون . فليس في الجن صنف من هؤلاء . بل حليتهم الصلاح وذهب شذاذ من الناس الى أن فيهم الرسل والانبياء ، محتجا على ذلك بقوله تعالى :(٦ : ١٣٠ - يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) وبقوله (٤٦ : ٢٩ - وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ الى قوله مُنْذِرِينَ) وقد قال الله تعالى (٤ :١٦٥ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) وهذا قول شاذ لا يلتفت اليه ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الاسلام وقوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) لا يدل على أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين ، بل اذا كانت الرسل من الانس وقد أمرت الجن باتباعهم . صح أن يقال للانس والجن ألم يأتكم رسل منكم . ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم . ألم يجئكم رسل منكم يامعشر

العرب والعجم . فهذا لايقتضى أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء .
وقال تعالى: (٧١ : ١٦ - وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً)وليس فى كل سماء قمر.
وقوله تعالى :(وَلَّوْا الى قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ) فالانذار أعم من الرسالة والاعم
لايستلزم الاخص قال تعالى: (٩ ، ١٢٢ - فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ
طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) فهؤلاء نذر
وليسوا برسل . قال غير واحد من السلف الرسل من الانس . وأما الجن
ففيهم النذر قال تعالى (١٢ ، ١٠٩ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي
إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيا ولاامرأة ولابدويا
وأما تسميته تعالى الجن رجالا فى قوله(٧٢ ، ٦ - وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ
يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ) فلم يطلق عليهم الرجال ، بل هى تسمية مقيدة
بقوله (مِنَ الْجِنِّ) فهم رجال من الجن ولايستلزم ذلك دخولهم فى الرجال
عند الاطلاق كما تقول رجال من حجارة ، ورجال من خشب ونحوه .

﴿ فصل ﴾ وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن فى النار وقد دل
على ذلك القرآن فى غير موضع كقوله تعالى(٣٢ ، ١٣ - وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) وقوله تعالى(٣٨ ، ٨٥ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) الاية فلؤها منه وبكفار ذريته :
وقال تعالى(٧ : ٣٨ - ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

فى النَّار) وقال تعالى حكاية عن مومنهم (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ - إلى قوله- حطبا) وقال الله تعالى (٧ : ١٧٩ - وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْس) وقال الله تعالى (٢٦ : ٩٤ ، ٩٥ - فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون فى عمومه *

وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الاسلام . وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم . فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدا ﷺ بعث إلى الجن والانس ، وأنه يجب على الجن طاعته . كما يجب على الانس . وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى :(ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّارِ) يدل على أن الامم الخالية من كفار الجن فى النار . وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة . وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع . كما كلف الانس ولهذا يقول فى اثر كل آية (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فدل ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معا ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ . وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردا منهم . فانهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) لانكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد ، ولما كان أبوهم هو أول من دعا الى معصية الله ، وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان . فهو الداعى الى النار . وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادى « واثبوراه » فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون « واثبوراهم » حتى قيل :ان كل عذاب يقسم

على أهل النار يبدأ به فيه . ثم يصير اليهم *

(فصل) وأما حكم مؤمنيهم فى الدار الآخرة فجمهور السلف والخلف على أنهم فى الجنة . وترجم على ذلك البخارى فى صحيحه فقال «باب ثواب الجن وعقابهم لقوله تعالى (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي) الآية: بخسا نقصا نا، قال مجاهد :(٣٧ : ١٥٨ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً) قال : كفار قريش : الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سروات الجن. قال الله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) يستحضر للحساب . ثم ذكر حديث أبى سعيد « اذا كنت فى غنمك وباديتك فاذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فانه لايسمع مدى صوت المؤذن جن ولا انس ولاشيء الا شهد له يوم القيامة بالتوحيد سمعته من رسول الله ﷺ » هذا ماذكره فى الباب *

وقد ذهب جمهور الناس الى أن مؤمنيهم فى الجنة . وحكى عن أبى حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار . واحتج لهذا القول بقوله تعالى حكاية عنهم (يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ) الاية فجعل غاية ثوابهم اجارتهم من العذاب الاليم *

وأما الجمهور فقالوا : مؤمنهم فى الجنة كما أن كافرهم فى النار . ثم اختلفوا فاطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه . وقال سهل بن عبد الله : يكونون فى ربض الجنة ، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم . فهذه مذاهب الناس فى أحكامهم فى الآخرة *

وأما أحكامهم فى الدنيا فاختلف الناس ، هل هم مكلفون بالامر والنهى أم هم مضطرون على أفعالهم ؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الاشعرى فى

كتاب المقالات له .

فقال : واختلف الناس فى الجن ، هل هم مكلفون ، أم مضطرون ؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم : هم مأمورون منهيون . وقد أمروا ونهوا وهم مختارون . وزعم زاعمون أنهم مضطرون .

قلت : الصواب الذى عليه جمهور أهل الاسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الاسلامية وأدلة القرءان والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر . فاضافة هذا القول الى المعتزلة بمنزلة أن يقال : ذهبت المعتزلة الى القول بمعاد الأبدان . ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الاسلام وقال الله تعالى : (٤٦ : ١٨ - أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ) الآية فاخبر أن منهم من حق عليه القول أى وجب عليه العذاب وأنه خاسر ولايكون ذلك الا فى اهل التكليف المستوجبين العقاب باعمالهم . ثم قال بعد ذلك (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) اى فى الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئا من اعمالهم ، وهذا ظاهر جدا فى ثوابهم وعقابهم ، وان مسيئهم كما يستحق العذاب باساءته فحسنهم يستحق الدرجات باحسانه ولكل درجات مما عملوا فدل ذلك لامحالة انهم كانوا مأمورين بالشرائع ، متعبدين بها فى الدنيا ولذلك استحقوا الدرجات باعمالهم فى الآخرة فى الخير والشر ، وقال الله تعالى : (٤١ : ٢٥ - وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) الآية ، ومعنى الآية : ان الله قيض للمشركين اى سبب لهم قرناء من الشياطين ، يزينون لهم ما بين ايديهم وما خلفهم من التكذيب

بالآخرة ومافيها من الثواب والعقاب ، وقيل : عكس هذا وان مابين ايديهم هو ترغيبهم فى الدنيا وحرصهم عليها وماخلفهم هو التكذيب بالآخرة *

وقال الحسن : مابين ايديهم هو حب ما كان عليه اباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل وماخلفهم تكذيبهم بالبعث ومابعده، وفى الآية قول رابع : وهو ان التزيين كله راجع الى اعمالهم فزينوا لهم مابين ايديهم اعمالهم التى عملوها وما خلفهم الاعمال التى هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد، وكان لفظ التزيين بهذا القول اليق، ومن جعل ماخلفهم هو الاخرة لم يستقم قوله الا باضمار اى زينوا لهم التكذيب بالاخرة ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فانهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها ولهذا كان عليه جمهور اهل التفسير ، حتى لم يذكر البغوى غيره وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج : سببنالهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم مابين أيديهم وماخلفهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة وماخلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث *

والمقصود أن قوله تعالى : (٤١ : ٢٥ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْانْسِ انهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) اى وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والانس، ففى هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهى بهم . وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم ، وقال تعالى : (٦. ١٢٨ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْانْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْانْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا ـ الى قوله تعالى ـ الَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ) وهذا صريح فى تكليفهم . فان هذا القول يقال للجن فى القيامة . فيذكر

الانس استمتاع بعضهم ببعض فى الدنيا . وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والانس من طاعتهم اياهم فى معصية الله ، وعبادتهم لهم دون الله ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فانهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم ويذبحون لهم وباسمائهم ويوالونهم من دون الله كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان (١) . فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض . ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة ـ وقد جمع العابدين والمعبودين ـ (٣٤ : ٤١ ، ٤٢ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين . وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده . وكثير منهم ملبوس عليه . فهو يعبد الشيطان ولا يشعر ، وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل فى شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال :

---

(١) فى كل زمان ومكان . بأنواع السحر ، واخبارهم بما يكون حصل من بعض الانس فى الماضى ليقول الناس : هذا ولى يعرف الغيب وبكلامهم باسماء الموتى يزعمون ان أرواحهم قد حضرت حين استحضروها والله يعلم وحده أين مقر الأرواح إما فى سجيل ، واما فى عليين وقد خدع أكثر الأغرار ممن حرموا هداية العلم والقرآن بتلك الأباطيل الشيطانية . إذ سموها لهم بأسماء جديدة . ووضعوا لها علوما وقواعد مستحدثة . وهى وربك ـ بعينها أنواع السحر ومخاطبة الجن فى الأزمنة الغابرة . ولكن أكثر الناس لايعقلون . ولو عقلوا لعلموا أن الروح من أمر الله ، وهى سر الربوبية فى الانسان لايعلم ـ ولن يعلم أحد كنهها ولا مادتها . فاولى أن لايعلم الآن مستقرها بعد مفارقتها للجسد . فاولى أن لايقدر على مكالمتها واستحضارها ولقد كان أولى بذلك رسل الله وأنبياؤه

حنانيك ان الجن كانت رجاءهم ، وأنت الهى ربنا ورجاؤنا ولهذا يقولون في القيامة :(رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا) قال الله تعالى :(النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) فهذا خطاب للصنفين وهو صريح في اشتراكهم في التكليف . كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب . وهو كثير في القرآن ●

ومما يدل على تكليفهم أيضا قوله تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي - الى قوله تعالى - كَافِرِينَ) فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر . دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب اليهم . وقال تعالى :(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا - الى قوله أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة ●

﴿ أحدها ﴾ أن الله سبحانه وتعالى صرفهم الى رسوله يستمعون القرءان ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره . وينتهوا عن نواهيه ●

﴿ الثاني ﴾ أنهم ولوا الى قومهم منذرين . والانذار هو الاعلام بالخوف . بعد انعقاد أسبابه . فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول ●

﴿ الثالث ﴾ أنهم أخبروا انهم سمعوا القرءان وعقلوه وفهموه ، وأنه يهدى إلى الحق وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى ، وبالكتاب المنزل عليه ، وأن القرءان مصدق له ، وأنه هاد الى صراط مستقيم . وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذى تقوم به الحجة ، وهم

قادرون على امتثال مافيه . والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة *

﴿ الرابع ﴾ أنهم قالوا لقومهم: (يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ) وهذا صريح فى انهم مكلفون مأمورون باجابة الرسول . وهى تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر *

﴿ الخامس ﴾ أنهم قالوا: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) والمغفرة لاتكون الا من ذنب . وهو مخالفة الأمر *

﴿ السادس ﴾ أنهم قالوا :(مِنْ ذُنُوبِكُمْ) والذنب مخالفة الأمر *

﴿ السابع ﴾ انهم قالوا : (وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعى الله لم يجره من العذاب الأليم . وهذا صريح فى تعلق الشريعة الاسلامية بهم *

﴿ الثامن ﴾ أنهم قالوا (وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ) وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعى الله منهم ، وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لاتستلزمه ولكن قوله تعالى : (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) الآية يدل

على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضا ، وعلى هذا فيكون اختصاص النبى ﷺ بالبعثة الى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة الى جميعهم لاالى بعضهم ، ومن قبله كان يبعث الى طائفة مخصوصة *

وأيضا فقد قال تعالى عن نبيه سليمان (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) وهذا محض التكليف . وقد تقدم قوله تعالى حكاية عنهم :(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ - الى قوله تعالى - لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرءان وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم . فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بعرة علف لدوابهم . ونهانا عن الاستنجاء بهما (١) . ولو لم يكن فى هذا إلا قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل ٭

ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الاسلام ما تضمنته سورة الرحمن . فانه سبحانه وتعالى ذكر خلق النوعين فى قوله تعالى :(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ) ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الايمان منهم وانكار تكذيبهم بالآية ، وترغيبهم فى وعده ، وتخويفهم من وعيده ، وتهديدهم بقوله تعالى : (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) وتخويفهم من عواقب ذنوبهم ، وأنه لعلمه

---

(١) رواه أحمد . ومسلم . وغيرهما عن ابن مسعود ، وقد تكرر حضور الجن واستماعهم النبي ﷺ . فسمعوه فى أول الوحى ، وسمعوه بنخلة مرجعه من الطائف وقد كذبه أهلها وناله منهم ما ناله ، وسمعوه وكلموه وسألوه غير ذلك . والله أعلم ٭

بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام ، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بالنواصي بنواصيهم . والاقدام ، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم . وهـــذا كله صريح فى أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون . وفى الترمذى من حديث محمد بن المنكدر عن جابر ابن عبدالله قال: « خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمٰنِ مِنْ أولها الى آخرها فسكتوا فقال : لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ وَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُوداً مِنْكُمْ . كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى آيَةَ (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قَالُوا : لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْــدُ » وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤونة الخطاب ، وعلمهم أنهم مقصودون به .

وقوله فى هذه السورة: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) وعيد للمصنفين المكلفين بالشرائع . قال قتادة : معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها . ومجيء الآخرة والجزاء فيها . والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء، والفراغ فى اللغة على وجهين : فراغ من الشغل . وفراغ بمعنى القصد . وهو فى هذا الموضع بالمعنى الثانى . وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء .

وقوله : (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا) فيها قولان ، أحدهما إن استطعتم أن تنفذوا ما فى السموات والأرض علما أى أن تعلموا ما فيهما فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان ، أى إلا ببينة من الله . وعلى هذا فالنفوذ هنا نفوذ علم الثقلين فى السموات والأرض .

الثانى : إن استطعتم أن تخرجوا عن قهرالله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم . فانكم تحت سلطانى وفى محل ملكى وقدرتى أين كنتم *

وقال الضحاك: معنى الآية إن استطعتم ان تهربوا عند الموت فاهربوا فانه مدرككم *

وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول فى الدنيا *

وفى الآية تقرير اخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق . فهرب الخلائق . فلا يجدون مهربا ولا منفذا . كما قال تعالى : (٤٠ : ٣٢، ٣٣ - وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) قال مجاهد: فارين غير معجزين ، وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندوا هربا . فلا يأتون قطرا من الأقطار الا وجدوا الملائكة صفوفا فيرجعون الى المكان الذى كانوا فيه . فذلك قوله تعالى: (٦٩: ١٧- وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) وقوله تعالى : (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا) وهذا القول أظهر والله أعلم *

فاذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم : ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا أى ان قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لايقدر على عذابكم فافعلوا . وكأن ماقبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول . فان قبلها (سَنَفْرُغُ) الآية وهذا فى الآخرة وبعدها (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

وهذا فى الآخرة *

وأيضا فان هذا خطاب لجميع الانس والجن . فانه أتى فيه بصيغة العموم . وهى قوله تعالى : (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْانْسِ) فلا بد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه . وهذا انما يكون اذا جمعهم الله فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر . وقال تعالى : (ان اسْتَطَعْتُمْ) ولم يقل : ان استطعتما ، لارادة الجماعة كما فى آية أخرى (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْانْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال تعالى : (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم لارادة الصنفين أى لايختص به صنف عن صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معا . وهذا وان كان مرادا بقوله تعالى : (ان اسْتَطَعْتُمْ) فخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسن الخطاب بالتثنية فى قوله تعالى : (عَلَيْكُمَا) امر آخر . وهو موافقة رؤس الآى فاتصلت التثنية بالتثنية . وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما . فلا يحتمل اللفظ ارادة احدهما ، والله اعلم *

قال ابن عباس : الشواظ اللهب الذى لادخان فيه والنحاس الدخان الذى لالهب فيه *

وقوله تعالى : (فَيَوْمَئِذٍ لَايُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ انْسٌ وَلَاجَانٌّ) فاضاف الذنوب الى الثقلين . وهذا دليل على انهما سواء فى التكليف . واختلف فى هذا السؤال المنفى . فقيل : هو وقت البعث والمصير الى الموقف . لايسألون حينئذ ويسألون بعد اطالة الوقوف واستشفاعهم الى الله أن يحاسبهم

ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل : المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار لاسؤال المحاسبة والمجازاة أي قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها وانما يحاسبهم عليها *

(فصل) فاذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب علم ان محسنهم في الجنة كما ان مسيئهم في النار وقد دل على ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمنهم: (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ) الاية، وبهذه الحجة احتج البخاري . ووجه الاحتجاج بها : أن البخس المنفي هو نقصان الثواب . والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل . فلا ينقص من ثواب حسناته ، ولا يزداد في سيئاته . ونظير هذا قوله تعالى :(٢٠ : ١١٢ - وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) أي لايخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته، وأيضا فقد قال تعالى في سورة الرحمن (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه *

أحدها : أن « من » من صيغ العموم . فتتناول كل خائف *

الثاني : أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه . فدل على استحقاقه به ، وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب هل هي من إضافة المصدر الى فاعله ، او إلى مفعوله ؟ على قولين . احدهما ان المعنى ولمن خاف مقامه بين يدي ربه . فعلى هذا هو من اضافة المصدر الى المفعول . والثاني ان المعنى ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه . فهو من باب اضافة

المصدر الى فاعله . وكذلك القولان فى قوله تعالى:(٧٩ : ٤٠ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) ونظيره قوله تعالى: (١٤:١٤ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) فهذه ثلاثة مواضع . وقد يقال : الراجح هو الاول . وان المعنى خاف مقامه بين يدى ربه لوجوه .

احدها : ان طريقة القرآن فى التخويف ان يخوفهم بالله وباليوم الآخـــر فاذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم . كقوله تعالى: (٣ : ١٧٥ - فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ) وقوله تعالى :(٩٨ : ٨ـ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) وقوله تعالى:(١٦ : ٥٠ـ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) وقوله تعالى (٦٧ : ١٢ - إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)ففى هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وانما مدحهم بخوفه وخشيته وقد يذكر الخوف متعلقا بعذابه كقوله تعالى(١٧ . ٥٧ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) واما خوف مقامه عليهم فهو وان كان كذلك فليس طريقة القرءان .

الثانى ان هذا نظير قوله تعالى: «٦ : ٥١ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ» لخوفهم ان يحشروا اليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه. والقرءان يفسر بعضه بعضا .

الثالث ان خوف مقام العبد بين يدى ربه فى الآخرة لايكون الا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت . وهذا هو الذى يستحق الجنتين المذكورتين . فانه لايؤمن بذلك حق الايمان إلا من آمن بالرسل وهو من الايمان بالغيب الذى جاءت به الرسل . وأما مقام الله على عبده فى الدنيا ، واطلاعه عليه ، وقدرته عليه . فهذا يقر به المؤمن والكافر

والبر والفاجر وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم فى الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه ، والمحسن باحسانه ، وأما مقام العبد بين يدى ربه فى الآخرة فلا يؤمن به الا المؤمن بالرسل ٭

(فان قيل): إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه فى الاخرة بالجزاء فقد استوى التقديران فمن أين رجحتم أحدهما ٭

(قيل): التخويف بمقام العبد بين يدى ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد . ولهذا خوفنا تعالى فى قوله (٨٣ : ٦ - يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ولأنه مقام مخصوص مضاف الى الله . وذلك فى يوم القيامة بخلاف مقام الله على العبد فانه كل وقت ٭

وأيضا فانه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به مقام الله ولا هذا من المألوف اطلاقه على الرب ٭

وأيضا فان المقام فى القرءان والسنة انما يطلق على المكان كقوله (١٧: ٧٩ - عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) وقوله تعالى (٢٦:٥٧ - ٥٨ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) ، وقوله تعالى (١٩ : ٧٣ - خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) ٭

والمقصود ان قوله تعالى :(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان ٭

(الثالث) قوله عقيب هذا الوعد(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) ٭

(الرابع) انه ذكر فى وصف نسائهم انهن لَمْ يَطْمِثْهُنَّ انس قبلهم ولا جان . وهذا والله اعلم معناه انه لم يطمث نساء الانس انس قبلهم ولا نساء الجن جن قبلهم ٭

ومما يدل على ان ثوابهم الجنة قوله تعالى: (١٨ ، ٣١ - انَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ انَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) وأمثال هذه من العمومات . وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم . كما ان كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد ودخول مؤمنهم في ءايات الوعد اولى من دخول كافرهم في ءايات الوعيد فان الوعد فضله والوعيد عدله وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه *

وايضا فان دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته امر الله فاذا اطاع الله ادخل الجنة *

وايضا فانه لادار للمكلفين سوى الجنة والنار . وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه *

وايضا فقد ثبت انهم اذا اجابوا داعى الله غفر لهم واجارهم من عذابه وكل من غفر له دخل الجنة ولابد وليس فائدة المغفرة الا الفوز بالجنة والنجاة من النار *

وايضا فانه قد ثبت أن الرسول مبعوث اليهم وانهم مكلفون باتباعه كان مطيعهم لله ورسوله مع الذين انعم الله عليهم لقوله تعالى (٤ : ٦٩ - وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) وقد اخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم انهم يستغفرون للذين ءامنوا وانهم يقولون (٤٠ ، ٧ ، ٨ - فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ

الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) فدل على ان كل مومن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة . وقد ثبت فى حق مومنهم الايمان ومغفرة الذنب ووقاية النار . كما تقدم ، فتعين دخولهم الجنة ، والله اعلم .

واذا ثبت تكليفهم بانقسامهم الى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك فهم فى الموازنة على نحو طبقات الانس المتقدمة الا أنهم ليس فيهم رسول . وأفضل درجاتهم درجة الصالحين . ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها . فقد دل القرءان على انقسامهم الى ثلاثة أقسام صالحين.ودونهم. وكفار . وزاد عليهم الانس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين . والله أعلم .

فهذا ماوصل اليه الاحصاء من طبقات المكلفين فى الدار الآخرة وهى ثمان عشرة طبقة . وكل طبقة منها لها أعلى وأدنى ووسط . وهم درجات عند الله ، والله تعالى يحشر الشكل مع شكله . والنظير مع نظيره ويقرن بينهما فى الدرجة . قال تعالى :(٣٧ : ٢٢ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) قال الامام أحمد وقبله عمر ابن الخطاب :«وأزواجهم أشباههم ونظراءهم » وقال تعالى :(٨١ : ٧ وإذا النفوس زوجت) روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب (١)

---

(١) وروى الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : « الضرباء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله ، وذلك بأن الله عز وجل يقول :(وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة

أنه سئل عن هذه الآية فقال : « يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة : ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار » وقال الحسن وقتاده : «ويلحق كل امرىء بشيعته : اليهودى باليهودى، والنصرانى بالنصرانى » وقال الربيع بن خثيم : « يحشر الرجل مع صاحب عمله » .

وفى الآية ثلاثة أقوال أخر . أحدها : أن تزويج النفوس اقترانها باجسادها وردها اليها .

(الثانى) تزويجها اقترانها بأعمالها .

(الثالث) أنه تزويج المؤمنين الحور العين ، وتزويج الكفار بالشياطين . والقول الأول أظهر الأقوال والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة والسابقون السابقون) قال : هم الضرباء » .

تم طبعه بحمد الله وحسن توفيقه يوم الخميس الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة والف من الهجرة النبوية على صاحبها الف صلاة وتحية .

فهرست

(كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين)

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحه